الألف كتاب

الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر

(١٠٤)

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (١٠٤)

الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر

تأليف
ج. و. پيدج

ترجمة
محمود محمد موسى
مدير التربية والتعليم بمنطقة
قنا

راجعه
زكى الرشيدى
مدير التربية والتعليم بمنطقة
القاهرة الجنوبية

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا - القاهرة

١٩٥٧

هذه ترجمة كتاب :
Primitive Races of to-day
by
J. W. PAGE
أشرف على ترجمته قسم الترجمة بإدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب موضوع لفائدة الطالب وفائدة القارئ العادى ، ولكنه لا يخلو كذلك من فائدة المدرسين لا سيما الذين يهتمون بدراسة أحوال الشعوب الأخرى ، وهى دراسة تدخل ضمن برامج الدراسة فى كثير من المدارس .

ويهدف الكتاب إلى تسهيل المعرفة الصحيحة بالأحوال الحالية للجماعات البدائية ، وهى معلومات لا وجود لها إلا فى ما كتبه الرواد والباحثون وسجلوه فى المجلات العلمية التى لا يسهل لكل إنسان الحصول عليها . وقد توخيت الابتعاد قدر المستطاع عن المصطلحات الفنية ، ومع أنى لم أذكر كل حقيقة المصدر الخاص الذى أخذت عنه إلا أنى حرصت على إيراد كشف بالمصادر التى رجعت إليها .

وليست الشعوب التى تناولها هذا الكتاب متساوية فى درجات ثقافتها ، ولكننا نستطيع بالطبع أن نقسمها إلى أنواع ثلاثة : الجامعين والرعاة والزارعين البدائيين ، وهم جميعاً يعيشون فى جماعات بسيطة ، مع أن لفظ « بدائى » لم يعد ينطبق على البعض منهم ، ثم إن البعض الآخر

لم يعد له الآن وجود ، وفى هذه الحالة الأخيرة يتناول بحثنا ما كان من طرق معيشتهم عندما اكتشفهم الأوروبيون أول مرة .

وقد اهتممنا بذكر نبذة جغرافية عن موطن كل شعب من الشعوب ، ودرسنا أثر هذا الموطن فى طرق حياته ، كما أوردنا فى كثير من الحالات ما اعترى حياة الشعب من تغيير نتيجة لاختلاطه بغيره من الأجناس — ولا سيما الجنس الأبيض — على أننا لم نتعرض إلا قليلا للعقائد الدينية ، لأن الخوض فى العقيدة أمر غير يسير ولأن الجدل فيها لا ينتهى إلى نتيجة .

ولا يفوتنى أن أنوه بما أدين به من الفضل لكثير من المؤلفين الذين تفضلوا بالسماح لى باقتطاف كثير مما ورد فى كتاباتهم ، كما أنى أدين لمن تكرموا وسمحوا لى باقتباس ما جاء بكتبهم من وسائل التوضيح ، فإنهم قد أضافوا بذلك كثيراً إلى ما قد يكون لهذا الكتاب من قيمة ، وقد حرصت على الاعتراف بالفضل لكل منهم قرين اسم المصدر الخاص به .

وأخيراً لا يفوتنى أن أقدم شكرى لكريمتى على ما قامت به من قراءة مسودات الكتاب وتصحيح أصوله عند الطبع ؟

القسم الأول

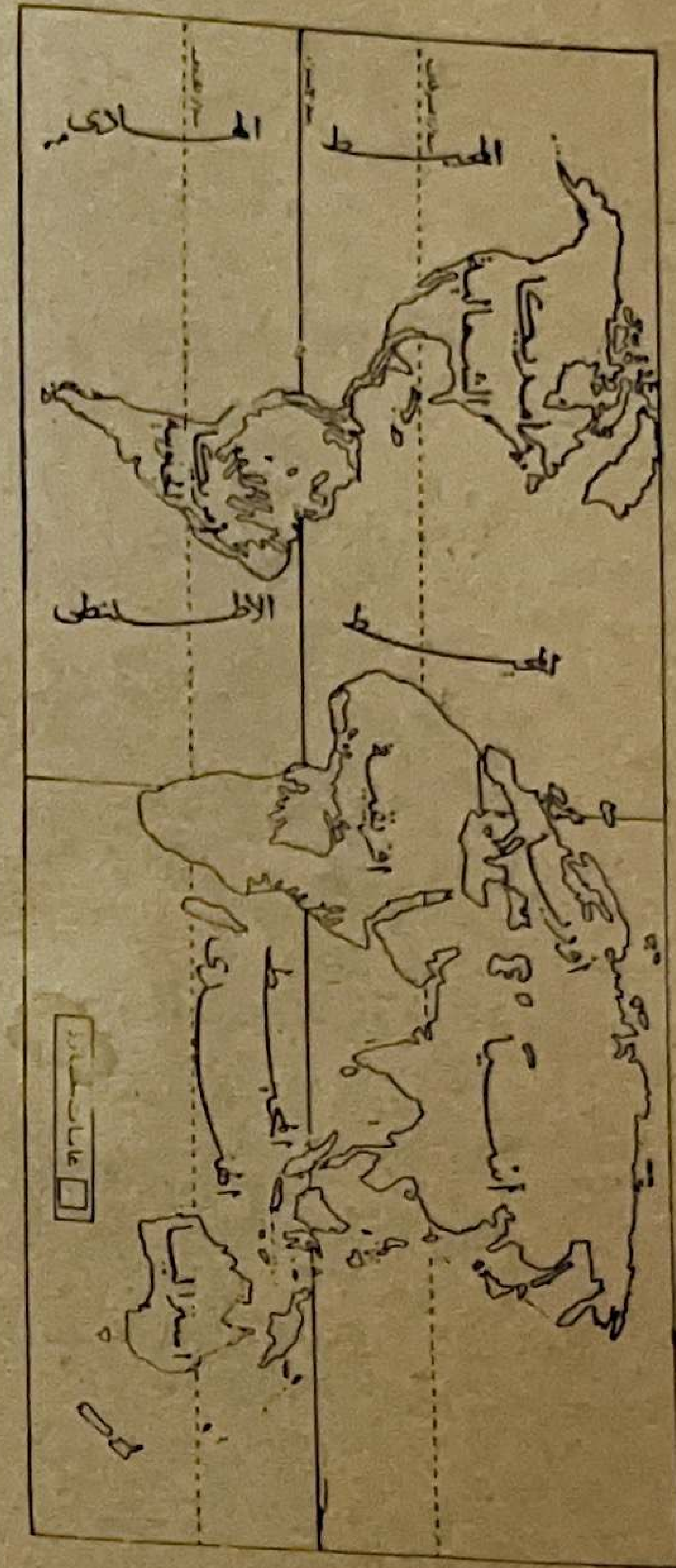
الصيادون والجماعون

الفصل الأول

الأقزام الإفريقيون

يقتصر وجود الشعوب البدائية اليوم على الجهات المنعزلة من العالم حيث يكون الحصول على الطعام أمراً شاقا لسبب أو لآخر ، ويعبر عن مثل هذه الجهات باسم « أقاليم الصعوبة » ، ومن أمثلتها منطقة الغابات الكثيفة . ذات النمو العظيم وتغطى السهول الاستوائية فى العالم مثل حوض الكنغو فى إفريقية وشبه جزيرة الملايو وأرخبيل الملايو فى آسيا ، وحوض الأمزون فى أمريكا الجنوبية .

ومن مميزات السهول الاستوائية اشتداد الحرارة وغزارة الأمطار مما يجعل تلك الجهات ذات قوة هائلة تساعد على اشتداد سرعة النمو فى جميع



« موقع الغابات الإستوائية »

أنواع النباتات ، فتنمو أشجار ضخمة يختلف قطرها من قدم إلى خمسة أقدام وطولها نحو مائتى قدم يلاصق بعضها بعضا ، بينما تبدو كل واحدة منها كأنما قد شدت إلى جاراتها بمتسلقات هائلة تمد سيقانها الضخمة التى تشبه الحبال الغليظة فتصل بها بين كل شجرة وما يليها . أما النباتات التحتية المنتشرة بين الأشجار فتبلغ كثافتها حدا عظيما حتى ليخيل إلى الإنسان أن السير فوق قمم الأشجار أهون عليه من شق طريقه وسط ذلك النمو المتشابك . وفى الشعاب بين الأغصان تنمو أنواع من الطفيليات مثل الأوركديا وغيرها يتراكم بعضها فوق بعض .

ولا يستطيع السائر خلال الغابة أن يلحظ جمالها ، فإن ذلك الجمال لا يكتشف عن نفسه إلا على أطراف الغابة أو على شواطىء الأنهار التى تنساب خلالها والهواء فى الغابة خانق والأبخرة تتصاعد فى سحب زرق لا تلبث أن تذوب عند ظهور الشمس ، ومع ذلك لا يكاد ضوء الشمس ينفذ خلال الغطاء النباتى الكثيف . وأروع ما يكون السكون فى الغابة فى الصباح حيث لا يكاد يُسمع سوى قرقعة الفروع الجافة تتكسر تحت أقدام السائر . وفى الغابات بعض الممرات الطبيعية المكشوفة تسير فيها مجار مائية بطيئة الجريان ، و إلى هذه المجارى تقصد حيوانات الغابة لترتوى مخترقة فى سيرها أنفاقا من الخضرة مظلمة ، سقوفها الأشجار المتشابكة ،

وتعمل الرطوبة والحرارة المرتفعة والحشرات الفتاكة العديدة على جعل هذه الأقاليم غير صالحة لأقامة الأوروبيين .

وتعيش فى هذه الجهات شعوب من الأقزام ، فالذين يعيشون منهم فى الغابات الإفريقية يطلق عليهم فى العادة اسم نجرلو **Negrillos** بينما يعرف نظراؤهم فى جنوب آسيا الشرقى (الأندمان فى جزر أندمان ، والسيمانج فى شبه جزيرة الملايو والأييتا **Aeta** فى جزر الفلبين والتابيرو **Tapiro** فى غانة الجديدة) باسم النجرتو **Negritos** ، وهم جميعا أقزام ؛ أما الذين يعيشون فى غابات الأمزون فقبائل من هنود أمريكا قصار القامة ، ولكنهم غير أقزام .

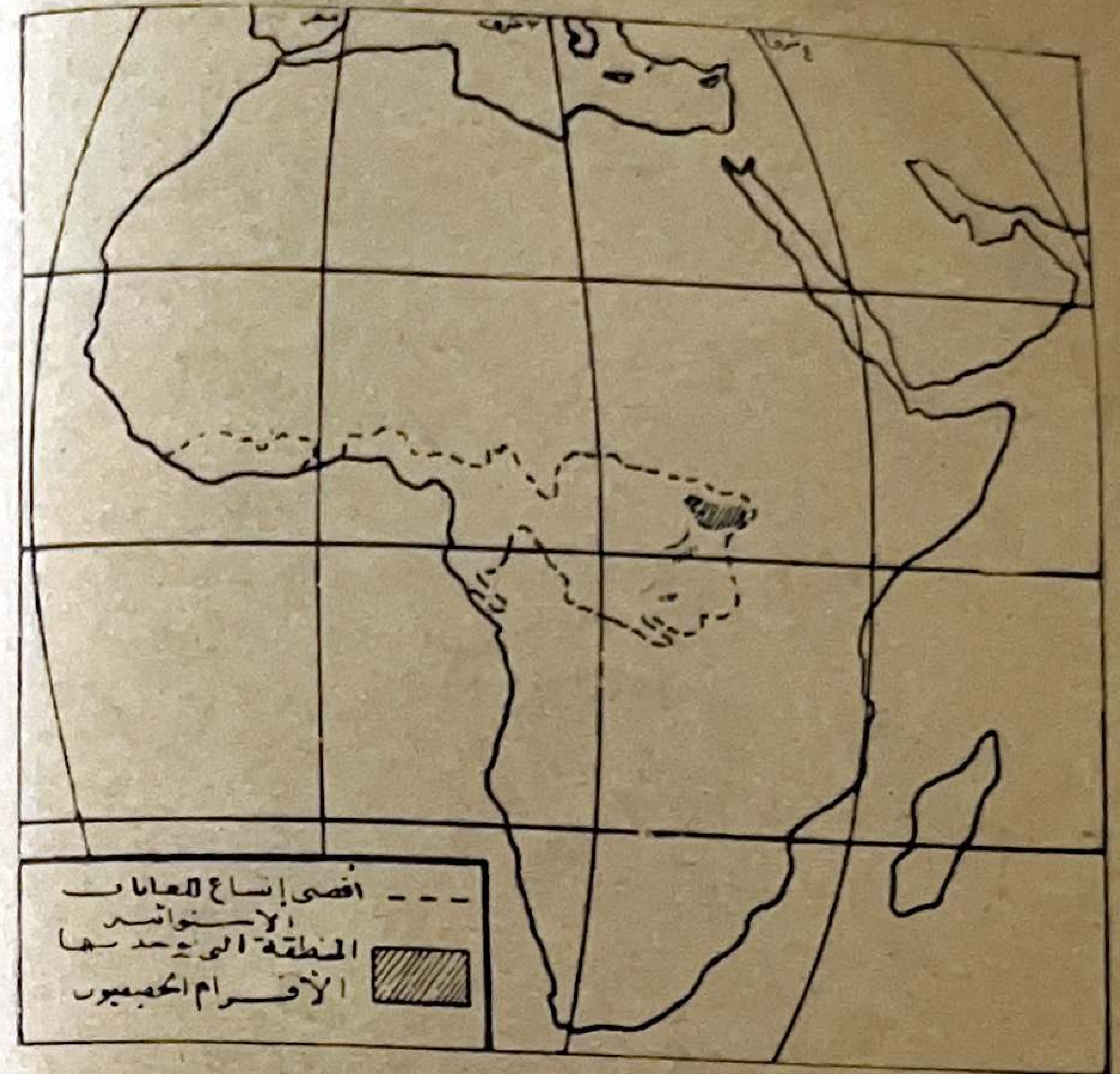
وفى مصر القديمة كانت الرغبة فى الأقزام كبيرة فى بلاط الفراعنة ، فكانت البعوث ترسل خصيصا لتأتى بهم من الأقطار الجنوبية . وقد ورد فى ما كتبه المؤلفون القدماء مثل هوميروس وارسطو وبليني **Pliny** ذكر قبائل من الناس قصار القامة فى أنحاء مختلفة من العالم ، ونسج الخيال حولهم كثيرا من الأساطير ، ومع ذلك بقى كثير من الناس بعد ذلك قرونا عديدة وهم لا يصدقون وجود مثل أولئك الأقوام ، ولا شك أن ذلك راجع إلى أنهم لم يعثر عليهم فى الجهات التى قال الكتاب القدماء بوجودهم فيها .

ويعيش حول مواطن هؤلاء الأقزام فى كل مكان تقريبا أقوام أعلى

منهم ثقافة وأقوى بنية ، ظلوا دهورا طويلة يتوغلون فى الغابة باستمرار على حساب الأقزام فيقطعون أشجارها و يستقرون فيها و يزاولون نوعا من الزراعة البدائية .

وعندما كان الرحالة المشهور ستانلى يجوس خلال أفريقية كانت الغابات الاستوائية أكثر اتساعاً مما هى الآن وكان الاقزام يعيشون فى قلب تلك الغابات بعيدين عن كل مؤثر خارجى ؛ أما اليوم فكثيراً ما يوجدون ضار بين قرب أطراف الغابات يتصلون أحياناً بجيرانهم الزنوج ذوى القامة الطويلة الذين يعيشون على الزراعة والذين يحصل منهم الأقزام بالمقايضة على حاصلات الحقول وعلى السهام ذات النصال الحديدية . وقد أخذ هؤلاء بعض العادات عن جيرانهم الزنوج ، كما أقتبسوا كذلك لغتهم فى بعض الجهات .

ويقتصر وجود الأقزام اليوم عموماً على حوض الكنغو ، ولكنهم يمتدون من ناحية الشرق إلى حدود أوجندا فى غابات إيتورى **Eturi** ومن ناحية الشمال الشرقى إلى جوار بحر الغزال ، ومن ناحية الغرب إلى الكنغو الفرنسية والكمرون وحدود أنجولا . وأنقى هؤلاء الأقزام دماً فى وقتنا الحاضر هم الذين يقطنون غابات إيتورى **Eturi** . وقد أعترى الأقزام فى جميع الجهات بعض التغير نتيجة لتزاوجهم مع غيرهم من القبائل ،



(شكل ٢) أين يوجد الأقزام الحقيقيون

فقبائل الباتشوا **Bachwa** فى الأقاليم الاستوائية والباتوا **Batwa** فى رواندا لم تعد بحال من الأحوال خالصة العنصر ، وقد اضطرت قبائل الباتوا **Batwa** التى تقطن الآن المرتفعات المعشبة التى تعلو ستة آلاف قدم عن مستوى البحر ، إلى ترك موطنها فى الغابات عند ما بدأت قبائل الباكوتو الزنجية تجتث أشجارها وتستقر فيها .

ويختلف طول القزم الذى اكتمل نموه من ٤ أقدام و ٤ بوصات إلى ٤ أقدام و ٩ بوصات ولون جلده بنى لامع ساقاه الرفيعتان وذراعاه الطويلتان وصدره تغطيها جميعا طبقة كثيفة من شعر يميل إلى الصفرة ، بينما توجد طبقة من الشعر المتلبد المجمد ذى اللون الصدىء القاتم فوق رأس كبير نسبيا ومستدير وذى شكل غريب ؛ أما الأنف فعريض مفاطح عند إبتدائه فلطحة غير عادية وشفتاه رقيقتان والعليا منهما طويلة ، وعيناه جاحظتان . ولون الأقزام الذين يعيشون على أطراف الغابات فى الغالب أكثر قتامة وقد يرجع هذا إلى أن دماءهم خالطها الدم الزنجى أو لأنهم أكثر تعرضا لأشعة الشمس .

وبعض الأقزام يزيدون أشكالهم قبحا بوسائل شتى اقتبسوا بعضها ولا ريب من جيرانهم الزنوج ، فمن عاداتهم الشائعة أنهم يبردون الأسنان حتى تصير مدببة ، وبعضهم يخرق أنفه ويضع خلاله ريشة ، وكثير من النساء يخرقن شفاههن ليلبسن فيها حلقاً أو قطعاً من الحديد .

وكان الأقزام قديماً يجوبون أنحاء الغابة عرايا ، أما الآن فإنهم يأتزرون بآزار مصنوع من لحاء الشجر المدبوغ يعلق إلى خصورهم بحزام مصنوع من جلد الأوكابى **Okapi** وهو حيوان من فصيلة الزراف موطنه الأصلى حوض السمليكى . وتزين النساء مآزرهن ببقع وخطوط حمراء وسوداء ،

ويلبس الرجال أحياناً طاقية من الجلد أو من سيقان العشب المجدول . ويلبس رجال الباتوا جلابيب من القماش تتدلى من أكتافهم ، وتتدثر نساؤهم بالجلود . وكان رجال الباتشوا فيما مضى يلبسون إزارا مجدولا من الياف الشجر لكنهم الآن قد استبدلوا به إزاراً من نسيج القطن ، أما نساؤهم فيسرن عرايا تقريبا حيث أن ما يسترن به خصورهن من الخيوط المدلاة لا يزيد عرضه على أربع بوصات . ويحتفظ كل قزم تقريبا بحقيبة من الجلد يحملها فوق كتفه أينما سار يحفظ فيها ممتلكاته الشخصية؛ ويصفف النساء شعورهن تصفيفا غريبا ويزين أنفسهن بمخلوط أسود يستعملن فى وضعه عصا صغيرة ، فإذا أرادت إحداهن أن تزيد فى جاذبيتها استعملت مع ذلك المخلوط الأسود مواد أخرى حمراء وأحيانا بيضاء ، وليس التزين مقصوراً على النساء بل قد يلجأ اليه أيضا الأولاد والشبان .

ويندر أن تزين امرأة شعرها بالزهور ولكنهن يزهين بإستعمال جدائل من أوزاق الأشجار فى تزين أجسامهن ، الواقع أنهن كثيراً ما يغطين أجسادهن بالخضرة فى عودتهن إلى المنزل من رحلاتهن خلال الغابة

وليس القزم بالرجل الغبى أو المكتئب ولكنه سريع الانفعال وعرضة للغضب أو الحزن الفجائى ، وهو مغرم بالموسيقى محب للأخذ بالثأر سىء الظن بطبعه ولكنه لا يسرق أبداً .

ويعيش الأقزام على الصيد وجمع الثمار البرية ويقومون بأى نوع من أنواع الزراعة ولا يربون شيئاً من الماشية ، على أن الباتشوا قد قاموا بمحاولات ضئيلة فى زراعة الموز والفول السودانى والمانيوق . وكان طعامهم فيما مضى يتكون من اللحوم والعسل والجذور والأوراق والفول السودانى والفواكه ، ولذلك كان لزاما على القزم أن يشحذ قريحته للتغلب على قرائح الحيوان ، وكان عليه أن يرقب جيدا عادات الحيوان وأن يعرف الصالح للطعام من بين أنواع الثمار والأوراق والجذور وما إلى ذلك ، وبمعنى آخر كان عليه أن يكون ملما إلماما عمليا بدراسة الطبيعة التى حوله . وكان غذاؤه قليلا حتى ليصعب أن نفهم كيف استطاع فى سالف الأيام أن يقيم على مثل ذلك الغذاء ، فلم يكن لديه ألبان ولا أى نوع من أنواع الأطعمة الخفيفة الصالحة لتغذية صغار الأطفال ، أما فى الوقت الحاضر فإن الأقزام يجدون حاجتهم من الطعام ذى القيمة الغذائيـــة فى الموز ونخيل الزيت وقصب السكر والمانيوق وغيرها مما يحصلون عليه من الزنوج ويغرى الأقزام بالموز إلى حد أنهم قد يبيعون حريتهم فى سبيل الحصول عليه وفى بعض الأحيان يأخذون ما شاءوا من موز الزنوج ويتركون بدله قدرا كافيا من اللحوم ، وهذا النوع من المقايضة الذى لا نستعمل فيه الكلمات يسمى المتاجرة الصامتة .

ويزداد اعتماد الأقزام على الزنوج بإطراد حتى أننا كثيرا ما نرى اليوم جماعة من الأقزام قد استقرت فى قرية من قرى الزنوج واتخذ كل فريق منهم حاميا لهم من الزنوج ؛ وهذا النوع من الحماية يرثه الزنجى عن أبيه ويورثه ابنه من بعده ، ويستمد الأقزام من حاميهم أقواتا مما تنتج الأرض فى مقابل نصيب من لحم الصيد وحاصلات الغابة والخدمات الشخصية إذا لزم الأمر ، وكذلك يشترى الأقزام من الزنوج السهام ذات النصال الحديدية والحراب .

ومع أن الأقزام فى الوقت الحاضر يقيمون أكواخهم على مقربة من الزنوج إلا أنهم لا يزالون يعيشون عيشة الترحال ، ويندر أن يمكثوا فى مكان واحد أكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة يرحلون بعدها إستجابة لأقل خاطر طارئ ، أو على أثر وفاة أى فرد من أفراد الجماعة ، ومع ذلك فإن تجولهم مقصور على مساحة محدودة ؛ ولكل أسرة أو فريق من أسرة فى كل مكان من الإقليم نفس الحقوق التى لأى فريق آخر ؛ فلا يستطيع أى فرد أن يدعى ملكية جزء من الأرض لأنها ملك للجميع .

ولما كان من الصعب أن يحصل الفرد على كل حاجات دون أن يساعده غيره فإن الأساس الذى تقوم عليه حياتهم البدائية اجتماعيا واقتصاديا يتألف من الجماعات الصغيرة التى تنتمى لأسرة واحدة ، ومن

الطبيعى أن يكون الأب هو رئيس الأسرة وأن يكون لأكبر أفرادها سنا سلطة على من دونه من الأفراد ، فليس للأسرة زعيم واحد معترف به .

ويسكن الأقزام أكواخا واطئة مقببة يقيمونها فى مكان من الغابة بعد أن يقطعوا منه الأشجار . وتقام الأكواخ فى مجموعات مرتبة ، ويقع على عاتق النساء عبء إقامتها وجمع ما يلزم لذلك من أغصان الأشجار ومن الأوراق العريضة الكبيرة الشبيهة بأوراق الموز . وطريقة إقامتها أن يؤتى بعدد من الأغصان اللينة فيثبت الطرف الأغلظ من فرع منها فى الأرض ويثبت فرع آخر مثله فى مكان مقابل له ، ثم يقابل بين الطرفين الرفيعين ويربط أحدهما إلى الآخر حتى يتكون منها قوس . وعلى بعد بوصات قليلة منها يثبت بنفس الطريقة فرعان آخران أطول قليلا من الأولين ، وبهذا تتم إقامة مدخل الكوخ . ثم يؤتى بفرع آخر أطول قليلا من الأفرع السابقة ويغرس فى الأرض على بعد قليل إلى الخلف منها ويثبت طرفه الأعلى فى وسط القوس الذى يكوّن مدخل الكوخ فيصبح هو العمود الفقرى الذى يرتكز عليه سقف الكوخ وبعد ذلك يؤتى بعديد من الفروع تغرس فى الأرض بحيث يكون كل اثنين متقابلين منها متساويين ، وبحيث يقل طول كل إثنين منها كلما إبتعدا عن المدخل ، وتغرس أطرافها الغليظة فى الأرض بحيث يتكون



(شكل ٣) أقزام الكنغو وأكواخهم

من مجموعها شكل دائرى تقريبا . أما الأطراف العليا فتربط فى العمود الفقرى . وفى بعض الأحيان تضاف إلى البناء بقصد تقويته إلى فروع أخرى تربط إليه أفقيا ، و بعد ذلك تبدأ عملية التسقيف فتوضع الأوراق واحدة فوق أخرى بالطريقة التى توضع بها ألواح الأردواز فوق السقوف فى بعض البلدان ، أى أن كل ورقة يكون طرفها العلوى تحت طرف التى قبلها وطرفها السفلى فوق طرف التى بعدها ، وتثبت الأوراق جميعها إلى هيكل البناء بطريقة عبقرية حقا .

ولا يتخذ الأقزام لأكواخهم أبوابا بل يسدونها أثناء الليل بالفروع والأغصان لتمنع دخول الحيوان ولتحمى الكوخ من العواصف والأمطار . ولا يزيد إرتفاع الكوخ على ثلاثة أقدام ، ولذلك كان لزاما على القزم أن يدخل مسكنه زاحفاً فإذا دخله لم يستطع أن ينصب قامته فى داخله أبدا .

ومن عادة الأقزام أن يفردوا كوخا لكل فرد بالغ من الذكور والأناث ، على أن الزوج والزوجة قد يشتركان فى كوخ واحد ، و إذا كان للزوجين أولاد كثيرون ، فالعادة المتبعة أن يزاد فى أحد أركان الكوخ مكان يخصص لنوم الأطفال ، و يبدو هذا الركن الجديد كأنه سنام منبعج .

وبعض أقزام الباتشوا ، عندما يستقر بهم المقام فى القوى ، يشيدون أكواخهم على نمط أكواخ الزنوج ، ولكنها لا تقاربها فى السعة ولا فى إتقان البناء ، وكثيرا ما يشيدون أكواخا غير مقببة بل تنحدر سقوفها وتكون مع الحيطان زوايا ، وتشاد الحوائط فيها من طبقات من من جريد نخيل جوز الهند ترتفع من الأرض حتى تلاقى السقف وتكون حاجزا يمنع تسرب الأمطار !

ولا يحوى كوخ القزم غير قليل من الأثاث ، فالفراش يتكون عادة من ثلاثة ألواح وأحيانا من لوحين فقط يوضعان على الأرض جنباً إلى جنب وقد يرفع أحد طرفيهما إلى أعلى قليلا بوضع كتلة من الخشب تحته ، وهذا كل ما هنالك من فراش فهم لا يعرفون الحشايا ولا الأغطية ولا الوسائد .

ويرقد القزم على الألواح الصلبة مثنى الركبتين ذراعه تحت رأسه يستعيض بها عن الوسادة . فإذا أضيف إلى الألواح الخشبية قدر أو قدران وسلة وفى بعض الأحيان هاون خشبى بدائى الصنع كان ذلك كل ما بالكوخ من أثاث ، وقد يكون هناك سكين ترشق فى سقف الكوخ يضاف إليها قوس وسهام ، فإذا كان الكوخ لأعزب لم تزد محتوياته على الألواح والقوس والسهام .

ويحتفظ القزم دائما بشعلة موقدة لأن بعضهم لا يعرفون كيف يوقدون النار ، على أن بعضهم يولدونها بطريقة الاحتكاك فيأتون بقطعة من الخشب يحفرون فيها بضعة ثقوب ثم يجلس مولّد النار ويمسك بقدميه طرف كتلة الخشب إمساكا قويا ويأخذ عصا من الخشب يبلغ طولها نحو قدم ويضع أحد طرفيها فى أحد الثقوب بعد أن يضع فيه أوراقاً يابسة ثم يدير العصا بين يديه جيئة وذهاباً بسرعة فائقة فلا تلبث أن يتصاعد منها الدخان ، وعندئذ يضاف مقدار آخر من الأوراق اليابسة وينفخ فيها حتى تشتعل .

وعلى الرجال أن يقوموا بمهمة القنص وجمع العسل ، ومن خصائص الأقزام إلمامهم التام بكل شىء عن حيوان الغابة كبيراً كان أو صغيراً ، ولهم قدرة على اقتفاء آثاره كما أن لهم قدرة غريبة على السير فى الغابة دون أن يحدثوا أقل صوت ، وهم إذ ذاك يتخاطبون بالإشارة ويسيرون صامتين متنبهين لأقل صوت ، فإذا سمعوا صوت غصن يتكسر وقفوا فجأة لا يأتون بأى حركة فهم يعرفون أن هذا الصوت دليل على أن الحيوان أيضاً آخذ حذره . وإذا خرجوا للصيد خرجوا بعد الإفطار مباشرة مسلحين بأقواسهم وسهامهم ومعهم كلابهم يُلبسونها أطواقاً من الخشب تشد إليها سيور يربطها الصيادون إلى أرساغهم .

ويستعمل البامبوتى أقواساً صغيرة يندر أن يزيد طول إحداها على ثمانية عشر أو عشرين بوصة ، وتؤخذ سهامهم التى يحملونها فى كنانات مصنوعة من رفيع الأغصان من نوع من الأشجار ذات الخشب المتين . يثنون أحد طرفيها ويثبتون فى الطرف الآخر قطعة بيضوية من ورقة غليظة من ورق الأشجار تقوم مقام الريشة . أما أقواس الباتوا فعلى العكس طويلة جداً إذ يبلغ طولها طول حاملها ، وهم يتخذونها من فلقة من قصب الغاب يلصقون على طول تجويفها فلقات من الخشب ليزيدوا فى متانتها ، ثم يلفون حولها طبقة فوق طبقة من خيوط مجدولة من ألياف بعض الأشجار تمتد بطول القوس من طرف إلى طرف . وسهامهم كذلك طويلة ومريشة كبعض سهام جيرانهم الزنوج .

أما أقواس الباتشوا فمستديرة يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام وتتناقص فى الغلظ نحو كل من طرفيها وتصنع أوتارها من خيوط مثناة تثبت فى طرفيها ويثبت الريش عادة فى السهام بطريقة طولية وتغمس أطرافها فى مادة سامة يستخرجونها من عصير بعض الأشجار ويعرضونها لحرارة النار حتى تصبح من الكثافة بحيث تلتصق بطرف السهم ثم يضعونها بعد ذلك فى الشمس حتى تجف تماماً وحينئذ يأخذونها ويلفونها بأوراق الأشجار تلافياً لما قد ينجم عن إمساكها من خطر . وهم يستطيعون فى الوقت الحاضر

أن يبتاعوا من الحدادين الزنوج نصالا حديدية لسهامهم ، ولكنهم فى العادة يشترونها جاهزة الصنع كاملة الريش .

ويقال أن الأقزام يستطيعون أن يقتلوا الفيل بهذه السهام ولكن هذا القول مشكوك فيه كثيراً ، إذ الذى يحدث فعلا هو أنهم يثخنونه بالجراح « ثم يقترب أحد الأقزام فى حذر ويصوب حربته إلى مفصل إحدى ركبتى الفيل الخلفتين ثم يفر سريعاً إلى الأحراش يحتمى بها ، وعند ما يصاب الفيل فى ركبته الإصابة المؤلمة يجن جنونه ويصرخ صرخة مدوية ويهجم فى أثر صائده فيعاجله صياد آخر بحربة يصوبها إلى الركبة الخلفية الثانية فينهار الفيل وهنا يقترب منه الأقزام فى حذر ويقطعون خرطومه ويتركونه يدمى حتى يموت » (١) .

ويستعمل بعض الأقزام فى صيد الفيل حراباً خاصة تشبه المزراق بعض الشبه يثبت فيها طرف يشبه سنارة صيد السمك تثبيتاً خفيفاً ، فإذا أصيب الحيوان إنفصل العود وبقى الطرف نافذاً فى جلده فيحاول الحيوان أن يتململ فيتعثر فى الأعشاب الغليظة التى تملأ ما بين الأشجار ، وعلى أثر ذلك يجن الحيوان ويزداد تخبطه ثم لا يلبث أن تهمد حركته فيقترب منه الزنوج ويقضون عليه . وفى بعض الأحيان يستعملون شباكا مستطيلة

(١) « بين أقزام الكنغو » تأليف پول شبستا :

يبلغ طولها نحو ثلاثين قدماً وعرضها نحو ثلاثة أقدام يجدلونها من جذور الأشجار وأغصانها وقد يصلون الشباك بعضها إلى بعض حتى تصل إلى بضع مئات من الأقدام ، وبعد ذلك يربطون أطرافها العليا والسفلى بأغصان الأشجار وفروعها ثم يقوم النساء والأطفال بدق الطبول من مسافة بعيدة ويقتربون أثناء ذلك من الشباك فتساق الحيوانات تدريجياً نحوها وتقع فيها فيتقدم الصائد الذى يكون مختفياً قربها فيجهز على الحيوان الكبير بالحراب أو بالعصى الغليظة ويخلى سبيل الصغير منها .

ومن عادات الأقزام أنهم إذا حالفهم الحظ فى الصيد عادوا إلى منازلهم فرحين مهللين ، أما إذا لم يكن الحظ حليفهم فإنهم يتسللون ساكتين واجمين . وكل صيد يصيدونه يعتبر ملكا للأسرة بأكملها ويقوم أكبرهم سناً بتقسيمه حسب أصول قواعد معقدة ، فمنها مثلا أن يعطى القلب والكبد عادة للرجل الذى أصاب الحيوان وذلك بعد أن يقذفوا إلى الغابة قطعة صغيرة من القلب على سبيل القربان لآلهتهم .

وإذا لم يجد الرجال حيواناً يقتفون أثره فى الغابة ليقتنصوه بحثوا وراء العسل الذى يغرمون به ويبذلون كل جهد للحصول عليه ولذلك أصبحت لهم مهارة فائقة فى تسلق الأشجار ، ومهما علت خلايا النحل البرى فى ذرى الأشجار فإنهم يصلون إليها فى لمح البصر .

ومن واجب النساء جمع الأحطاب وجلب الماء — وهن يحملنه على أكتافهن فى جرار — كما أن عليهن جمع الخضروات وتجهيز الطعام والذهاب أحياناً إلى قرى الزنوج للمقايضة بالموز وجذور المانيوق وثمار نخيل الزيت وغيرها ، وعليهن رعاية الأطفال علاوة على قيامهن ببناء الكوخ كلما لزم ذلك . وتروح النساء إلى العمل يصحبهن دائماً أطفالهن بينما يحملن الرّضع فى مناطق تستقر فوق خصورهن أو تتدلى من أكتافهن .

ويتناول الأقزام طعامهم مرتين كل يوم فى الصباح وفى المساء ، وعندما توقد النار يضع النساء عليها الثريد للصغار أو الخضر للكبار . ومن المتبع أن كل أسرة تجلس القرفصاء أمام كوخها وتفرش أوراق الشجر العريضة فوق الأرض متخذين من هذه مائدتهم ومن أوراق الشجر غطاء لها . وتغرف النساء الطعام بمغارف من الخشب ويتخذن من العصى الجافة شوكات . وقد يتكون الطعام من الموز المسلوق والخضر المطبوخة واللحم المشوى يضاف إليها غالباً مرق من زيت النخيل ليعطيه مذاقاً شهياً ، فإذا انتهى أحدهم من طعامه لم يغسل يديه بل يمسحهما بورق الشجر أو بجلده . والواقع أن القزم لا يغسل يديه أبداً حتى ولا فى الصباح عند قيامه من النوم ، وكل ما يفعله عندئذ أن يفرك عينيه .

ويتعلم أطفال الأقزام فى ألعابهم ما يلزمهم فى الحياة ، فمنذ سن الرابعة يبدأ الطفل باللعب بأسلحة تشبه ما يستعمله أبوه فهو يلعب بأقواس يصنعها بنفسه أخف وأقصر من أقواس أبيه كما يصنع لنفسه سهاماً من خوص النخيل ، على أنه قد يستعمل لصيد الطيور سهاماً رفيعة من الخشب . ويغرم الصبيان بالمصارعة ، بينما تمثل البنات دور الأمهات مع أطفال حقيقيين يتخذنهم بدل الدمى .

وللأقزام غرام شديد بالرقص ويشترك فيه الصغار والكبار على السواء ؛ وحتى الأمهات يشتركن فيه لا يمنعهن أنهن يحملن الأطفال مشدودين إلى خصورهن ، فإذا نام الطفل أثناء الرقص ناولته الأم لإحدى المتفرجات حتى تتفرغ هى للرقص بحرية تامة . وقد يستمر الرقص طول النهار تتخلله فترات راحة قصيرة كلما أحس الطبّال بالتعب . ويلبس بعض الأقزام للرقص ملابس خاصة يصنعونها من جلود القطط البرية ، ويقوم الرقص على نغم المزمار ودق الطبول والنفخ فى صفارات زجاجية غريبة الشكل .

وإذا أراد أحدهم الزواج اختار عروسه من فرع من فروع أسرته غير الفرع الذى ينتمى إليه ، وقد يختارها من قبيلة غير قبيلته ، وفى هذه الحال لا يسمح له بزواجها إلا إذا كانت أسرته تستطيع أن تقدم بدلها عروسا

لرجل من رجال الفريق الآخر ، ويسمى هذا بنظام « الرأس بالرأس » . وهو أمر طبيعى إذ تدعو ضرورة الحياة عندهم إلى إبدال امرأة بامرأة لأن النساء عليهن المعتمد فى جمع الخضر التى يتكون منها معظم طعامهم . ولا يعنى هذا النظام أن هناك مقايضة لامرأة بامرأة ،لأن المرأة من جانبها لها كامل الحرية فى اختيار زوجها ، لكن الأخ يلجأ دائماً إلى أخته يغريها بقبول الزواج من رجل من الفريق الذى يريد هو أن يتزوج منه . والقاعدة العامة بين الأقزام عدم تعدد الأزواج .

ويعتقد الأقزام فى التعاويذ ، وهم يتخذونها من قطع من الخشب يعلقونها حول رسغ الطفل وعقبه لتجلب له السعادة ، ويتناول الصيادون أيضا ما يشبه ذلك ، فيلبسون خيوطاً وقطعاً من الخشب وخواتم من جلد الثعبان . وليس لهذه التعاويذ والتمائم أية علاقة بعقائدهم الدينية ، إذ هى لا تعدو أن تكون قد نشأت من اعتقادهم بالسحر ، وهى خرافات أخذوها عن جيرانهم الزنوج .

ويدفن الأقزام موتاهم فى الأرض ولا يقدسونهم كما يفعل الزنوج .

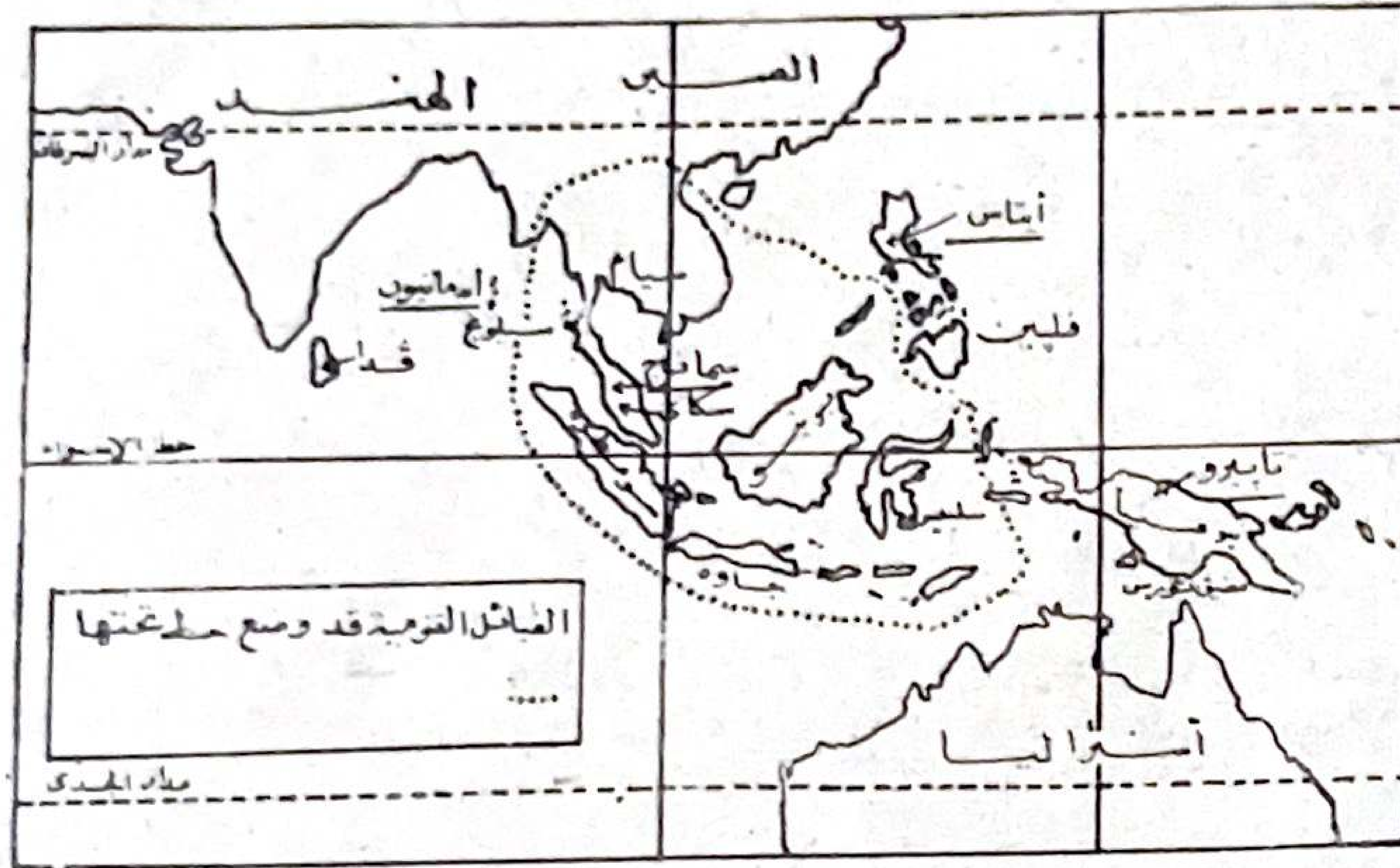
الفصل الثانى

الأقزام الأسيويون

أقزام جنوب آسيا الشرقى ـ أو النجرتو الأسيويون ـ وهم الأندمانيون والسمانج والأييتا Aeta والأيومى Alome والتابيرو Tapiro يشبهون النجرلو سكان إفريقية الاستوائية من حيث مميزاتهم الجسمية ولكنهم فى الغالب أطول منهم قليلا ، ولون جلودهم وشعورهم أميل إلى السواد من لون الأقزام الإفريقيين . وهم يعيشون فى بيئات تشبه تلك التى يعيش فيها الأقزام الإفريقيون تماما غير أنهم لا يتصلون بغيرهم من الجماعات كما يتصل بعض أقزام إفريقية .

ومتوسط القامة بين الأقزام الأندمانيين (سكان جزر أندمان) يبلغ أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف بوصة ، ولون جلودهم يختلف من النحاسى الداكن إلى الأسود الفاحم ، وشعرهم المفلفل قصير أسود مشرب أحياناً بحمرة خفيفة ، وتكاد أجسامهم تخلو من الشعر خلواً تاماً . ويبلغ طول أقزام السمانج فى شبه جزيرة الملايو خمسة أقدام ولون بشرتهم قاتم

يختلف بين الأسمر الغامق (لون الشوكولاته) أو الأسود وشعرهم أسود وقصير ومتلبد ، وهو قليل جداً على وجوههم وأجسامهم .



(شكل ٤)

أين يعيش بعض الصيادين البدائيين فى جنوب شرق آسيا

ويصل طول أقزام الأييتا Ayeta فى جزر الفلبين إلى نحو أربعة أقدام وعشر بوصات وجلودهم سوداء قاتمة وشعرهم قصير متلبد يختلف لونه من القاتم إلى الفاحم وهو غزير على الوجه وعلى الجسم . أما التابيرو سكان غانة الجديد فلونهم أسمر مشرب بالصفرة ويبلغ طولهم أربعة أقدام وتسع بوصات ؛ وشعرهم أيضاً قصير متلبد أسود اللون ويكثر على الوجه ، كما

يوجد على أجسامهم شعر قصير متناثر هنا وهناك . ومتوسط طول المرأة فى جميع هذه الحالات أقل من متوسط طول الرجل .

ولا تزال جماعات قليلة من السيمانج تعيش فى الغابات الكثيفة التى تغطى المناطق الجبلية فى داخل شبه جزيرة الملايو . وقد اضطروا إلى الالتجاء إليها تحت ضغط النازحين من شعوب الملايو والصينيين والأوروبيين الذين استوطنوا الجهات الساحلية ، ولا يزيد عدد الموجودين من هؤلاء الاقوام فى الوقت الحاضر على ألفى نفس ، وهم آخذون بسرعة فى فقد عاداتهم ولغتهم ونقاء عنصرهم .

ولا يعرف السيمانج من الزراعة شيئاً ولم يستأنسوا شيئاً من الحيوان ، اللهم إلا الذين اختلطوا منهم بشعوب الملايو . وهم يعتمدون فى غذائهم على النباتات البرية فى الغابة دون حيواناتها . والنباتات البرية متوفرة فى الغابة ولكن لا ينمو فى البقعة الواحدة غير عدد قليل من النوع الواحد من النباتات والأشجار كما هو الحال فى كل الغابات الإستوائية ، ولذا كان السيمانج دائمى الانتقال من مكان إلى مكان ، وقد لا تستقر الجماعة منهم فى بقعة واحدة أكثر من أربعة أيام . ولما كانت كمية الطعام التى يمكن الحصول عليها فى بقعة واحدة محدودة كان على السيمانج أن يعيشوا فى جماعات قليلة العدد قد لا تزيد إحداها على عشرين أو ثلاثين فرداً بما فى ذلك الأطفال .

ولأكبر أفراد الجماعة سناً أن يحدد البقعة التى ينزلون بها ، وهم فى العادة يحترمونه لسداد رأيه وله بينهم شىء من النفوذ ولو أنهم لا يعترفون له بزعامة وأفضل مكان عندهم هو ما كان فى بقعة مكشوفة فى الغابة أو تحت صخرة ناتئة ؛ وهذه الملاجئ — وهى لا تسمو إلى مرتبة الأكواخ — تختلف من ستر واحد يتخذ من ورقة واحدة من أوراق الأشجار ، إلى ستور جماعية كبيرة يستتر خلفها بضع أسر ؛ وهذا النوع يقيمونه أحياناً فى البقع التى يغشونها كثيراً .

ويشمل المنزل عادة عددا من الستور يتراوح بين ستة واثنى عشر ينصبونها على شكل دائرة أو شكل بيضوى ، وتقوم الأم بإقامة الستر الخاص بزوجها وأبنائها فتغرس فى الأرض ثلاثة أعمدة من الخشب أو أربعة بينها زوايا تبلغ نحو سبعين درجة ويختلف إنحدار سقوفها باختلاف فصل الأمطار . ويؤتى بجريد النخل ويشد إلى الأعمدة ملتصقاً بعضه ببعض ليحول دون تسرب ماء المطر . وبعد ذلك يقيمون لأنفسهم مصاطب ينامون عليها يصفونها من أعواد قصب الغابة الهندى ويرفعون أحد طرفيها أو كليهما بواسطة غصن غليظ ، وبهذا ترتفع المصطبة عن الأرض المرطوبة، ثم يحملون هذه المصطبة إلى داخل الستر ويعدون على أحد جانبيها أو كليهما مكاناً للنار وبعض السيمانج يقيمون مأوى يتسع لأفراد العائلة

جميعاً وقد يبلغ عدد المصاطب فيها إحدى عشرة ؛ وعند الرحيل يهجرون ستورهم لا يأخذون منها شيئاً فإن الغابة غنيـة بالأوراق العريضـة التى



(شكل ٥) فتاة من السيمانج فى سن الثامنة عشر

يحتاجون إليها فى إقامتها. وفى بعض الأحيان تقام هذه الملاجئ فوق الأشجار لتحميهم من الحيوانات المفترسة ومن الأعداء .

ويحرص السيمانج على أن تبقى شعلة النار ليلاً ونهاراً إلى أن يهجروها عند الرحيل ، وذلك لصعوبة توليد النار فى ذلك الجو المشبع بالرطوبة ،

وهم يذكونها عند الحاجة إليها فقط ، فإذا انتهوا من طبخ الطعام أبقوا على الجذوة تدخن حتى يحتاجوا إلى الطبخ مرة أخرى فيذكونها وهكذا .

ويولد السيمانج النار بحك قطعتين جافتين من الخشب أو الغاب ، أو يمرون عود الراتان الأملس إمراراً سريعاً حول عود من القصب ، فإذا تولدت الحرارة وسخن العود وضعوا حوله بعض الألياف الناعمة الرقيقة التى توجد حول الجزء الأسفل من جريد بعض أنواع النخيل ، وذلك لكى يسهل اشتعال النار فيها . وقد يحصل بعض السيمانج على قطعة من الحديد وأخرى من الصوان فيحتفظون بهما وبشىء من جريد النخل داخل عود أجوف من أعواد القصب يزينونه من الخارج بخطوط يحفرونها فيه . ولتسهيل توليد النار يستعمل السيمانج أحياناً نوعاً بدائياً من الشعلة يصنعونه من عصارة بعض الأشجار يغمسون فيها الألياف الجافة ويلفونها حول جريدة من جريد النخل ، وهم يعتزون بها ويحملونها معهم أينما رحلوا .

والسيمانج — كالأقزام الإفريقيين — لا يجوبون الغابة على غير هدى ، لأن كل جماعة منهم لها منطقتها الخاصة ولها الحق فيما قد يكون بها من الأشجار ذات الثمار القيمة ، ومع ذلك فقد يقومون بالقنص وجمع الجذور والأوراق وغيرها من أرض من جاورهم من الجماعات ، أما أشجار الدوريان durian الباسقة فهى مثل الأدوات المنزلية والحراب والحلى تعد ملكا

للأفراد يتوارثها الأبناء أو الأقرباء ولكن الزوجة لا ترثها أبداً ، وكذلك ممتلكات الزوجة يرثها أبناؤها ، فإذا لم يكن لها أبناء ورثها إخوتها وأخواتها ولا يرثها زوجها أبداً . وفى موعد المحصول تعود كل جماعة إلى إقليمها لتحتفل بجمع الثمار ، ومع أن محصول الأشجار جميعاً يقسم بين أفراد القبيلة إلا أن أحداً منهم لا يفكر فى السطو على ثمار أشجار غير أشجاره ، أما السطو على ثمار أشجار تملكها قبيلة أخرى فإنه يغرس بذور الشر بين القبائل . وثمرة الدوريان **durian** التى تزن عدة أرطال ذات لباب مر تحت قشر أخضر سميك مغطى بالأشواك ، وعندما تنضج تسقط من تلقاء نفسها تحت الشجرة .

أما جمع الأنواع المختلفة من ثمار التوت (**Berries**) والنقل والأوراق والنَبَتات (**shoots**) والجذور فهو موكول إلى النساء ، على أن هذا لا يمنع من أن يقوم الرجال أحياناً بنصيبهم فيه . ولاستخراج الجذور تحفر الأرض بعصاً من خشب الحديد بعد أن تحمى على النار كى تزيد متانة ، وتضع النساء الطعام الذى يحصلن عليه فى سلة يصنعنها من القصب أو الراتان ويعلقنها على ظهورهن ، وأهم أنواع الجذور عندهم جذور الصرغم وهى جذور ليفية طويلة مجوفة ، وهذه الجذور وكذلك عدة جذور أخرى مجوفة تحوى

عصارة مساحة يتخلصون منها بطرق مختلفة ، فجذور الصرغم مثلا ينقعونها فى الماء ثم يكشطونها بعصا فيها أشواك ويعصرونها فى كيس من الحصير ثم يعرضونها للنار لتجف .

ولا يخرج الصياد فى العادة للصيد ما دام عنده ما يأكله ، لكن حينما يعضه الجوع تختفى منه كل مظاهر التبلد وتبدو عليه مظاهر النشاط والعزم ؛ وهو ماهر فى تعقب الحيوانات وفى إصابتها . ويتكون صيده العادى من الفيران والحَجَل والطيور والسحالى والقردة والخنازير البرية . وأهم أسلحته القوس والسهام ، وكلاهما أطول من نظيره عند الأقزام الأفريقيين . وأقواسهم التى يبلغ طولها خمسة أقدام أو ستة تصنع من غصون الأشجار اللدنة يشدونها بأوتار مكسوة بالشمع مصنوعة من ألياف نباتية ، أما السهام التى قد يصل الواحد منها إلى ثلاثة أقدام فتتخذ من قصب البامبو يثبت فى جانبها ريشتان من ريش الطائر ذى المنقار القرنى ولا توجد للريشتين أية فائدة إطلاقا ، كما يثبت فى طرفها قطعة من الخشب الثقيل . وفى أيامنا هذه تستبدل بالخشبة قطعة من الحديد الشائك (**barbed**) مسممة بمادة يحصلون عليها من نوع من الأشجار . فإذا كان المطلوب صيداً كبيراً أضيف إلى المادة السابقة مادة أخرى أشد سما . وتحمل السهام فى كنانات من قصب البامبو عليها نقوش محفورة فيها ، وهذه الكنانات

فى الغالب مدببة الأطراف ليمكن غرس أطرافها فى الأرض وقت اللزوم ، وهم يحملونها فى أيديهم أو يرشقونها فى أحزمتهم .

وبعض السمانج يستعملون الآن ما يسمى قصبة النفخ أو بندقية النفخ (وهى أنبوبة مجوفة يقذفون منها السهام بالأفواه فتخرج بقوة النفخ) وهى شبيهة بالتى يستعملها جيرانهم الساكاى الذين سيأتى ذكرهم فى الفصل القادم ، كما أنهم أحياناً يستعملون الفخاخ للايقاع بالصيد ، وهى أدوات أخذوها عن غيرهم من الشعوب ، فمثلا الفخاخ التى يستعملونها فى صيد الفيران هى نفس الفخاخ التى تستعملها شعوب الملايو فى سلانجور وبيراك والتى يتخذونها من قصب البامبو ، ولم يكن السمانج إلى عهد قريب يقتنون الكلاب ، وما يقتنونه الآن من تلك الحيوانات نصف الوحشية المائل لونها إلى الحمرة لا فائدة لها فى الصيد . ويصيد السمانج الطيور أحياناً باستعمال شظايا البامبو يدهنونها بسائل يحصلون عليه من عصارة شجرة التين البرية .

وقبائل السمانج التى تسكن فى المناطق الجبلية المنعزلة لا تأكل السمك إلا نادرا ، على أن بعض القاطنين منها قرب مجارى الأنهار يأكلونه كثيرا . وتشارك النساء فى صيده مع أنهن لا يشاركن فى القنص أبدا . وتصاد الأسماك الصغيرة فى المستنقعات باستعمال أداة تشبه الدلو

مصنوعة على هيئة السلال . ويستعمل بعض الرجال سنارات تتكون من قضيب طويل من غصن غير مقشور قد يصل إلى ستة أقدام يربطون إليه حبلا يزيد عنه طولا ، مفتولا من خيوط من لحاء الشجر ، وفى أطرافها خطاطيف من النحاس أو من أسلاك الحديد ؛ أما السمك الكبير والسلاحف البحرية فتصاد بحراب مدببة مصنوعة من جريد النخيل . ولا يمتلك السمانج قوارب ولكنهم أحيانا يصنعون عوامات من قصب البامبو إذا أرادوا عبور نهر أو انحدارا فيه مع التيار .

ويتناول السمانج أكلتهم اليومية الرئيسية قرب المساء ، ولكنهم يتناولون وجبة فى الصباح ، ويتناولون أكلات أخرى صغيرة أثناء النهار . وهم مغرمون بالملح لسبب بسيط هو أنه نادر الوجود عندهم . ويتناول جميع أفراد الأسرة طعامهم بأيديهم من إناء واحد هو غالباً ورقة كبيرة من أوراق الموز ، فإذا كان الطعام فخذ حيوان أو كتفه أمسكوه بأيديهم حتى يأتوا على ما به من لحم . ولا يسمح للنساء والنبات بالأكل حتى ينفض الرجال والأولاد أيديهم منه ، ويقع طهى الطعام على عاتق النساء ، وهن يشوينه شيا خفيفا ، على أنه يؤكل أحياناً غير مطبوخ ، وإذا أريد طهى اللحوم أدخلوها بين فلقتى عصا وعرضوها للنار . وفى حالة الصرغم وجذور النباتات يقشرونها ويلفونها فى أوراق الموز ثم يخبزونها .

أما السمك فيطهى بنفس الطريقة التى تطهى بها اللحوم ، و بعض الأطعمة — مثل الأرز الذى يحصلون عليه من جيرانهم الملايو عن طريق المقايضة بحاصلات الغابات — يقلونه فى أنابيب من قصب البامبو الأخضر . وهو يقاوم النار مدة تكفى لنضج الطعام . أما شرب الماء فيستعملون له أوانى من البامبو أو القرع أو قشور جوز الهند أو ورقة من أوراق الأشجار أو اليد نفسها ، ويستطيع الرجل أن يستعمل يده يقذف بها الماء إلى فمه دون أن يصاب وجهه بأى رذاذ .

ويقوم السيمانج كثيرا بتدخين الطباق وهم يحملونه فى أنابيب من قصب البامبو صغيرة ولكنها مزركشة بنقوش جميلة ، و يحصلون على الطباق من شعوب الملايو بالمقايضة فيبادلونهم بحاصلات الغابات الأرز والملح والخرز والطباق والأقمشة وغيرها . وفى سالف الأزمان كان السيمانج يحملون بضائعهم إلى مكان متفق عليه ويتركونها ثم يعودون بعد بضعة أيام ليأخذوا ما تركه الملايو فى مقابلها من بضائع ، وهذا مثل آخر من أمثلة ما يسمى المقايضة الصامتة أو المتاجرة البكماء .

وعند ما يصل الرجل من السيمانج إلى سن الثامنة عشرة يبحث عن زوجة ، ويجرى البحث عادة بين جماعة أخرى غير الجماعة التى ينتمى إليها وغالبا ما يذهب العريس إلى أهل عروسه ليعيش بينهم سنة أو سنتين

يعود بعدها ليعيش هو وأولاده بين أهله . و يقضى الفرد من السيمانج حياته كلها بين أهله لا يختلط بغيرهم أبداً إلا فى النادر القليل عند ما يقابل أفراداً من جماعة أخرى ، ولذلك كانت آراؤه وأفكاره مقصورة على ما يكتسبه من أهله ولا يأخذ عن غيرهم رأياً جديداً ، فلا غرابة إذن إن كان التطور بين هؤلاء القوم البدائيين يسير ببطء شديد . ولا يعرف السيمانج أى نوع من أنواع الكتابة وليس بينهم من يعرف من الأعداد أكثر من ثلاثة إلا أولئك القلائل الذين اختلطوا بالملايو . ولا يتلقى الأطفال أى نوع خاص من المعلومات إلا ما يكتسبونه عن طريق التقليد واللعب ، فالولد يلاحظ أباه وهو يصنع القوس فيقلده بصنع قوس مثلها يلعب بها ، والبنت تتعلم من ملاحظة أمها وأخواتها كيف تصنع السلال أو تشيد المسكن .

والرقص عند السيمانج تسلية يحبها الجميع ، وكثيراً ما يقيمون المراقص ليلا و يقوم الرجال بدق النفحات على الطبول أو الآلات البدائية الأخرى بينما تقوم النساء بالرقص .

وملابسهم القليلة مثل غذائهم تماما كلها من النبات . وصغار الأطفال لا يرتدون شيئاً . وترتدى النساء مناطق جميلة مصنوعة من خيوط طويلة سوداء لامعة يأخذنها من نوع من الطحالب ، وهذه الخيوط ينسجن منها حبلا طويلا رفيعاً يلف حول الجسم مرات عديدة و يتركن طرف الحبل

يتدليان على شكل حلية . أما الرجال فيكتفون بحزام بسيط أو حبل من ألياف النخيل يرشقون فيه أوراق الشجر ، وقد يستعيضون عن مثل هذا الحزام بإزار للخصر منسوج من لحاء الشجر المدقوق يلفون أحد طرفيه حول الوسط ويمررون الطرف الآخر بين الفخذين ثم يرشقونه فى الجزء الذى يلف حول الوسط بحيث يتدلى طرفه من الأمام . ويصنع نسيج اللحاء من اللحاء الداخلى لشجرة فاكهة الخبز البرية أو شجرة اليوبا Upas وطريقة صنعه أنهم ينزعون من الشجرة لحاءها الداخلى ويغسلونه ويجففونه وبعد ذلك يدقونه بمطارق من الخشب قد تكون مستديرة أو مسننة ولكنها على أى الحالين منقوشة نقشاً جميلا ، ولكن نسيج اللحاء المذكور لا يعادل فى دقته ذلك النسيج الذى يصنعه التابا Tapa سكان بولينيزيا . ونسيج اللحاء غير معروف لدى أى شعب آخر من شعوب النجرتو ولذلك يظن أنهم هم الذين تعلموا صناعته من الشعوب المجاورة لهم . وهم فى العادة لايلبسون شيئاً على رءوسهم أو فى أقدامهم ، ويلبس الذكور والأناث على السواء نسيجاً شبكياً من ورق الأشجار وأساور وغوايش من الألياف وعقوداً من خيوط ألياف النخيل أو النباتات الطفيلية ملفوفاً فيها أصداف أو حبوب أو خرز أو ما إليها .

وأكثر القبائل توحشاً لايعرفون الوشم ولا التشريط ، ومن البديهى أن الوشم لا يظهر على جلد ضارب إلى السواد . ويحلق الرجال رءوسهم

ويبردون نحو ست من أسنانهم الأمامية . وتلبس النساء فى شعورهن مشطا سحريا أو أكثر مصنوعا من غاب البامبو ذا أسنان طويلة يبلغ طوله نحو خمس بوصات وعرضه نحو ثلاث وعليه نقوش محفورة فيه . وتوجد من هذه الأمشاط السحرية أنواع تختلف باختلاف الأمراض وقد تلبس المرأة أنواعا متعددة منها لتحميها من عدة أمراض . ومن العادات المتبعة بينهم خرق شحمة الأذن ولبس حلق مصنوعة من أوراق الشجر الملفوفة . أما حلق الأنف فلا يلبسها من السيمانج إلا من اختلطوا بغيرهم من الشعوب .

ويصنع من قصب البامبو كثير من الأدوات عدا ما تقدم ذكره من كنانات السهام والأمشاط وأوانى الشرب والعائمات ، فأن رهافة حد ذلك النبات يجعل منه قاطعا مفيدا إذ تستطيع شفرة من شظايا البامبو إذا أحمى عليها فى النار أن تقطع قصب البامبو نفسه كما تستطيع أن تحتفظ بمضاء حدها مدة طويلة . ومن فلقات البامبو يصنعون السلال والحصير كما يصنعون منه الطبول ويتخذون منه مضارب لدق الطبول ، وكذلك يصنعون منه الصفافير والأعواد الموسيقية وقد يصنعون منه الهاونات الخشبية ومن عظام الحيوان يشكلون الإبر والمخارز ، غير أن الأدوات التى يصنعونها من الحجر غير متقنة ، ومنها أسلحة حجرية تستعمل فى القطع .

ويدفن السيمانج موتاهم فى التراب وهم لا يخافون الأرواح ولكنهم يعتقدون بالتعاويذ وبالسحر ويلجأون إلى كليهما لحماية أنفسهم ، فالرجال مثلا يعتقدون أن الرسوم التى ينقشونها على كنانات سهامهم تساعدهم على أن يعودوا من صيدهم موفقين وتحميهم من الأمراض . وقد نشأ عن هذا الاعتقاد أن « الشامان » وهو الرجل المتخصص فى السحر وعمل التعاويذ شخصية لها مركزها بين أفراد القبيلة ، وهو يرتدى ملابس خاصة كما يحمل عصا خاصة بمهنته ، وعند موته يحتفلون بدفنه احتفالا خاصا ويتوارث أبناؤه مركزه .

وتعيش قبائل الأيتا **Aeta** فى الأقاليم الجبلية فى الجزر الكبرى ، وفى بعض الجزر الصغيرة فى الفلبين ، وهم يحيون حياة كثيرة الشبه بحياة السيمانج ، غير أنهم يعتمدون على القنص أكثر مما يعتمد السيمانج . ويستعلمون فى القنص طريقة الحفر الكبيرة يحفرونها فى طريق الحيوان أو الحظائر الواسعة يغرسون حولها الأوتاد الغليظة ثم يسوقون إليها حيوان الصيد الكبير كالجاموس البرى . ويدهنون رءوس السهام بالسم كما يفعل السيمانج ، بينما لا يفعل ذلك غيرهم من شعوب النجرتو .

وكذلك يشبه السيمانج التاپيرو الذين يعيشون فى الغابات التى تغطى المناطق الجبلية فى قلب غينيا الجديدة ، وهؤلاء لا يعرفون التشريط

ولا الوشم ولكن أكثرهم يخرقون الحاجز الأنفى ليلبسوا فيه حلقة رقيقة منحنية من عظام الخنزير البرى ، وملابسهم التى يرتدونها قليلة جدا وحليهم قليلة وبسيطة فهم يتخذون الأساور والحجال من الألياف المجدولة ويصنعون العقود من الحبوب أو من قطع صغيرة من قصب البامبو أو من الأصداف أو من أسنان بعض الحيوان . ومن عاداتهم أن يخرقوا شحمة الأذن ليلبسوا فيها حلية من أى نوع تكون .

ويحمل معظم الرجال حقيبتين إحداهما كبيرة تشبه الخرج يضعونها فوق الكتف وتتدلى عادة وراء الظهر ، والأخرى صغيرة يلفونها حول العنق وتتدلى عادة إلى الأمام . وفى هاتين الحقيبتين يحمل قزم التاپيرو كل ما يستطيع حمله من متاعه ، فحليه المصنوعة من العظام والأصداف وسكاكينه المصنوعة من الصوان يحملها فى الحقيبة الصغيرة فى الأوقات التى لا يستعملها فيها ، بينما يحمل فى الحقيبة الكبيرة حصير النوم المصنوع من ورق الپاندانس **Pandanus** والتى تبلغ ستة أقدام طولا وثلاثة عرضاً وأدواته التى يولد بها النار ، وكذلك يحمل فيها ما يمتلكه من الطباق . ويتكون جهاز توليد النار من ثلاثة أجزاء : عصا من الخشب يبلغ قطرها بوصة أو نحوها تفلق فلقتين تثبت بينهما حصاة لتبقيهما متباعدتين ، وقطعة طويلة من نبات الراتان ملفوفة بعضها على بعض حتى تصير حلقة تامة

الاستدارة ، وخصلة من الصوفان تؤخذ من خوص فسيلة صغيرة من فسائل النخيل أو قطعة من النباتات الطفيلية الجافة .

وعند ما يراد توليد النار توضع قطعة من الصوفان بين فلقتى العصا فى المسافة التى بين الحصاة و بين الجزء الذى لم يفلق ، ثم يقوم مولد النار بوضع العصا على الأرض ويمسك بقدميه طرفها غير المفلوق ؛ و بعد أن يفك من لفة الراتان ما طوله نحو ثلاثة أقدام يمسك اللفة بإحدى يديه ويمسك طرفها المفكوك باليد الأخرى ، ثم يدخل اللفة تحت العصا فى المكان الذى به قطعة الصوفان ، و بعد ذلك يحرك اللفة بسرعة جيئة وذهاباً وسرعان ما تسخن قطعة الصوفان ويتصاعد منها الدخان بعد فترة وجيزة تتراوح بين عشرين وثلاثين ثانية وعندئذ يرفع المولد العصا وينفخ فى الصوفان فلاتلبث شعلة النار أن تتولد . وبعد ذلك توسم العصا باحداث قطع عميق فى المكان الذى كان الراتان يحك فيه . وفى كل مرة يراد فيها توليد النار تشق فلقة العصا مسافة قليلة إلى الخلف و يحك الراتان فى مكان يبعد قليلاً إلى خلف المكان السابق ، وهكذا تصبح العصا التى استعملت عدة مرات موسومة بعدة دوائر تكون قشرة العصا عندها متفحمة .

ويدخن التاپيرو الطباق غالباً على هيئة سجائر يستعملون فى لفها شرائط من ورق الپاندانا الجاف ، كما يدخنونه أحياناً فى غلايين يصفونها

على طريقتهم الخاصة ولا تعدو أن تكون أسطوانة من قصب البامبو يبلغ قطرها نحو بوصة وطولها بضع بوصات . و يأخذ أحدهم قبضة من الطباق يدسها إلى منتصف الاسطوانة ، وعند التدخين يمسك بها رأسية بين شفتيه و يجذب أنفاس الدخان إلى أسفل .

وأهم أسلحة التاپيرو القوس والسهم ، والقوس طويل يتخذونه من قطعة طويلة مستقيمة رقيقة الطرف من خشب الحديد يشدونها بوتر من الراتان ؛ وهم لا يريشون سهامهم ولا يحزون فى مؤخرتها الحز الذى يمر فيه الوتر ، ولكنهم يزينونها بنقوش غاية فى البساطة ولا يسقون أطرافها بالسم كما يفعل الأيتا ولا يعرفون الفخاخ و إنما يصيدون صغار الحيوان بالحبال المعقودة .

ويبنى التاپيرو مساكنهم فوق أكوام من التراب بحيث ترتفع أرض المنزل عن سطح الأرض بمقدار أربعة أقدام إلى عشرة و يصعدون إليها بسلالم شديدة الانحدار تتكون من عمودين من الخشب يربط احدهما إلى الآخر ربطا محكما ، وهم لا يدرجون العمودين بحيث يتكون منهما سلم حقيقى لكن حبال الراتان التى تربطهما تؤدى الغرض من ذلك بحيث تقوم الحبال نفسها مقام درج تعتمد عليه القدم . ويؤدى هذا الدرج البدائى إلى شرفة ضيقة أمام الكوخ ؛ أما الكوخ نفسه فقسم واحد

تبلغ مساحته نحو عشر أقدام فى مثلها ، وحيطانه ألواح طويلة من الخشب تكسوها من الخارج قطع صغيرة من لحاء الشجر ، وسقوفها منحدرة انحداراً شديداً وهى أيضاً تتكون من ألواح من الخشب ومغطاة بقطع كبيرة من قشور الأشجار . وهم يحفرون فى التراب فى وسط الكوخ حفرة تملأ بالرمل أو بتراب الأرض يحتفظون فيها بجذوة النار مشتعلة ، وفى أعلى هذه الحفرة يوجد رف بدائى الصنع يضعون عليه قطعا من الخشب لتجف ؛ ومثل هذه المساكن غير معروف لدى أى شعب آخر من شعوب النجرتو ولذا يُعتقد أنهم تعلموا صناعتها من جيرانهم البابوا (**Papua**) .

والتابيرو الذين يعيشون فى جنوب جبال ناساو فى القسم الهولندى من غانة الجديدة ليسوا الشعب الوحيد فى تلك الجزيرة ، فقد كتب لورد موين أخيراً عن قبائل الأيومى (**Ayome**) الذين اكتشفهم فى أعالى نهر رامو على بعد نحو أربعمائة ميل من موطن التابيرو والبشم **Peschem** وغيرهم . وهؤلاء الرجال القصار ذوو البشرة الداكنة قليلا يندر أن يزيد طول أحدهم على أربعة أقدام وثمانى بوصات أما النساء فأقصر من ذلك بأربع بوصات أو خمس فى المتوسط . وتلبس النساء أحزمة فضفاضة ، ويغطى الرجال عوراتهم بمآزر من القماش ويلفون حول أوساطهم فروعا لدنة من رباطات بعض النباتات المتسلقة الشبيهة بأشجار الكرم ، وهذا



(شكل ٦) لورد موين بين إثنين من اقزام الأيومى

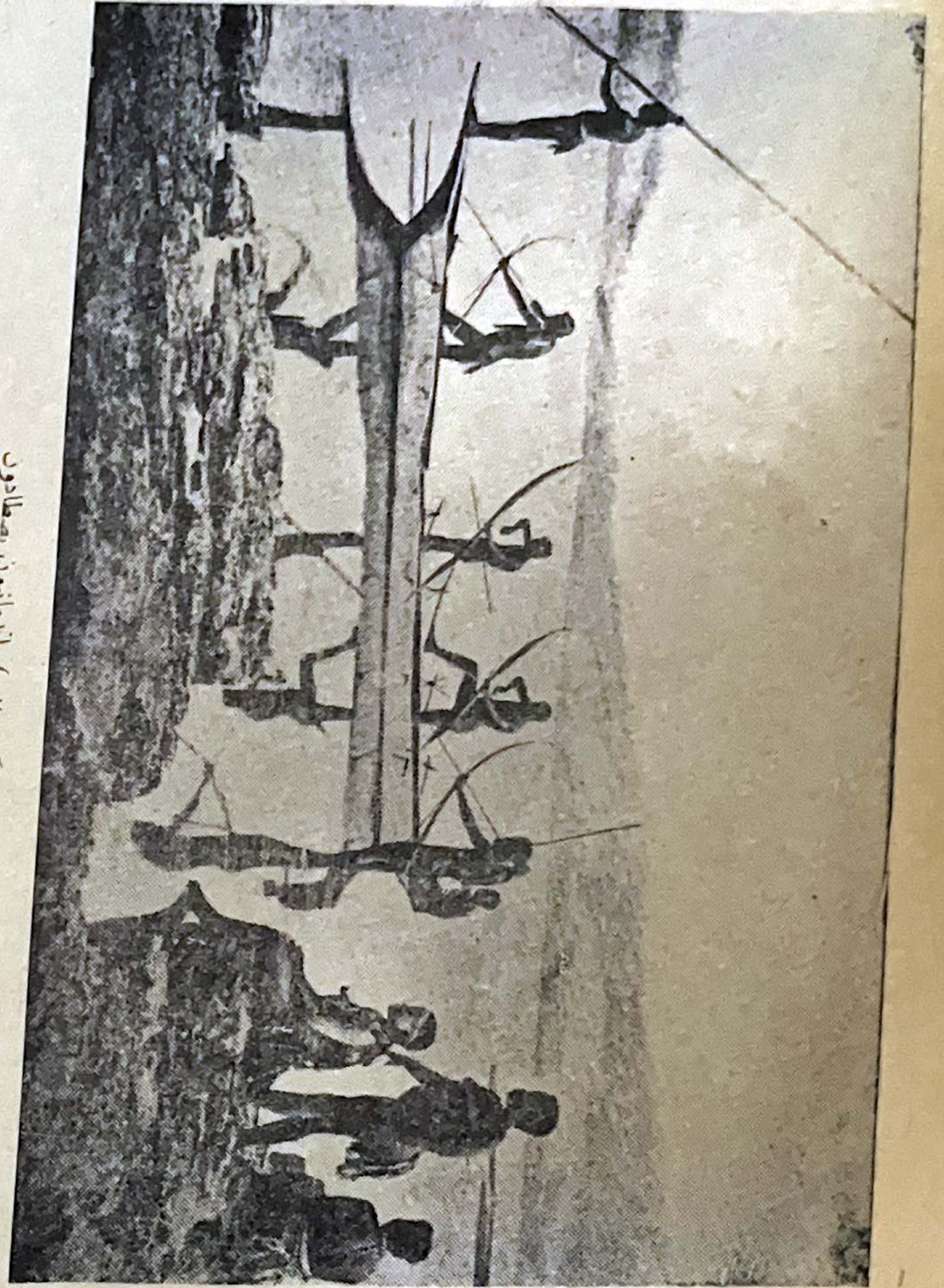
البنات يستعملونه أيضاً في توليد النار بتحريكه حركة سريعة إلى الأمام وإلى الخلف تحت قطعة من الخشب حتى تشتعل . ومن عاداتهم خرق الحاجز الأنفي ليشبكوا فيه ريشة طير يمسها أربع شظايا أو خمس شظايا رقيقة من خشب الساجو تخترق الحاجز الأنفي زوايا مختلفة مما يجعلها شبيهة بشوارب القط . ومن عاداتهم أن يترك الرجال شعورهم الجعدة تطول كثيراً ثم يعقدونها برباط من الألياف ويرخونها وراء ظهورهم ، ثم يعمدون إلى الجزء الذي في الجانب الآخر من الرباط يكورونه على شكل قرص متماسك يشبه الإسفنجة يبلغ قطره نحو ست بوصات وسمكه نحو ثلاث ، ويلبسون فوقه غطاء محكماً مصنوعاً من نسيج الحلفاء ، وحول المعصم والعضد يلبسون أساور وحبالاً دقيقة الصنع من الألياف ، بينما يتخذون من أسنان الخنازير والكلاب عقوداً يلبسونها حول أعناقهم .

ومن الشائع أن يحمل الرجال قوساً ونحو عشرة سهام ويبلغ طول القوس عادة نحو خمسة أقدام ، ويتخذون للسهم ساقاً من البامبو ويزينونها بنقوش محفورة وملونة باللون الأسود ، ويشدون طرف السهم إلى ساقه بشعر آدمي . ويحمل كثير من الرجال إلى جانب ذلك بلطة من الحجر ذات حدين كما يحملون على الكتف اليمنى درعاً يبلغ قطرها نحو عشرين بوصة ، ومن النوادر أن بعض أقوام الأروى يعرفون زراعة البطاطا والقرع .

ويختلف الأندمانيون بعض الاختلاف عن غيرهم من الأقوام الأسيويين ، وهم السكان الوحشيون الذين يقطنون جزر أندمان الموجودة في خليج بنغالة على بعد نحو مائتي ميل من الساحل ؛ والذين يقطنون منهم قرب سواحل الجزر يستطيعون أن يحصلوا من البحر على رزق من من الأسماك وغيرها ، ولا سيما الفصيلة التي تكثر هناك ؛ أما سكان الجهات الداخلية فيعتمدون على جمع الفواكه البرية وقنص الحيوان الصغير ولا سيما الخنزير البري . وقد ازدادت حركة المقايضة بين سكان السواحل وسكان البقاع الداخلية وهي تتخذ شكل تبادل الهدايا . ويتخذ سكان السواحل قلايق[1] كبيرة متقنة الصنع مزودة بألواح جانبية تحميها من الانقلاب ، وهم دون غيرهم من الأقوام يعرفون صنع القلايق ولكنهم لا يخاطرون بها بعيداً عن الشاطئ أبداً ، ويستعملون المزاريق في صيد الأطوم والسمك الكبير ، وعندما يصيبون الهدف ينفصل طرف المزراق ويعوم ساقه . وأقواسهم على شكل خطاطيف مختلفة الشكل وسهامهم التي لا يريشونها أبداً ذات أطراف من الحديد المطروق وهو بارد فوق حجر مسطح وهم لا يسممونها أبداً .

ولم تكن مضارب الأندمانيين فيما مضى أكبر ولا أحسن صنعاً من

(1) القلايق جمع قلقة وهي الزوارق المنحوتة من جذوع الأشجار .



(شكل ٧) اندمانيون يصطادون

مساكن السمانج ، ولكن يبدو أنهم كانوا يقيمون بها مدة أطول ، وأكواخهم البدائية بسقوفها المنحدرة كانت تترك مفتوحة من الأمام ومن الجوانب وبهذا كانت تبدو كثيرة الشبه بمساكن السمانج ، وكان يقطن كلا منها الزوج وزوجته وأولاده الصغار ، ويقام كل ثمانية مساكن إلى اثنى عشر حول منكشف من الأرض بيضىّ الشكل قطعت أشجاره يتخذونه ميداناً لإقامة الحفلات . وفى بعض الأحيان كانوا يقيمون أكواخاً جماعية كبيرة فيها ركن خاص بكل أسرة ، كما كان للعزاب أيضاً ركنهم الخاص .

ويقيم الاندمانيون الأفراح احتفالا بالشبان والشابات عند ما يبلغون الحلم ومن القواعد المتبعة فى هذه الحفلات تحريم بعض أنواع الأطعمة على المحتفل بهم ولا سيما الأصناف الشهية . وعند ما اكتُشف الاندمانيون لأول مرة كانوا يعرفون النار ويحتفظون بشعلة منها موقدة ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يولدونها ، وكانوا يصنعون أنواعا بدائية من الأوانى الفخارية ، وكانت كل أدواتهم مصنوعة من الحجر والأصداف ، وذلك قبل أن تصل إلى أيديهم الأدوات الحديدية .

ويعيش الاندمانيون فى خوف دائم من الأرواح الخبيثة ويدفنون موتاهم فى البقعة التى يقيمون فيها ، يضعونهم وضع الجالس ويلفون أجسادهم

بأوراق الأشجار ، ثم يهجرون المخيم لمدة ثلاثة أشهر يعودون بعدها ليخرجوا جسد الميت ويغسلوه فى البحر ثم يأخذون عظامه ويصنعون منها عقوداً يلبسها الأقارب والأحباب على سبيل التذكار ، ويعتقدون أنها تشفى الأوجاع والأمراض ، فمثلا من كان منهم يشكو آلام الأسنان لبس العقد حول وجهه على أمل أن ذلك يذهب بأوجاعه ، وكذلك تعلق جمجمة الميت حول العنق دلالة على الإعزاز . وعدد الأندمانيين آخذ فى التناقص ، ومن المحتمل أنهم صائرون إلى الزوال .

الفصل الثالث

بعض صيادين آخرين

من غير الأقزام

سكان الغابات الإستوائية

هناك شعوب أخرى غير الأقزام تحيا الحياة التى سبق الكلام عنها ، وهى حياة تخضع إلى حد كبير لنوع الحرف التى يحترفونها وهى الجمع والصيد إذ هم لا يزرعون ولا يربون حيوانات مستأنسة . وسنتكلم عن مثل تلك الشعوب باختصار ، وسنقصر الكلام على الأمثلة القليلة الآتية : الساكاى (**Sakai**) سكان شبه جزيرة الملايو ، والڤدا (**Veddas**) فى جزيرة سيلان ، وبعض القبائل التى تعيش فى أحراج جنوب الهند ، والسيلونج (**Selung**) فى أرخبيل مرجوى (**Mergui**) والشعوب الثلاثة الأولى كبيرة الشبه بسكان أستراليا الأصليين الذين سيأتى الكلام عنهم فى الفصل القادم .

ويسكن الساكاى شبه جزيرة الملايو فى جنوب الإقليم الذى يقطنه السيمانج وهم عادة يقطنون الغابات الكثيفة فى الوديان أو فى السهول ، وقد اختلطت دماؤهم فى بعض الجهات بدماء قبائل الملايو والنجرتو ، ولكن العناصر النقية منهم تختلف فى مظهرها كثيرا عن السيمانج ، فهم أطول من هؤلاء وأدق منهم بنية ، ويختلف لون البشرة بين الأصفر والأسمر الداكن ، ورءوسهم طويلة ورفيعة على عكس السيمانج ذوى الرءوس الصغيرة المستديرة ، وشعرهم الأسود المشرب بالحمرة الخفيفة طويل ومموج وليس قصيرا مجعدا كشعر السيمانج .

ويحيا الساكاى حياة يشبه حياة السيمانج شبها كبيرا ، غير أن مساكنهم أرقى من مساكن السيمانج ؛ وهم لا يستعملون السهام كالسيمانج ولكن يستعملون بنادق هوائية يطلقونها بالنفخ فيها . أما مساكنهم فمستطيلة الشكل ذات حيطان من جريد النخل المجدول وسقوفها من أوراق النخيل . وبعض هذه المساكن قد يزيد طوله على عشرين قدما ويتسع لبضع عائلات ، ولكن بعضها أصغر من ذلك كثيرا ، وهى جميعا تعلو قليلا عن سطح الأرض ، وتشبه فى هذا مساكن الملايو الذين أخذوا عنهم هذه العادة وهى عادة تحميهم من رطوبة الأرض ومن الحيوانات الضاربة . وتعلوا المساكن الكبيرة عن الأرض بمقدار

ثلاثة أقدام إلى ستة ، ويُصعد إليها بجذوع أشجار مدرّجة ، وقد ينشئون المساكن بين أغصان الأشجار العالية .

أما قصبة النفخ — أو بندقية النفخ فى أندر صورها — وهى قصبة مجوفة قد يصل طولها من ثمانية أقدام إلى اثنى عشر قدما ، فإنها غير معروفة إلا فى منطقة محدودة ينمو فيها نوع من قصب الغاب ذو عقد غاية فى الطول، وفيما عداها من المناطق تؤخذ بضع عقد من القصب وتوصل أطرافها بعضها ببعض وتغطى جميعا بأنبوبة من نفس النبات أطول منها بعد أن تزال العقد منها بواسطة عود صلب من الخشب ، وتصقل أطرافها الخشنة بنوع من ألياف الراتان ، وبعد ذلك يصقل داخل القصبة صقلا تاما ويزخرف سطحها الخارجى بنقوش جميلة محفورة فيها .

أما القذائف التى يبلغ طول إحداها من ثمانى بوصات إلى إحدى عشرة ، فيتخذونها من الجزء الأوسط المتين من جريد نوع من أنواع النخيل ، فيقطعون الشظية من الجريد ويظلون يبردونها حتى تصبح فى دقة المسلة، ويحزّون قرب طرفها الخارجى حزًّا عرضيا ليسهل على هذا الطرف أن ينكسر فى جرح الفريسة ، وهم يغمسون ذلك الطرف فى السم كما يفعل السيمانج .

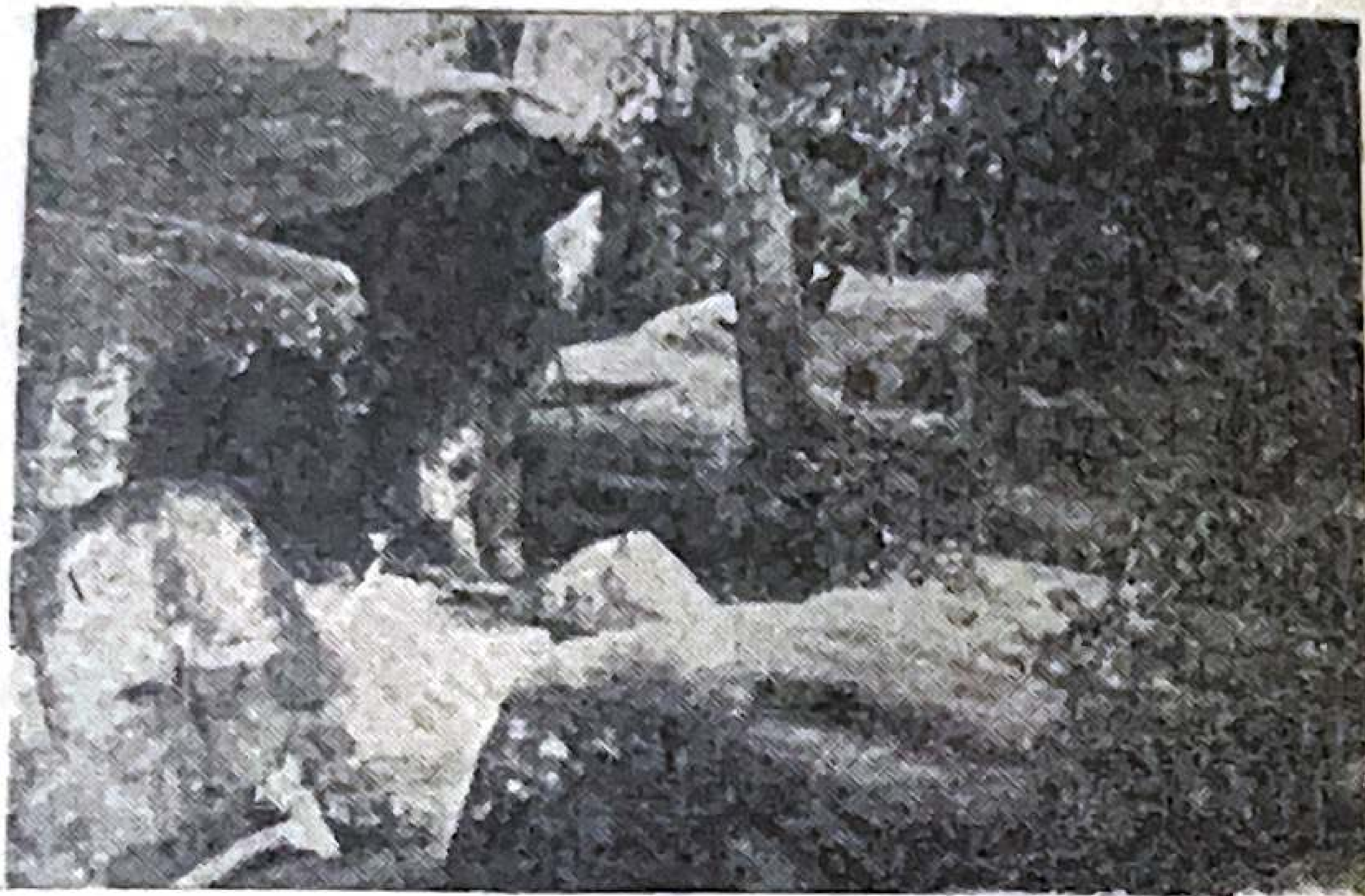
وعند الاستعمال يمسك الصائد بالقصبة رأسية فى إحدى يديه ويضع

القذيفة فى وسط فتحة القذف ، ثم يحشو حول طرف القذيفة بحشية رقيقة من ألياف بعض النخيل ليمنع تدخل الضغط الجوى أثناء إطلاق القذيفة ، وبعد ذلك يضع الصائد طرف القصبة فى فمه ويرفع الطرف الآخر إلى أعلى ويُحكم أنفاسه ثم ينفخ نفخة قوية فتنطلق القذيفة وتحدث صوتا مسموعا كصوت بنادق الهواء ؛ وتصل القذيفة فى العادة إلى مسافة خمسين أو ستين قدما ، ولكنها قد تصل أحيانا إلى مسافة مائة قدم . وينتشر استعمال هذا النوع من السهام حيث يوجد الإيبو Ipoh وهو سم معروف فى جنوب آسيا الشرقى وسومطرة وجاوة وسلبيز وبورنيو . . . . . الخ وكذا تستعمله بعض الشعوب فى شمال أمريكا الجنوبية .

وتصنع للسهام كنانات من قصب الغاب توضع بداخلها أنابيب من الغاب أيضاً تحفظ فيها القذائف ، ويصنع للكنانة غطاء من القصب المجدول وبداخله حلقة تحفظ فيها الحشايا المتخذة من الألياف . وتعلق الكنانات بسيور تلبس حول الوسط وتثبت بخطاطيف من العظام .

وقبائل الفدا التى تسكن فى شرق سيلان يشبهون الساكاى شبها كبيرا من الناحية الجثمانية ، غير أن لون بشرتهم أسمر قاتم ورءوسهم صغيرة بل هى صغيرة جدا حتى ليقال إن جماجمهم أصغر الجماجم الإنسانية جميعا . وقد تزاوج كثير من الفدا مع السنهاليين Sinhalese ، ولكن لا يزال بعضهم إلى

الآن يحتفظ بنقاء عنصره . وهؤلاء كثيرا ما يلقبون بالمتوحشين مع أنهم فى الواقع رقاق للغاية ومؤدبون . ويعيش الفدا الخالصون فى كهوف أو فى مآو من الصخر أو فى أكواخ بسيطة متخذة من أغصان الشجر ، ويعتمدون على القنص وجمع العسل البرى . وهم دائمو الانتقال من مكان إلى مكان



(شكل ٨)
الفدا وكهوفهم

كغيرهم من الأجناس التى سبق ذكرها ، غير أن تجوال الفدا محدود فإن لكل جماعة منهم إقليمها الذى تستطيع القنص فيه ؛ وفى كل إقليم عدد من الكهوف ، وينتقل القوم من كهف إلى كهف أينما وجدوا حيوان القنص والعسل ونبات الصرغم . وتعد الكهوف الكبيرة ملكا للجماعة ، ويتملك الأفراد

الكهوف الصغيرة . وفى الكهوف الكبيرة الجماعية يوجد مكان خاص لكل أسرة تحفظ فيه متاعها وتطهى طعامها ، وفيه يأكل أفرادها وينامون ، ويبدو أن الطعام أيضاً ملك للجميع لأن امرأة واحدة قد تقوم بمفردها بإعداد الطعام لجميع سكان الكهف يشتركون فى تناوله .

وتستعمل الأقواس والسهام فى الصيد ، وتولد النار باستعمال شُطف الصلب والصخر ، وهم يحصلون على الصلب بطريق المقايضة من السنهاليين ، ولكنهم يولدونها أيضا من حك قطعتين من الخشب . ويحصلون على العسل من النحلة الصغيرة غير ذات الحمة التى يربونها أحيانا ، كما يحصلون عليه من الباmبارا وهو نوع من النحل يبنى خلاياه فى الصخور ، وعلى عسل هذا النوع من النحل يعتمد الفدا فى الغالب . وليس جمع العسل فى الحقيقة بالأمر السهل ، لأن نحلة الباmبارا تبنى خلاياها فى الأشجار كما تبنيها فى الصخور ، وأحلى الخلايا بالعسل ما كانت فى الصخور ، وهى تكون عادة فى الجروف العالية التى لا يستطيع الوصول إليها أكثر الفدا خفة ، وقد يستخدمون فى الوصول إلى مثل تلك الخلايا سلالم يصنعونها من النباتات المتسلقة ليصعد عليها خفاف الأجسام ، وأحيانا يعقدون اجتماعات جماعية لتدريب الصبيان على تسلق مثل هذه السلالم بسهولة .

وإذا مات منهم ميت تركوا جثته فى الكهف ، وبعد أن يرقصوا

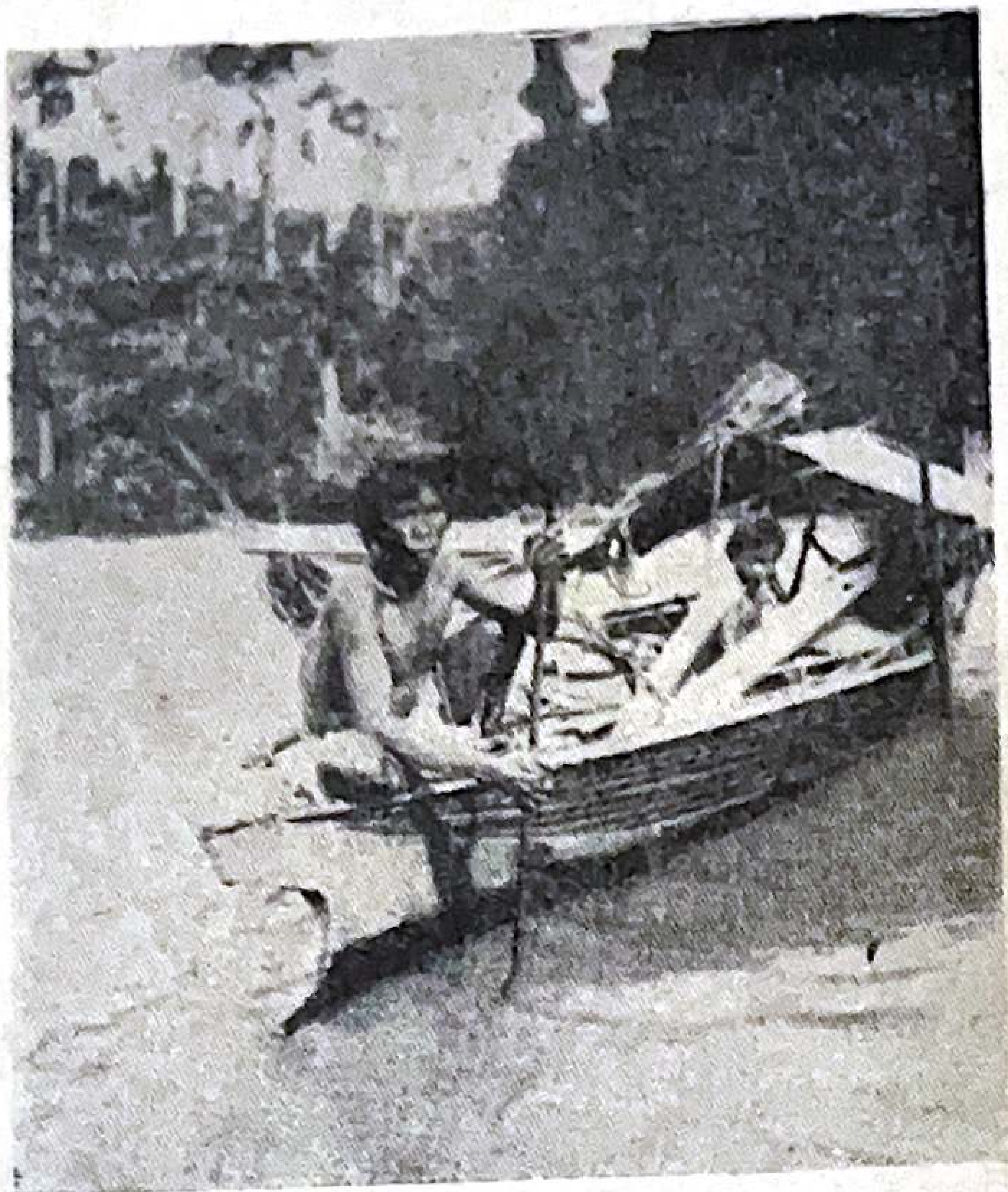
بعض الرقصات يهجرون الكهف إلى كهف غيره . وهؤلاء الأقوام آخذون بسرعة فى الانقراض .

وبعض سكان الأحراج فى الهند مثل الكادير (Kādirs) والكورمبا Kurumbas لا يزالون يعتمدون فى معاشهم على القنص وعلى جمع حاصلات الغابات ، وهذه القبائل أيضاً تشبه الساكاى فى صفاتها الجثمانية ، ولو أن سواد جلود الكادير وشعورهم المموجة قد ترجح الظن أن بهم قليلا من دماء النجرتو . وهؤلاء الأقوام الذين استوطنوا الهند قبل مجىء الجنس الدرافيدى كانوا فيما مضى منتشرين فى معظم أنحاء الهند وكانوا على شىء من الثقافة . ويلبس نساء الكادير فى شعورهن أمشاطا مصنوعة من البامبو عليها رسوم تشبه كثيرا تلك الرسوم التى توجد على الأمشاط التى يستعملها بعض قبائل الملايو . ويبرد الكادير أسنانهم الأمامية حتى تصير مدببة ذات أطراف إبرية ، وهم مهرة جدا فى تسلق الأشجار مستعينين بالأوتاد ، ويستطيع الواحد منهم أن يبنى بيتا من قصب البامبو وينشئ قنطرة من أعواده ومن أغصان الشجر ، وأن يصنع من ألياف الشجر خيوطا للسنارة وأن ينصب فخاخا جيدة لصيد الحيوان والطير وأن يحصل على طعامه من أشجار الغابة ومن جذور نباتها .

أما اليوم فإن بعض سكان الأحراج يعملون فى خدمة إدارة الغابات

ويقومون إلى جانب عملهم بجمع بعض حاصلات قليلة الأهمية كقرون الغزال وناب الفيل وخشب الراتان وغيرها . وتعمل الحضارة بسرعة على إدخال الوسائل الحديثة إلى حياة هذه الشعوب ، فطريقة توليد النار بحك قطعتين من الخشب مثلا آخذة بسرعة فى الاندثار ويحل محلها بالتدريج استعمال أعواد الثقاب .

والسيلونج الذين ينتمون لجنس آخر – قد يكون الجنس الإندونيسى – يعيشون فى أرخبيل مرجوى **Mergui** قرب سواحل جنوب برما ، ويتكون هذا الأرخبيل من عدد من الجزر لا يقل عن مائتين تختلف فى مساحتها من الجزيرة الصغيرة التى لا تزيد على أن تكون صخرة قائمة فى الماء ، إلى جزر قليلة العدد أكبر مساحة قد يبلغ طول الواحدة منها من خمسة أميال إلى عشرين ميلا ، وهى جميعا مغطاة بأحراج كثيفة لا يسهل اختراقها وتنتهى إلى المحيط بجروف قائمة أو شديدة الانحدار يتخللها هنا وهناك بعض الشواطئ المدرجة . وتندر فى الجزر الحيوانات البرية فيما عدا القرد والخنزير البرى والطائر قرنى المنقار والحمام . وفى معظم الجزر يندر السكان ، غير أن الصيادين من أهل برما يقيمون بها مساكن مؤقتة يلجأون إليها فى فصل الصيد ، كما يغشاها أيضاً صيادو اللؤلؤ من اليابانيين وأهل الملايو والفلبين وبرما . وليس بين القبائل التى تعيش



(شكل ٩)

السيلونج فى قواربهم

فى هذا الأرخبيل من يثير الاهتمام كالسيمانج ، وهم شعب عجيب من صيادى السمك المتجولين ولكنهم لا يبتعدون أبدا عن مياههم الساحلية ، ويطلق عليهم أحيانا اسم « غجر البحر » وهم قوم على جانب كبير من الحياء وخشية الأجانب .

وفى فصل الصحو — من أكتوبر إلى مايو — يتجولون بين الجزر فى فلايقهم الخفيفة التى تعد مساكنهم الفعلية ، وتتكون الفلايق التى يبلغ طول إحداها نحو عشرين قدما من شجرة محفورة تصبح هيكل السفينة يقام فوقها بناء آخر من جريد النخيل المنتصب مثبت بعضه إلى بعض ومكسو بطبقة من الدامار dammar وهو عصارة شجرة تنمو بكثرة فى تلك الأقاليم ، تكسى به الفليقة فيحول دون تسرب الماء إليها ، وبضعة مقاعد ومظلة من جريد النخل وشراع من الجريد المجدول ، وبذلك يت بناء القارب ، فلا يدخل فى بنائه أى معدن ولا تستعمل فى ذلك أية أدا غير أداة تشبه الفأس تستعمل فى قشر الخشب . وفى الواقع لا يعرف هؤلا الناس أى نوع من الأدوات سوى حراب الصيد وهذه الفؤوس وممتلكاتهم المنزلية قليلة ، لأن حياة التجول نفسها تحول دون اقتناء كثي من الممتلكات التى لا تتفق مع سهولة الحركة ، ولذلك كانت ممتلكاته مقصورة على قليل من قدور الطهى المصنوعة من الفخار ووعاءين أو ثلا من البامبو لحفظ الماء ، و بعض الأوانى الفخارية الأخرى وقليل من الصفا الفارغة . وملابسهم قليلة ، وفى أغلب الأحيان لا تزيد على ما يس العورة ، على أن بعض الشابات قد يلبسن أكثر من ذلك إذا استطعن الحصول عليه .

ويقضى السيلونج معظم وقتهم فى صيد السمك أو فى الغوص وراء اللؤلؤ ، ولكنهم قد يجوسون خلال الغابة بحثاً عن العسل أو عن الخنزير البرى يساعدهم فى ذلك كلابهم ، وقليل منهم يقومون بزراعة مساحات صغيرة من الموز والمانجو والأناناس ، ولكن عنايتهم بها قليلة ، فهم لا يزورونها إلا بين الحين والحين ، إذ ينحصر اهتمامهم ونشاطهم فى الحصول على قوتهم اليومى من السمك وأم الخلول والعسل والفواكه .

وفى فصل الصحو ينتقلون من جزيرة إلى أخرى دون أن يقيموا فى مكان واحد أكثر من ليلتين ، فإذا حل فصل العواصف بحلول الرياح الموسمية الجنوبية الغربية اضطروا إلى التوقف عن الصيد وقصدوا إلى خليج محمى ينشئون فيه ملاجئ حقيرة يقضون فيها شهور الانتظار ، وفى هذه الفترة يصلحون قواربهم وينسجون حصيرهم من جريد النخل .

ولا تزيد عدد السيلونج على تسعمائة نفس ، ولا يبدو أن هذا العدد آخذ فى النقصان .

وليس فى أمريكا أقزام حيث ينتمى جميع السكان الأصليين إلى شعبة أو أخرى من شعب الهنود الحمر ، ولكن هناك قبائل متأخرة جداً تعيش فى غابات الأمزون وجيانا ، و بعض هذه القبائل تزرع قليلا من نبات المانيوق علاوة على ما تقوم به من القنص ؛ على أن هناك فى أقاصى

غابات الأمزون ، تعيش قبيلة تسمى ماكو Makw أو بوجزا Pogsa ، وهم قوم يعيشون فى العادة بعيداً عن الأنهار الكبيرة ، ولذلك كان أكل السمك عندهم ترفا غير معروف . والماكو بدائيون وذوو طباع خشنة إلى أقصى حد ولكنهم قناصون من الطراز الأول ، فهم مهرة جداً فى استعمال قصبة النفخ وفى استعمال القوس والسهم ، على أن ما يوجد فى غابات الأمزون من حيوان الصيد غير مضمون دائماً شأنه فى ذلك شأن الفواكه والجذور الصالحة للطعام ، ولهذا يتعرضون لفترات طويلة من القحط والجوع تتخلل فترات الأعياد والأفراح التى يقيمونها ابتهاجا بما يعثرون عليه من القردة والطيور البرية . والبوجزا صغار الأجسام قباح المنظر شُعث الشعر ، وكثير منهم لا يلبسون شيئاً من الملابس ولا يستعملون شيئاً من أدوات الزينة ، حتى ولا ريش الطيور الذى يُكثر الهنود الحمر من استعماله . و بعض هؤلاء الناس البدائيين جداً لايتخذون لهم مساكن من أى نوع ، ولكن بعضهم ينشئون مساكن على جانب من الحقارة ، ولا يزيد فراشهم على كومة من القش ، ولا يعرفون صناعة الفخار ولا أى نوع من أنواع النسيج ، ولكنهم يعرفون النار ويصنعون من العظام نوعا من الأعواد الموسيقية . وهؤلاء الأقوام صائرون حتما إلى الزوال .

الفصل الرابع

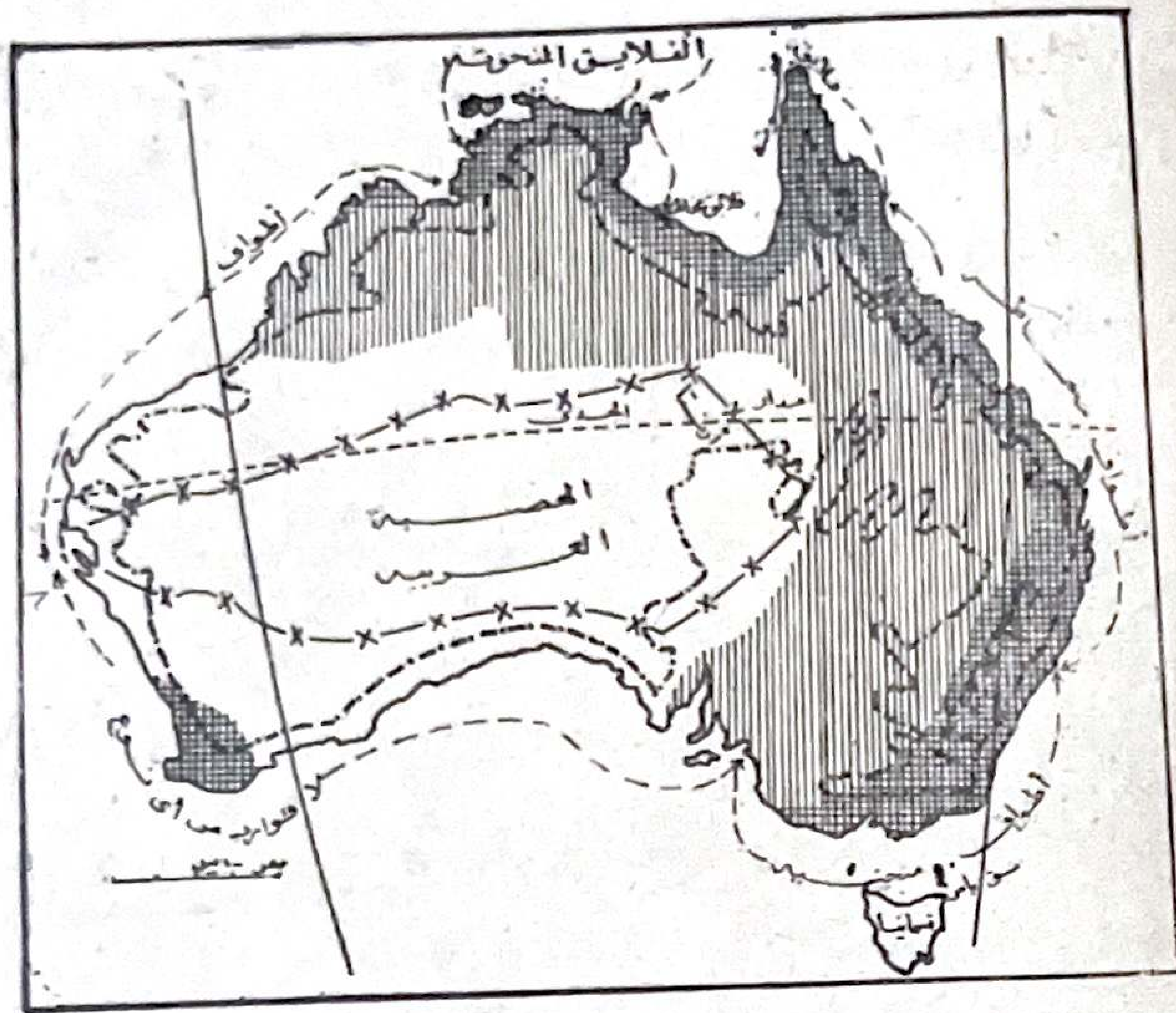
سكان أستراليا الأصليون

أستراليا جزيرة كبيرة بمعزل عن العالم المعمور اللهم إلا فى ناحيتها الشمالية القريبة من آسيا ، ولهذا كان المدخل الوحيد الذى يمكن أن ينفذ منه الناس والأفكار إلى أستراليا هو ناحية الجزر الكثيرة القريبة من رأس يورك .

ويقع نصف القارة تقريباً فى المنطقة الحارة ،ولذلك كان مناخها حاراً أو دافئاً . وتقع الجبال فيها قرب السواحل ، ففى الشرق تسير سلسلة جبلية من الشمال إلى الجنوب ، وكذلك تقترب المرتفعات الغربية من الساحل ، بينما ترتفع الأرض فى الشمال والشمال الغربى ارتفاعا كبيرا نحو الهضبة الداخلية . وتنعدم الأنهار انعداما يكاد يكون تاماً ، والنهر الوحيد ذو الأهمية هو نهر مرى ورافده دارلنج ، وتوجد عدا ذلك أنهار كثيرة تزخر بالماء فى فصل الأمطار فقط ، وحتى فى هذا الفصل لا تلبث الأرض المتعطشة أن تشرب ما تجود به السحب من المطر القليل . ومقدار المطر الساقط قليل، وأكثره ما يسقط على السواحل الشرقية وفى الأجزاء الشمالية

القريبة من إقليم الأمطار الاستوائية . ويقل المطر الساقط فى كثير من أنحاء القارة عن عشر بوصات فى العام . وقد كانت قلة كمية المطر الساقط مضافا إليها عدم انتظام سقوطها ـ وهى صفة تشترك فيها جميع الأقاليم ذات المطر القليل ـ مما اضطر السكان الأصليين إلى حياة التنقل ، ومع ذلك فإن الحاجة قد خلقت منهم قوما ماهرين فى معرفة مواطن الماء حتى فى أشد الأقاليم جفافا . وتكثر فى الأقاليم الماحلة البحيرات الملحة ، كما أن التربة فى بعض الأماكن مشبعة بالأملاح ، وهذا سبب آخر من أسباب قلة النبات .

والغابات الأسترالية التى تحف بالسواحل تبدو للناظر أقرب إلى الأحراج منها إلى الغابات ، ومن السهل اختراقها على ظهر جواد . وفى الجنوب الشرقى والشمال تمتد مناطق الأعشاب امتداداً عظيما ، لكن هذه الأعشاب تقل نحو الداخل ويتباعد بعضها عن بعض بسبب تناقص المطر حتى تقترب فى النهاية من الصحراء القاحلة التى يمهد لها ظهور الصخور العارية أو الأرض التى تغطيها الأملاح ، ومع ذلك فمن الصعب أن نقارن أستراليا بالصحراء الكبرى إذ أن فى أستراليا يندر أن يوجد مكان ينعدم فيه النبات تماماً ، وقد يكون أكثر أقاليم العشب صعوبة هو إقليم الشجيرات التى يستحيل اختراقها ، وهو إقليم تغطيه شجيرات كثيفة متشابكة تنمو بينها بعض



(شكل ١٠)
بعض التوزيعات فى أستراليا

الأشجار أحياناً . وهناك مناطق استبس أخرى تبدو كأنها أرض رعوية لكنها فى الحقيقة من أكثر البقاع خطراً وأندرها سكاناً ، لأن النبات الذى يشبه العشب هو فى الحقيقة نبات شوكى جاف جداً وأعواده يابسة حادة كأشواك القنفذ وليس لها أى قيمة غذائية .

ولسنا نعرف تماماً ماهى أنواع النبات الذى كان السكان الأصليون

يعيشون عليه ، غير أن شيئاً من تلك النباتات الأصلية لم يستأنس بالزراعة ، ومن المتواتر أنه كان فى جنوب أستراليا واحد وعشرون نوعاً مختلفاً من الجذور ، وأربعة أنواع من العصارات ، وسبعة أنواع من الطفيليات ، ونوع من الساجو وزهور البرنكسيا **Branksia** بما تحويه من عسل وفير ، وكانت جميعها تستعمل فى الغذاء ، ومع ذلك فإن النباتات الغذائية فى الشمال كانت أكثر جداً مما كان فى الجنوب .

وكما كانت الحياة النباتية قليلة كذلك كانت الحياة الحيوانية ، ولم يكن هناك حيوان يمكن استثناءه غير الكلب الأسترالى نصف المتوحش ، ومن المحتمل أنه أول ما وصل إلى أستراليا كان نصف مستأنس .

وكما أنه لم يكن بأستراليا حيوان مستأنس لم يكن بها أيضاً حيوان مفترس ، ومع ذلك فلا بد أن صيد الكنجرو والأيمو كان شاقاً بسبب قدرتهما على الجرى السريع ، ولم يكن صيد الحيوانات الأخرى سهلاً لأنها جميعاً حيوانات ليلية.

ثم إن طبيعة القارة ومواردها أرغمت أهلها الأصليين على أن يكونوا صيادين قبل كل شىء ، وكان لزاماً عليهم أن يحصلوا من بين العشب والشجيرات على غذاء يوم بيوم وإلا هلكوا من الجوع . وقد كان من

نتيجة ذلك أن أصبحوا من أمهر الصيادين وقصاصى الأثر فى العالم ، ولا زالت حكومة أستراليا إلى اليوم تلجأ أحياناً إلى بعضهم ليعاونوها على اقتفاء أثر المجرمين .

ويعتقد الثقات أن أول من دخل أستراليا من السكان هم أولئك الذين استوطنوا تسمانيا ، وأنهم دخلوها عندما كان مضيق تورس فى الشمال ومضيق باس فى الجنوب لا يزالان جزءاً من اليابس . فلما هبطت الأرض وانفصلت تسمانيا انعزل أهلها عن بقية سكان القارة . ولا يوجد اليوم أحد من أولئك التسمانيين فقد هلك آخر فرد منهم فى سنة ١٨٦٧ . وبعد انفصال تسمانيا نزح إلى أستراليا جنس جديد دخلها من الشمال وصار يعرف بالأستراليين الأصليين ، وذلك قبل أن تهبط الأرض فى شمال رأس يورك وقبل تكون مضيق تورس . فلما تكون هذا المضيق انفصل الأستراليون عمن يليهم إلى الشمال ، كما انفصل التسمانيون من قبل ، ولبثوا قروناً عديدة دون أى اتصال بالعالم الخارجى لبعد القارة عن العمران فى جميع الاتجاهات إذا استثنينا شمالها الشرقى ، وقد حرمتهم هذه العزلة من أن تصلهم أى آراء من الخارج ، فبقوا على حالهم المتأخرة ولم يحدث تغير يذكر فى طريقة حياتهم. أما سكان الشمال فإن ثقافتهم وطرق حياتهم قد اعتراها بعض التغير لقربهم من جينيا الجديدة وجزر مضيق تورس التى كان أهلها يجوبون البحار فى فلايقهم المنحوتة من جذوع الأشجار .

ومن المحتمل أن عدد السكان الأصليين فى أستراليا لم يكن كبيراً فى يوم من الأيام ، ويقدر أنه كان فى سنة ١٧٨٨ من ٢٥٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف . ومنذ دخل الجنس الأبيض أخذ عدد أولئك فى التناقص حتى أنه لا يقدر اليوم بأكثر من ٥٠ ألف من الخالصين و١٤ ألف من المهجنين، وبعض هؤلاء يعيشون فى أقاليم خصصت لهم بينما لا يزال بعضهم يعيش فى الفلوات الفقيرة التى لم يسكنها الأوروبيون ، كما كانوا يهيمون منذ أقدم العصور ، وبعضهم قد برم بقيود المدنيـة فتقهقر إلى أقاصى أعماق القارة . وقد يعيش المرء فى فكتوريا أو فى نيوسوث ويلز سنوات عديدة دون أن تقع عينه على أحد من السكان الأصليين الذين يعيش أكبر عدد منهم فى أستراليا الشمالية والوسطى وفى الشمال الغربى من أستراليا الغربية .

ويرى العلماء أن سكان أستراليا الأصليين ينتمون إلى بعض الشعوب التى تكلمنا عنها فى الفصل السابق (الساكاى والفدا والكادير) وأنهم جميعاً من جنس واحد هو المعروف باسم ما قبل الدرافيدى . وهم بلا شك شعب من أقدم شعوب العالم وأكثرها تأخراً ، وهم موزعون فى مساحات شاسعة من القارة مما يجعل اختلافهم فى مظاهرهم وطرق حياتهم اختلافاً يسيراً من إقليم لآخر أمراً طبيعياً ، ويظهر هذا الاختلاف على الأخص فى لون البشرة وفى شكل الرأس .

وهؤلاء الأقوام ذوو أجسام طويلة رشيقة مفتولة ، وصدور عريضة جميلة ، لكن أرجلهم مع ذلك رديئة التكوين . وهم فى طولهم أقل من الرجل الانجليزى العادى ، إذ يبلغ متوسط طول الرجل منهم خمسة أقدام وست بوصات ، ولو أن منهم من يزيد على ستة أقدام ، كما أن منهم من لا يزيد على خمسة . أما النساء فمتوسط الطول بينهن ، يقل عن متوسط الطول بين الرجال بنحو أربع بوصات . ولون البشرة يختلف من الأسمر العادى إلى لون الشوكولاته الداكن . ولون الأطفال أقل سوادا من لون البالغين ، والرؤوس مستطيلة (أى أن عرضها أقل من ٧٥ ٪ من طولها) وجباههم متراجعة إلى الخلف ، وعظام حواجبهم وأنوفهم بارزة ، وأفواههم كبيرة ، وشفاههم غليظة ، ولكنها ليست مقلوبة كشفاه الزنوج ، وأنوفهم عريضة ومنخفضة فى جزئها الأعلى ، ومحدبة فى وسطها مما يجعلها شبيهة بأنوف اليهود وعيونهم السوداء غائرة ، ولكن أهم ما يميزهم شعرهم البنى القاتم الذى لا هو مفلفل ولا مكتكت كشعر الزنوج فهو مموج أو أشعث ، بل قد يكون مستقيما . على أن لون الشعر يصعب تحديده لأنهم يدهنونه دائما بالمغرة على سبيل الزينة . ويكثر الشعر على الوجه وعلى الجسم ، ويطلقون لحاهم التى يتبدل لونها فى الكبر إلى لون أشهب ، فتضفى على الرجال ثوبا من الوقار . وأيديهم صغيرة وأرجلهم رفيعة ، وتساعدهم أقدامهم العريضة

بأصابعها الرخوة على أن يلتقطوا بها الأشياء بنفس السهولة التى يلتقطونها بها بأيديهم ، بينما تساعدهم صلابة قاع أقدامهم على السير فوق الأرض الوعرة بسهولة لا تتيسر لرجل أوروبى ينتعل نعلا مناسبا .

وكل ما يستعمله الأستراليون الأصليون من قبيل الملبس ، متخذ من المملكة الحيوانية، باستثناء الأحزمة المصنوعة من لحاء الشجر ، وملابسهم فى الواقع قليلة جدا ، إذ أنها لا تعتبر أبدا من الضرورات ، وتتكون من شراشيب أو أهداب من الخيوط المصنوعة من شعر الأوبوسم Opossum [1] أو من مآزر مصنوعة من نفس المادة أو من الشعر الآدمى . ويحمل الرجال أسلحتهم فى مناطقهم . ويلبس الوطنيون فى الليالى الباردة ملابس ثقيلة مصنوعة من جلود الكنجرو أو الأوبوسم أو الدب الأسترالى. وتحتاج عباءة الشخص البالغ إلى ثلاثين أو أربعين من جلود الأوبوسم ، وهم يدبغون الجلود ثم يخرزونها بمخراز مصنوع من العظام ، ثم يشبكونها بعضها إلى بعض، بواسطة خيوط رفيعة يمررونها فى الخروق الناتجة ، وبذلك يتم صنع العباءة . والسكان الوطنيون فى فكتوريا هم أكثر الأستراليين استعمالا للملابس ، حيث الجو هناك أبرد ، ويستعملون مرايل من الجلود أو الفراء أو الريش ، كما يصنعون أبسطة من جلود الأوبوسم . وحيثما يعيش الوطنيون

(١) حيوان من ذوات الجيب يعيش فى أستراليا .

قريبا من مواطن المستعمرين الأوروبيين ، تغطى نساؤهم أجسامهن بما يجدنه من قطع الأقمشة ومن الثياب . ويطيل الرجال شعورهم ويكومونها أحيانا على هيئة قرص من الشعر ، مختلط بدهانات مختلفة من المغرة الحمراء والدهون والأقذار ، بينما يندر أن يسدل النساء شعورهن حتى تصل إلى أكتافهن ؛ وفى هذه الحالة يندر أن يكومنه على هيئة أقراص ، بل يغلب أن يكون ملفوفا فى شبكة ، أو مربوطا بشريط ، مع استعمال قضيب من الخشب فى حجم قلم الرصاص ، فى أغراض التمشيط . وينتشر فى كل مكان استعمال أدوات الزينة على اختلاف أنواعها ، وهى تشمل عقودا منوعة من أسنان الكنجرو ومن الأصداف ومن قطع الغاب ، وحليا للجبين ، من أسنان الكنجرو ، ودبابيس تلبس فى الأنف . ومن عاداتهم خرق أنف الطفل فى الطفولة المبكرة بأداة من العظام تشبه المخراز ، ثم يترك الخرق بعد ذلك على حاله ، أو تُدخل فيه قطعة رفيعة من العظام . لكن الأساور المصنوعة من الغاب لا تستعمل إلا بين الذين يعيشون فى الأقاليم الوسطى . ومن وسائل الزينة أيضا التشريط ، وأكثره يتم فى أوقات الحداد على الموتى ، ففى هذه المناسبات ، يقطع الجلد بقطع من الصوان أو الزجاج ، وبعد ذلك يحك الجلد برماد النار أو زغب الريش ، ليساعد فى اعتقادهم على سرعة شفاء الجرح ، مع أن الذى يحدث فعلا ، هو أنه يترك أثره فى الجلد على هيئة ندبة . وللأغلب

هؤلاء الناس أيضا ثنيات جلدية كبيرة، تتكون فوق بطونهم، من كثرة ما يشدون عليها بأحزمتهم، عندما يقضون أيامهم على الطوى. ومن الملاحظ أيضا أنه يندر بين الرجال من لم يفقد من أسنانه الأمامية واحدة أو اثنتين،



(شكل ١١)
أهل الحرف فى القبيلة يصنعون فأساً حجرية

تكون قد أصابتها وأطاحت بها ضربة أثناء حفلاتهم التدريبية. ومن عادات النساء قطع عقلتين من عقل احدى الخنصرين، واستعمال الخضاب بكثرة ولا سيما فى الحفلات، ويستعملن فى ذلك عديدا من الألوان، منها الأحمر والأصفر والأبيض والأشهب والأسود، والمغرة الحمراء سوق رائجة عندهم، لأنهم يستعيضون بها فى حفلاتهم عن الدماء البشرية.

ويحيا هؤلاء الوطنيون حياة التجول، وتهيم كل قبيلة فى الإقليم الذى تدعى ملكيته، ولا تقيم فى مكان واحد، إلا ريثما يندر الصيد، أو يغيض الماء. أما طالما كان الصيد والماء وفيرين، فإنهم يتجولون فى إقليمهم هنا وهناك جماعات صغيرة، لا تزيد إحداها على عائلتين أو ثلاث، وتتكون العائلة عادة من الزوج وزوجته أو زوجاته، وأولادهما، الحقيقيين أو المتبنين، ويقيمون مضارب مؤقتة بجوار موارد الماء. وهذه المضارب ينشئونها على نظام خاص كل واحد منها على بعد ١٥ إلى ٢٠ قدما من الذى يليه، وتقيم كل عائلة فى كوخ مستقل أو **Wurly** كما يسمونه. وهذه المساكن على جانب من البساطة، وقد لا تزيد على مجرد حاجز لصد الريح، أو كوخ حقير. أما حيث يوجد قدر كاف من الطعام ومن الماء، فانهم يقيمون مساكن أكثر متانة، يصنعونها من الأغصان المغطاة بقشور الأشجار أو بالعشب، وفى بعض الأحيان بطبقة من الطين، ويراعى أن تكون الناحية المفتوحة من هذا المسكن، هى الجهة التى لا تأتى منها الريح، وبذلك تحجب الريح عن النار التى يوقدونها فى نفس الجهة، كما تدفع أيضاً دخان النار بعيدا عن الكوخ. وفى كوينزلند تغطى الأكواخ بأوراق الشجر، وفى أستراليا الغربية بلحاء الشجر أو بالحلفاء، وفى فكتوريا بالخشب أو بالعشب، ويقال إنه قد عثر فى الشمال الغربى على أكواخ مبنية من الحجر. ويتكون

كوخ الأرنتا Arunta التى تعيش فى أستراليا الوسطى ، من غصنين ذوى شعبتين ، يغرسان فى الأرض على بعد سبعة أقدام أو ثمانية . ويثبت فوق شعبتيهما قضيب من الخشب فى وضع أفقى ، ثم يأتون بأغصان ذات أوراق عريضة يثبتون أطرافها السفلى فى الأرض ، ويسندون أطرافها العليا إلى القضيب الأفقى من الناحية التى تهب منها الريح . أما الأثاث فلديهم منه النزر اليسير: حجر الطحن ، ومغزل بدائى الصنع ، يستعملونه فى فتل الخيوط ، وقليل من القصع الخشبية .

ويعتمد سكان أستراليا الأصليون فى غذائهم على لحوم الأسماك والسحالى والضفادع والثعابين والديدان والحشرات ، وعلى الخضر البرية ، وبعبارة أخرى على كل شىء غير سام يصلح للاكل . ومقدار ما يستطاع الحصول عليه من هذه الأطعمة يختلف اختلافا كبيرا فى أجزاء القارة المختلفة . ومهمة النساء — يساعدهن أطفالهن — هى جمع الحشرات الصغيرة والجذور والفواكه والحبوب وما إليها ، أما الرجال ، فعليهم الصيد والقنص وجمع العسل . وتجوب النساء والأطفال أنحاء الإقليم للبحث عن الطعام ، ويحملن معهن عصا غليظة أحد طرفيها مدبب والآخر حاد ، تستعمل فى البحث عن الجذور ، ثم يجمعن كل ما يحصلن عليه فى قصعة من الخشب يحملنها فوق رؤوسهن أو فوق خصورهن . وأهم الجذور التى يجمعنها ، جذور

الصرغم ، وهى نوعان . وتجمع أيضا جذور نباتات أخرى كالبرسلان Purslane وتطحن بين حجرين ، وما ينتج عن ذلك من طحين خشن يخلط بالماء ، فيتحول إلى عجينة خشنة ثم يؤكل نيئا أو مخبوزا ، وتتبع نفس الطريقة فى ما يسمونه حبوب الناردو ، أو السنبل الرومى ، وهو نبات غير مزهر ، ولكن القيمة الغذائية لهذا الطعام قليلة . ومن المحصولات النباتية الأخرى التى يجمعونها ، نبات الطرطوفة (وهو طفيلى ينمو تحت التربة ويصل إلى أحجام كبيرة ويطلق عليه اسم الخبز الوطنى) وحبوب السنط وغيره والفواكه والطفيليات ، وحتى المن (وهو عصارة تتركب من سكر العنب وتوجد على بعض النباتات) له عندهم قيمته . وتجمع النساء كذلك ما صغر من الحيوان كالفئران والسحالى والثعابين والضفادع والقواقع والديدان الصغيرة والكبيرة (grubs & caterpillars) وبالاختصار يجمعن كل ما يستطاع تناوله .

ويقوم الرجال بجمع العسل ، وعند ما يعييهم العثور على خلايا النحل البرى ، يمسكون نحلة ويلصقون على جسدها بالصمغ زغب ريشة ، وبذلك يستطاع تتبع أثرها إلى حيث يوجد عسلها المختزن . ويصيد الأهالى الأسماك كلما كان الصيد ممكنا ، ويستعملون فى ذلك المزاريق والحراب والمصايد والشباك والسدود والسم ، وتقوم النساء بجمع الأسماك ذات المحار .



(شكل ١٢)

وطنى من شمال أستراليا فى قاربه المفرغ

بالشراع كما تسير بالمجاذيف الصغيرة ، ومن المعتقد أن هذه القوارب ذات العوارض الجانبية ليست من أصل أسترالى بل عرفها الأستراليون من جينيا الجديدة .

ومهارة الأستراليين فى قتل الحيوانات البرية والإيقاع بها بأسلحتهم

البدائية — لكن المتقنة الصنع — أمر عجيب حقاً ، فإن كل ما كان فى متناول أيديهم من المواد الأولية يصنعون منه أسلحتهم لم يكن يعدو الأحجار والأصداف والعظام والأسنان والخشب وألياف النباتات المتنوعة وصمغ بعض النبات وشمع العسل ، وذلك قبل أن يجيئهم الأوروبيون بالقوارير الزجاجية والفواصل الفخارية (Earthenware insulators) والحديد ، ولا يعرف استعمال القوس منهم سوى سكان كوينزلند الذين هم أصلا من سلالة البابوا . أما السلاح الوحيد الذى يمتاز به الأستراليون الأصليون فهو « البومرانج » ، وهو قطعة من الخشب رقيقة ومقوسة، يتراوح طولها بين قدمين وثلاثة أقدام ، بها ثنية بسيطة فى كلا طرفيها، على أن هناك عدداً من القبائل لا تعرف هذا السلاح. و«البومرانج» على أنواع عديدة ، والنوع الذى يرتد إلى حيث يقف قاذفه، هو فى الواقع أداة من أدوات اللعب ، ولو أنه قد يستعمل أحياناً فى صيد الطيور ، ولكن كثيراً من القبائل لا تستعمل هذا النوع. وللأهالى الوطنيين مهارة فى قذف هذا السلاح بحيث يتخذ فى الهواء طريقاً بيضوى الشكل تقريباً. و«البومرانج» الحربى العادى يقذفه الرجل وهو منحن، فيصيب العدو أسفل درعه ، وهو يقذف بحيث يصيب الأرض أولا على بعد نحو ستين قدما ، ثم يرتفع منها ويطير نحو مائتين وأربعين قدما على ارتفاع ثابت هو أربعة

أقدام . و بعض أنواع «البومرانج» يمكن قذفها مسافة سبعمائة وخمسين قدما وهو ينفذ بسهولة خلال الأجزاء اللينة من جسم الإنسان .

وكانت الحراب وما زالت أهم أسلحة الصيد والحرب ، وكثيراً ما تزود الحربة بثلاث قطع من السلك ، ولها فى الغالب رأس منفصل عن بقية جسمها يصنع من قطعة من الخشب المتين أو الحجر المشطوف ، وفى الوقت الحاضر يصنعونها من الزجاج أو أسلاك التلغراف . وقد تقذف الحراب باليد ، ولكنها فى العادة تقذف بأداة قاذفة يسمونها **Womera** أو **Awesa** ، وهى أداة على شكل ورقة شجرة يثبت فى أحد طرفيها خطاف يوضع فيه طرف الحربة ، بينما يُخشَّن الطرف الآخر ليسهل لليد القبض عليه . وهذه الأداة هى للقاذف بمثابة امتداد للذراع يزيد قوته على القذف البعيد ، وقد تستعمل فى أغراض أخرى كاستعمالها أحياناً فى توليد النار . وتوجد قاذفات تشبه هذه بعض الشبه ، يستعملها الإسكيمو ، وكثير من الوطنيين فى غرب أمريكا الجنوبية وشمالها وجنوبها ، وكذلك كان يستعمل مثلها أهل المكسيك القدماء .

وتتخذ السكاكين من الحجر المشطوف ، وهى تمسك باليد أو تثبت بواسطة عصارة الشجر إلى أيد من الخشب ، بينما تتكون البلطة من حجر مشكل تشكيلا دقيقا له يد خشبية تنتهى بشعبتين ، ويثبت إليها بالصمغ

أو بالربط بخيوط من الألياف أو من عصب الكنجرو . ومن أسلحتهم أيضا الهراوات الصغيرة يقذفونها ، والهراوات الكبيرة يضربون بها ، ويستخدمون دروعا من نوعين أحدهما لاتقاء الضرب بالهراوات ، والآخر لاتقاء الحراب ، وكلا النوعين يزينونه بخطوط يحفرونها فيه . وتختلف أشكال الأدوات المتنوعة فى أنحاء القارة المختلفة ، و بعضها غير معروف أصلا فى بعض الجهات ، فمثلا «البومرانج» لا أثر له فى الأطراف الشمالية من شبه جزيرة رأس يورك ، وكذلك قاذف الحربة غير معروف فى الجنوب الشرقى من كوينزلند .

وسكان أستراليا الوطنيون صيادون مهرة ، وهم يعرفون كل طريقة يستطيعون بها التغلب على ذكاء الحيوان . ومن ذلك إغراؤه عن طريق تقليد صوته . و يصاد الطير غالبا بطريقة بسيطة جدا أو بواسطة الشباك ، لكن عند ما يكون سرب كبير منها يستعمل «البومرانج» فى الغالب . غير أن «الأيمو» القوى الذى قد يزن مائة وخمسين رطلا ، لا يصاد بهذه السهولة ، وقد تستعمل الشباك للايقاع بالطير الكبير ، وقد تحفر له حفرة كبيرة أو عدة حفر متتالية بالقرب من مساقطه ، و يرشقون وسط الحفرة حربة قائمة يغطونها بالأغصان والتراب ، ولا بد أن يسقط فيها عاجلا أو آجلا أحد تلك الطيور الكبيرة فيستقر جسده فوق الحربة . و يصاد الكنجرو —



(شكل ١٣)

قذف الحربة

وهو على أنواع عديدة — بطرق مختلفة ، أكثرها شيوعا طريقة الشباك ، على أن الكلاب قد تستخدم فى الجو المطير . وأكثر الطرق رياضة أن يطارده رجل بمفرده حتى تخور قواه ، لكن هـذه الطريقة تستلزم قوة جسمية خارقة من جانب الصياد . وتصاد الأنواع الصغيرة من الكنجرو بواسطة الشبك أو الفخاخ تنصب فى طريقها ، بينما قد يصاد الأوبوسم **opossum** فى الليالى القمرية بمساعدة الكلاب ، على أن أكثر الطرق

انتشارا لصيده هى أن يبحث فى جذوع الأشجار عن آثار مخالبه ، فإذا عثر عليها ، يصعد الوطنى إلى الشجرة و يقطع فى جذعها قطعا فى المكان الذى يظن أن الحيوان مختبئ فيه ، ثم يجره إلى الخارج جرا ، أو يسلط عليه الدخان ، فيضطره إلى الخروج . والوطنى ماهر فى تسلق الشجر ، ويزيد فى سهولة مهمته ما يحفره فى جذعها من حزوز ليثبت فيها قدميه .

ومعظم الأطعمة تطهى بالشى على النار ، أو على الأحجار المحمية . أما الطيور فانها عادة تنتف ثم توضع على النار . وكان سكان فكتوريا فيما مضى يصنعون نوعا من الأفران يتخذونها من الأحجار المحمية ، وعليها عشب مبلل ، وكانت الطيور توضع على العشب وتغطى بالطين ، ثم توضع بعد ذلك على النار ، وتبقى النار موقدة حتى يتم نضج الطيور ، وعندئذ يزيلون الطين فيقتلع معه الريش . أما الكنجرو فانهم يحرصون قبل طهوه على انتزاع أعصاب الذيل ، ويلفونها على عصا للانتفاع بها فى الخياطة ، ويطهى الكنجرو بطرق مختلفة ، ففى بعض الأنحاء يحفرون فى الرمل موقداً يحمونه ثم يضعون فيه الحيوان دون سلخ ، ثم يهيلون عليه رماد النار و يتركونه ينضج على مهل ، وفى بعض الأحيان يقطعونه و يطهونه قطعة قطعة .

ولا يهتم الوطنيون بتنظيم طعامهم فى مواعيد محددة ، بل يتناولونه فى أى وقت من النهار ، غير أن الوجبة الأساسية يتناولونها قبل المساء ؛

ويقوم الأب بتقطيع اللحم بواسطة حد الأداة القاذفة للحراب ، و يعطى منها نصيباً لكل من زوجاته وأولاده . ولا يفكر الوطنيون فى المستقبل ، ولا يدخرون له شيئاً ، وفى أوقات المسغبة يشدون أحزمتهم على بطونهم و يتحملون آلام الطوى .

وقبل أن نختم الحديث عن الطعام ، نشير إلى عادة أكل اللحوم البشرية ، فنقول : إن هذه العادة لم تكن منتشرة بين الأستراليين فى كل مكان ، لكن فى بعض الجهات كانوا يأكلون من يقتل فى الحروب ومن يقضى بالمرض ، أما فى سائر الأنحاء ، فإن هذه العادة لم تمارس أبداً إلا فى الاحتفالات .

والماء هو شراب الأستراليين المعتاد ، ولكنهم كثيراً ما يُحلونه بإضافة العسل إليه ، أو إضافة ثمار «الباندانا» أو المن ، أو بقايا أقراص العسل فى خلايا النحل ، وهذا الماء المحلى ، كثيراً ما يعتريه التخمر ، فيتحول إلى مسكر قوى . و يحفظ الوطنيون ماء الشرب فى أوعية من الجلود والأصداف والخشب ، وفى شمال القارة يستعمل القرع وأنواع من الأوعية المجدولة .

وللوطنيين ولع بالتدخين ، وهم يدخنون أوراق شجرة خاصة ذات رائحة نفاذة ، و يستعيضون عن «الغليون» بقصب البامبو ، وكذلك يمضغون أوراق البيتيورى Pituri ولبابيه و يجدون فى ذلك مخدراً بهيجاً .



(شكل ١٤)

توليد النار بإشعال درع وقاذف الرمح معاً

ويولد الأستراليون النار بطريقتين ، إحداهما طريقة الإدارة أو الفتل ، والثانية طريقة النشر . وقد وصف كابتن كوك أولى الطريقتين فقال :

« إذا أراد الأسترالى توليد النار يأخذ قطعتين من الخشب اللين الجاف ، إحداهما عصا يبلغ طولها نحو ثمانى بوصات أو تسع ، والأخرى مفلطحة ، ثم يبرى أحد طرفى القطعة الأولى حتى يصير نقطة غير حادة ، ويضع هذا الطرف فوق القطعة المفلطحة ويديرها بين راحتيه بسرعة ، وكثيراً ما يحرك راحتيه فوق العصا صعوداً وهبوطاً ، ليزيد بذلك من سرعة دورانها بقدر الاستطاعة ، وبهذه الطريقة تتولد النار فى أقل من دقيقتين » .

أما فى طريقة النشر فإن القطعة المتحركة ، وهى غالباً نفس أداة قذف الرمح ، توضع أفقية فوق القطعة الأخرى ، التى يغلب أن تكون درعاً ، ويثبت الدرع على الأرض بواسطة القدمين ، ويقوم رجلان بتحريك قاذفة الرمح بقوة إلى الأمام وإلى الخلف فوق الدرع ، وبعد قليل يتصاعد الدخان من النشارة الدقيقة ، التى تكون قد تناثرت من الاحتكاك ، وعندئذ ينفخون نفخاً رقيقاً فى الصوفان الجاف ، الذى تناثرت عليه النشارة فتتولد النار وشيكا . ولكى يوفر الوطنيون على أنفسهم مشقة توليد النار كلما احتاجوها ، يحملون معهم شعلة موقدة أينما رحلوا . هذا كان فيما مضى ، أما اليوم فإن كثيرين منهم قد عرفوا استعمال الثقاب . ولا يعرف

الأستراليون الأصليون صناعة الفخار ، ولكنهم يصنعون أنواعاً مختلفة من السلال ومن الحقائب المجدولة ، كما يصنعون الخيوط من ألياف نباتية ومن شعر الإنسان وشعر « الأوپوسم » .

وإذا استثنينا الأطراف الشمالية من كوينزلند ، نجد سكان سائر الأنحاء لا يعرفون آلة موسيقية بمعنى الكلمة ، ولكنهم يضبطون الإيقاع بالعصى أو « البومرانج » أو بالضرب بالأيدى على جلود « الأوپوسم » الملفوفة أو المشدودة بين الركبتين .

الكتابة

ولا يعرف الأستراليون أى نوع من أنواع الكتابة ، ولكنهم يتخذون ألواحاً من الخشب ، يحفرون عليها حفراً وعلامات ، ويستعملونها فى التراسل ، ويسمونها عصى المراسلات . ومن المشكوك فيه أن أحداً غير مرسل الرسالة يستطيع أن يفهم مغزاها ، ولكن العصا على أى حال تقوم دليلاً على صحة رسالة الشخص الذى يحملها ، ويبلغ مضمونها شفوياً ، كما أنها تساعد بلا ريب على تثبيت الرسالة فى ذاكرة حاملها . وهناك طريقة للتخاطب أهم من عصى المراسلة ، وهى طريقة الإشارات ، وهذه الطريقة تتبعها بعض القبائل فى التفاهم مع الغرباء .

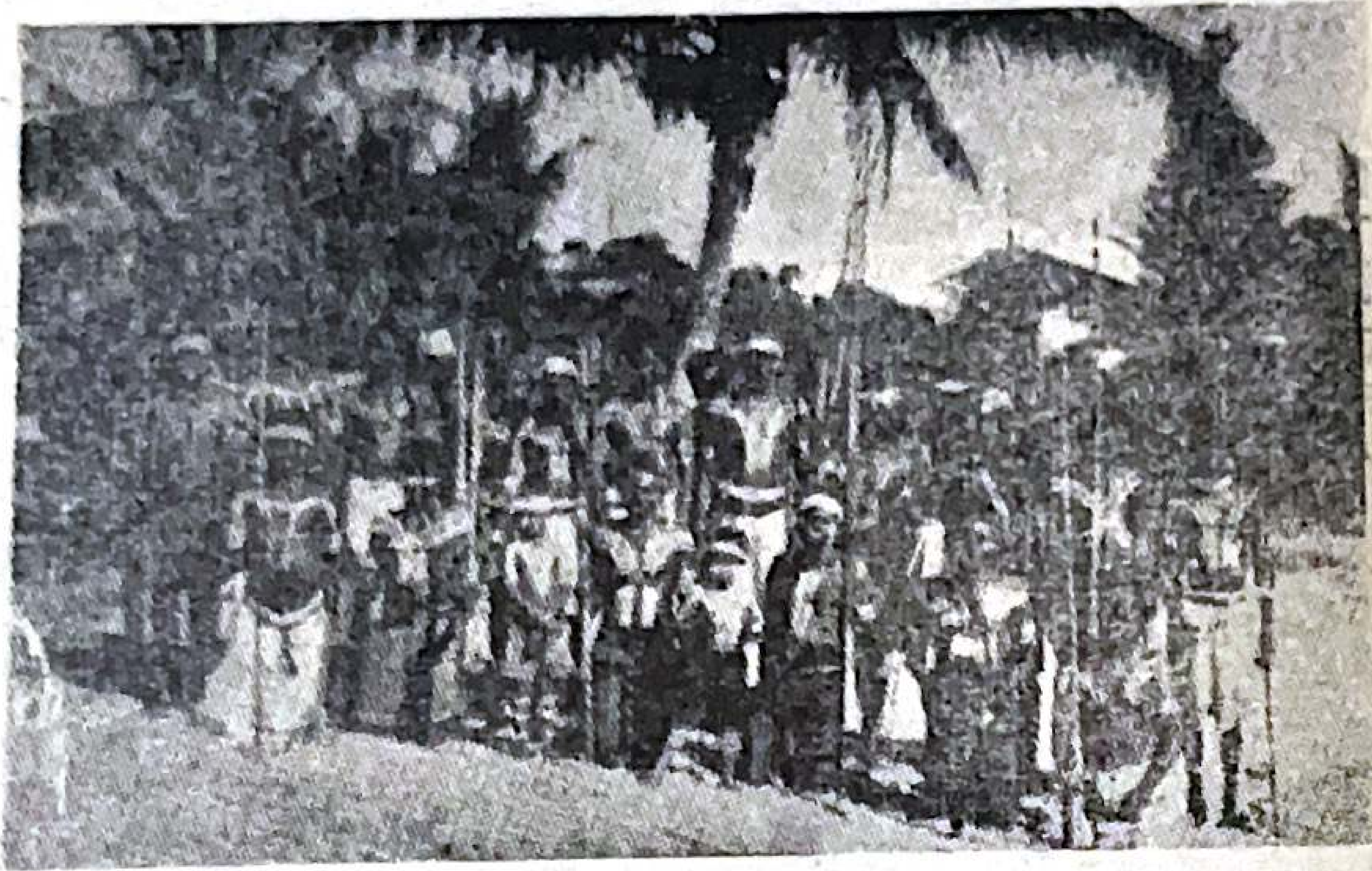
الاعداد

ولدى قليل من القبائل ، كلمات مستقلة للدلالة على الأعداد ، فيما زاد على ثلاثة أو أربعة ، ولـكن الأعداد نفسها لا تقف عند هـذا الحد . إذ الواقع أنه من المؤكد أن بعض القبائل تستطيع العد إلى مائة ، أما التعبير عما زاد على أربعة من الأعداد ، فيكون بطرق شتى ، فبعض القبائل مثلاً تعبر عن العدد خمسة بقولها : اثنان اثنان واحد (باكولا باكولا نجورا) والعدد عشرة يعبر عنه عادة بأصابع اليدين ، والعدد عشرين بأصابع اليدين والقدمين معاً .

أما الفن فلا يزال على حالة قصوى من البداوة ، على أنهم قاموا بمحاولات للتعبير بالرسم ، بدليل ما خلفوه من رسوم على الصخر فى أنحاء مختلفة من القارة ، وما خلفته بعض قبائل الأقاليم الوسطى من رسوم على الأرض ، وبعض قبائل شرق القارة من رسوم على لحاء الشجر .

الألعاب

وتمارس القبائل الأسترالية كثيراً من الألعاب ، كلعبة مهـد القط مثلاً ، وهى تتلخص فى عمل أشكال تمثل أشياء مختلفة ، باستعمال الخيوط وشدها على أصابع اليدين ، والاستعانة بالفم والركبتين ، وأحياناً بأصابع شخص ثان ، وهذه اللعبة يمارسها النساء والأطفال ، بينما فى شمال كوينزلند



(شكل ١٥)

الوطنيون يستعدون لحفلة الـكور بورى

لا يمارسها إلاّ الرجال . ويلعب الأطفال بالنحلة وبالـكرة وبأسلحة مقلدة يتشبهون بها بآبائهم . وتنتشر بين الرجال المصارعة والمبارزة بالسلاح ، كما يمارسون فى كل مكان « ألعاب التقليـــد » و « ألعاب التظاهر » .

ومن ألعابهم الغريبة ، لعبة « الويت ويت » أو « فأر الـكنجرو » وهى قطعة من الخشب ، يبلغ طولها من ١٢ إلى ٢٠ بوصة ، ذات رأس

قمعى ، وذنب طويل ، ويستطيع اللاعب المتمرن أن يقــذف بها إلى مسافة بعيدة .

ويقضى هؤلاء الأقوام أغلب لياليهم فى حفلات راقصة يسمونها « كوروبرى » Corroboree قد تستمر بضع ليال متعاقبة ، وهم يقيمونها عادة فى الليالى التى يكتمل فيها القمر بدراً ، ويضيفون إلى ضوئه ، ضياء شعلة من النار يوقدونها ، ويقوم النظارة من الشيوخ (وأحياناً من الشباب) ومن النساء والأطفال ، بالغناء ، وضبط الإيقاع بالنقر بالعصى ، وبـ « البومرانج » وغيرها ، بينما يقوم الشبان بالتمثيل والرقص ، بعد أن يخططوا أجسامهم برسوم ذات أشكال خاصة ، أما النساء فلا يرقصن إلا نادراً .

وهذه الحفلات الراقصة كثيراً ما تمثل تقاليدهم وعاداتهم وأعمالهم السحرية ، وقد تكون ذات طابع دينى ، على أن الغرض الحقيقى منها ، هو تسلية المشاهدين ، ولا شك فى أنها تدخل عنصر السرور إلى حياتهم الاجتماعية .

ويجرى بين بعض هذه الجماعات والبعض الآخر ، قدر محدود من التبادل التجارى ، وهم ينظمون أحياناً رحلات خاصة لجلب بعض المحصولات ، كالحجارة والمغرة الحمراء ، وهما مادتان لا توجدان إلا فى مناطق

خاصة . ويتم التبادل فى بعض الجهات بطريق المقايضة ، وهى إعطاء قدر معلوم من سلعة ما ، فى مقابل قدر آخر من سلعة أخرى ، يعتبر مساويا فى قيمته للقدر الأول . على أن الذى يحدث فى أغلب الأحيان أن تتم المقايضة على شكل تبادل الهدايا ، وحينئذ لا يراعى فيها التساوى فى القيمة ، ويندر أن يكون الأمر كذلك ، ولا ينظر إلى تبادل الهدايا هذا على أنه تعامل ، بل يعتبر واجباً وامتيازاً اجتماعياً وهو من ناحية أخرى ، وسيلة لتقوية أواصر الصداقة ؛ وعلى أى حال فهو وسيلة من وسائل نقل السلع التى توجد فى ناحية ما ، إلى سكان الجهات المجاورة لها .

الحياة الاجتماعية

ومع أن معيشة القبائل الأسترالية بدائية إلى حد كبير ، إلاّ أن حياتهم الاجتماعية تخضع خضوعا تاما لقواعد معروفة ، فالقانون والنظام يخضعان للتقاليد ، وينفذان بدقة تامة ، وهناك قوانين دقيقة تنظم الزواج ، وتبين ما يحل للإنسان من الطعام ، وتعرض من يخرج عليها للعقاب الشديد ، الذى قد يصل إلى الإعدام ، كما تنص على عقاب من يلجأ إلى السحر ، لإلحاق الأذى بأحد أفراد القبيلة .

وبعض عاداتهم وقوانينهم معقدة ، إلى حد أن دراستها قد أثارت كثيراً من الجدل بين الأوروبيين ، مع أن فهمها لا يستعصى على أى طفل من أطفال تلك القبائل .

أما نظام القبيلة عندهم فمعقد ، وهو يختلف من قبيلة لأخرى ، ونعنى بالقبيلة عدداً من الناس ينتمون إلى أصل مشترك كما يشتركون فى ملكية منطقة من الأرض ، وتقوم بينهم صلات القرابة ويتكلمون لغة واحدة أو لهجة واحدة . وتنقسم القبيلة فى العادة إلى عدد من العشائر ، وتنقسم العشيرة إلى عدد من الجماعات كل جماعة منها عبارة عن عائلة أو عائلتين أو ثلاث . والعائلة هى فى الواقع ، الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع الأسترالى ، وهى وحدة اقتصادية تقوم على الاكتفاء الذاتى ، بمعنى أن الزوج والزوجة مسئولان عن توفير ضرورات الحياة لأفرادها . ويقدرون أن القارة الأسترالية عند ما نزلها الأوروبيون لأول مرة ، كان بها عدد من القبائل يتراوح بين مائتين وخمسين وثلثمائة .

ويرأس كل قبيلة زعيم ، وقد تأتيه الزعامة عن طريق الوراثة ، ولكن العادة المتبعة هى أن الزعيم يرث الزعامة إذا كان قد أظهر براعة فى الحروب أو امتاز بالعقل الراجح ، أو بالقدرة على السحر . ويساعد الزعيم فى مهام وظيفته مجلس من رؤساء الجماعات المحلية ، بينما الأطباء أو السحرة ، ليس

لهم سلطان إلا ما يصلون إليه عن طريق نفوذهم الشخصى ، وهم يؤدون فى آن واحد ، عمل رجال الدين ورجال السحر ورجال الطب فى القبيلة .

وتنقسم كثير من القبائل — وليست جميعها — إلى طبقتين كبيرتين ، تسمى كل منهما طبقة أخوية ، وهما تختلفان اختلافا تاما عن الجماعات القَبَلية ، ولا يحل لرجل أن يتزوج بامرأة تنتمى إلى نفس طبقته الأخوية . أما الأطفال فينتمون فى بعض الأقاليم إلى طبقة أبيهم ، وفى بعضها الآخر إلى طبقة أمهم . وتنقسم هاتان الطبقتان عند بعض القبائل أقساماً كثيرة صغيرة ، وفى هذه الحالة ، تصبح قوانين الزواج شديدة التعقيد ؛ فقبائل الأرنطا **Arunta** مثلاً تنقسم إلى ثمانية أقسام زواجية ، ولا يستطيع الرجل أن يتزوج إلا من قسم معين ، أما أولاده الذكور ، فينتمون إلى قسم غير الذى ينتمى هو إليه ، وغير الذى تنتمى إليه أمهم ، فى حين أن بناته يتبعن قسما آخر غيرما ذكر . ومما يزيد الأمر تعقيداً ، ذلك النظام الغريب الغامض المعروف بالطوطمية **Totemism** وهو معروف لدى جميع سكان أستراليا الأصليين . وقد يكون « الطوطم » حيواناً أو نباتاً ، أو أى شىء من الأشياء ، ينتسب إليه شخص أو جمع من الأشخاص ، ويرتبطون به بطريقة غامضة ، وتتكون منهم مجموعة « طوطمية » واحدة . وسواء انتمى أفراد المجموعة « الطوطمية » إلى قبيلة واحدة أو لم ينتموا ، فإنهم

جميعاً يعتبرون إخوة ، ويشتركون معاً فى امتيازات خاصة ، كما يشتركون فى التزامات خاصة ، وتحرم عليهم أشياء خاصة . وعلى كل فرد ينتمى إلى مجموعة « طوطمية » أن يقدم ما يستطيع من العون ، لكل فرد ينتمى إلى نفس المجموعة ، ويحرم عليه أن يسيء إلى « طوطمه » أو أن يقتله أو يأكله ، كما يحرم عليه ، فى الغالب ، أن يتزوج بامرأة تنتمى إلى نفس المجموعة . أما الأبناء فإنهم فى بعض الأنحاء ينتمون إلى مجموعة أبيهم « الطوطمية » ، وفى أنحاء أخرى ينتمون إلى مجموعة أمهم .

وتستنزل المجموعة « الطوطمية » الوفرة والقوة على « الطوطم » بواسطة حفلات تقيمها ، وتتخللها أعمال سحرية ، وهناك طقس سرى (طريقة) لا يشترك فيه إلاّ العالمون بأصول السحر .

ولا يعرف بالضبط كيف نشأت فكرة « الطوطم » ، ولكنها موجودة فى أنحاء أخرى غير أستراليا ، لا سيما فى أمريكا الشمالية ، وبعض جهات إفريقية ، وفى ميلانيزيا ، كما أن بقاياها لا تزال ظاهرة بين القبائل الجبلية فى الهند ، ولفظ « طوطم » نفسه من أصل هندى .

وتقسيم القبائل إلى مجموعات ، كالتى سبق ذكرها ، لا يعدو أن يكون سبيلاً لتلخيص العلاقات القائمة بين أولئك الأقوام ، على أن هناك فى كل مكان ، قوانين تحرم التزاوج بين الأقربين ، فهى تنص على أن الرجل

يحل له أن يتزوج فقط بامرأة تمتُّ له بنوع خاص من القرابة ، لكن الواقع أن كل شخص فى القبيلة ، لا بد أن يمتَّ بنوع من القرابة لكل شخص آخر من نفس القبيلة ، بل إن أى شخص ، لا بد أن يمت بنوع من القرابة ، لأى شخص من أية قبيلة أخرى تربطه بها صلة ، غير أن مدلول لفظ القرابة لدى تلك القبائل ، يخالف مدلوله الذى نفهمه ، فمثلاً لفظ أب عندهم ، لا يقتصر معناه على الأب الحقيقى للشخص ، ولكنه يطلق أيضاً على مجموعة كاملة من الرجال الذين تربطه بهم روابط قرابة خاصة . فالمبدأ الذى يسيرون عليه ، فى تقسيم الناس إلى مجموعات ، بحسب وشائج القرابة ، وفى نسبتهم إلى الاسم الذى يدل على تلك الوشائج ، يفرق بين نظام القرابة التقسيمية ، والقرابة الوصفية .

قوانين الزواج

وتختلف قوانين الزواج عند هذه القبائل من قبيلة لأخرى ، وليس فى وسعنا أن نتناولها هنا بالشرح جميعاً ، ولكننا نكتفى بذكر أبسطها فيما يلى :

١ — يحل للرجل أن يتزوج ابنة خاله وابنة عمته ، أو بأية امرأة أخرى مماثلة لهما فى درجة القرابة .

٢ — يحل للرجل أن يتزوج ابنة خاله . لكنه لا يحل له أن يتزوج ابنة عمته .

من أجل هذا كان على الرجل ، إذا اعتزم الزواج ، أن يبحث أولاً عما إذا كان يحل له زواج الفتاة التى وقع عليها اختياره ، فإذا كانت القوانين تحرمها عليه ، وتزوجها رغم ذلك ، عرّض نفسه وزوجته لعقوبة الإعدام ؛ أما إذا كانت تحل له ، فإن عليه أن يدبر أمر تزويج أخت من أخواته من أحد أفراد عائلة زوجته — وهذا هو النظام نفسه الذى سميناه « تبادل رأس برأس » ، عند الكلام فى الفصل الأول عن الأقزام — أو عليه أن يهرب بها ، أو أن يختطفها ؛ وهذا الحل الأخير يستتبع قيام مبارزة حبية إلى حد ما ، مع أحد أقارب الزوجة ، على أنه لا بد من تدبير أخت يقدمها ، فى مقابل الزوجة التى اتخذها .

وعند ما يولد لهؤلاء الناس طفل ، عليهم أن يقرروا أولاً ما إذا كانوا يسمحون له بالحياة ؛ وقد يبدو هذا عملاً قاسياً ، لكن الواقع أنهم لا تتوافر لديهم الأطعمة الخفيفة ، ولا الألبان ، ولا أى نوع من الغذاء ، الذى يصلح للأطفال . ولذلك كان على الأم أن ترضع طفلها عامين ، أو ثلاثة أعوام ، وهى لذلك لا تستطيع أن تربى كثيراً من الأولاد . والطفل الذى يعيش يعامل فى العادة معاملة حسنة . ويلعب الأولاد مع البنات إلى سن

السابعة دون أى تفريق ، وبعد ذلك تبدأ البنت تتعلم واجبات المرأة ، كتشييد الأكواخ ، وجمع الطعام ، وعمل الشباك . أما الأولاد فيبعدون عن البنات ، وينامون فى مساكن العزاب ، ويلقنون واجبات الرجال .

والأستراليون — كسائر الشعوب البدائية — يخضعون البنين والبنات لاختبارات خاصة ، والاختبارات الخاصة بالبنات بسيطة نسبياً ، أما الأولاد فعليهم أن يمروا بسلسلة طويلة من الطقوس المعقدة ، وغالباً ما تكون شاقة إلى أقصى حد ، تبدأ فى نحو العاشرة ، ولا تنتهى إلا بعد العشرين بكثير . وترمى هذه الاختبارات من جهة ، إلى معرفة قوة الحدث على الاحتمال ، ومن جهة أخرى ، إلى تعويده الطاعة لمن هم أكبر منه سناً ، كما أنها ترمى إلى تعليمه تاريخ القبيلة المتوارث وتوكيد ضرورة مراعاة تقاليدها .

وتختلف هذه الحفلات نوعاً ما فى كل قبيلة عن القبيلة الأخرى ، ولكن المرأة فى معظم القبائل لا تشترك إلا فى المراحل الأولى منها ، فإذا ما انتهى الغلام من المرحلة الأولى مثل كسر الأسنان الأمامية ، أو الختان ، أقاموا حفلاً خاصاً للدلالة على أن الشاب قد تحرر نهائياً من سلطة النساء ، ولا يسمح للنساء بحضور المراحل النهائية من هذه الحفلات التى يطلع فيها

الشبان على سر الجعران[1] وتفسر لهم الطقوس الدينية ، ويفقهون فى معتقدات القبيلة وعاداتها ، بما فى ذلك قوانين تحديد الطعام .

والجعران عبارة عن شظية رقيقة من الخشب ، مربوطة بخيط ، إذا أديرت فى الهواء بسرعة انبعثت منها أصوات غريبة مزعجة ، وهذه الأصوات مصدر فزع شديد للنساء والأطفال ، الذين لا يعرفون سرها ، وينسبونها إلى القوى الخارقة .

« والشورنجا » — وهى أداة قريبة الشبه جداً بالجعران — هى شظفة من الحجر ، مشكلة تشكيلاً خاصاً ، تحفر عليها ، أو تنقش ، أشكال « طوطمية » ، ويتراوح طولها من بضع بوصات إلى خمسة أقدام . وهى فى نظرهم العلامة الخارجية لروح الأجداد ، إن لم تكن هى نفسها روح الأجداد مجسمة ، وهى أداة مقدسة ، لا يسمح برؤيتها لأحد من النساء ، أو من غير المطلعين على أصول العقائد .

(١) هذه الأداة تشبه أداة يلعب بها الأطفال فى ريف مصر يسمونها الجعران ، ولذلك رأينا أن نشتق لها هذا الاسم نفسه .

دفن الموتى

وعند وفاة شخص تدفن جثته عادة ، ولكن بعض قبائل الأقاليم الوسطى تتركها معرضة فى مكان خاص أو فوق شجرة ، بينما تحرقها قبائل « نيو سوث ويلز » .

ويعبر عن الحزن على الميت بإحداث ندب عميقة فى الجسم ، وصبغه وحلق شعر الرأس .

ولهم ، فيما يختص بمصير الروح ، معتقدات شتى . منها أنها ترحل فى اتجاه غربى ، أو تبقى خالدة فى الجو ، أو تعيش فى الأشجار ، أو تحت ماء البحر ، وقد تتقمص شخصاً آخر أسود أو أبيض .

السحر

ويلعب السحر دوراً هاماً فى حياة هؤلاء الأستراليين ، وله أثر كبير فى كل ما يأتون من الأعمال تقريباً ، ويستطيع كل واحد منهم أن يمارس السحر الأسود ضد أى شخص آخر أساء إليه ، أما السحر التطبيبى ، فلا يمارسه إلا المحترفون . وطريقة ممارسة السحر الأسود ، أن يمثل الساحر

دور الذى يغرس العظام أو الحجارة فى جسم عدوه ، أو دور الذى يقوم بطريقة غامضة غير مفهومة بإزالة بعض أعضاء عدوه الداخلية . ومن المواد التى تنسب إليها قوى سحرية خارقة ، بلورات الكوارتز ، وشحم الكلى الآدمية . ويمر ممارس السحر الطبى باختبار خاص يشتمل على تمثيل القتل وإعادة الحياة ، كما أن استنزال الغيث من الأمور التى يمارسها السكان فى كل مكان .

الفصل الخامس

البشمن سكان كلهارى

جنوب إفريقيـــة هضبة شاسعة ، يعلو معظم أجزائها كثيراً على ثلاثة آلاف قدم ، فوق مستوى سطح البحر ، وتحف بها من الجنوب الشرقى مرتفعات « دراكنزبرج » العالية . وحرارة هـــذا الإقليم دون المدارية ، ولـكن ارتفاع الجهات الداخلية يخفف من حرارتها ، فيصبح هواؤها منشطاً ، ويصبح مناخها فى جملته مناسباً للمستعمرين الأوروبيين .

وتسقط معظم أمطار هذا الإقليم فى أشهر الصيف ، إذا استثنينا الإقليم الصغير الواقع حول « كيبتون » ، إذ يسقط مطره فى الشتاء . ويبلغ مقدار المطر أقصاه فى الجنوب الشرقى ، حيث سفوح « دراكنزبرج » المواجهة للرياح ، ويتناقص تدريجاً نحو الغرب ، حيث يوجد إقليم شاسع لا يصل متوسط مطره السنوى إلى عشر بوصات . وهنا ـ كما أسلفنا فى الباب السابق ـ تصبح فترات الجفاف الطويلة ، التى يتعرض لها الإقليم أحياناً ، كما تصبح قلة المطر وعدم انتظام سقوطه ، عوامل هامة تجعل الحياة فيه غير مضمونة .

وليس فى هذا الإقليم غابات إلاّ فى المناطق الساحلية ، فى جنوبه الشرقى ، أما الداخل فمناطق مُعْشِبَة ، تقل أعشابها نحو الغرب ، حتى تنتهى تدريجا إلى إقليم كبير شبه صحراوى ، هو إقليم « كلهارى » الذى تتخلله مساحات صغيرة متباعدة من أعشاب « البشمن » والشجيرات الشوكية ، والذى يتخذ فى أقصى الغرب مظهراً صحراويا صرفا حين ينتهى إلى صحراء الناميب (Namib) على ساحل إفريقية الجنوبية الغربية .

وعندما نزل الهولنديون فى منتصف القرن السابع عشر ، الإقليم الذى توجد به الآن مدينة الرأس ، كان يسكنه جنسان من الناس قصار القامة ، يضرب لون بشرتهم إلى الصفرة ، بينهم و بين سكان غابات الكنغو شبه قليل ، دون أن يكون لهم الفكان البارزان ، ولا الشفاه الغليظة المقلوبة ، ولا العيون الواسعة ، التى تمتاز بها الأجناس الزنجية . وكان أحد هذين الجنسين ، أطول قليلاً من الجنس الآخر ، و يعيش على رعى قطعان البقر ، وهو يعرف الآن باسم «الهوتنتوت». أما الجنس الآخر فلم يكن يرعى البقر أو يعرف الزراعة ، و إنما كان يعيش على الصيد والجمع ، وقد أطلق الهولنديون على هذا الجنس اسم « البشمن » .

وهؤلاء الأقوام ، الذين يُعتقد أن موطنهم الأصلى كان إقليم البحيرات الاستوائية الإفريقية ، كانوا فى وقت من الأوقات منتشرين فى سائر الإقليم الذى يقع جنوب « الزمبيزى » ، ولكن من المحتمل جداً أنهم

لم يكونوا أول جنس استقر فيه ، إذ قد عثر الباحثون على بقايا جنس أقدم منهم . وجاء بعد « البشمن » ، « الهوتنتوت » بقطعانهم من الأبقار ، فدفعوا « البشمن » أمامهم إلى الجهات التى يقل فيها المطر ، فازدادت الحياة فيها فقراً وشدة .

هكذا كانت الحال عند ما وصل المستعمرون الأوروبيون ، ولكن فى الوقت نفسه تقريباً ، كانت قبائل « البانتو » ، ذات البشرة السوداء ، والأصل الزنجى ، والتى كانت تعيش على رعى الماشية ، وعلى قليل من الزراعة ، كانت هذه القبائل آخذة فى الانتشار جنوباً ، فى الهضبة الوسطى ، وعلى الساحل الشرقى ، يقتلون أو يأسرون أو يطردون أمامهم كل من صادفهم من الأجناس الأخرى ؛ و بمرور الزمن وقف « البانتو » وجها لوجه أمام الهولنديين ، ثم بعد ذلك أمام البريطانيين . ولم يستطع « البشمن » أن يبقوا فى بلادهم عبيداً لأسياد من الدخلاء ، وكذلك صعب عليهم — وهم أقوام من القناصين — الحياة جنباً إلى جنب مع الزارعين من المستعمرين ، المنحدرين من أصل أوروبى ، والذين أخذوا ينتشرون فى تلك الأقاليم على حساب سكانها الأصليين .

من أجل ذلك كان حتماً أن يزحزَح « البشمن » تدريجاً نحو المناطق الجافة الفقيرة فى الغرب . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن بعض المستعمرين

أعلنوا على « البشمن » حرب الفناء ، حتى لم يبق اليوم من « البشمن » الخلّص غير القليل . على أنه يجب أن نقرر أن المستعمرين البيض كانوا أحياناً يستخدمونهم فى رعى القطعان ، وأنهم كانوا دائماً أمناء مخلصين لمن أحسن معاملتهم . ويقدر عدد « البشمن » فى الوقت الحاضر بنحو ستة آلاف نسمة ، يعيش بعضهم فى البقاع الجرداء ، فى الشمال الغربى من اتحاد جنوب إفريقية ، ويعيش أكثرهم فى الجزء الشمالى من إفريقية الجنوبية الغربية ، وفى « بتشوانالند » . والذى يهمنا من أمرهم أنهم جنس من القناصين والجامعين ، يقطنون مناطق العشب الفقيرة ، والمناطق الصحراوية فى الأقاليم المدارية .

صحراء كلهارى

وصحراء « كلهارى » موطن « البشمن » فى الوقت الحاضر ، وهى تمتد من نهر «أورنج» فى الجنوب إلى مستنقعات «أوكافنجو» **Okavango** و بحيرة « نجامى » فى الشمال ، وهو إقليم ذو أنهار منقطعة الجريان ، وأمطار غير مضمونة تختلف فى مقدارها اختلافاً كبيراً من عام إلى عام ، ولكنها على أى حال قليلة دائماً . وليس الحصول على مورد دائم من الماء مضموناً ، إلاّ فى البقع المنخفضة من مجارى الأنهار ، وفى المستنقعات المنخفضة ، والمسطحات الراكدة . والحاجة إلى الماء ، هى العامل

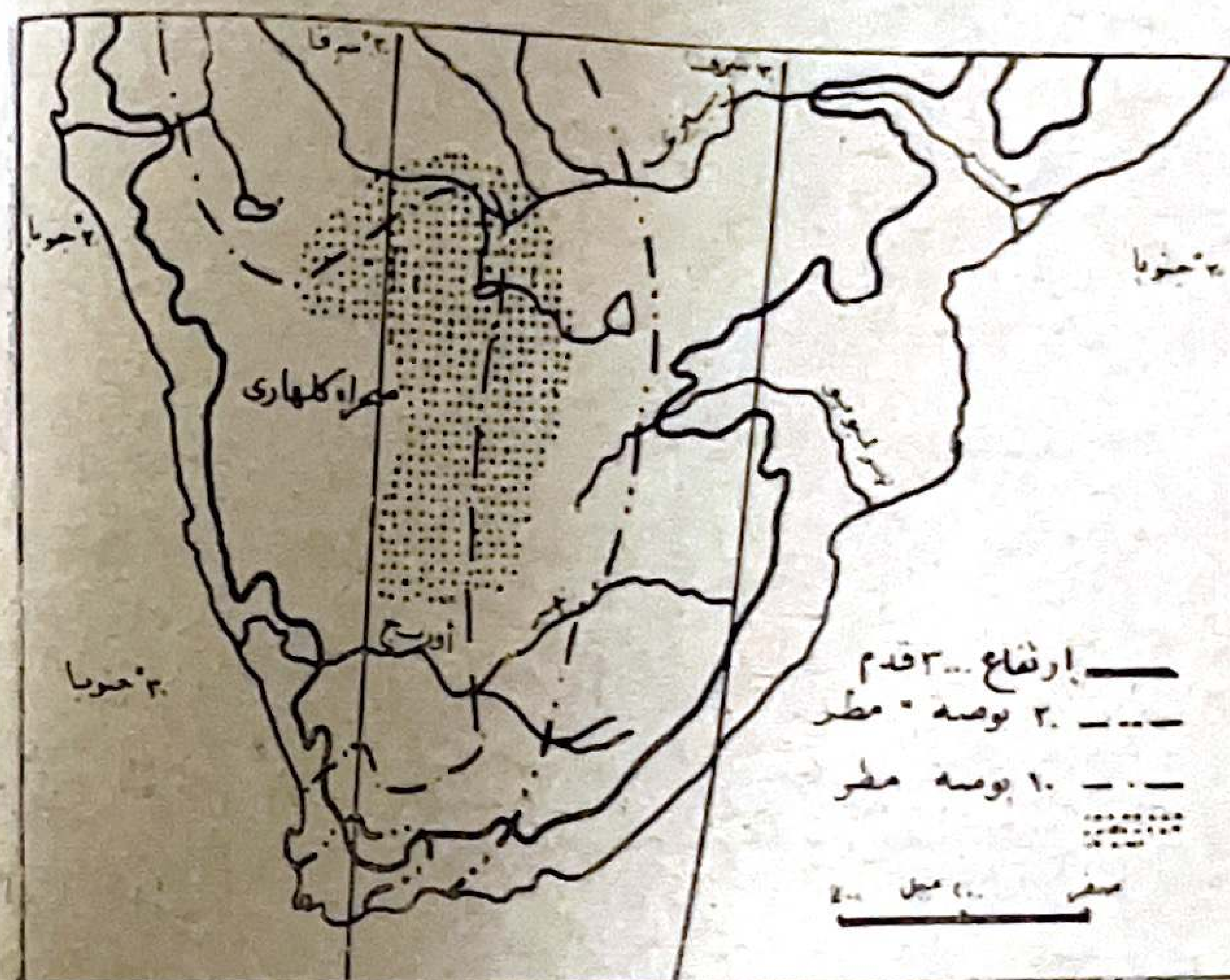
الأساسى الذى يتحكم فى تنقلات الإنسان والحيوان ، ولذلك كان الحصول على الماء ، لا على الطعام ، هو مشكلة الحياة الحقيقية . وفى البقاع التى يتوفر فيها الماء ، تتغطى الأرض بأعشاب ، تتخللها شجيرات شوكية ، و بعض أشجار قصيرة من «الباوباب» . أما فى ما عداها من البقاع ، فلا يوجد إلاّ مساحات صغيره متفرقة من عشب « البشمن » ، وقليل من شجيرات شوكية متباعدة وأحراش من شجر السنط ، تدل بوضوح على مدى ما يرتفع الماء فى مجارى الأنهار .

كذلك ينمو — حتى فى أكثر الجهات جفافاً — عدد من النباتات البصلية ، ولا سيا بطيخ البشمن المشهور ، وعدد من النباتات الدرنية وغيرها من ذات الساق العصارية . و بعض النباتات الدرنية تشبه الحصى شبهاً عجيباً ، حتى ليمر بها السائر دون أن يتبينها .

وكانت هذه الجهات ، إلى عهد قريب ، تعج بحيوان الصيد مثل البقر الوحشى والوعول والتياتل والزراف والفيلة والخرتيت وحمير الوحش والنعام . وكان القنص أهم مورد للسكان ، بسبب قلة الفواكه والجذور الصالحة للغذاء .

البشمن

ويبلغ متوسط طول الرجل من البشمن خمسة أقدام ، ويقل متوسط طول المرأة عن ذلك قليلاً ، ويزيد المتوسط على ذلك بين الجنسين على السواء ، إذا توافر الغذاء الضرورى . ولون البشرة عندهم أصفر ، أو قاتم مشرب بصفرة ، وأيديهم وأقدامهم صغيرة ، ويقال إنها رشيقة ، ورؤوسهم أيضاً صغيرة ومستطيلة ، تمتاز بانخفاض الهامة ، وبروز الجبين ، وازدياد



(شكل ١٦)

أين يعيش البشمن حاليا

عرض الأنف ، وبروز عظام الوجنتين . وعيونهم ضيقة ، وغالباً ما تكون منحرفة ، ولكن نظرهم مع ذلك قوى ، وآذانهم غالباً غير ذات شحمة ، وشعر البدن والوجه قليل جداً ، وشعر الرأس قصير وأسود وملبد ، وينمو فى مجموعات متفرقة ، على هيئة خصلات محببة أو حبات متجمعة من الفلفل . ومن خصائصهم البارزة ، تراكم الشحم على الإليتين ، وهو أمر منتشر على الأخص بين النساء .

ولا يستعمل « البشمن » من الملابس إلاّ القليل ، يصنعونه من



(شكل ١٧)

رجل وامرأة وطفل من البشمن

منتجات الحيوان ، فيلبس الرجال قطعة من الجلد مثلثة الشكل ، تمر من بين الرجلين وتربط حول الوسط ، وتلبس المرأة مئزرة صغيرة ، تتدلى أمامها من حزام حول الوسط ، وتزيد المرأة المتقدمة فى السن مئزرة أخرى ، تتدلى من الكتفين على الظهر . وتصنع هذه المآزر أحياناً من خيوط من الخرز . على أن أهم ما تتدثر به المرأة ، هو « الكاروس » ، وهو عباءة قصيرة من فراء نوع من التياتل Springbok تفصله وتزركشه ، ثم تلبسه على الكتفين، وتتخذ منه فى النوم غطاء . وكذلك يستعمل « الكاروس » حقيبة تحمل فيها الأشياء ، فإنه إذا ربط حول الوسط اتسعت ثناياه لحمل الطفل والطعام وخشب الوقود . ويلبس الرجال – وأحياناً النساء أيضاً – طواقى من الجلد، وكثيراً ما يلبسون فى أثناء السير أحذية خفيفة ، أو صنادل من الجلد أيضاً . ويشيع بين الرجال والنساء على السواء استعمال العقود الخرزية ، وهى قطع مثلثة الشكل من قشور بيض النعام ، يخرمونها بسكاكين من حجر الصوان ، وتتخللها أحياناً قطع مستديرة من الجلد . ومن عاداتهم خرم الأنف ووضع ريشة فيه ، وكذلك لبس الحجال والأساور ذات الأجراس ، وهذه الأجراس لا تعدو جيوباً صغيرة من الجلد فى داخلها قطع من الحصى . ويهتم « البشمن » بالتزين فى المناسبات الاجتماعية ، فيرسم الرجال مثلا على أجسامهم دوائر وأشكالا مختلفة ، باللون الأحمر أو الأصفر أو الأسود .

و « البشمن » على درجة بدائية فى نظامهم الاجتماعى وفى ثقافتهم ، فهم يعيشون فى جماعات ، يتراوح عددها من عشرين إلى مائة شخص ، وتتكون كل مجموعة من عدد من العائلات ، تعيش كل واحدة منها فى كوخها الخاص ، وقد لا يتصل بعضهم ببعض إلا فى فصل الجفاف ، عند ما يحطون الرحال جميعا قرب مورد الماء ، فإذا حلّ فصل المطر ، تفرقوا هائمين فى الإقليم الذى يشتركون جميعا فى ملكيته ، والذى يرثه أبناؤهم من بعدهم . وتتكون القبيلة من عدد من العائلات ، ترجع إلى أصل واحد ، وتتكلم لغة واحدة ، ولكن القبيلة فى حد ذاتها ليس لها فى نظامهم الاجتماعى أهمية تذكر .

ولا يحاول « البشمن » ممارسة الزراعة ، ولا تربية الحيوان ، ولكن لهم قدرة خارقة على القنص، وعلى جمع المحصولات النباتية البرية ؛ وقد اضطرهم السعى وراء الماء ووراء حيوان الصيد ، إلى أن يعيشوا عيشة بداوة وتنقل ، هائمين على وجوههم فى المنطقة التى يعدونها ملكا لهم . وعند ما يحطون الرحال فى بقعة من الأرض ، يقوم أكبر الرجال سناً بتحديد الموقع الذى تقام فيه الأكواخ ، ويوقد فيه شعلة من النار ، قبل أن تبدأ النساء فى عملية التشييد ، ويراعى أن لا يكون الموقع أبداً قريباً جداً من مورد الماء ، لئلا يكون ذلك سبباً فى نفور حيوان الصيد إذا أراد الارتواء .

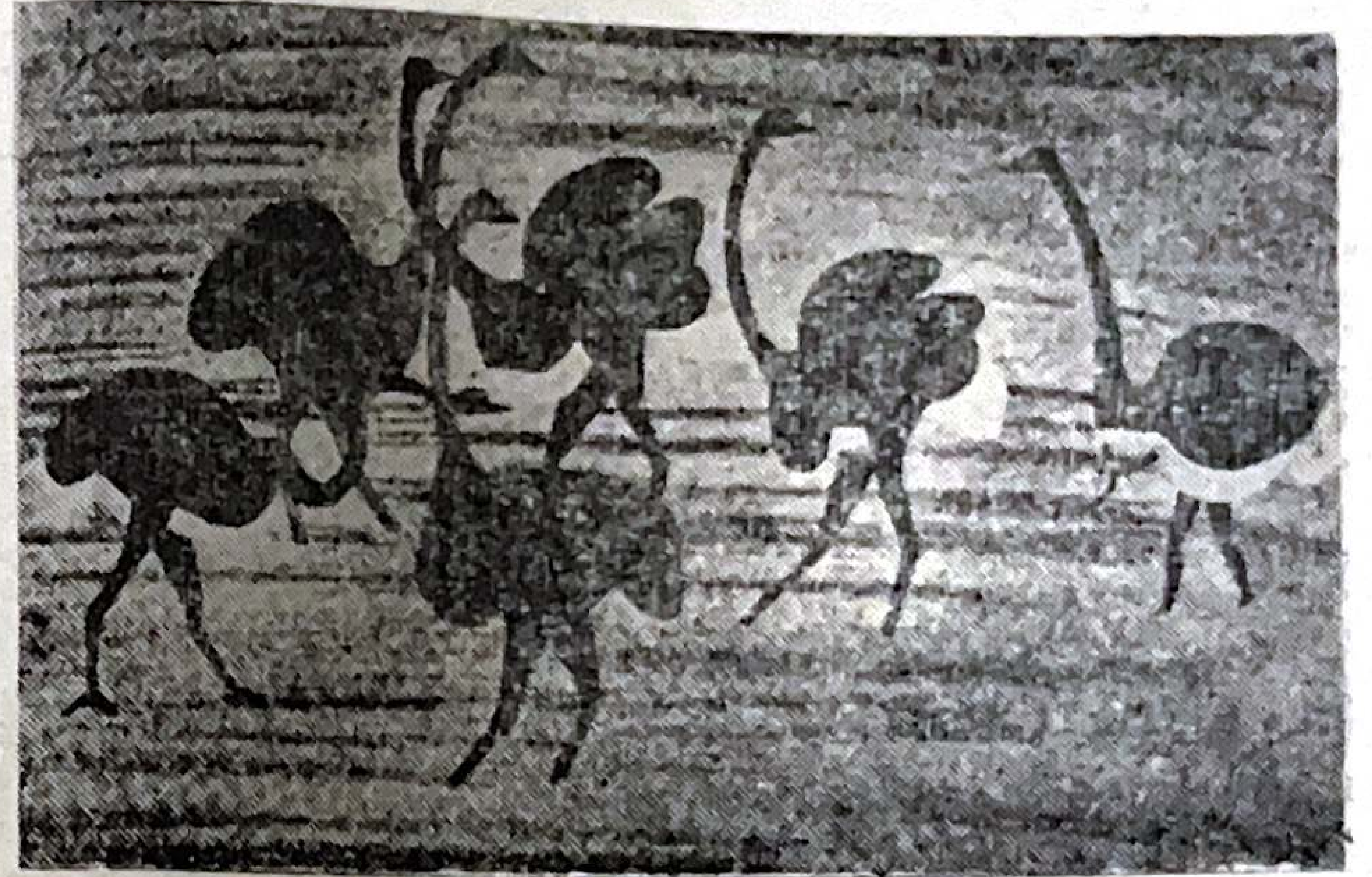
ويبنى هؤلاء الناس أكواخهم على شكل نصف قبة ، فيرشقون فى الأرض عدداً من العصى يبلغ طول الواحدة منها نحو أربعة أقدام ، ثم يجدلون بينها بالعساليج ، ويغطونها بالأعشاب ، فإذا جاء فصل المطر أضافوا إلى ذلك مزيدا من الأعشاب . وبذلك يكاد الشكل القبابى يصير تاماً . أما فى داخل الكوخ ، فإنهم يحفرون الأرض ، ويغطون التجويف الناتج من ذلك بالقش ، ويتخذون من هذا منامة ، يرقدون فيها على جنوبهم ، وأرجلهم مقبوضة إلى صدورهم . وفى خارج الكوخ يحتفظون بشعلة من النار موقدة . وفى بعض الأقاليم تغطى الأكواخ الصغيرة المقببة ، بحصير من قصب الغاب ، يوضع بعضه بجوار بعض ، ويجدل جَدْلاً متينا . وعند ما يعتزمون الرحيل ، تقوم النساء بحزم الحصير وربط العصى حزمة واحدة . وكان بعض « البشمن » فيما مضى يتخذون مساكنهم فى الصخور وفى الكهوف ، وكانت الكهوف الكبرى — وهى مساكن الزعماء — تزخرف غالباً برسوم من الحياة متعددة الألوان ، تمثل مناظر الصيد ، أو الحيوان ، وقطعان الماشية ، وأشكالا لها رؤوس حيوانات .

و « البشمن » — كسائر الصائدين الذين تناولهم الكلام آنفا — ذوو خبرة تامة بكل ما يحيط بهم من الظواهر الطبيعية . وأهل الجنوب ، الذين يجيدون تقليد الحيوان ، يلجأون فى الغالب إلى طريقة من طرق التنكر ،



(شكل ١٨)
مأوى البشمن

فمثلا قد يلجأ الصائد الذى يخرج عادة منفرداً — الاّ إذا كان يصطحب معه شخصاً يمرنه — قد يلجأ هذا الصائد إلى لف أعواد من العشب حول رأسه ، ثم ينساب بعد ذلك بين الأعشاب فى قفزات متقطعة ، وبهذه الطريقة يستطيع إذا بقى دائما تحت الريح أن يصل إلى مسافة قصيرة جداً من فريسته ؛ وفى بعض الأحيان يقلد النعامة فى مظهرها وفى حركتها التى



(شكل ١٩)

نقوش الكهوف تمثل صيد النعام

يجيد تقليدها ، وقد يبلغ به الأمر أن يقلدها وهى تتناول طعامها ، ثم يقتل من بينها العدد الذى يريده ، دون أن يزيد عليه شيئا .

ولا بد للصائد أن يكون قريبا جدا من فريسته ، لأن مدى السلاح وقوته على الإصابة غير كبيرين . وبما أن السم الذى يسقى به السهام ، لا يظهر مفعوله وشيكا ، كان على الصائد أن يتعقب فريسته ، ويلحق بها قبل أن تدركها الضباع أو النسور .

وإذا أرادوا الحصول على قدر كبير من الصيد ، خرج الصيادون فى شبه حملة ، وأقاموا فى عرض الوادى حواجز من الخوابير والأغصان ، تاركين فتحات تحفر أمامها حفر ليقع فيها الحيوان . وليس هذا العمل بالأمر الهين ، إذا عرفنا أنهم لا يملكون من أدوات الحفر غير «الكيبى» **Kibi** أو عصا الحفر ، وهى لا تزيد على قطعة من الخشب ، يدبب أحد طرفيها ويحمى فى النار ليزداد صلابة ، ثم تُمرر الخشبة فى حَجَر مثقوب يثبت فى وسطها ، ليزيد ثقلها . فإذا تمت الاستعدادات ، قام ضاربو الطبول بحملتهم الواسعة ، مبتدئين من الجهة الواقعة فوق الريح ، فتهرب الحيوانات أمامهم نحو الحاجز ، ويكون عدد من الصيادين قد اتخذوا أماكنهم قرب كل فتحة للإجهاز على الحيوان ، بمجرد سقوطه فى الحفرة .

ويستعمل الصيادون من الأسلحة ، الأقواس والسهام . وأقواسهم قصيرة ، وسهامهم صغيرة ، ولكنها قاتلة ، لأنها مسمومة . ومؤخر السهم شظية رفيعة من القصب مخرمة ولكنها غير مريشة ، يلفون حول كل من

طرفيها خيوطا يربطونها ربطا محكما ، يحول دون انفلاقها . أما طرف السهم الأمامى فيبلغ طوله نحو ست بوصات ، وهو قطعة من عظام رجل النعامة أو الزرافة ، تشكل بحيث تناسب قصبة السهم التى ستوضع فيها دون تثبيت ، ويربطون إليها قطعة مدببة من ساق ريشة من ريش النعام تكون بمثابة النصال . أما رأس السهم فيدبب ، ولكن الغالب أن يكون قطعة منفصلة من الكوارتز أو أى حجر صلب آخر . وهم يتخذونها فى الوقت الحاضر من الزجاج أو من الحديد ، ويلصق هذا الرأس بواسطة الصمغ ، أو أى عصارة أخرى ، بطرف السهم ، بعد أن يحفروا فى قطعة العظم حفرة صغيرة يبيت الرأس فيها .

وتؤخذ السموم التى يسقون بها سهامهم من عصارات نباتات شتى يعرضونها للشمس ليتبخر ماؤها وتزداد كثافتها ، وكثيراً ما يستعملون سموما حيوانية أشد فتكا ، يحصلون عليها من العقارب والأفاعى و (ذات الأربع والأربعين) والثعابين ؛ وأشد هذه السموم جميعها ، ما كان مأخوذا من دودة صغيرة يسمونها « نجْوا » (N'gwa) . وتختلف السموم فى قوة مفعولها اختلافا كبيرا ، وعند ما يتم تحضيرها وتصبح صالحة للاستعمال تكون فى شكلها أشبه بقطعة من الشمع سمراء أو سوداء . ويضع الصياد السم على رأس السهم بواسطة فرشاة ، أو قطعة خاصة من الحجر ، تسمى

حجر السم ، وهى قطعة من الحجر مسواة وناعمة ، محفور فيها أخدود . ولا يلمس السم بالأيدى أبدا ، ومع ذلك فلدى « البشمن » أنواع من الترياق ، يحتفظون بها لوقت الضرورة . ويحمل الصياد سهامه فى كنانة من الجلد ، أو لحاء الشجر ، مزينة بجلد الثعبان ، كما يحمل عددا منها أيضاً مثبتا حول رأسه ، يلجأ إليها إذا دعت الحاجة إلى سرعة العمل ، وليبعث بها الرعب أيضاً إلى قلب العدو .

وعلى النساء جمع الأحطاب ، وجلب الماء ، وصيد الحيوان الصغير ، وجمع الخضر للطعام . والأداة الوحيدة التى يستعملنها هى عصا الحفر (أو خشبة الحفر) . ومما يجمعنه أيضاً ، ما يسمى بيض النمل الأبيض ، أو أرز « البشمن » ، وهن يقلينه على النار ، فى قليل من الدهن ، حتى يضرب لونه إلى الحمرة . ومما يسعين وراءه أيضاً ، الديدان والحشرات والجراد والضفادع والسحالى والثعابين والسلاحف ، وكذلك يجمعن جذور الأعشاب ، ويحتفظن بها لاستعمالها فى فصل الشتاء . ويصنع « البشمن » ما يشبه الخبز من لباب نوع من النخيل يسمونه « زاميا » (Zamia) . أو من جذور نوع من النبات . ويقوم الرجال بجمع العسل ، ويذهبون فى البحث عنه إلى أى مكان غير مبالين بالارتفاع ، وهم يستدلون على موضع خلايا النحل البرى بواسطة طير الوقوق (bee-cuckoo) ، وعند ما يعثر أحدهم على خلية ،

يغرس فى الأرض بقربها سهماً من سهامه عليه شارته الخاصة به ، وبهذا يثبت ملكيته للخلية ، فلا يقربها أحد سواه . ومثل هذه الطريقة تتبع فى إثبات ملكية عش بيض النعام ، أو مجموعة من جذور النبات .

ويتناول « البشمن » طعامهم دائماً مطبوخاً ، ويقوم النساء والرجال على السواء بعملية الطبخ . وتُولَّد النار بإدارة قطعة من الخشب على قطعة أخرى . ومن العسير فى بعض الجهات الحصول على الماء ، ولكن « البشمن » لهم مهارة فائقة فى العثور عليه . ويستطيع الأوروبيون طبعاً أن يحصلوا عليه من أعماق بعيدة ، ولكن هؤلاء البدائيين مقيدون بالموارد السطحية . وكثيراً ما يروون ظمأهم بما يحوى البطيخ من الماء ، ولكنهم قد يضطرون أحياناً إلى الحصول على الماء من بين حبات الرمال المبللة ، فيحفرون فى الرمل حفرة ، ويرشقون فيها عوداً من قصب أجوف ، يلفون حول أحد طرفيه لفة من العشب اليابس ، ثم يمصون الماء إلى أعلى خلال العود . وهذه الطريقة بطيئة وشاقة ، وقد تنتهى بتقرح الشفاه وإدمائها . والماء لندرته له قيمة لا تقدر ، وهم يختزنونه فى بيض النعام أو فى جزء من أمعاء حمار الوحش ، أو الحمار البرى « Gnu » . ويحمل بيض النعام الذى يُخزن فيه الماء فى حقائب من الشباك ، ويزخرف بالتخطيط ، أو برسم صور الحيوانات ، أو مناظر تمثل صيدها ، وتصنع لكل واحدة منها رقبة من الشمع .

ويصنع « البشمن » من العسل البرى شراباً جيداً مخمراً ، وهم مغرمون بالتدخين ويستعملون بدل الطباق ، القنب البرى ، يدخنونه فى غلايين من الخشب ، أو القصب أو الحجر ، ويصنعونها على شكل أنبوبة أحد طرفيها أوسع قليلا من الطرف الآخر ، على أن بعض السائحين قد ذكروا غلايين أوفى من ذلك كثيراً .

وتتميز لغة « البشمن » بما يخالطها من « تكتكة » ، وهم ينقسمون لغويا إلى أربعة أقسام رئيسية ، وليس لهذه الأقسام علاقة كبيرة بالأقسام السياسية .

و « البشمن » مولعون بالفنون ، وقد سبق الكلام على الرسوم البديعة المتعددة الألوان ، التى كانوا يزينون بها جدران بعض كهوفهم ، هذا عدا ما خلفوه من الرسوم المحفورة على واجهات الصخور الملساء بأدوات حادة ، وكانوا فى بعض الأحيان يرسمون الشكل الخارجى فقط ، وفى أحيان أخرى كانوا يزخرفون السطح الكلى للشكل بحزوز أو علامات .

ولهم كذلك ولع بالموسيقى والرقص ، ومن آلاتهم الموسيقية قيثارة ذات أربعة أوتار ، ونوع بدائى من السنطير ، ذو اثنى عشر وتراً ، والناى المصنوع من القصب الأجوف ، والطبول أو الدفوف .

تقاليد الزواج

وإذا أراد أحدهم الزواج ، اختار عروسه من الجماعات المجاورة ، وفى يوم الزواج يهديها إزاراً من جلد الحيوان ، وفى بعض القبائل يصيد العروس بقرة من بقر الوحش ويهديها لأهل العروس ليقيموا بها وليمة العرس . وفى أثناء الاحتفال بالزواج يقوم العروس ويمسك بعروسه ، فيهجم عليه ذووها شارعين أسلحتهم ، وعلى الزوج أن يثبت ويتلقى الضربات ، ويظل فى الوقت نفسه متشبثاً بعروسه لا يتخلى عنها ، فإذا أفلح فى ذلك ، انصرفوا عنه وتم الزواج ، وإلا فعليه أن يجتاز التجربة نفسها مرة أخرى .

وبعد الزواج يقيم العروسان بضعة أسابيع مع أهل العروس ، ثم ينتقلان معاً إلى حيث يقيم أهل الزوج .

والقاعدة المتبعة بين أولئك الأقوام ، أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة ، على أن التقاليد لا تحرم الزواج بأكثر من واحدة . وعند ما يولد طفل جديد يحتفلون بمقدمه ، فيغنون ويرقصون ، وكذلك يفعلون فى يوم الاحتفال بتسمية المولود الجديد . ولا يعترف ببلوغ الأولاد مبلغ الرجال ، إلا إذا اجتازوا فترة تمرين وتدريب خاص ، وفى هذا الأخير يشرطون جبينه بالعلامات الخاصة بالقبيلة .

ومن عاداتهم دفن جثة الميت قرب الكوخ فى وضع النائم ، يرقدونه على جنبه ، وتبقى ركبتاه مثنيتين إلى الصدر ، ويدفنون معه جميع ممتلكاته ، ثم يضعون الحجارة على القبر ، لتذود عنه الحيوان ، وبعد ذلك تشد الجماعة رحالها ، ولا تعود إلى هذه البقعة قبل مضى عامين .

ويمارس « البشمن » السحر . ويوجد بينهم من الرجال والنساء من يدعى التطبيب عن طريقه ، وبعض أساطيرهم شائقة حقاً .

و « للبشمن » جميع الفضائل البدائية النبيلة ، كالشجاعة التى لا تعرف الخوف ، والتقدير العظيم للحرية ، كما أنهم كرماء ، فخورون ببلادهم ، مخلصون لزعمائهم ، ولم يغير طول علاقتهم بالجماعات التى تفوقهم فى المدنية ، شيئاً من طرق حياتهم ، وهم صائرون تدريجاً إلى الزوال .

الفصل السادس

الهنود الحمر سكان السهول

تقطن جميع شعوب الجماعين التي مر ذكرها فيما سبق ، المناطق الدافئة أو الحارة ، فإذا ولينا وجوهنا شطر الجمّاعين والقنّاصين ، من سكان المنطقة المعتدلة ، نجد الهنود الحمر — الذين كانوا إلى عهد قريب يجوبون البرارى الداخلية بأمريكا الشمالية — قوما من الصيادين الماهرين .

وقد يكون من المفيد أن نعرف شيئاً عن الهنود بوجه عام ، قبل أن نتكلم عن طريقة حياة هنود السهول ، وهو الاسم الذى يعرفون به . فالعناصر التى كانت تعيش فى أقصى شمال أمريكا الشمالية ، على شواطئها المطلة على المحيط المتجمد الشمالى ، أطلق عليها اسم خاص هو « اسكيمو » لما كان يتميز به أفرادها من طرق معيشة خاصة ، وكذلك لمظهرهم الغريب . أما سائر السكان الأصليين ، فقد أطلق عليهم اسم الهنود الحمر ، وهو اسم يدل على أن الكاشفين الأولين كانوا يعتقدون أنهم وصلوا جزر الهند الشرقية .

ويشبه بعض الهنود الحمر بعضاً شبهاً كبيراً ، فهم جميعا ذوو شعر أسود مستقيم ، وجلد يختلف فى لونه بين الأسمر الضارب إلى الصفرة ، والأسمر النحاسى ، ولكنه ليس أحمر بحال من الأحوال ، وعلى ذلك فإن تسميتهم بالحمر تسمية خاطئة . وعيونهم سمراء ، أو سمراء داكنة ، ومنحرفة قليلا ، يظهر فيها أحياناً ما يسمى الثنية المغولية **The Mongolian fold** ولو أن هذه تكثر بين الصغار ، وتقل بين البالغين . وليست أنوفهم قصيرة ولا مفلطحة كأنوف المغول الأسيويين ، بل يغلب فى الواقع أن تكون من النوع ذى القنطرة العالية الضيقة ، الذى نفهم مدلوله من لفظى « وجه الصقر » . ووجوههم عادةً أوسع من وجوه الأوروبيين ، وصدورهم أكثر امتلاء ، ولكن أجسامهم تتناسق دائما مع أطرافهم ، ولو أن اليدين والقدمين فى الغالب أصغر من مثيلاتها فى الجنس الأبيض .

وبالرغم من التناسق العام ، توجد اختلافات تظهر بوضوح إذا شوهدت عن قرب . ولبعض الهنود رؤوس ضيقة ، وللبعض الآخر رؤوس عريضة ، وبعضهم طويل ، وبعضهم قصير . وأقصر شعوبهم تلك التى تعيش فى أقصى الشمال ، وفى جنوب القارة ، وفى الأقاليم المدارية فى أمريكا الجنوبية . وقد يكون من بين أسباب قصر القامة ، عند بعض هذه الشعوب ، قلة التغذية التى تضطرهم إليها ظروفهم الطبيعية . ويُجمع الثقات

على أن هذه العناصر أتت فى الأصل من قارة آسيا ، عن طريق ما يعرف الآن باسم ممر بيرنج ، فى سلسلة من الهجرات ، كانت أولاها منذ بضعة آلاف من السنين .

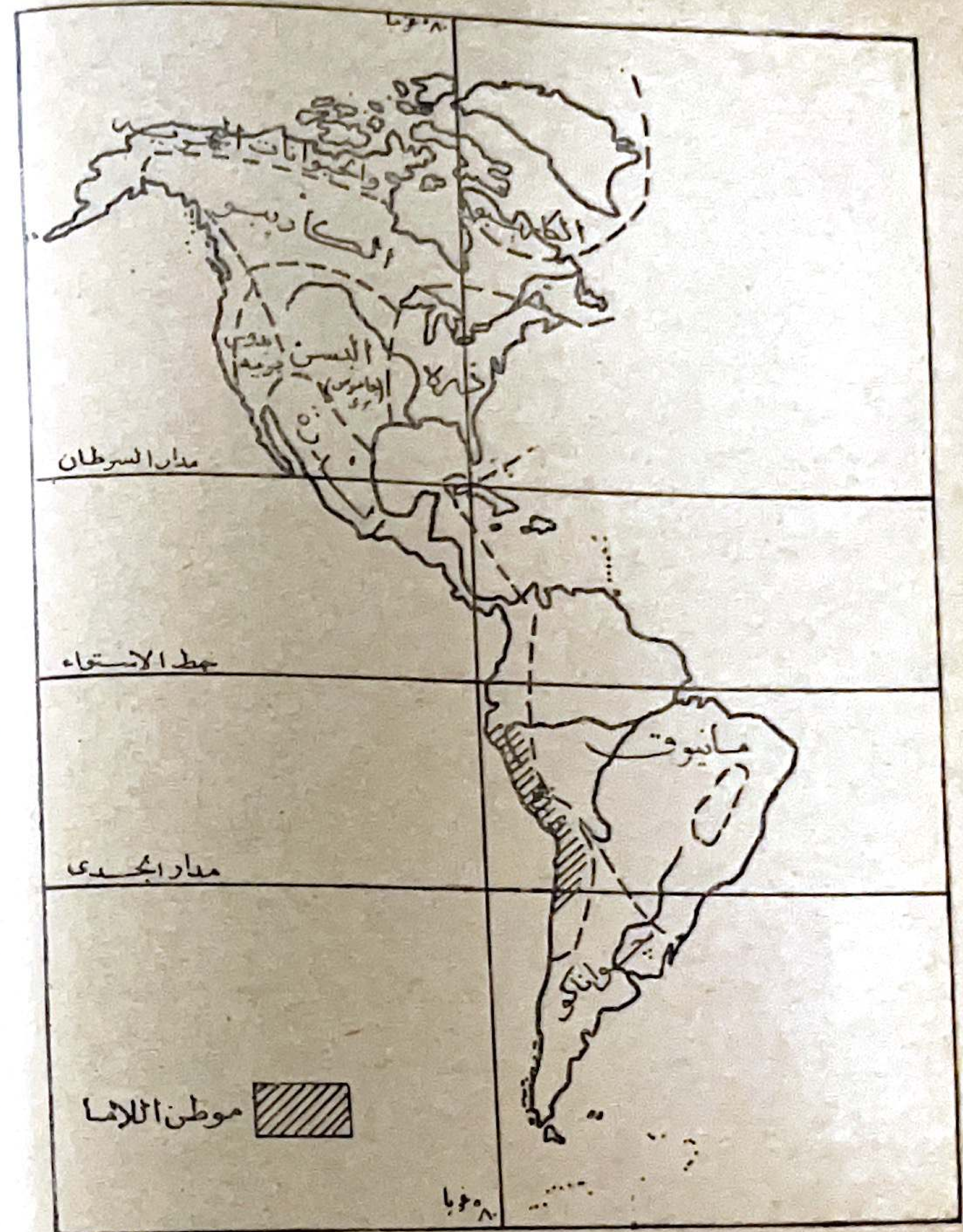
ومع أن هؤلاء الناس كانوا يشبهون بعضهم بعضاً شبها كبيراً إلاّ أن طريقة معيشتهم كانت تختلف اختلافا كبيراً ، وذلك حسب طبيعة الأقاليم التى كانوا يقطنونها ، وقد حدا هذا ببعض علماء الأجناس إلى تقسيم أمريكا إلى مناطق ثقافية ، تتفق إلى حد كبير والأقاليم الطبيعية ، التى كانت أهم عامل أثّر فيها ، على أنه لا بد قبل أن نصف تلك المناطق ، أن نعرف ماذا كانت تحوى أمريكا ، قبل أن ينزل بها الأوروبيون ، ومعهم خيلهم وأغنامهم وماشيتهم وقمحهم .

فقد كان لدى الهنود قليل من الحيوانات المستأنسة ، وهذه أيضا — فيما عدا الكلب — كانت مقصورة على مناطق محدودة ، فكانت اللاما و « الأليا كا » مثلاً ، مقصورة على « الأنديز » جنوب خط الاستواء ، ولم يكن الهنود قد استأنسوا مطية يركبونها ولا ماشية يحلبونها ، ولم يكونوا يعرفون من الحبوب غير الذرة ، التى كان نموها مقصوراً على الجهات الدافئة ، والأرز البرى المسمى « زيزانيا » ، وكان يكثر فى بلاد « الأيروكواز » ، ومع ذلك لايبدو أنهم انتفعوا به فى شىء ، بينما كانت

قبائل « الأوجبوا » **Ojibwa** التى تقطن شمال بحيرة « سوپيرير » وغربها تجمع منه كميات كبيرة . وهناك أيضاً البطاطس و « المانيوق » ، وكلاهما سهل زراعته ، وكانت بعض قبائل أمريكا الجنوبية تزرعهما . ولم يكن الهنود يعرفون المحراث ولا العجلات ، و بالتالى لم يكونوا يستعملون العجلات فى النقل . وكانوا يطحنون حبوبهم باستعمال « الصلاية » والمدقة ، و يفتلون بأيديهم ما يصنعون من خيوط قليلة ، و يصنعون الفخار إما بإنشائه طبقة طبقة ، و إما بطريقة أخرى أكثر انحطاطا ، وهى وضع كتلة الطين ثابتة على الأرض ، ثم تجويفها باليد ؛ وكانوا يصنعون البلط والسكاكين والمجارف من الحجر . صحيح أن بعض القبائل كانت تصنع الآلات وأدوات الزينة من نحاس يستخرج محلياً. ولكنهم كانوا يشكلونه بالطرق كما يشكلون الحجارة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون طريقة الصهر .

ويبدو أنه توجد دائما مادة من موادالطعام تكون هى الغذاء الرئيسى ويكون ما عداها ثانويا ، فإذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا ، استطعنا أن نقسم أمريكا إلى تسع مناطق غذائية ، كماهو مبين فيما يلى ، وهى تطابق بالتقريب المناطق الثقافية :

فعلى شواطئ المحيط المتجمد الشمالى ، يقع موطن الإسكيمو ، الذين يعيشون على صيد اللبونات المائية ، « والكاريبو » أو الرينديرالوحشى .



(شكل ٢٠)

المناطق الغذائية فى العالم الجديد ،عن « كلارك وسلر »

وفى جنوبهم كان الهنود يعيشون على صيد « الكاريبو » ، وجمع محصولات نباتية برية . وفى الجهات الشمالية من ساحل المحيط الهادى ، يوجد إقليم كان سمك « السلمن » ، أهم مادة غذائية لسكانه . كما أن فى جنوبه إقليما يعتمد سكانه فى غذائهم على أنواع البندق العديدة والحبوب البرية . و إلى شرق هذا الإقليم ، كان يوجد إقليم « البيزن » bison أو الجاموس الوحشى ، وسيأتى الكلام عليه تفصيلا فيما بعد . و إلى شرق هذا الإقليم الأخير كان يوجد إقليم زراعة الذرة ، على أن إقليم الزراعة الكثيفة الذى كانت الذرة أهم محصولاته ، كان يمتد من المكسيك عبر أمريكا الوسطى إلى شيلى . وفى أمريكا الجنوبية المدارية ، حيث كانت معظم الأراضى تغطيها غابات كثيفة ، كان السكان يعيشون على صيد الحيوانات الصغيرة ، ولكن كثيرين منهم كانوا أيضاً يزرعون « المانيوق » . وأخيراً كان فى جنوب القارة إقليم يعيش سكانه على صيد « الجواناكو » وهو حيوان مجتر من فصيلة الأيل .

ونستطيع أن نجمل المناطق التسع المذكورة فى خمس مناطق تسكنها شعوب من الصائدين، وثلاث تسكنها شعوب من الزراع ، وواحدة يسكنها شعب من جامعى الحبوب البرية . وسنتكلم عن بعض هذه الشعوب بالتفصيل فيما بعد ، ولكن يجمل بنا أن نشير هنا إلى أن أهم



(شكل ٢١)

خريطة توضح موقع البرارى فى أمريكا والاستبس فى آسيا

القبائل الزراعية ، كانت تعيش على الأخص فوق الهضاب فى أمريكا الوسطى ، وشمال أمريكا الجنوبية ، وأن اشتغالهم بالزراعة كان العامل الأساسى الذى رفعهم نسبياً فى المدنية إلى مستوى عال . فالزارع لا بد له من بعد النظر ، لأنه لو استهلك كل ما ينتجه ، لعرض نفسه للهلاك جوعا إذا صادفته سنوات عجاف ، كما أن الزارع لابد له من المعرفة التامة بفصول السنة ، ولا بد له كلما زاد عدد السكان ، من توسيع رقعة الأرض المزروعة ، وهذا يؤدى فى الغالب إلى امتداد الزراعة إلى جهات جافة نسبياً ، وهذا بدوره يؤدى حتماً إلى استعمال الرى . وأشهر تلك القبائل المتمدينة كانت « الإنكا » فى بيرو ، و « المايا » فى « يوكوتان » ، و « والأزتك » فى المكسيك .

ولنعد الآن إلى حياة أولئك الهنود الذين كانوا يقطنون البرارى الداخلية فى أمريكا الشمالية . وهذه البرارى عبارة عن سهول عظيمة معشبة ، ذات مساحة شاسعة ، وهى تنحدر من سفوح جبال روكى فى الغرب إلى نهر المسسپى فى الشرق ، ولا يزيد عرضها فى أغلب جهاتها على خمسمائة ميل ، ولكنها تمتد من قرب خليج المكسيك فى الجنوب إلى كندا الوسطى فى الشمال وهى مسافة تبلغ ألفا وخمسمائة ميل . وفى هذه المساحة الشاسعة — كما هى الحال فى جميع الأقاليم الواقعة وسط كتل متسعة

من اليابس — نجد الفرق بين درجة حرارة الصيف ، ودرجة حرارة الشتاء كبيراً ، كما نجد مقدار المطر الساقط قليلاً . وفى الأجزاء الجنوبية من هذا الإقليم ، يقصر فصل الشتاء ، ويندر سقوط الثلوج ، أما فى الشمال فالشتاء قارس البرد ، وقد يهبط متوسط الحرارة إلى ما تحت درجة التجمد خلال ثلاثة أشهر أو أربعة . والمطر ، وأغلبه يسقط فى فصل الصيف ، قليل فى جميع أنحاء هذا الإقليم ، فهو فى الشرق أقل من عشرين بوصة ، ويتناقص نحو الغرب حتى يصل فى غرب الإقليم إلى عشر بوصات أو نحوها . ويرجع انعدام الأشجار فى هذا الإقليم ، فى المكان الأول إلى قلة المطر ، وقصر فصل النمو .

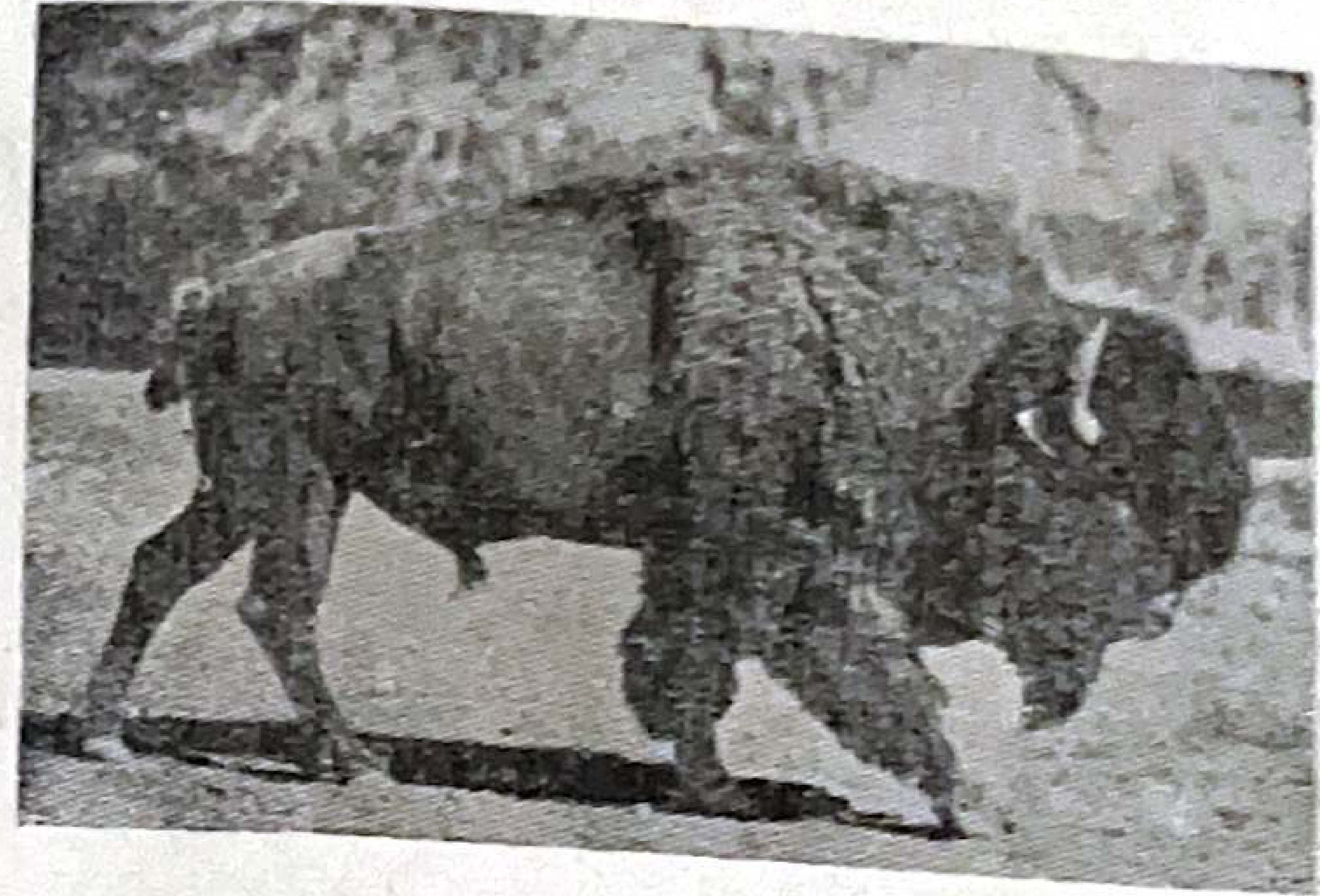
وفى الشتاء تلبس معظم الأرض حلة من الثلج ، ناصعة البياض ، ولكن عند ما يقبل الربيع ترتفع الحرارة ، وينصهر الثلج ، وتنبت الحشائش والنباتات الحولية ، ولكن الأشجار ، ولا سيما الصفصاف وخشب القطن cotton-wood ، لا تنمو إلا فى وديان روافد المسسپى بينما تتغطى أعالى سفوح الجبال الغربية بمجموعات من أشجار الصنوبر . وفى الشرق ، حيث يزيد مقدار المطر ، ينمو العشب إلى ارتفاع ستة أقدام ، أما نحو الغرب فإن الحشائش تقل فى الارتفاع وفى الانتشار ، حتى لا تزيد فى النهاية على ما يسمى أعشابا فقيرة **scrub land** . ويبلغ العشب

ذروته عقب عواصف المطر الصيفية الأولى ، ولكنه يذبل فيما بعد تحت وطأة أشعة الشمس المحرقة ؛ ولا يبقى منه إلا خصلات محترقة بفعل الحرارة .

وكانت البلاد ، قبل مجىء الأوروبيين ، تعج بحيوان الصيد من الأغنام الجبلية والأيِّل (**Elk**) والغزلان على سفوح الجبال فى الغرب ، وبقر الوحش (**Antelopes**) فى البرارى والقندس (**Beavers**) وطيور الماء قرب الأنهار ، و « البيزن » ، وهو أهمها جميعاً ، وهو الذى يطلق عليه الأمريكيون خطأ اسم الجاموس . ولم يكن « البيزن » مقتصراً على البرارى ، لأن منه أنواعاً كانت تعيش فى الغابات فى الشمال والشرق ، ولو أن العدد الذى كان يعيش منه فى البرارى ، كان أكثر كثيراً ، وكان يهيم فى قطعان هائلة العدد ، قد يبلغ الواحد منها ألفاً أو يزيد ، متنقلا من مرعى طبيعى إلى آخر ، متجهاً فى الربيع نحو الشمال إلى أرض رعوية جديدة ، ومرتداً فى الخريف إلى الجنوب . ويقدرون أن عدده لم يقل فى أى سنة عن ثمانية ملايين رأس ، وذلك قبل أن يدخل الحصان والأسلحة النارية إلى هذه البلاد .

ولا يمارس الهنود الذين يسكنون السهول أى نوع من الزراعة فيما عدا القليل من الطباق الذى يزرع فى الغالب ليستعمل فى المناسبات ،

ولم يكن لهم من سبيل إلى الاشتغال بالرعى إذ لم يكن لديهم أغنام ولا ماشية ولا ماعز ، لكنهم كانوا صيادين وكانوا يعتمدون فى المكان الأول على صيد البيزن : على أنهم كانوا كذلك يصيدون القليل من بقر



(شكل ٢٢)

البيسون الذى يسمى غالباً البفلو

الوحش وغيرها من آكلات العشب . وكان نساؤهم يقمن بجمع ما يصلح للطعام من الحاصلات النباتية كاللفت البرى والكرز البرى وبعض أنواع التوت مما كان يُدخل عنصر التنويع إلى غذائهم . أما البيزن فيكاد يكون من مستلزمات حياتهم ، وكانوا ينتفعون بكل جزء من جسمه ، فكانوا يتخذون الثياب من جلده بعد أن يدبغ دون أن يزيلوا ما عليه من شعر ، فإذا دبغ ورقق بعد إزالة شعره صنعت منه أغطية الخيام والقمصان

والسراويل والجوارب والحقائب وما إلى ذلك ؛ فإذا قطع إلى سيور ضيقة اتخذت منه حبال . وكان شعره يستعمل لحشو الوسائد ، وهو يستعمل فى الوقت الحاضر لحشو السروج وكذلك لتزيين الملابس والدروع . وكانوا يصنعون من عصبه الخيوط رفيعها وغليظها ، ومن حوافره الغراء ومن قرونه المغارف وأوانى الشرب ومن عظامه أدوات لدباغة الجلود ، بينما كان لحمه يؤكل جميعه نيئاً أحياناً لكن مطبوخا فى أغلب الأحيان .

من هذا يتضح أن حياة أولئك الهنود كانت تتوقف إلى حد كبير على تحركات البيزن ، وكانت هذه الحيوانات الضخمة تهاجر فى الربيع وأوائل الصيف فى جماعات هائلة إلى أجود المراعى ، ولكنها كانت تتفرق فى الخريف والشتاء — عند ما يصبح العشب أكثر جفافا وندرة — فى قطعان قليلة العدد ، ومع ذلك كان من النادر فى أى وقت أن نجد فرداً واحداً منها يتجول بمفرده . وكان الهنود لهذا السبب مضطرين إلى أن يحيوا حياة التنقل ، وكانوا كذلك ينقسمون فى الشتاء إلى جماعات قليلة العدد تنتشر فى الأرض يبحث كل منها عن الصيد فى المساحة التى يدعى حق امتلاكها ، فإذا جاء الصيف التأم شمل الجماعات المتفرقة واجتمعت عائلات كثيرة منهم ليستطيعوا تنظيم حملاتهم على القطعان الهائلة .



(شكل ٢٣)

خيمة التيبى عند قبائل البلاك فوت

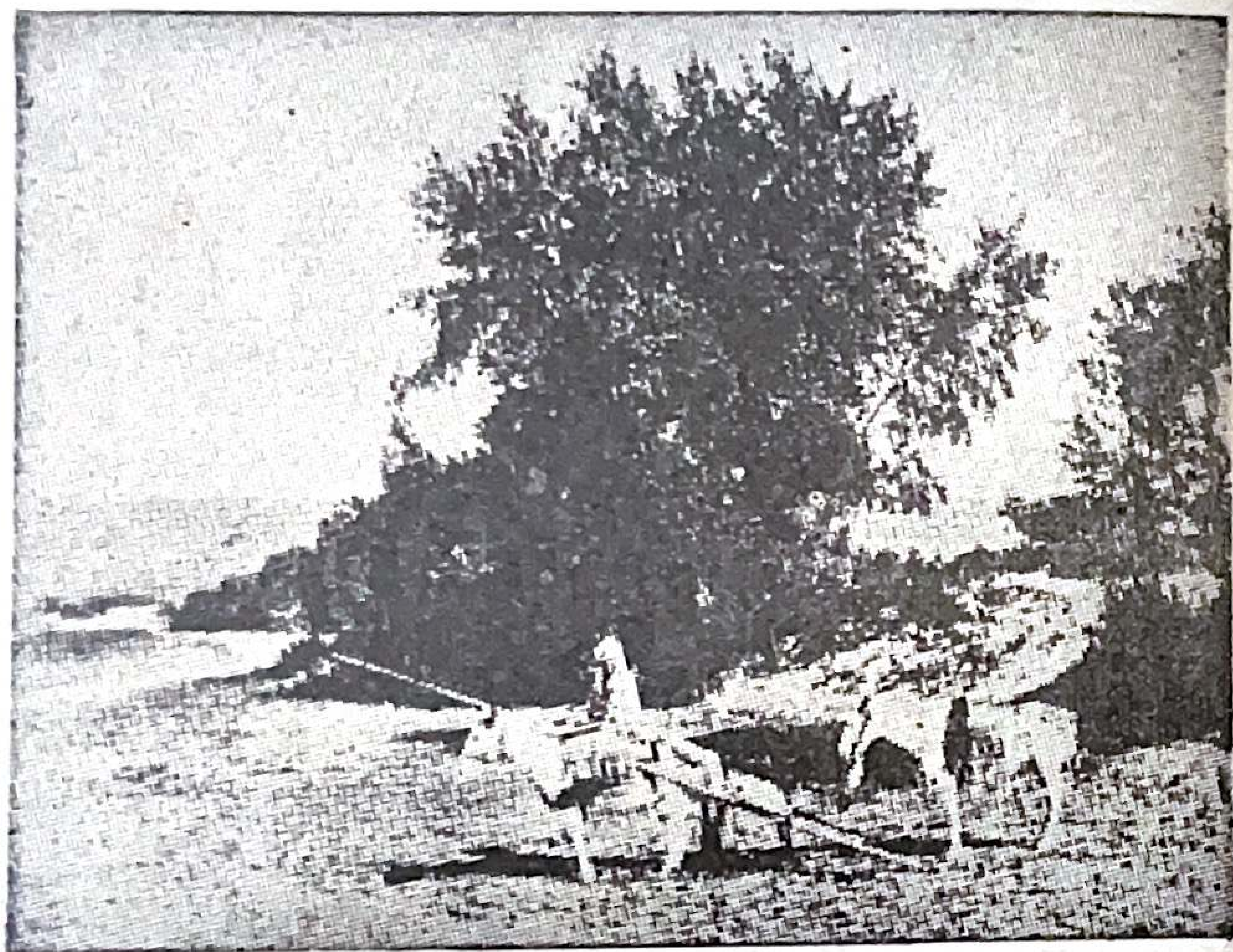
ولما كانوا يحيون حياة التنقل كانت مساكنهم عبارة عن خيام ، وكانت خيامهم مخروطيـــة الشكل يغطونها بالجلود ويسمونها تيبى (Tipi أو Tepee) وهى أفخم خيام استعملها الرحّل على الإطلاق . وكان من واجب النساء ضرب هذه الخيام ، وكانت الخيمة تبلغ نحو أربعة عشر قدماً فى قطرها ونحو عشرة أقدام فى ارتفاعها ، فكن يأتين بأربعة أعمدة طويلة من خشب الأرز أو الصنوبر يحصلن عليها من على سفوح الجبال ، ثم ينصبنها ويربطن أطرافها العليا بحبال مصنوعة من عصب البيزن فيتكون

منها شكل هرمى ، ثم يؤتى بنحو عشرة أعمدة أخرى أو أكثر تثبت بين الأعمدة الأولى بحيث يتكون من قواعدها دائرة ، بينما تتفرع أطرافها العليا على هيئة قمع . وبعد ذلك ينشر فوق هذه الأطراف غطاء من جلود البيزن المدبوغة بلون الكتان الأبيض ، وغالباً ما يزينونها بأقلام القنفذ أو برسوم ملونة بالأحمر والأخضر والأزرق تصور ما قام به مالكها من أعمال مجيدة أو تمثل أشكالا هندسية منتظمة . وكان صنع الغطاء ـ الذى يقرب شكله جداً من شكل نصف الدائرة ـ عملا يستلزم مهارة ويحتاج إلى وصل نحو اثنى عشر جلداً من جلود البيزن بعضها ببعض بواسطة مخاريز من العظام ، وكان هذا الغطاء يثبت إلى الأرض بالأوتاد أو بالحجارة وتترك فى أعلاه فتحة ذات سدادات يمكن حبكها لتسمح هذه الفتحات بتسرب الدخان منها . وكان مدخل الخيمة فتحة عليها ستر من الجلد يقوم مقام الباب ، أو ربما استعاضوا عن الستر بضم جانبى الفتحة أحدهما إلى الآخر .
وفى وسط الخيمة تقوم شعلة النار تحيط بها حجارة مسطحة ، وإلى الداخل من الشعلة وفى مواجهة مدخل الخيمة يجلس رب الأسرة ، وقد يعلق خلفه ستارة داخلية من الجلد ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام أو أربعة تغطى نصف الحائط الداخلى ، وتوضع حشية رب الأسرة وزوجته على الجانب الأيسر من المدخل ، وينام الأطفال والخدم على الجانب الأيمن منه ، وتتخذ الحشايا

من العشب اليابس أو من عساليج الشجر المغطاة بالأجزاء الرقيقة من جلد الجاموس . وكانت توضع عند الرأس — وفى أغلب الأحيان عند القدمين أيضاً — مساند للاستعمال أثناء النهار . وليس لديهم عدا ذلك أثاث يذكر فيما غير القليل من الأدوات المنزلية كحقيبة أو حقيبتين من الجلد تحفظ فيها الملابس وسهام وآلات تعلق فى أعمدة الخيمة .

وكانوا يصنعون أدواتهم وأوانيهم من الخشب أو من منتجات الحيوان ، ولم يكونوا يعرفون صناعة الفخار ولا صناعة السلال . وكانوا يصنعون أوانى الطبخ من حجر الخفاف أو من جلود البيزن ، والحقائب والأكياس من الجلد ، والفناجين والقصع من الخشب ، والملاعق والأكواب والصحون الصغيرة من القرون ، بينما كانوا يتخذون من أحشاء البيزن أوعية لحفظ الماء . وأشهر أدواتهم مطرقة من الحجر لها يد مركبة فيها ، وأوتاد من القرون ، ومخارز ومكاشط من العظام ، وسكاكين من حجر الصوان ؛ ولم يكن فى حياة الترحال التى يحيونها مكان لأية أداة قابلة للكسر . وكانوا يولدون النار بمثقب وحراق من روث البيزن الجاف ، على أنهم كثيراً ما كانوا يحملون معهم من معسكر إلى معسكر شعلة موقدة فوق عصا ليوفروا على أنفسهم مؤونة توليد النار من جديد .

ولم يستعمل الهنود فى انتقالهم أحذية الصقيع ولا الزلاقات ، ولكنهم كانوا أحيانا يربطون بضائعهم فوق جلد كبير تجره النساء والكلاب كما تجر الزلاقات ، وكانت الأحمال الثقيلة تنقل عادة فوق الظهر ، ولكن كثيرا منها كانت تحمله الكلاب ؛ على أن وسيلة النقل الشائعة فوق السهول كانت أداة عجيبة يسمونها «ترافويس» **Travois** قد تكون تطورت فى الأصل عن الطريقة التى كانوا يثبتون بها أعمدة الخيام فوق ظهور



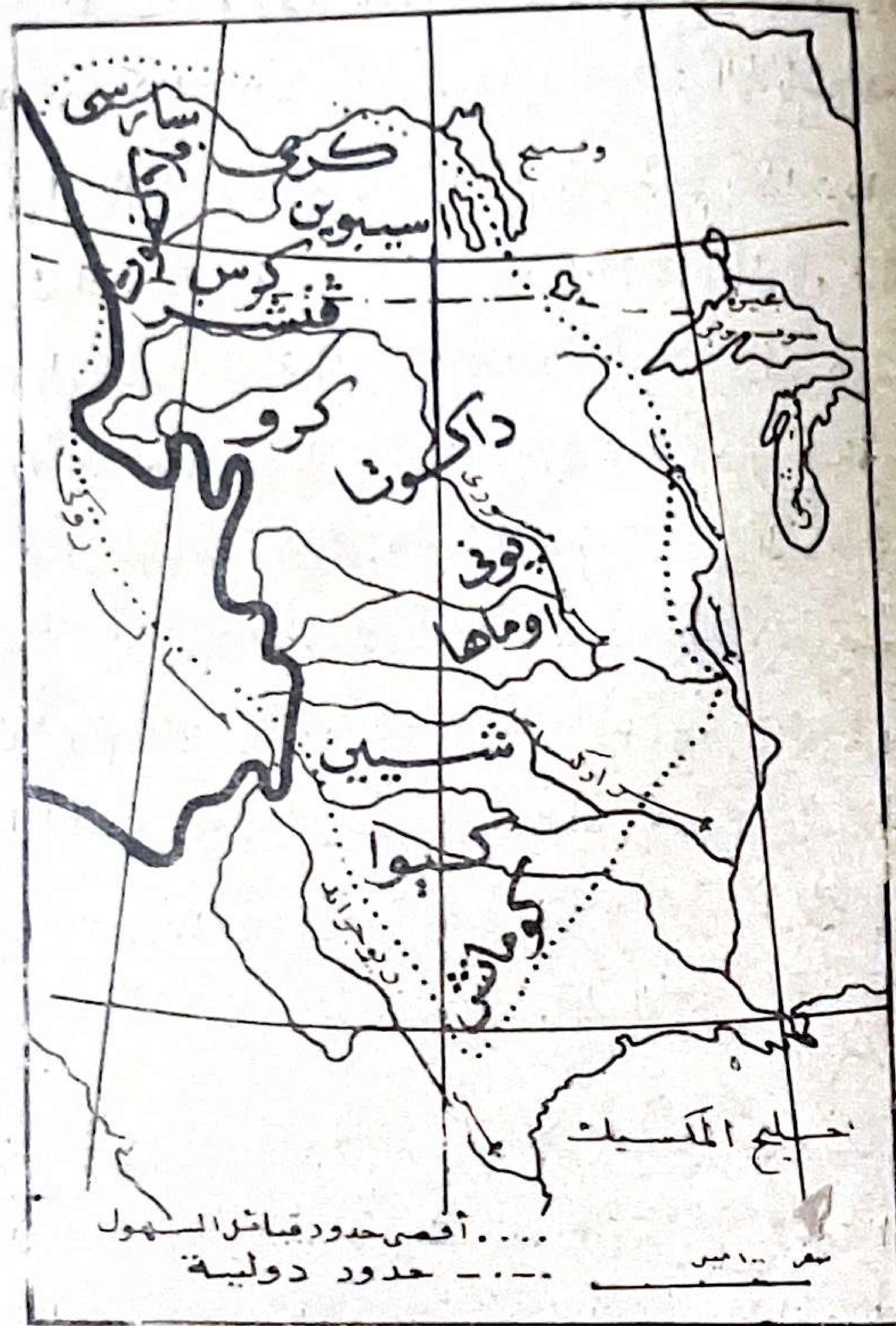
(شكل ٢٤)

زحافة الخيل (الترافويس) عند هنود السهول

السكلاب . وكان « الترافويس » يتكون من عمودين طويلين يثبت واحد منهما على كل جانب من جانبى السكلاب ويجرجر طرفاهما الخلفيان على الأرض . وعلى هذه الأداة البدائية كانت تثبت حقيبة شبكية النسيج توضع فوقها الأدوات الصغيرة . فلما أدخل الحصان إلى أمريكا انتقل « الترافويس » إلى الحصان ، وبذلك استطاع الهنود أن ينقلوا أحمالا أكثر ثقلا .

واستعمل الهنود لعبور الأنهار قوارب من الجلد ، واستعمل بعضهم نوعا من الأرماث تنشأ على الفور من جلود مشدودة على عصى يجرونها خلفهم وهم يسبحون .

ولم يكن هنود السهول ينتمون جميعا إلى قبيلة واحدة ، أو يتكلمون لغة واحدة ، ولم يصلوا جميعا إلى هذه الأقاليم فى وقت واحد . فقبائل الشيين Cheyenne مثلا لم تقطن هذه السهول إلا بعد أن كشف الأوروبيون القارة الأمريكية ، إذ جاءوا فى الأصل من الإقليم الواقع فى شمال بحيرة سوپيرير حيث كانوا يعيشون على الزراعة ويحيون حياة الاستقرار ، فلما تحولوا إلى قنص البيزن غيروا طريقة حياتهم بسرعة وأصبحوا بعد قليل لا يختلفون عن سائر هنود السهول . وكانت أشهر القبائل هى بلاكفوت Blackfoot وسارسى Sarcee وأسيبوين Assiboine وفرع من الكرى



(شكل ٢٥)

توزيع قبائل هنود السهول

Cree فى كنــــدا ، وكرو Crow وداكوتا وبونى Pawnee وشيين Cheyenne وكيوا Kiowa وكومانش Comanche فى الولايات المتحدة .

على أن هؤلاء الهنود جميعا كانوا يشبهون بعضهم بعضا شبها كبيرا من حيث المنظر والثقافة . فكانوا جميعا طوالا نحافا أقوياء يميل لون بشرتهم إلى السمرة الخفيفة المشربة بصفرة ؛ وكان شعرهم أسود مسترسلا كما كان شعر وجوههم قليلا ، وعيونهم سمراء قاتمة وأنوفهم ضيقة بارزة ، وكان كثير منهم يتركون شعرهم يطول ويفرقونه فى الوسط ويثنونه فى خصلات أو يتركونه مرسلا على الكتفين ، على أن بعضهم كانوا يحلقون شعرهم أو ينتفونه ويتركون فى أعلى الرأس خصلة صغيرة يسمونها خصلة الهامة ، وكانوا أحيانا يلبسون فوق الرأس قلنسوة الحرب أو لباس الرأس وهو من الريش ، وكان يختلف اختلافا كبيرا ولكنه فى العادة جميل جدا ، وكان أحيانا يتدلى خلف الظهر إلى الأرض .

ويزين الهنود أجسامهم بالنقش وبالوشم ، وكان كثير من الرجال يشوهون جلودهم بخطوط قبيحة المنظر بعضها يعتبر من علامات الحداد ، بينما بعضها الآخر يفتعله صاحبه بنفسه دلالة على الشجاعة وقوة الاحتمال ، ولكنها كانت فى الغالب تفتعل تقربا إلى الأرواح . ولكى يحدث أحدهم مثل هذه الندوب على صدره وظهره ، كان يمرر خلال لحمه شطفا متينة

من الخشب تربط إليها جماجم البيزن الثقيلة بواسطة حبال من الجلد ، ثم يجرى المسكين بأقصى ما يستطيع من سرعة يساعده اثنان من رفقائه كل منهما يمسكه من أحد ذراعيه ، ويظل يجرى حتى ينشق لحمه وتسقط عنه الجماجم .

وكان هناك اختلافات بسيطة فى الملابس ، ولكن هذه كلها قد تغيرت تغيرا كاملا منذ اختلاطهم بالأوروبيين . وكان الرجال يلبسون فى العادة قميصاً يتدلى إلى الفخذين وإزارا وسروالا طويلا وحذاء من الجلد ، ويزيدون على ذلك فى وقت الزمهرير جلبابا من جلد البيزن المدبوغ باللون الأبيض مزيناً بنقوش عجيبة ، وغالبا ما كانوا يزينونه بأقلام القنفذ يثبتونها تثبيتاً غير تام كى تحدث خشخشة مسموعة عند كل حركة . وكانوا فى الصيف عندما تشتد حرارة الشمس يخلعون كل ملابسهم فيما عدا الإزار والأحذية الجلدية . ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا فى أنهن كن يستبدلن بالقميص جلبابا طويلا يتدلى إلى الركبتين أو إلى العقبين ؛ وكان فى هذا ما يغنيهن عن استعمال الإزار . وكانت قمصان الرجال وملابس النساء على السواء تصنع عادة من الأجزاء الرقيقة من جلود الأيل أو الغزال أو بقر الوحش ، لأنها أكثر نعومة من جلود البيزن . وكانت هذه الملابس تزخرف بنقوش ترسم عليها أو بصفوف من أقلام القنفذ الملون أو ريش

الطيور وتزين بجلود بنات عرس . وكانت السراويل تزين بهداب وشراريب وخصلات صغيرة من شعر هامات الأعداء الذين لقوا حتفهم على يدى صاحبها . وكان من واجب الرجال الحصول على الجلود اللازمة لعمل الملابس ، ولكن دبغها وتفصيلها وحياكتها كانت من عمل النساء .

وكانت الجلود تعالج بخليط من مواد نباتية ومن مخ البيزن مع تكرار الدلك والكشط والدق ، وذلك كى تصير ناعمة الملمس . ولم تكن النساء تستعمل زخارف فى الملابس ، وكن يقصصن القماش بسكاكين من العظام ويثقبنه بمخارز ويخطنه بإبر من العظام وخيوط من العصب المفتول . وأشهر الحلى عندهم الأقراط المصنوعة من العظام والأصداف ، والعقود المصنوعة من مخالب الدببة ومن أقراص من العظام .

والفن الهندى الزخرفى يشمل أشكالا هندسية منحوتة أو منقوشة أو مطرزة بأقلام القنفذ المصبوغة ، أما الفن الواقعى فكانوا يقصرونه على الملابس وأغطية الخيام .

ولم يكن لدى الهنود أى نوع من أنواع الكتابة ، ولكنهم كانوا يرسمون بالدخان علامات برعوا فى استخدامها كوسيلة للاتصال . وكان فى أستطاعتهم التخاطب مع غيرهم ممن لا يتكلمون لغتهم وذلك بواسطة لغة الإشارات التى بلغت عندهم درجة عظيمة من الرقى ؛ وكان عندهم نظام

عشرى للدلالة على الأرقام ، ولكن مما يؤثر عن قبيلة الكروز Crows أنهم لم يكونوا يعرفون من الأعداد شيئاً بعد الألف ، حيث كان من رأيهم أن الرجل الأمين لا يحتاج إلى ما فوق ذلك من الأرقام .

ويحب الهنود أولادهم حبا عظيما ولا يوقعون عليهم عقوبة ، والأمهات يؤرجحن أولادهن ويغنين لهم أغانى التهنين . وفى اليوم الثانى بعد ولادة الطفل تخرق الأم أذنه بمسلة ليلبس فيها القرط ، وفى اليوم الرابع من مولده يقيمون حفلا شائقا احتفالا بتسمية الطفل ، وعندما يبلغ نحو ستة أشهر يربط إلى مهد هو لوح مسحوب الطرفين مغطى بالجلد يربط إليه الطفل بسيور من الجلد ذات أهداب . وترضع الأم طفلها حتى بعد أن يكتمل العام الثانى من عمره ، أى حتى يصبح فى مقدوره مضغ اللحوم ، إذ أن اللبن والأطعمة اللينة كلاهما غير متوفر لديهم . وقبل أن يعرف الحصان فى أمريكا كانت الأم عند الرحيل تحمل طفلها فى مهده على ظهرها .

ويقضى أطفال الهنود معظم وقتهم يلعبون فى الهواء الطلق ، ولا يتلقون أى نوع خاص من التثقيف ، ولكنهم كانوا يتعلمون كثيرا عن طريق محاكاة آبائهم ، فكان من أحب الأشياء إليهم أن يلعبوا لعبة إدارة البيت أو لعبة « الزواج » أو لعبة « صيد البيزن » . على أن الآباء كانوا يعلمون أبناءهم ركوب الخيل والسباحة واستعمال الأقواس والسهام ، بينما كانت الأمهات يعلمن بناتهن شؤون المنزل .

ومع أن وصول الولد أو البنت إلى دور البلوغ كان له عندهم أهمية خاصة ، إلا أنهم لم يكونوا يقيمون لذلك أية حفلات خاصة ، مع أن الأولاد عند بلوغهم كانوا يرشحون للانضمام إلى جمعية من الجمعيات .

وإذا بلغ الشاب العشرين بدأ التفكير فى الزواج ، ولم يكن الزواج مسألة حب بل كان أمراً يتفق عليه الآباء فيما بينهم . ومن المحتمل أنهم لم يكونوا فيما مضى يحتفلون بالزواج ، وكل ما هناك أن العروس كانت تنتقل إلى خيمة زوجها بمجرد أن يدفع مهرها . وكان الشبان فى السهول يشترون زوجاتهم شراء فى مقابل خيل وفراء وعطايا أخرى . وكان العرف يقضى بالتزوج من خارج العائلة ، ولكنهم كانوا يشجعون الزواج من نفس القبيلة أو من قبيلة أخرى تربطهم بها صلة القرابة . وكان الزواج بأكثر من امرأة أمرا جائزا ، وكانوا فعلا يمارسونه إذا سمحت مواردهم . وكان الإرث ينحصر فى الرجال ، ولكنه كان فى قبيلة الكروز ينحصر فى النساء .

أما إجراءات الحداد عندهم فكانت أكثر استفاضة من إجراءات الزواج ، فكان الرجل إذا مات تحنط جثته وتُلبس أحسن ملابسه وتلف فى جزء من غطاء الخيمة وتُخرج من أحد جوانب الخيمة ، ثم يسير المشيعون وأمامهم الطبول إلى مكان الدفن حيث يقومون بتشويه أجسامهم بين

الغناء والرقص والصياح ، وبعد ذلك توضع الجثة بقدميها متجهين نحو الغرب على خشبة ممدودة بين أربعة أعمدة أو بين شعاب شجرة ، وبعد أن تتحلل الجثة تؤخذ العظام وتوضع فى كهف أو فى شق بين الصخور . وكانت قبيلة الأسينوبويين **Assinoboine** تصف الجماجم فى السهول فى شكل دائرى بحيث تتجه وجوهها جميعا نحو مركز الدائرة .

وكان الهنود يجدون من وقتهم متسعا للهو زيادة على ما ينفقونه فى البحث عن الطعام وفى الحروب . وكانوا يمارسون كثيرا من الألعاب علاوة على الرقص والغناء الذى كان يصحب بعض احتفالاتهم ، فكانوا يلعبون الخذروف ويقذفون الجلة ويزلجون على الجليد ويتسابقون فى الجرى ويتبارون فى رمى السهام ويصوبون المزاريق إلى أطواق متحركة ويلعبون نوعا من الهوكى يتبارى فيه الرجال ضد النساء . وكان للهنود غرام خاص بالمقامرة ولا سيما فى ألعاب التخمين .

والكرم عند هؤلاء الهنود طابع واضح ، فكان الضيفان يُستقبلون أحسن استقبال ، ويجلسون فى مكان الشرف فى مؤخر الخيمة ، وتفرش لهم ربة البيت جلد البيزن فى مكان الضيفان ، ثم يؤتى بالسروج وتعلق فى أعمدة الخيمة . وبعد ذلك يؤذن بالدخول لكل راغب فى لقاء الضيف ، ثم يملأ الغليون — وهو عادة من الطين الأحمر أو خشب البوداق ذو ساق طويلة من

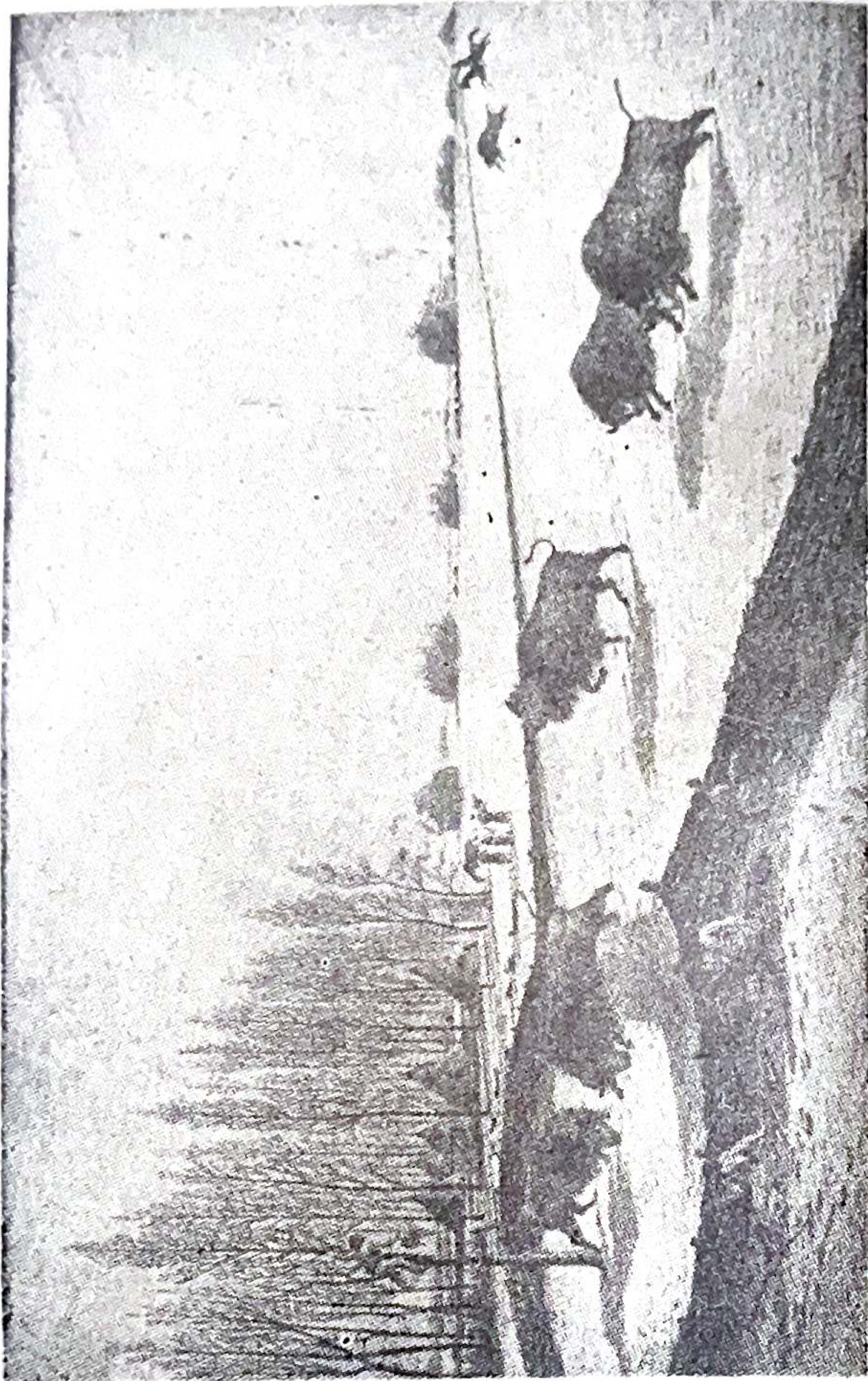
خشب البوداق مزخرفة زخرفة بديعة بالريش والشعر وأقلام القنفذ ـ يملأ هذا الغليون بالطباق ويمرر على الحاضرين من اليمين إلى اليسار ، وبعد ذلك تقام وليمة وتضع ربة البيت أمام الضيف قصعة مملوءة بلحم البيزن المسلوق .

وكانت القبيلة عند هنود السهول وحدة سياسية محدودة ومنفصلة انفصالا تاما عن جميع من حولها . وكان هناك ثلاث قبائل يتكون منها شعب البلا كفوت (Blackfoot) ، وهى البلا كفوت الحقيقيون والبْلَضْ (Blood) والپيجان (Piegan) . وكانت هذه القبائل الثلاث تتشابه تشابها كبيرا فى اللغة والعادات ، وكان يجمع بينها شعور بصلة الدم ، ومع ذلك كانت كل واحدة منها مستقلة سياسيا ولها زعيمها الخاص . وكانت كل قبيلة تتكون من بطون ، وكل بطن تتكون من عائلات ترتبط بينها صلة القرابة ، وقد تشمل أيضاً بعض الغرباء . ولم يكن عدد العائلات فى البطن الواحدة متساويا ، ولكن كان لكل بطن اسمها الخاص وإقليمها الخاص الذى تحدده حدود معروفة . وكان يحكم كل بطن مجلس مكون من الرجال البارزين يترأسهم زعيم مشهود له بالمهارة فى القنص والحرب وبالقدرة على التنظيم ، وكانت جميع بطون القبيلة الواحدة تجتمع معا بضعة أسابيع من كل صيف ينتخب خلالها زعيمها ، وفى هذه الفترة أيضاً كانوا يتفقون على التنظيمات الحربية ، حيث كانوا يضربون خيامهم

على شكل دائرة تتوسطها خيمة الزعيم ومن حولها خيام البطون المختلفة فى صفوف من الدوائر ، كل بطن على حدة . وكانت هذه القبائل تنقسم أيضا إلى جماعات مختلفة بخلاف انقسامها إلى بطون ، وكان لكل جماعة منها حفلاتها ورقصاتها الخاصة ، ولم يكن أعضاء الجماعة الواحدة ينتمون بالضرورة إلى بطن واحدة ، بل كان من الجائز أن يكونوا من خليط من البطون .

وكان عدد الأعضاء فى هذه الجماعات ـ وكذلك نظمها وأعمالها ـ تختلف باختلاف القبائل ، وكان بعض أعضاء هذه الجماعات يقومون أثناء أشهر الصيف بأعمال الشرطة تحت إشراف الزعيم ومجلس القبيلة ، وكانوا ينظمون الحياة فى المعسكر وكذلك فى أثناء الرحيل ، ويقومون بالحراسة إذا كان هناك عدو قريب ، كما كانوا يتولون معاقبة كل من يخالف القواعد المرعية فى صيد البيزن .

ولم يستأنس الهنود من الحيوان غير الكلاب ، وكانوا يستخدمونه كما رأينا فى نقل البضائع وفى الصيد ، أما الخيل التى يقترن ذكرها فى ذهن العامة بالهنود فإنهم لم يعرفوها إلا بعد أن أدخلها الإسپان إلى المكسيك ، وسرعان ما انتشر الحصان والسرج والركاب نحو الشمال من قبيلة إلى قبيلة ، وسرعان أيضا ما أصبح الهنود فرسانا ماهرين . وقد كان للخيل فضل



(شكل ٣٦) حلقة السكين لصيد البيسون

مساعدة هنود البرارى على التجول مسافات أوسع لولاها ما استطاعوا قطعها ، ثم إنها جعلت القنص أسهل مما كان ، كما أنها كانت العامل الأول الذى ساعد بعض القبائل المستقرة عند حافة البرارى على غزوها ، وكذلك ساعدتهم على سرعة الحركة والانتقال فأخذت بعض القبائل تتخطى حدودها وتغير على من يليها ، ونشأ عن ذلك حروب مستمرة ؛ وأصبحت الحرب فى الواقع أحب لهو إلى هنود السهول .

وكان أشهر أسلحة الوطنيين القوس والسهم . وكان طول القوس نحو ثلاثة أقدام يصنعونه من الخشب أو من القرن ، وكانوا يتخذون الوتر من عصب الحيوان ويصنعون وقاء للرسغ من الجلد الخام ، وكانت مؤخرة السهم من الخشب ورأسه من العظم أو القرن أو الصوان المشطوف ، وكانوا يحملون السهام فى كنانات من الجلد .

وقد جلب المستعمرون الأوروبيون معهم الأسلحة النارية ، فساعدت على القضاء على البيزن وعلى زيادة الاعتداءات بين القبائل إلى درجة كبيرة ، كما ساعدت البنادق على زيادة الهجرات وغيرت كثيرا من عادات القبائل . وكان الهنود يستعملون ــ عدا الأقواس ــ حرابا ثقيلة من الخشب يثبتون فى نهاياتها أحيانا أطراف قرون الأيل ، كما كانوا يستعملون هراوات

مدببة من الحجر وسكاكين للكشط ، وكانوا يستعملون فى الدفاع دروعا مستديرة من الجلد الخام السميك .

وقبل مجىء الأوروبيين كان الهنود يهاجمون البيزن وهم راجلون بالأقواس والسهام ، ويبدو أن هـذه الطريقة لم تؤد إلى نقص ملحوظ فى عدد هذه الحيوانات . وكان البيزن أحيانا يصاد أفرادا ، لـكن عندما كانوا يسمعون بوجود قطيع من البيزن فى مكان قريب كانوا يمنعون منعا باتا الصيد المنفرد مخافة أن يؤدى ذلك إلى ابتعاد القطيع وهربه . وكان المتبع فى مثل هذه الحالة أن يساق القطيع إلى زريبة مغلقة ؛ وفيما يلى ما كتبه شاهد عيان عن صيد البيزن بهذه الطريقة :

«زريبة البيزن مكان فسيح دائرى الشكل مسور يبلغ قطره نحو مائة ياردة ، وعلى مدخله يكوم الثلج إلى ارتفاع يكفى لمنع الحيوان الذى يكون قد دخله من أن يخرج ثانياً . وعلى بعد ميل تقريباً — على كلا جانبى الطريق المؤدى إلى الزريبة — كانت ترشق فى الأرض خوازيق على أبعاد متساوية تقريباً ، كل منها على بعد نحو عشرين ياردة من الذى يليه ، وكان المقصود بهذه الخوازيق أن يظنها الحيوان رجالا فلا يخرج عن الطريق الذى يؤدى إلى الزريبة . وعلى بعد نحو خمسين أو ستين ياردة من مدخل الزريبة كانت توضع بين الخوازيق أغصان الشجر لتحجب الهنود الرابضين وراءها فى انتظار البيزن .

وتتجلى المهارة الحقيقية فى هـذا النوع من المطاردة فى الدور الذى يلعبه راكبو الخيل الذين يقومون بالمناورة حول القطيع فى السهول كى يضطروه إلى اللجوء إلى الطريق المؤدى إلى الحظيرة والذى يبلغ عرضه نحو ربع ميل ؛ فإذا تم ذلك صاح الفرسان صيحات عالية وأخذوا يضيقون الخناق على الحيوان فيتملـكه الرعب ويندفع بأقصى سرعة نحو الفخ ، وعند ما تقترب الحيوانات من الرجال الرابضين وراء الأسوار يقوم هؤلاء أيضاً من مكمنهم ويزيدون فى فزع الحيوان بالصياح وإطلاق النار فلا يجد الحيوان الذى اشتد به الرعب بداً من الالتجاء إلى الحظيرة حيث يجهز عليه وشيكا بالسهام أو بالبنادق .

وكان فى وسط الحظيرة شجرة كان الهنود قـد علقوا عليها شرائح من لحم الجاموس وقطعاً من القماش على سبيل الشكر لواهب الحياة الأعظم ، وسمعنا أنهم أحياناً يضعون فى الشجرة رجلا يغنى للروح المسيطر فى أثناء اقتراب الجاموس ، وعلى هذا الرجل أن يظل فى مكانه حتى يتم القضاء على جميع الجاموس الذى انساق إلى الحظيرة . وهـذا النوع من القنص يشبه تماما ما يتبعه أهل جزيرة سرنديب فى قنص الفيلة ، ولـكن على مقياس صغير »[1] .

---

(1) Franklin, John; Narrative of a Journey to the Shores of the Polar Sea.

وكان من عادة القبائل القاطنة على سفوح الجبال فى الغرب أن يسوقوا البيزن بين صفين من الرجال والنساء يرفعون أصواتهم بالصياح ، ويأخذ الصفان فى الاقتراب نحو هوة سحيقة حيث يهوى الحيوان ويقضى عليه .

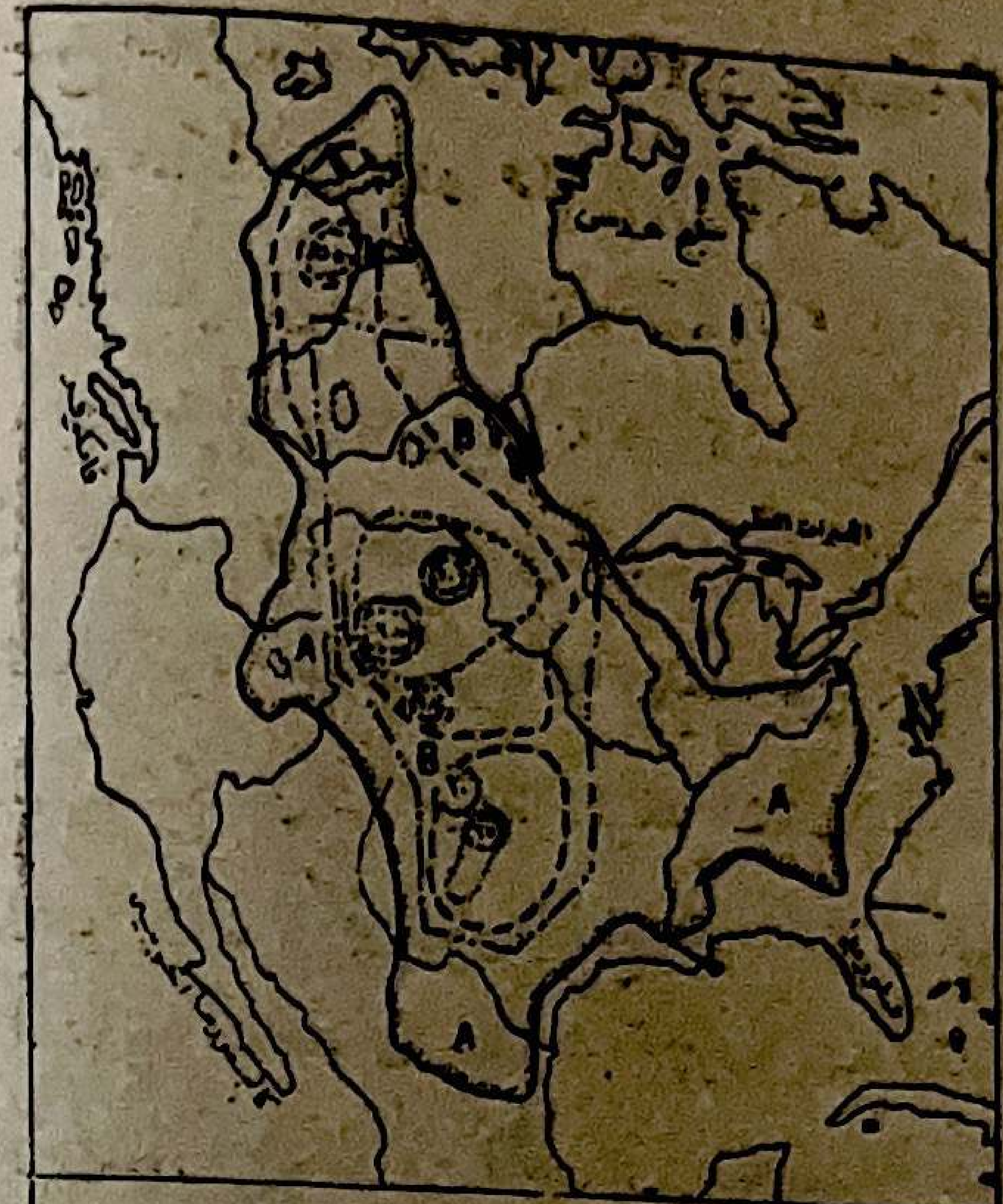
وبعد ما عرف الهنود الخيل أصبح فى استطاعتهم مطاردة القطعان من مسافات بعيدة ، وكذلك أصبح فى استطاعتهم وهم فوق ظهور الخيل أن يحيطوا بالقطيع ويسوقوه فى دائرة تأخذ فى الضيق تدريجاً حتى يصير كله كتلة واحدة ويقع فريسة مهلة للسهام .

ولما عرفت الأسلحة النارية سار صيد البيزن بخطى حثيثة وتم القضاء عليه بسرعة حتى لم يبق منه الآن غير العـدد القليل الذى يحتفظ به فى المتنزهات الأهلية فى كندا والولايات المتحدة . وفى سنة ١٨٨٩ كان عدد البيزن الذى يهيم فى البرارى يقدر بما لا يزيد على ٦٣٥ وذلك حسب الإحصاء الذى أورده تورناداى **Tornaday** .

وعند ما كان الحيوان الذى لجأ إلى الحظيرة يقضى عليه جميعه كانت جثته تقطع تمهيداً لنقلها إلى المعسكر بواسطة الرجال والنساء والأطفال والـكلاب ؛ وفى بعض الأحيان كانوا يقيمون وليمة فى مكان الصيـد قبل نقل اللحوم إلى المعسكر . وقد وصف باركمن **Parkman** مثل هذه الوليمة فقال :

« ثم اجتمع الهنود حوله ، وسرعان ما كانت عدة سكاكين تعمل فيه ، وكانت هذه السكاكين تؤدى عملها بمهارة عجيبة حتى أن الأعصاب المتشابكة كانت تنفصل على حدة ، والعظام الضخمة كانت تنزع بسهولة كما لو كان ذلك بفعل ساحر ، وفى طرفة عين كانت الجثـة الضخمة قد أصبحت كتلة هائلة من اللحم الغارق فى الدماء . ولم يكن منظر جموع المتوحشين الملتفين حول هذه الـكومة مما ترتاح له عين الرجل المتمدين ، فقد كان بعضهم منهمكاً فى تكسير عظام الفخذ الضخمة وازدراد ما تحويه من نخاع ، وكان البعض الآخر مشغولا بقطع أجزاء من الـكبد وغيرها من الأجزاء الممتازة وازدرادها فى الحال بشهية دونها شهية الذئاب ، وكان منظر معظم الوجوه الملوثة بالدماء من الأذن إلى الأذن منظراً بشعاً ومخيفاً .
وقدم لى صديقى عظمة ذات نخاع قد شقت بمهارة حتى أن ما بها من نخاع كان كله بادياً للعين مرة واحدة . ومن الواجب إحقاقاً للحق أن نقرر أن بعض أجزاء الجثة فقط تعتبر لائقة لمثل هذه الولائم التى يقيمونها فى مكان الصيد .

وكان الهنود يأكلون اللحوم فى الأغلب مطبوخة ، وهم يسلقونها فى أوان مصنوعة من الجلود الخام والحجارة ، أو يشوونها فى رماد النار أو فى جحور أو تنضج على النار . وعند ما كانوا يريدون حفظ اللحم كانت



(شكل ٢٧)

خريطة توضح توزيع البيسون فى فترات مختلفة

النساء تقطعه إلى شرائح تجفف فى الشمس ثم تحمص على النار ، وبعد ذلك تسحق جيداً . وهـذا المسحوق يحفظ فى أكياس من الجلد أو من أمعاء الحيوان ويختم بالدهن ، وفى هذه الحالة يسمى « پمكن » Pemmican ، وكثيراً ما كانوا يسحقون مع اللحم Service berries أو السكريز ، وبهـذه الطريقة يحصلون على مسحوق شهى يسمونه « پمكن البرى » Berry Pemmican . وقد اهتم المستكشفون والصيادون الأوائل من الأوروبيين باستعمال هـذا النوع من الطعام إذ أنه مركز وعظيم القيمة الغذائية .

ويعتقد الهنود الحمـر — كسائر الشعوب البدائية — فى عدد من الأرواح تسكن الأشجار والحيوان والصخور والأنهار ، وهم يعتبرون بعض هذه الأرواح حارسة لهم ويبنون هذا الاعتقاد على رؤى يرونها .

وكانت رقصة الشمس أهم حفلاتهم الدينية ، وكانت جميع القبائل تزاولها فيما عدا الكومانش Comanche . وكان الاحتفال عيداً سنوياً يستمر أياماً عديدة ويقع عادة عقب الموسم الصيفى لحملات صيد البيزن الجماعية ، حيث كان هذا الصيد يمدهم بما يلزم لتلك الحفلات من اللحوم . وكانوا ينتخبون من بينهم زعيما أو رئيساً للاحتفال وينصبون عموداً مقدساً يعلقون فيه القرابين للروح الأعظم ، وهذ العمود كانوا يقطعونه من شجرة

بطريقة تمثل قطع عدو ثم يجرّونه إلى مكان الاحتفال وسط مظاهر الفرح العظيم ، وكانت عادة قبائل الأسينيبويين **Assiniboine** الرقص فى اليوم الأول من أيام الاحتفال ، وفى اليوم الثانى يعرض السحرة ألاعيبهم وحيلهم ، فإذا كان اليوم الثالث اشترك جميع الحاضرين فى احتفال عظيم تحتل فيه لحوم الكلاب مكاناً هاماً بين ألوان الطعام . وكان من عادة بعض القبائل — كالبلاكفوت والكروز — أن يقوم المحاربون الشبان أثناء رقصة الشمس بتعذيب أنفسهم إرضاء للروح الأعظم كما كان يحدث أثناء هذا الرقص أن يتبادلوا « الحزمات الطبية » باحتفال لائق .

وكان هناك بضع أدوات مقدسة أو « طِبّيات » لعبت دورا هاما فى حياة أولئك الهنود ؛ وكلمة « طبيات » تشمل فى الواقع إجراءات العلاج كما تشمل المواد الطبية نفسها ، وهذه الأخيرة تشمل «الحزمات الطبية» والخيام الملونة والدروع المقدسة والقمصان الخاصة بالحرب وما إليها ، وكان كل من هذه الأدوات المقدسة رمزاً لنعم خاصة أسبغتها على صاحبها القوى الخارقة ، وكانت الخيام المنقوشة المزخرفة طبقا لتعليمات تلقاها صاحبها فى الرؤيا يملكها مشاهير رجال الطب أو « الشامان » ، وكانت هذه تلعب دوراً هاما فى الطقوس الدينية ، وكان للدروع المقدسة المزخرفة طبقا لتعليمات الأرواح فى الأحلام قدرة على حماية لابسها فى الحروب ؛ والحزمة الطبية التى سبق

ذكرها قد تكون أى شىء ، من بضع ريشات ملفوفة فى قطعة جلد أو قماش إلى مجموعة من الأشياء محفوظة فى حقيبة كبيرة من الجلد ، وكانوا يعتقدون أن هذه الحزمات تجلب لصاحبها التوفيق فى الصيد والحرب والسفر كما تضمن له نصيباً من الاحترام . وكان معظم الشيوخ يمتلكون نوعاً من « الطبيات » ، ولكن الذين كانوا يملكون ما يسمى « الغليون الطبى » كانوا يتمتعون بأكبر قسط من التقدير . وكان مكان الرجل أثناء الحفلات يتأثر بنوع الحزمة التى يملكها ، ولذا كانوا دائماً يتطلعون إلى الحصول على حزمة أعلى مقاما . وكانت الحزمات الطبية قابلة للبيع والشراء ، فكان الرجل الذى يملك حزمة طبية يعتقد أنها جلبت له التوفيق يعمل منها صورا ويعرضها للبيع ، على أن بيعه للصورة الرابعة كان يفقده حق امتلاك الحزمة. ورقم ٤ مقدس عند الهنود وهو يرد كثيراً فى حفلاتهم . وكان تبادل الأدوات الطبية إجراء هاما ومطولا ، لأن المالك الجديد لم يكن عليه أن يعرف فقط مغزى كل قطعة بل عليه أن يعرف كذلك و بالدقة تفاصيل الرؤيا التى يرجع إليها أصلها والأغانى التى أكسبتها قوتها، فإن الرمز لم تكن قوته فى جوهره بل فى الرؤيا الخاصة به وفى تاريخه وفى الأغانى التى تقترن به .

ويلعب الوحى دوراً هاما فى حياة الهنود ، فهم ينظرون إلى الأحلام نظرة تختلف كثيراً عن نظرتنا إليها ، فإن الأرواح فى اعتقادهم هى التى

تظهر لهم وتلقى إليهم بتعليماتها . ومن اعتقادهم أن الرؤى لا يراها إلا القليلون ، وكان أكثرهم يقومون بتعذيب أجسادهم ليحاولوا بذلك إغراء الأرواح بالظهور لهم والإيحاء إليهم ، وكان بعضهم فى سبيل ذلك يعذبون أنفسهم عذاباً مؤلماً يجعل رؤيتهم الأحلام أمراً غير مستبعد ، على أن الحوادث كثيراً ما أثبتت فيما بعد كذب أحلامهم .

وقد يكون «الشامان» رجلا أو امرأة ، على أن يكون قد جاءه الوحى وأن يبرهن على صدق ما جبته الأرواح من قوى خارقة . وكما أن الأحلام كانت مختلفة كذلك كانت القوى التى يدعونها مختلفة ، فكان بعضهم يتخصص فى التنبؤ والتكهن و بعضهم فى توجيه حملات الصيد ، و بعضهم الآخر كانت له قدرة فى الحروب ، على أنهم جميعاً كان لهم إلمام بالسحر .

وأهم مميزات ثقافة هنود السهول بإيجاز هى الاعتماد على البيزن وسكنى الخيام فى جميع فصول السنة ، والنقل بواسطة الكلاب والتراڤو يس (وفى الأزمنة الحديثة بواسطة الخيل والتراڤو يس) وجهلهم التام بالفخار والسلال والنسيج الحقيقى ، واستعمال جلود البيزن والغزال فى ملبسهم ، واتقان أشغال الجلود ، وتنظيم خيام المعسكر فى شكل دائرى ، ونظام بوليسى لتنظيم صيد البيزن ، وتفوق عام فى فن الزخرفة ، واحتفال دينى يعرف باسم رقصة الشمس .

وكان للهنود الذين يعيشون على حافة البرارى نصيب من صيد البيزن وكانوا يعتمدون عليه — بدرجات متفاوتة — فى الحصول على بعض طعامهم ، وتعتبر ثقافة مثل هذه القبائل ثقافة انتقالية ، إذ تشتمل على بعض صفات من ثقافة هنود السهول مع بعض صفات من ثقافة غيرهم من القبائل المجاورة ، وكانت القبائل التى تليهم إلى الشرق تزرع الذرة والبقول والقرع وكانت تتخذ لها فى فصل الزراعة مساكن دائمة من لحاء الشجر أو الحصير أو الطين بجوار زراعاتها ، فإذا جاء فصل صيد البيزن وانتقلت إلى البرارى اتخذت لها مساكن مؤقتة هى فى العادة من الخيام (التيپى) . وقد استعملت هذه القبائل قليلا من الفخار والسلال وصنعت حقائب من الغزل والنسيج كما كان يفعل جيرانها إلى الشرق ؛ لكن القبائل التى كانت تقطن إلى الغرب كان اعتمادها على البيزن أقل واعتمادها على الغزلان وعلى الصيد الصغير أكثر ، وكذلك كانت تعتمد إلى درجة كبيرة على حبوب الأعشاب البرية ؛ وهذه القبائل لم تعرف الفخار ولكنها كانت تصنع أنواعا جيدة من السلال . أما الهنود الذين كانوا يقطنون على الحدود الشمالية الشرقية فكانت ثقافتهم تجمع بين معالم ثقافة الصائدين فى الغابات ومعالم ثقافة الهنود من سكان السهول .

وقد سبقت الإشارة إلى الأثر الذى كان لدخول الخيل والأسلحة

النارية فى القضاء على البيزن وفى استمرار الحروب بين القبائل . وقد نتج عن قلة عدد البيزن أن الهنود لم يحرموا من مورد غذائهم فقط بل حرموا كذلك من أهم مواد كسائهم ومأواهم ، مما صير حياتهم شاقة جدا . وقد تناقص عدد الهنود كثيرا بسبب الحروب والأمراض (لاسيما الجدرى والسل الرئوى) والخمور وما طرأ على طريقة حياتهم من تغيير . وقد حدث اختلاط كثير عن طريق التزاوج بين بعض القبائل مثل الكروز Crows و بين الأورو بيين، ونتج عن ذلك أن نصف عدد الكروز فقط فى الوقت الحاضر من الهنود الخالصين . ويحيا الهنود فى الوقت الحاضر حياة هادئة فى مناطق خصصت لهم : يزرعون المحاصيل و يرعون الماشية والخيل ، بينما نجد أرضهم قد تغيرت ، ففى الشرق — حيث يزيد مقدار الساقط من المطر — يزرعون كثيرا من الحبوب ، وفى الغرب الأكثر جفافا يرعون قطعانا هائلة العدد من الماشية والخيل .

القسم الثانى

القانصون والصائدون

الفصل السابع

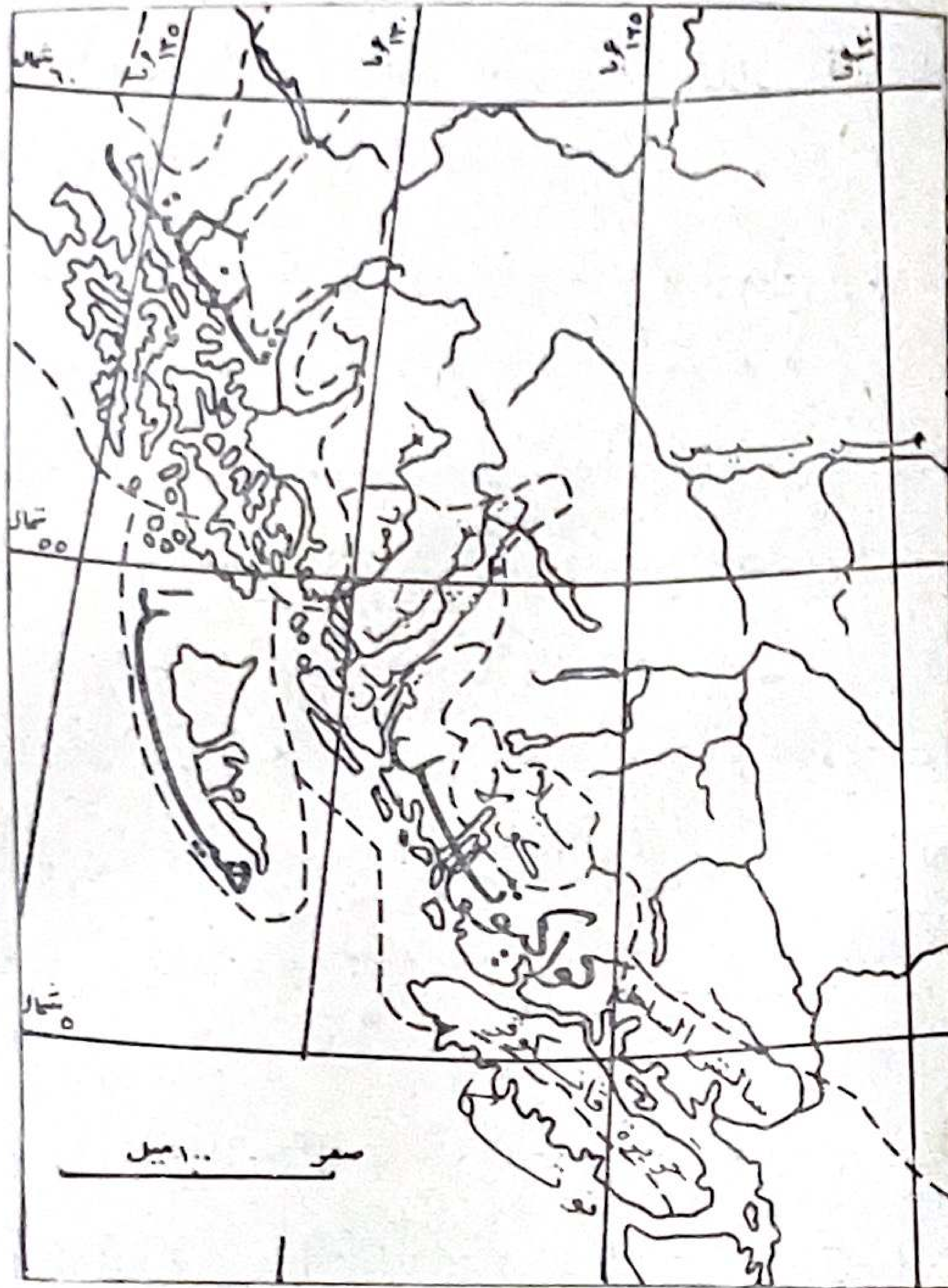
هنود السواحل

فى كولومبيا البريطانية

ينقسم الهنود الذين يعيشون فى أيامنا هذه فيما يعرف الآن بكولمبيا البريطانية ، من الناحية اللغوية إلى الأقسام الآتية : التلنكت **Tlinkit** الذين يقطنون الأقاليم الشمالية وتقطن أغلبيتهم فى ألاسكا ؛ والهايدا **Haida** الذين يقطنون جزر الملكة شارلوت ؛ والتسمشيان **Tsimshian** الذين يقطنون فى حوضى نهرى ناص وسكينا ؛ والكواكيوتل **Kwakiutl** الذين يقطنون فى جنوب التسمشيان ؛ والبلاكولا **Bella Coola** الذين يكادون يقسمون الكواكيوتل نصفين ؛ والنوتكا **Nootka** فى غرب

جزيرة ڤانكوڤر ؛ والسالش الساحليون Coastal Salish فى شرق الجزيرة المذكورة وفى الساحل المقابل لها من القارة . ويمتاز هؤلاء الأقوام بما يمتاز به سائر الهنود كالوجه العريض والأنف الضيق والعيون السمراء والشعر الأسود المسترسل والبشرة السمراء . لكن لهم أيضا بعض الصفات الخاصة بهم التى تميزهم عن سواهم . وبالرغم مما بينهم من اختلاف فى اللغة وفى المظهر فإنهم كانوا جميعا قبل مجىء الأوروبيين يحيون حياة متشابهة ، فكانوا يحصلون على طعامهم — فى المكان الأول — من صيد الأسماك فى البحر والأنهار وقنص الحيوانات البحرية فضلا عن البرية . والواقع أنهم كانوا قد كونوا لأنفسهم ثقافة خاصة بهم تفوق كثيرا ثقافات معظم الجماعات غير الزراعية .

ونظرة إلى خريطة كندا تبين لنا أن الأقاليم الساحلية التى نتكلم عنها تشبه إلى حد كبير أقاليم غرب اسكتلنده والنرويج ، فهناك سلسلة من الجزر تمتد بحذاء الساحل وهناك فيوردات ضيقة طويلة تمتد أميالا عديدة فى داخل اليابس ، بينما ترتفع من الشاطئ فى كل مكان جبال شاهقة ، ويخترق هذه المرتفعات قليل من الطرق ولا يشقها نهر أبدا فى أى مكان بين نهرى فريزر وسكينا وهى مسافة تبلغ خمسمائة ميل ، ولذلك كان أسهل طريق للمواصلات هو طريق البحر . وقد كان هدوء الماء فى الفيوردات



(شكل ٢٨)

خريطة توضح القبائل الساحلية فى كولمبيا البريطانية

وفى البحار الداخليه الواقعة بين الجزر وبين القارة من العوامل التى ساعدت الوطنيين على المغامرة بركوب البحر ، هذا إلى أن وفرة الخشب فى الغابات كانت تسد حاجتهم منه لبناء القوارب .

ومناخ الأقاليم الساحلية فى كولمبيا البريطانية يشبه مناخ غرب أوربا فى اعتدال حرارته ووفرة أمطاره ، ففى بعض جهاته يزيد المعدل السنوى المطر على ١٠٠" يسقط معظمها وابلا مدراراً فى الخريف والشتاء ، أما الثلوج فيندر أن تبقى فوق السهول زمنا يذكر ، وهذا القول صحيح لا سيما فيما يختص بالجهات الجنوبية بما فيها جزيرة ڤانكوڤر ، حيث لا تبقى درجة حرارة الشتاء تحت درجة التجمد إلا فترة وجيزة لأن الإقليم يتعرض حينذاك للدفء بسبب هبوب الرياح الغربية التى تصحب تيار اليابان الدافئ . أما حرارة الصيف فمعتدلة لكنها لا ترتفع إلى الحر الذى تصل إليه فى الداخل .

وفى مثل هذه الأحوال المناخية يجود النبات وتتغطى الأرض من ساحل البحر إلى ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام على سفوح المرتفعات بغابات كثيفة من الأشجار دائمة الخضرة ذات السيقان الطويلة المستقيمة ، كما تنمو تحتها طبقة يصعب اختراقها من النباتات السرخسية الكبيرة ومن الشجيرات معظمها ذات ثمار صالحة للطعام . وأهم الأشجار التى يمتاز بها

الإقليم شجرة تنوب دجلاس **Douglas fir** التى كثيرا ما يصل حجمها إلى درجة هائلة حتى لقد يبلغ قطرها خمسا وعشرين قدما وارتفاعها ثلثمائة قدم . ويتخلل هذه الأشجار أنواع أخرى متعددة منها التنوب **fir** والسرو والطحاء **hemlock** والشربين الأصفر والأحمر ذو الألياف المستقيمة . ومن الشربين أيضا ما يصل حجمه إلى درجة عظيمة . وكانت أهمية شجرة الشربين للقبائل الساحلية كأهمية شجرة جوز الهند لسكان جزر البحار الجنوبية :

« فمن قشرها الخارجى كانوا يصنعون حبالهم وخيوطهم وسقوف مساكنهم والثقاب البطىء أو «النار المتنقلة» وكثيراً غير ذلك. ومن قشرها الداخلى كان نساؤهن ينسجن الملابس لهن ولأولادهن والفراش والوسائد ، ويفرشن به مهاد الرضع من الأطفال ، كما كن يصنعن منه عصابات الكبس واللوايا لتشويه رءوسهن ، هذا عدا استخدامه فى أغراض عديدة أخرى . ومن أخشابها كان الرجال يصنعون المساكن العائلية والجماعية وكذا القليل من الأثاث الذى كانوا يعرفونه كالبراميل والقدور والغلايات والأقداح والصحون والقصع ، ومنها أيضا صنعوا القوارب الرشيقة الخفيفة ما كان منها للصيد أو للحرب ، كما صنعوا صناديق الموتى والخزائن والأقنعة التى يلبسونها فى حفلاتهم والعلامات المميزة لهم والأعمدة التذكارية والقضبان

الطوطمية وأدوات أخرى لا حصر لها . ومن فروعها الصغيرة صنعوا أمتن أربطتهم وحبالهم ، ومن جذورها ، بعد فلقها ، كان النساء والبنات يجدلن السلال الجميلة التى لا ينفذ منها الماء والتى اشتهر بها هذا الإقليم » .

وفى وادى نهر فريزر الأدنى وغيره من الأقاليم الجنوبية كانت أشجار البتولا والحور الرومى والاسفندان والحور الأبيض وشجر التفاح المر والصفصاف تحل محل بعض أنواع الأشجار الصنوبرية .

وكانت الغابات فيما مضى تعج بحيوان الصيد ومن أهمها الأيل والغزال والأغنام الجبلية ، ولكنهم لم يكونوا يهتمون كثيرا بصيدها ، وقد يكون من أهم أسباب ذلك ما كان يجود به البحر من الرزق الوفير . وكانوا يصيدون كلب الماء وعجل البحر ذا الفراء وعجل البحر ذا الشعر وسبع البحر والدرفيل والحوت . ولكن أهم حاصلات البحر الذى كانت كولمبيا البريطانية وما زالت تمتاز به ، هو سمك السلمن . فقد كان هذا النوع من السمك هو الغذاء الرئيسى للأهالى قبل عصر التبادل التجارى .

وتوجد من السلمن أنواع عديدة لكل منها موعده الخاص بالهجرة وهو موعد خروجه من البحار الملحة وصعوده فى الأنهار لوضع بيضه، وهناك أنواع أخرى كانوا يصيدونها ويتغذون عليها كسمك الدُخَس **sturgeon** والرنجة والحلبوط **halibut** والحوت **cod** والأوليكان **oolikan** ، ولكن

القدر الذى كانوا يستهلكونه من هذه الأنواع لا يقارب ما كانوا يستهلكونه من السلمن . وسمك الأوليكان مملوء بالدهن لدرجة أنه إذا جف يلتهب كالشعلة ، ومن هذا أطلق عليه اسم سمك المصباح ، وهو من فصيلة السلمن لكنه أصغر منه إذ لا يزيد طول الواحدة منه على تسع بوصات . وكانت أعداد هائلة من هذا النوع تصعد زمن الربيع فى الأنهار ولا سيما نهر ناص **Nass** ، لدرجة أن الصائد كان يستطيع أن يملأ منه عدة مقاطف . وكان الدهن والشحم الذى يحصلون عليه من بعض الأسماك سلعة تجارية هامة ، يعبئون كثيراً منها فى صناديق من خشب الشربين وينقلونها عبر الجبال فى طرق محددة معروفة .

وكانوا يجمعون كميات كبيرة من أسماك المحار من الشواطئ المنخفضة بعد انحسار ماء المد عنها ويأكلون بعض ما يجمعون ثم يجففون الباقى ويحفظونه ليقايضوا عليه مع القبائل التى تقطن الأقاليم الداخلية . كذلك كانوا يجمعون من الشاطئ بعد انحسار ماء المد القواقع وبلح البحر **Mussels** وعقارب الماء (أبو جلنبو **Crabs**) .

ولم يستأنس هنود السواحل فى كولمبيا البريطانية حيوانا غير الكلب ولم يزرعوا نباتات غذائية ، ولو أن التلنكت **Tlinkit** والهايدا **Haida** استنبتوا من الحبوب نباتا غير معروف الأصل تماما زرعوه وسموه خطأ

بالطباق . وكانت بعض الجماعات الأخرى تراقب الأماكن التى ينمو فيها هذا النبات بريا وتزورها فى فترات منتظمة لتحصده . ولأوراق هـذا النبات أثر مخدر ، وكانوا يمضغونها بعد تجفيفها وخلطها بالجير .

وقد اعتمد هؤلاء الناس فى طعامهم على صيد الأسماك ، وكان طعامهم يتكون أساسا من لحومها ومن لحوم الثدييات البحرية وسمك المحار وحيوان الصيد والطيور البرية و بيض الطيور وأعشاب البحر و بعض أنواع من قشور الشجر والفواكه والجذور . وكانوا يصنعون من زيت السمك والثدييات البحرية ومن دهنها صلصة يتناولونها مع كل طعام تقريبا . وكانت بعض الأعشاب البحرية تجمع وتكبس ثم تخزن لاستعمالها زمن الشتاء . وكان القشر الداخلى لأشجار التنوب الفضى (**Spruce**) والصفصاف يكشط من الأشجار ويدخن وتصنع منه أقراص تدخر للاستهلاك فى الشتاء . وكانت الكميات الهائلة من فصائل التوت المختلفة التى يجمعها النساء والصغار فى الصيف تُدخل إلى طعامهم عنصرا جديدا سارا ، وكان بعضها يحفظ بطرق شتى ويدخر لأيام الشتاء . وكانت القبائل التى تعيش فى الجنوب تجمع كثيرا من جذور بطاطس الخنزير (**Camas**) وهو نبات يقترن دائما بنبات الزنبق **hyacinth** ، وكانوا إذا دخنوه حصلوا منه على خبز ذى طعم سكرى نوعا ما .

ولم تكن معظم القبائل الوطنية تعير صيد حيوان الغابات أى اهتمام ، ولكن البلا كولا **Bella Coola** والتسمشيان **Tsimshian** و بعض القبائل الأخرى كانت تقنص أنواعا مختلفة من الحيوانات البرية أثناء أشهر الشتاء ، وكانت الطيور وحيوانات الصيد الصغيرة تقنص بالفخاخ أو الشباك بينما كانت الغزلان تصاد بالشبك أو توقع فى كمين بواسطة صائد يقلد أصواتها باستعمال صفارة خاصة ثم يعمل فيها سهامه . وكانت الدببة تقنص بواسطة الكلاب وترمى بالسهام أو توقع فى حفر غاية فى الاتقان أو بواسطة الحبائل . أما النوتكا **Nootka** والكواكيوتل **Kwakiutl** فكانوا ينظمون حملات واسعة لصيد الدببة ، وكذلك كانت تصاد الأيّل (**elk**) والأغنام الجبلية والماعز . وكان الصيادون يصنعون أقواسهم من خشب الشربين أو القُشاغ (**yew** ، وهو نوع من السرو) وكانت سهامهم غير مريشة ولها ساق خشبية جزؤها الأمامى من الخشب أو من العظام ورأسها ذو السفاة من الخشب أو من العظم كذلك . وكان للأصواف والجلود والقرون والأعصاب التى يحصلون عليها مما يقنصون فوائد شتى أهم من فائدة لحمها الذى كانوا يأكلونه عادة عندما تندر أنواع الطعام الأخرى .

وكانت الثدييات البحرية تصاد من أجل فرائها ولحومها معا ، وكان لحم الحوت يعتبر طعاما قيما لكنهم مع ذلك كانوا يعتمدون فى الحصول

على حاجتهم منه على ما يقذف به ماء البحر إلى رمال الشاطئ ، على أن النوتكا Nootka كانوا يتسلحون برماحهم ويغامرون بقواربهم وراء الحوت ، وكان يتزعم هذه الحملات أمهر القاذفين بالرمح وهو الذى يضرب الضربة الأولى ، كما أنه هو الذى يوجه الرجال ويقودهم إلى حيث يصبحون على مرمى الرمح من الحوت ، على ما فى ذلك من خطر على القارب الخفيف الذى يحطمه الحيوان بضربة واحدة من ذنبه الجبار . ومن عادة الحوت إذا أصيب أن يغوص فى الماء ويسحب وراءه الحبال والعائمات فيتبعه الصائدون ويصوبون إليه مزيدا من الرماح كلما طفا على سطح الماء طلبا للهواء ؛ وبعد مدة يعجز الحيوان عن الغوص بسبب ما أصابه من الجراح الكثيرة وما يعلق به من الحبال التى تمسكها العائمات ، وعندئذ يستطيعون الاقتراب منه والقضاء عليه ، ثم يحملون جثته فى قواربهم وسط مظاهر الفرح والابتهاج . وغنى عن البيان أن حملات صيد الحوت لم تكن جميعها حليفة النجاح لأن الحيوان إذا لم تكن جروحه شديدة كان أحيانا يستطيع الإفلات رغم ما يمسك به من حبال وعائمات .

وكانت الدرافيل والقنادس تصاد — وعلى الأخص فى الربيع — بالرماح تصوب إليها من القوارب ، وقد حدث بعد اختلاط الهنود بالأورو بيين أن أصبح صيد القنادس يجرى على نطاق واسع بسبب تقدير

الأورو بيين العظيم لجلدها الجميل حتى أصبحت الآن فى طريقها إلى الانقراض . وكانت عجول البحر وسباع البحر تصاد أيضا بالرماح أو الضرب بالهراوات وهى راقدة بين الصخور فى الأشهر الأولى من العام .

وكانت مهارة الوطنيين الحقيقيين تتجلى فى صيد السمك ، وكان الحوت والحلبوط وكلب البحر تصاد بالخيط والسنارة ، وكان الخيط الواحد يضم أحيانا ما لا يقل عن مائة سنارة ، وهذه السنانير — التى كانت تختلف أشكالا باختلاف نوع السمك الذى تعد لصيده — كانت تصنع بإتقان فائق من الخشب المعوج أو العظم ، وكان الخيط يصنع من حبال مفتولة من ألياف نباتية أو من أعشاب بحرية خاصة . وعندما كانت الرنجة والأوليكان تكثر فى مياه ضحلة كان كثير من الهنود يستخدمون ما يسمى مجرفة السمك (**Fish-rake**) وهى عمود طوله نحو ثمانية عشر قدما له سلاح طوله نحو ستة أقدام وعرضه نحو قدم واحدة مثبت فيه عدد من الخوازيق المصنوعة من العظام ، وكل ضربة من ضربات هذه المجرفة فى الماء الضحل الذى يعج بسمك الرنجة أو الأوليكان كانت تأتى بثلاث سمكات أو أربع ، لكن المقادير التى كانت تصاد بالفخاخ أو الشباك أو السدود كانت تفوق بكثير المقادير التى تصاد بهذه الطريقة . وكانت الشباك تصنع عادة من حبال مصنوعة من ألياف نبات القَريص **Mettle**

وســلال الفخاخ من سُلخ من خشب الشربين أو أغصان الصفصاف .

وكانت الأنواع المختلفة من السلمن هى العنصر الرئيسى فى غذاء الهنود الساحليين ، وكان صيد السلمن يتم فى أغلب الأحيان بشبك الجر أو الخيط والسنارة أو الســدود ، فالــكوا كيوتل Kwakiutl والسالش Salish مثلا كانوا يقيمون بحذاء الشواطئ التى يغطيها المــاء وقت المد سدودا من الحجر على شكل حــدوة الفرس ، فإذا انحسر عنها ماء المد تُرك السلمن وراء السدود . على أن معظم الهنود كانوا يستفيدون من رحلات السلمن السنوية ليصيدوه فى الأنهار وهو فى طريقه لإلقاء بيضه . وعنــد ما كان موسم الهجرة يبلغ ذروته كانت الأسماك تــكاد تسد الأجزاء الضيقة من الأنهار فيصير من أسهل الأمور إصابتها بالحراب أو سحبها من الماء جماعات بواسطة مجراف ، على أن الذى كان يتبع عادة هو إقامة سد فى عرض النهر . وكان الهايدا يقيمون فى عرض النهر فى الأجزاء العميقة منه حواجز من الأغصان اللينة ويتركون فيها فتحات تؤدى إلى فخاخ أسطوانية الشكل من الأغصان المجدولة . أما فى أجزاء النهر التى يــكون ماؤها ضحلا وتيارها سريعاً فــكانوا يقيمون سدين من القضبان بينهما مسافة صغيرة ، وعنــدما يقفز السلمن فوق أحدهما ينحصر بين الاثنين ويسهل صيده

بواسطة الحراب أو الشباك الغارفة dip nets . وبعض هذه السدود كان على درجة عظيمة من الإتقان ، وكانت إقامتها تستدعى تضافر الجهود من القوم أجمعين .

وكان السلمن الذى يصاد يطبخ أو يجفف ويخزن لفصل الشتاء أو يستخرج منه الزيت ، وكل هذه المهام كانت تترك للنساء يقمن بهــا . وكان القسم الذى يعدونه للشتاء تقطع رؤوسه وتفتح بطونه بسكين من الحجر وتستخرج أحشاؤه وتفصل سلسلته الفقرية بمهارة ، وبعد ذلك تعلق الأسماك فى صفوف تحت مظلة بدائية الصنع وتترك لتجف بفعل الشمس والهواء أو بفعلهما وبمساعدة النار والدخان . وإذا كان المراد اســتخراج الزيت تركت الأسماك حتى تــكاد تتعفن ثم تؤخــذ نحو ٤٠ أو ٥٠ من الأســماك المتعفنة وتوضع فى برميل خشبى كبير به ماء ثم تظل بعض الوقت تقلب وتغلى ، وهذا الغليان يحدث نتيجة إسقاط حجارة محمية فى البرميل . وبعد انتهاء هذه العملية يصب عليها ملء دلو من الماء البارد ليجعل الزيت يطفو على وجه المــاء ، وعندئذ يقشط الزيت بواسطة ملعقة مصنوعة من الخشب أو من القرن . وكان هذا الزيت الخام يترك بعض الوقت ثم يغلى ثانيا ، وكلما تــكونت فوق سطحه رغوة أزالوها ، حتى إذا لم تعد الرغوة تتكون تركوا الزيت يبرد ، وبعد ذلك قاموا بتخزينه فى أوعية مختلفة الأشكال من مرارة السمك fishes' bladders أو أمعاء الدببة بعد تنظيفها وتجفيفها .

وكان السلمن الطازج يطبخ بطرق مختلفة ، فكان يشوى بأكمله وهو معلق فوق النار من عصى مثبتة فى الأرض تحترق أطرافها جسمه وتنحنى فوق النار ، أو كان جسمه يشق نصفين ثم يوضع بين فلقتى عصا ، وأحيانا كان يشوى فوق حجر ملتهب أو يغلى فى المـاء . وكان السلمن المراد غليـه يلف عادة فى قطع من قشر الشجر لـكى يبقى متماسك الأجزاء ، ثم يوضع مع المـاء فى وعاء من الخشب أو من جـديل لاينفذ منه المـاء ، ثم يسقطون فى الماء الحجارة المحمية (أو حجارة الطبخ) بمساعدة ماشات من الخشب .

والواقع أن جميع اللحوم والأسماك الطازجة كانت تطبخ بغليها على النار أو بالطريقة المذكورة . أما الأطعمة المجففة فـكانت تنقع ثم تغلى قبل تناولها أو كانت تغمس فى الزيت ، وكان لبعض الجماعات أطعمة خاصة يلتذون بتذوقها مثل بيض الرنجة **herring spawn** ، وهذه كانوا يحصلون عليها بأن يُسقطوا إلى المـاء الضحل غصناً مورقا من أغصان شجرة الطحماء فى الموسم الذى تلقى فيه تلك الأسماك بيضها ، ثم يجففون مايجمعونه من البيض ويخزنونه أو يغلونه مع التوت والأعشاب أو يسحقونه ويعجنونه بالمـاء ويضربونه حتى يصير عجينة قشدية القوام (**Creamy paste**) .

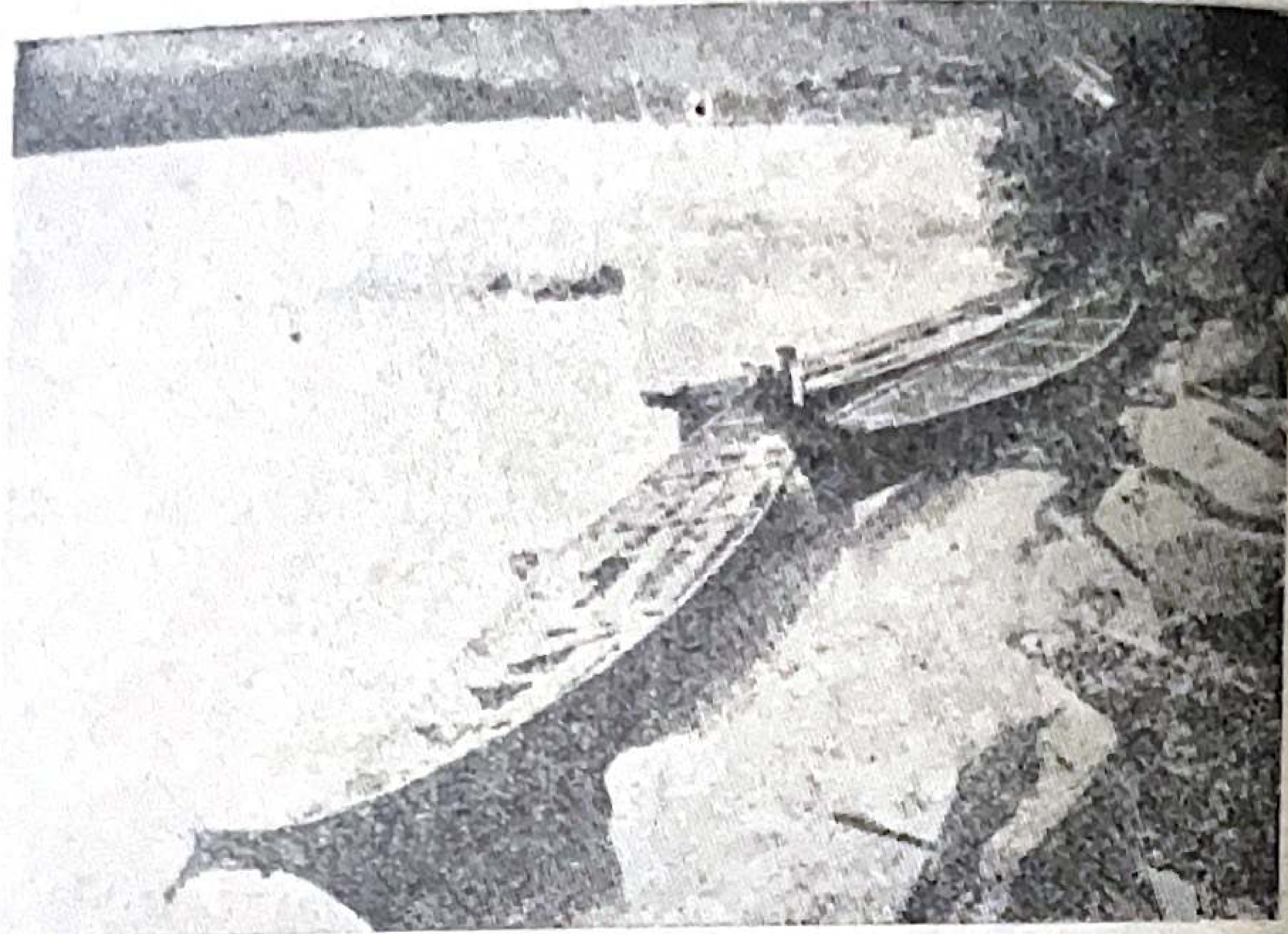
وكان من عادة هنود السواحل تناول ثلاث أكلات فى اليـوم

وكانوا عادة يغسلون أيديهم وينظفون أفواههم قبل كل أكلة . وكان الرجال والنساء يأكلون معاً ، فيجلس الجميع متربعين حول حصير فوقها قصع من الخشب مملوءة بالطعام يتناوله كل منهم بملعقة من الخشب . فإذا كان هناك ضيفان تولت ربة البيت الطبخ وتولى رب البيت القيـام على خدمتهم . فإذا بقى من الطعام فائض — وهذا ما كان يحدث دائما — يجمع المتبقى بأكمله فى صحاف ويرسل إلى منازل الضيفان ، وفى اليوم التالى تعاد الصحاف إلى صاحبها نظيفة وبها عادةً بعض الهدايا ، ولم يكن هؤلاء الهنود الساحليون يعرفون أى شراب مخدر ولم يعرفوا التدخين إلا بعـد أن علمهم إياه الأوروبيون .

وكانت القوارب ضرورية كوسيلة للصيد وللانتقال على السواء ، وكانت كلها من النوع المحفور (**dug - outs**) وكذلك كانت — مثل قوارب سائر سكان أمريكا الأصليين — خالية من الحافة الوسطى (السفلى) (**without keels**) ، وكان بعض الوطنيين يستعملون فى الأنهار نوعا بدائى الصنع من القوارب مصنوعا من خشب التفاح المر (**Cotton-wood**) نهايتاه مستديرتان وجانباه من مقـدمه إلى مؤخره مستويا السطح . أما القوارب التى كانت تستعمل فى البحر فـكانت تصنع من خشب الشربين لا من خشب التفاح المر ، وكانت أكثر اتساعا وأحسن صنعة

من القوارب النهرية ، ولكن كان فيها عيب واحد هو أن خشب الشربين كان سهل الانفلاق تحت تأثير ضربات الأمواج المستمرة ، وكان القارب لهذا السبب عرضة للغرق إذا تسرب الماء إليه .

وقوارب الهنود ذات أحجام مختلفة ، فبينما نجد بعضها لا يتسع لأكثر من شخصين نجد البعض الآخر يتسع لأربعين أو خمسين شخصاً ويصل طوله إلى ستين أو سبعين قدما وعرضه إلى سبعة أقدام أو ثمانية ؛ وكانت القوارب الصغيرة تستعمل فى الصيد ، والكبيرة فى السفر وفى التجارة والحرب ؛ وكان هناك أيضاً تنوع كبير فى الشكل ، فقوارب الشعوب الشمالية كانت ذات قاع مقوس وكانت تنحنى انحناء خفيفاً إلى أعلى وإلى أمام فى الجانبين وفى المقدمة ، بينما قوارب النوتكا وغيرهم من شعوب الجنوب كانت ذات قاع مسطح ومقدم عال مدبب ومؤخر منخفض يكاد يكون عمودياً . وكان النوتكا والهايدا أمهر الهنود الساحليين فى صناعة القوارب، وكان جيرانهم جميعاً يعتمدون عليهم فى صنع قواربهم الكبيرة ، وكانت قواربهم خفيفة تصلح للملاحة فى البحار حتى أن النوتكا كثيراً ما كانوا يخرجون بها بعيداً عن مرمى البصر فى البحار ذات الأمواج العالية غرب جزيرة ڤانكوڤر ، وكان الهايدا يصلون بها إلى ڤكتوريا وهى مسافة تبلغ ثلثمائة ميل . وكانت هذه القوارب تسير بالمجداف والشراع ،



(شكل ٢٩)

زورق مثالى من زوارق قبائل السالش

ولو أنه من المحتمل أن الشراع لم يعرف قبل عصر التبادل التجارى . وهذا هو الإقليم الوحيد فى غرب أمريكا الذى استعمل فيه الوطنيون الشراع فى تسيير قواربهم ، وكان الشراع يتخذ من نسيج من لحاء الشجر أو من ألواح رقيقة من الخشب تثبت فى ساريات تغرس فى عوارض القارب . وكانت المجاديف كلها ذات حد واحد لكنها كانت تختلف من مكان لآخر فى شكلها وفى المادة المصنوعة منها ، وكان الرجال الذين يجدفون ينحنون

ليستطيعوا التجديف ، على أنهم كانوا فى الزمن القديم يجدفون القوارب الكبيرة وهم وقوف .

ولم تكن جذوع أشجار الشربين الضخمة التى تصلح للتجويف إلى قوارب كبيرة توجد إلا فى قليل من الأماكن ، ولذا كانت هذه الجذوع ، كما كانت القوارب الكبيرة المصنوعة منها ، مادة تجارية يتبادلونها إلى مسافات بعيدة . وكانت الأشجار الضخمة تقطع عادة بالطريقة الآتية :

يحفر حول الجذع أخدودان بينهما مسافة تبلغ نحو تسع بوصات ، وذلك بواسطة إزميل ومطرقة من الحجر ، و بعد ذلك ينحت الجزء الذى بين هذين الأخدودين ، وكلما تقدمت هذه العملية يزيد الأخدودان اتساعا إلى أن ينتهى الأمر بانهيار الشجرة الضخمة . و بعد ذلك يفصل الجزء الذى يصلح لعمل القارب بنفس الطريقة ، أو يفصل بطريقة الحرق ، ثم تشق الكتلة الناتجة نصفين بواسطة الخوابير ، و يؤخذ النصف الذى سيجوف إلى قارب و يشكل بواسطة النار . وكذلك كانوا يستخدمون النار لتساعد فى أعمال التجديف التى يستخدمون فيها أزاميل من قرون الأيل ومطارق من الحجر . على أنهم كانوا يستخدمون القدوم فى المرحلة النهائية ، وهى أداة صارت بعد دخول الأوروبين تصنع من الصلب ، ولكن هذه لم تكن

تختلف فى شكلها عن الأداة الحجرية التى حلت هى محلها . وكان سمك الهيكل الخارجى للقارب يختلف باختلاف حجمه ، فكان سمك أكبرها يبلغ نحو بوصتين ، وكان لصانع القوارب مهارة فى تقدير هذا السمك إذ يضع أطراف أصابع إحدى اليدين فى جانب من الخشبة وأطراف أصابع اليد الأخرى فى الجانب المقابل ، حتى إذا ما أصبح الخشب رقيقاً إلى الدرجة المطلوبة ملئ جرم القارب بالماء ثم رفعت حرارته إلى درجة الغليان بواسطة إسقاط الحجارة المحمية فيه، بينما يقام حول القارب وقاء من الحصير ليمنع عنه التيارات الباردة، إذ أن هبة واحدة من الهواء البارد قد تسبب انفلاق القارب . و بعد ذلك يعمدون إلى الهيكل الذى أصبح لينا فيدعمونه بعارضات متدرجة فى الطول ، و بهذه الطريقة كان من السهل عليهم أن يصنعوا من كتلة الخشب التى يبلغ طولها ثلاثة أقدام قاربا عرضه قدمان . وعندما كان عرض القارب يصل إلى المدى المطلوب كانوا يثبتون فيه العوارض بواسطة خوابير خشبية ، فإذا ما برد هيكل القارب صارت جوانبه صلبة وصار من السهل احتفاظها بشكلها الذى بردت عليه . أما مقدم القارب ومؤخره فكانا يصنعان على حدة ، ثم يثبتان فيه بمسامير خشبية أو يشدان إليه بحبال مجدولة من ألياف خشب القريص تمر خلال خروق يحدثونها بمخارز من الخشب . وفى النهاية يطلى القارب كله طلاء غاية فى الاتقان ، ثم تنقش عليه شارة مالكه .

وكان هنود السواحل يسكنون طول العام فى قرى دائمة تقع قرب البحر ، ويفضلون مصب النهر الذى يكثر به السلمن أو الخلجان التى ترتادها ثدييات مائية ، على أن تكون بالطبع قريبة من مورد الماء العذب الذى يحتاجون إليه فى شربهم . وكانت القرية تتكون من بضعة مساكن خشبية كبيرة تختلف اختلافا كبيراً عن كل ما كان يشيده سكان سائر



(شكل ٣٠)

مساكن الألواح الخشبية عند السالش

بمنطقة ڤكتوريا بكولمبيا البريطانية

أجزاء أمريكا الشمالية . وكانت المنازل — وهى تشيد دائما مواجهة للبحر على ارتفاع قليل من حد المد العالى — تختلف فى شكلها عند الجماعات المختلفة ، ولكنها كانت جميعاً تتشابه فى كبر حجمها وفى اتساعها لسكنى عدة عائلات وفى تشييدها من خشب الشربين وفى تكونها من هيكل

ثقيل ولكنه متين ، وفى أنهم يكسونها بطبقة خارجية من الألواح يمكن نزعها . وكان هناك نوعان من المساكن : نوع ذو سقف محبوك وهو السائد عند قبائل الجنوب ، ونوع ذو سقف (جملون) وهو السائد عند القبائل الشمالية . وكانت مساكن السالش وبعض النوتكا ذات قاعدة مستطيلة الشكل وذات سقوف منحدرة انحداراً قليلاً ، وكانت غالباً عظيمة الاتساع إذ كان بعضها يصل طوله إلى بضع مئات من الأقدام ويبلغ عرضه أربعين أو خمسين قدما ويقطنه عدد كبير من العائلات . وكان هيكل المنزل يتكون من صفين متوازيين من الأعمدة الضخمة من خشب الشربين يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر إلى عشرين قدما ، تثبت فى أطرافها العليا عوارض غليظة هى التى تستقر عليها ألواح السقف ؛ وكانت الحوائط تتكون من ألواح مماثلة توضع أفقيا بعضها فوق بعض وطرف كل منها يركب طرف الذى تحته ، كما هى الحال فى ألواح السقوف التى تصنع لاتقاء المطر . وهذه الألواح الضخمة التى كانت تصنع منها السقوف والحيطان كان عرضها يصل إلى قدمين أو ثلاثة أقدام وبضع بوصات ! . وكانوا يتركون فى واجهة البيت فتحة بين الألواح هى مدخل البيت ، كما كانوا يتركون فتحات أخرى بين الألواح بغير نظام ، هى بمثابة نوافذ ، ويمكن سدها بالحصير اتقاء للمطر .

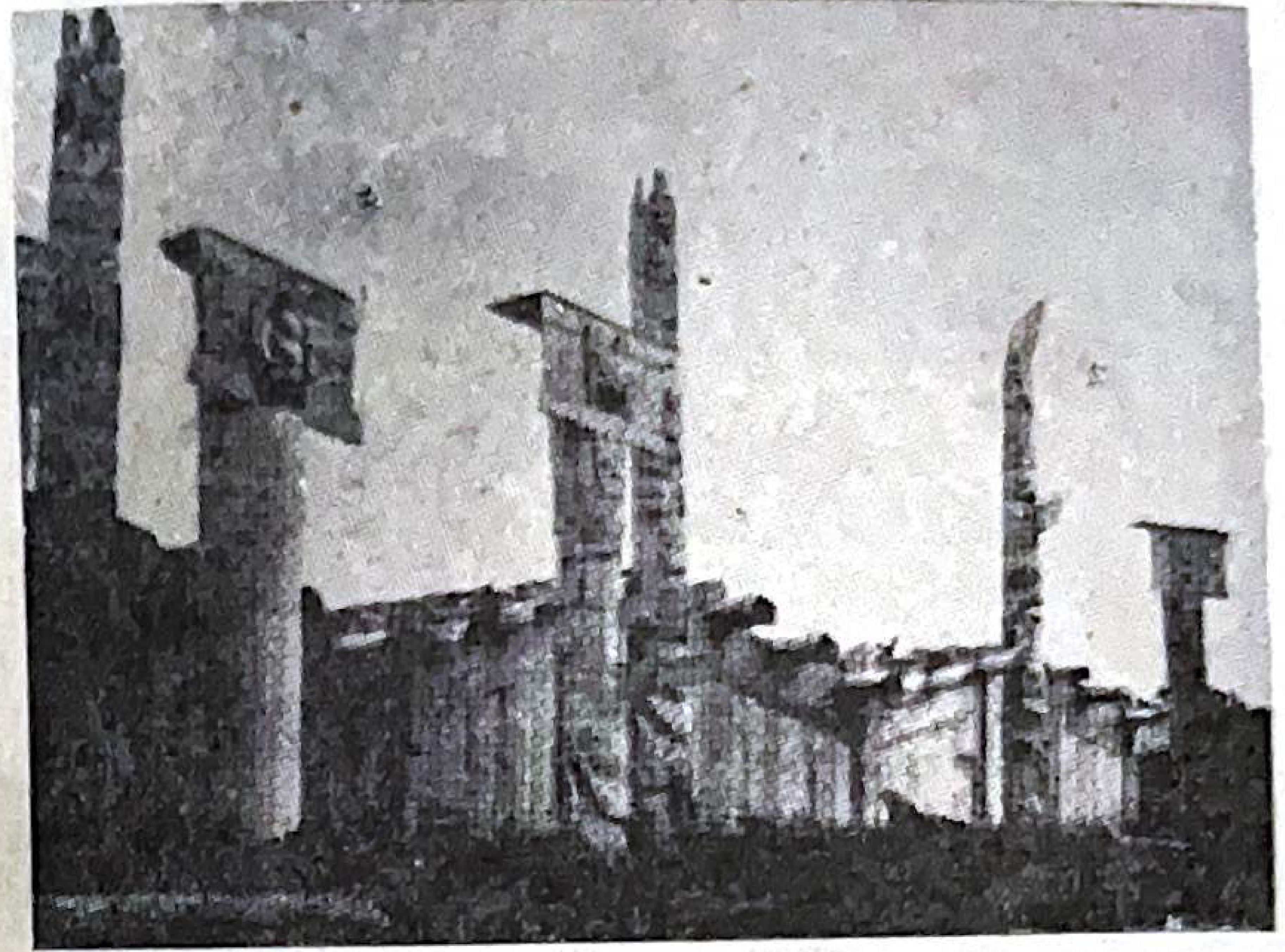
وكانوا يقيمون بجوار الحوائط نوعا من المصاطب الخشبية ينام عليها السكان فوق فرش من طبقات حصير الحلفا مثنى طرف إحداها لتؤدى عمل الوسادة . أما أغطية الفراش فكانت بطاطين مصنوعة من شعر الكلاب أو الماعز الجبلية أو من جلود الحيوان . وكانوا يحفظون تحت المصاطب خزين الشتاء من الجذور وخشب الوقود ، بينما تكوم اللحوم المجففة والأسماك والفواكه على أرفف تتدلى من عوارض السقف .

وكانت المجموعات العائلية التى تحتل أركان المسكن المختلفة يفصلها بعضها عن بعض حواجز مؤقتة من الستائر مدلاة من السقف ومصنوعة من قصب الغاب أو من عشب المستنقعات ؛ وكان فى وسط المسكن ممر عريض يصل من أحد طرفيه إلى الآخر ويفصل بين المجموعتين من العائلات ، وفى هذا الممر كانت تقوم كوانين النار كل واحد منها مشترك بين العائلتين القاطنتين على جانبيه . وكان من الممكن إزالة الحواجز وبذا يصبح لديهم بهو واسع . وفى فصل الشتاء كانت جميع الحيطان الداخلية عادة تغطى بالحصير .

وكانت منازل الجماعات الجنوبية ذات قاعدة أقرب إلى الشكل المربع منها إلى المستطيل، ولم تكن فى اتساعها تقارب بعض منازل السالش **Salish** ، فمنازل الكواكيوتل **Kwakiutl** مثلا كانت عادة تؤوى أربع

عائلات كل واحدة منها فى ركن منه ، وكانت منازل الهايدا — وهى عادة جيدة البناء — تبلغ أربعين قدما فى ثلاثين ، ذات سقف منخفض منحدر من علو عشرة أقدام عند الواجهة إلى علو ستة أقدام عند المؤخرة ؛ وكان الجزء الأساسى من هيكل المنزل يتكون من ستة إلى عشرة أعمدة خشبية غليظة تدق فى الأرض إلى عمق كبير ، ترتكز عليها كمرات وعروق متينة وتسقف بألواح من الخشب أو بلحاء الشجر ، وكذلك كانت الحيطان تتكون من ألواح توضع وضعا عموديا . وكان أوضح ما يمتاز به المنزل عمود الطوطم الذى كان يقوم أمام البيت وارتفاعه من ستين إلى ثمانين قدما. وكانت هذه الأعمدة تنقش نقشا جميلا ويرسم عليها رمز الطوطم الخاص بصاحب المنزل وزوجته ، بينما كان الداخل إلى المنزل يمر فى الغالب خلال فم مفغور لحيوان خرافى هائل محفور فى أسفل العمود . كذلك كان لمنازل التلنكت **Tlinkit** والتسمشيان **Tsimshian** أعمدة طوطمية، وكان ينقش على واجهاتها رسوم ضخمة أو رموز ، كما كانت تبنى بها مصاطب النوم بطول الحيطان الجانبية والخلفية وتغطى أرضها بالحصير .

ولم تكن المنازل تحوى غير قليل جدا من الأثاث ، فيما عدا الصناديق المصنوعة من خشب الشربين والأدوات المنزلية المعتادة كأدوات الطبخ وحجارة الطبخ وماشات النار والصحون والقصع والمغارف والحصير .



(شكل ٣١)

قرية من قرى الـ « هيدا »

وكان وجود خشب الشربين بكثرة من العوامل التى جعلت إقامة مثل هذه المنازل الكبيرة أمراً ممكنا ، فإن الشربين متين وفى نفس الوقت لين سهل القطع والتشكيل ، بينما جذوعه الضخمة كان من السهل شقها بدق أسافين من العظم أو من قرون الحيوان على طول عروقها المستقيمة ، ومع ذلك فإن بناء البيت وإقامة عمود الطوطم الشاهق كانا يستدعيان قدرا هائلا من الجهد ومن المهارة ، فإن الوطنيين لم تكن لديهم عُدد حتى ولا مجرد

بكرة ، ولذا كان هذا يستدعى تعاون عدد كبير من الرجال يدفع لهم أجر ويقدم لهم الطعام .

وكان سكان هذه القرى عادة يهجرونها فى فصل الصيف إلى مختلف مناطق الصيد والجمع حيث كانوا يقيمون فى مساكن مؤقتة ، وكانوا فى الغالب ينزعون الألواح من مساكنهم الدائمة ويحملونها معهم فى قواربهم ليستعملوها فى تسقيف مساكنهم المؤقتة .

ولم يكن الهنود سكان الساحل الشمالى الغربى لأمريكا يعرفون صناعة الفخار ، ولكنهم كانوا يصنعون سلالا رائعة متنوعة الأشكال أغلبها محكم لا ينفذ منه الماء ، كانوا يصنعونها من لحاء شجر الشربين ومن جذور أنواع عديدة من النباتات والأشجار يجدلونها صحيحة أو مفلوقة . وكانت السلال غالبا تزين بخطوط أو أشكال زخرفية باللونين الأحمر والأسود . وأبدع تلك السلال ما كان يصنعه التلنكت **Tlinkit** والسالش **Salish** . وكانت الصحاف والمغارف والملاعق تصنع من القرون وتشكل بالحفر أو بالبخار . وكانت بعض المغارف التى يستعملها الهايدا فى احتفالاتهم تتسع لنصف جالون .

على أن معظم الأدوات والأوعية كانت تصنع من الخشب ؛ وكان الرجال يصنعون من خشب الحور قصعاً وصحافا وصحوناً ذات أشكال

وأحجام مختلفة يشكلونها باستعمال سكاكين من الحجر ، ويصقلونها بقطع من جلد كلب البحر ؛ كما كانوا يصنعون أوانى الطبخ الكبيرة وصناديق التخزين من خشب الشربين ، وكانت جوانب هذه الصناديق تصنع من لوح طوله مساو لطول محيط قاعدة الصندوق المطلوب ، يحفرون فيه حزوزا (أخاديد) على جانبه الداخلى فى الأماكن التى ستكون فيها أركان الصندوق ، وبعد أن يعرضوا هذا اللوح للبخار يثنونه ليعطوه الشكل الذى يريدون . ثم يثبت الطرفان الملتقيان بخوابير من الخشب أو بأربطة مجدولة من ألياف جذور شجر التنوب تمر فى خروم سبق إحداثها ، وفى النهاية يخفون تلك الأربطة بطريقة فنية . ثم يأخذون تلك الجوانب ويثبتونها إلى القاعدة بنفس الطريقة .

وكانوا يحفرون على معظم الأدوات الخشبية — فيما عدا المعدة منها للأغراض غير الهامة — أشكالا بارزة تمثل الطابع الفنى الخاص بالإقليم ، كما كانوا يشكلون بالحفر أقنعة الاحتفالات وهى تمثل حيوانات أوأسماكا أو كائنات خرافية . وكانت بعض هذه الكائنات ذات فكين يتحركان أو عينين تدوران بواسطة تركيبات آلية خفية . وخلاصة القول أن أولئك الهنود برعوا فى الحفر على الخشب بالرغم من أدواتهم البدائية .

وكان الهنود يستعملون فى صنع المنسوجات جذور التنوب واللحاء الخارجى لشجر الشربين ، وكانوا ينقعونها فى الماء ثم يضربونها بالعصى كى

تنفصل أليافها ، وبعد ذلك يفتلونها خيوطا ببرمها بين اليد والفخذ . وكانوا يصنعون عدا الحصير ، نسيجا من ألياف نباتية على إطار بسيط الصنع تتدلى فيه خيوط السدى من خشبة أفقية ، ولم يكونوا يستعملون المكوك فى هذا النسيج ، بل كانوا يمررون بأصابعهم خيوط اللحمة من فوق خيوط السدى ومن تحتها . وهذا النوع من النسيج أقرب إلى صناعة الحصير ، كما أن الإطار المستعمل فيه لا يمكن أن يسمى نولا .

وكانت شعوب الشمال تستعمل صوف الماعز الجبلية البرية فى صنع الأغطية ، ولكنهم لقلته كانوا يضيفون إليه لحاء شجر الشربين ، وفى الحالات النادرة كانوا يضيفون أيضاً سيورا من جلد القندس البحرى .

وكانت بساطة هذا العمل الذى كانت الخيوط فيه تتحرك بواسطة الأصابع — النسيج بالأصابع — مما ساعدهم على عمل أشكال مختلفة منه ، كانت فى الأيام الخوالى أشكالا هندسية ؛ ولكن فى السنوات الأخيرة استطاعت النساء أن يرسمن على منسوجاتهن الزخارف التى ينتجها الرجال بالتلوين وبالحفر . وقد أنتج التلنكت **Tlinkit** تلك الأحرمة البديعة المسماة شلكات **Chilkat** التى انتشرت تجارتها فى جميع المناطق الساحلية ، وكان نسج تلك الأحرمة يستلزم كثيراً من الجهد ومن الوقت ، ولذلك لم يكن فى مقدور غير الأثرياء أن يحصلوا عليها ، وهؤلاء لم يكونوا يستعملونها إلا فى المناسبات .

وكان السالش Salish — ولا سيما القاطنون منهم فى الأجزاء الدنيا من وادى نهر فريزر — ينتجون أنواعاً من الأحرمة أقل جودة ، وذلك بخلط صوف الأغنام بشعر الكلاب . وكان عندهم نوع من الكلاب صغير الجسم أبيض اللون كثيف الشعر يربونه من أجل شعره ، ولكن مقدار الشعر الذى يأخذونه منه كان محدوداً . أما الإطار الذى كانوا يستعملونه فى النسج فكان أرقى من ذلك الذى كان معروفاً عند الشعوب الشمالية ، وكان يتركب من خشبتين أفقيتين متوازيتين بينهما أخريان رأسيتان متوازيتان ، وسداة تمر حولها جميعاً .

وكما أنه كان لمساكن هؤلاء الناس طابع خاص ، كذلك كانت ملابسهم ، فلم يحاولوا أن يصنعوا ملابس محبوكة على أجسامهم ، ومع أن الحصول على جلود الحيوان كان ميسوراً إلا أنهم لم يصنعوا منهـا قمصاً ولا سراويل كما كان هنود السهول يفعلون ، ولم يكونوا يفصّلون من الفراء ملابس كما كان الإسكيمو يفعلون . وكانوا جميعاً — فيما عدا القليلين الذين اختلطوا بالقبائل الداخلية وتعلموا منهم لبس الأحذية — يسيرون حفاة ، كما كانوا جميعاً فى العادة يسيرون عراة الرأس كذلك ، ولو أنهم كانوا أحياناً يضعون على رءوسهم لباساً مخروطى الشكل منسوجا من لحاء شجر الشربين أو جذور التنوب عليه زخارف من رسوم أسماك وحيوانات .

وكانوا يلبسون من الملابس أقل مما كان يلبس معظم هنود كندا ، وربما كان هذا راجعاً إلى أن مناخ بلادهم أكثر اعتدالا ، ففى الصيف لم يكن رجال بعض الجماعات يلبسون ملابس على الإطلاق . وكانت هذه الجماعات مضطرة كسائر الهنود إلى استعمال الجلود بسبب قلة الأصواف ، أو استعمال نسيج مصنوع من ألياف نباتية . وكان الرجال يسترون أنفسهم بإزار يتخذ فى العادة من جلد الغزال ، بينما تلبس النساء مآزر من ألياف الأشجار تتدلى من الوسط إلى الركبتين ، وفوقه عباءة من الجلد أو من لحاء الشربين كانت تمر من تحت الذراع اليسرى وفوق الكتف الأيمن ولها حزام حول الوسط . أما عباءة الرجال فكانت تصل إلى الركبتين من الأمام وتتدلى أكثر من ذلك قليلا من الخلف ، بينما عباءة النساء كانت تصل إلى العقبين . وكان الرجال والنساء جميعاً يستعملون فى الجو المطير أو حين السفر بحراً عباءة ضد المطر مصنوعة من نسيج من الألياف . وكانوا حين يشتد البرد يضعون على أكتافهم أحرمة من لحاء شجر الشربين أو ثياباً طويلة من الفراء ، وكذلك كانوا يلبسون ضرباً من الكفوف (قفاز بلا أصابع) .

وكان الرجال والنساء على السواء يثقبون الحاجز الأنفى ويلبسون فيه أدوات الزينة ، وكذلك كانوا يثقبون آذانهم ويلبسون فيها أقراطاً من

الأصداف أو من العظام . وكان كثير من نساء الطبقة الراقية يثقبن شفاههن السفلى و يضعن فيها سلاية مستطيلة من الخشب على سبيل الزينة . وكانت عادة الوشم بالفحم على سمانة الرِّجل وعلى الساعدين والصدر أكثر ذيوعا فى الشمال منها فى الجنوب ، ولكن نقش الصور على الجسم فى الاحتفالات باللون الأزرق والأسود والأحمر كان شائعاً فى كل مكان . وفى مثل هذه الاحتفالات كانت هناك وسائل أخرى للتجمل ،منها مايلبسه الشلكات **Chilkat** من الأحرمة ومن العمائم المصنوعة من خشب الشربين والمزينة ببقع حمراء ، ومن السراويل المصنوعة من جلود الغزال تزينها مناقير نوع من الطيور المائية تخشخش كلما تحرك لابسها . ومنها كذلك مايلبسه الهايدا والتسمشيان من جلد القاقوم الأبيض الذى يتدلى على شكل ذؤابة طويلة تتصل بغطاء عال للرأس أسطوانى الشكل .

وقد عثر فى إقليم الشلكات فى الشمال على قطع من النحاس الأحمر الصافى ، وهـذا النحاس المحلى كانوا يشكلونه بالطرق إلى أدوات مختلفة كالسكاكين وأدوات الزينة . على أن معظم هذا المعدن كان يستعمل فى صنع مايسمونه «نحاس الاحتفال» وهو درع رقيقة طولها قدمان أو أكثر فى أسفلها ضلع على شكل حرف T ، وفى جزئها الأعلى صور محفورة أو منقوشة . وكان هـذا « النحاس » متاعا ذا قيمة عظيمة ، وهو أثمن ما يعتز به أثرياء الزعماء .



(شكل ٣٢)

هندى من « التسمشيان » متلفح بإزار « الشلكات »

والفن عند أهل السواحل الشمالية الغربية — وهو فن يكاد يكون زخرفياً محضا — فن ممتاز، وهو من أحسن ما أنتجه هنود أمريكا الشمالية.

ويكاد الإنسان يجده فى كل شىء ؛ فهو يرسم على الوجه، أو يوشم على الجسم، أو يدخل فى النسيج، أو يحفر على الأوانى المنزلية أو على الأدوات النحاسية، أو يرسم على القوارب والمنازل والأعمدة الطوطمية . وكان الأسلوب الفنى يختلف من جهة لأخرى، ولكن الاختلاف كان يسيراً . وكان الفن جميعه وليد البيئة إلى أقصى حد ، كما كان رمزيا إلى أقصى حد كذلك . وكانت أشكال الحيوانات التى يزينون بها رءوس الأعمدة الطوطمية ، وكذلك الكائنات الأسطورية التى لها صفات الحيوانات ، ترسم محرفة الأشكال إلى حد يجعل من العسير على غير الملم بهذه الفنون أن يميز الحيوان الذى ترمز إليه . ولم يكن فى مقدور الفنانين أن يكونوا واقعيين ، إذ كان عليهم أن يلائموا بين جسم الحيوان و بين السطوح المختلفة التى كان عليهم أن يغطوها بالرسوم .

وقد سبقت الإشارة إلى بعض السلع التى كان يتناولها التبادل التجارى فى هذا الإقليم . والواقع أن هنود السواحل الشمالية الغربية كانوا أعظم التجار فى أمريكا الشمالية قبل مجىء المستعمرين الأوروبيين. على أن التجارة بين أفراد الجماعة الواحدة كانت قليلة ، ولو أن الواحد منهم ربما باع لجاره عبداً أو قاربا ؛ لكن التبادل كان كبيراً بين الجماعات المختلفة التى تقطن على طول الساحل ، وكذلك بينها و بين سكان المناطق الداخلية . وكان

من نتيجة هذه المتاجرة أن نشأت لغة تجارية خاصة تتركب من نحو مائتين أو ثلثمائة من الكلمات من لغة الشنوك ، وهى قبيلة كانت تعيش عند مصب نهر كولمبيا ، ومن بضع كلمات من لغة السالش والنوتكا . وكانت الأدوات الصدفية تصدر من بلاد السالش إلى الشمال ، كما كان النحاس يرسل من إقليم التلنكت إلى الجنوب ، ولكن الأدوات الصدفية كانت أيضا تسير صعداً فى الأنهار أو تعبر جبال النوتكا إلى الأقاليم الداخلية . وكان الزيت المأخوذ من « سمك القنديل » يرسل من نهر ناص إلى الهايدا و إلى غيرهم من الشعوب الساحلية ، كما كان يرسل إلى الداخل على طول مايسمى « طريق الدهن » (**Grease Trail**) . وكانت أحرمة الشلكات ترسل من جنوب شرق ألاسكا على طول الساحل حتى جزيرة ڤانكوڤر ، بينما كانت أسنان سمك القرش ترسل شمالا ، وكانت الفراء تصدرها القبائل الداخلية إلى الساحل و إلى الجزر القريبة منه . وكان التبادل فى الزمن القديم يحدث عن طريق المقايضة ، ولكن بمرور الزمن صارت جلود القندس البحرى وحدة قيمية ، وكذلك صارت الأحرمة بعد ما بدأ التبادل مع الأوروبيين . وكان بعض أولئك الهنود تجاراً ماهرين ، وربما كان أمهرهم جميعاً فى ذلك التسمشيان **Tsimshian** الذين كانوا يفحصون كل سلعة فحصاً دقيقاً ، وكانوا يخفضون سعر السلعة إذا كان بها عيب بسيط .

وكانت العائلة بين هنود السواحل فى كولمبيا البريطانية محدودة العدد، شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب البدائية التى تعيش على القنص ، لأن الأم كانت ترضع وليدها عامين أو أكثر حتى يصبح فى مقدوره مضغ اللحوم والأسماك وهى مادة غذائهم الأساسية . وكان الطفل يغسل بمجرد ولادته ويلف فى قماط من اللحاء الداخلى لشجر الشربين بعد أن يضرب ليصير ناعماً ورقيقاً ، وبعد ذلك يوضع فى مهد يقضى فيه كل عامه الأول تقريباً ، فلا يرفع منه إلا مرة أو مرتين كل يوم للاستحمام . وكان من عادة القبائل الجنوبية بعد أن تنقضى بضعة أيام على ولادة الطفل أن يضيفوا إلى مهده مخدة صغيرة ، يضعونها بحيث يعمل ضغطها على فلطحة رأس الطفل بالتدريج ، إذ كان الجبين المفلطح عندهم آية من آيات الجمال .

وإذا لزم حمل الطفل حملته أمه فى مهده فوق ظهرها أو فوق خُرجتها، فإذا كان لديها عمل يشغلها علقت المهد فى عمود طرفه العلوى الرفيع منحن قليلا وطرفه الغليظ مثبت فى الأرض ، وبهذه الطريقة يتحرك المهد حركة خفيفة إلى أعلى وإلى أسفل عند أى حركة يأتيها الطفل . وتختلف المهاد فى شكلها ، ولكنها فى العادة على شكل تابوت الميت ، وتصنع من خشب الشربين أو تجدل من جذوره ، وبعضها له سقيفة متحركة .

ولم يكن الأطفال يلبسون من الملابس إلا النزر اليسير ، إلا فى الأوقات التى يشتد فيها الزمهرير ، وهم يتمتعون بنصيب من الحرية أكثر كثيرا مما يتمتع به الأطفال الأوروبيون ، ويقضون معظم وقتهم فى الهواء الطلق . وأول حدث هام فى حياة الطفل هو ثقب أذنيه ليلبس فيهما الحلى ، ويقوم بهذه العملية عادةً أحد رجال الطب (Shaman) ويستعمل لهذا الغرض قطعة من العظم رفيعة الطرف ؛ ومن عادة بعض الجماعات إقامة وليمة كبيرة لهذه المناسبة إذا كان الطفل من أبناء الطبقة الراقية . وثانى حدث هام فى حياة الطفل هو يوم تسميته ، وهو حدث يحل فى موعد من عمر الطفل يختلف من جماعة لأخرى . ويلعب الصبيان والبنات معا ويعيشون معا إلى سن العاشرة أو الحادية عشرة، ولا يتلقون نوعا خاصا من التعليم ، لكنهم يعرفون فى النهاية كثيرا عن طريق تقليد آبائهم . وكلما تقدمت السن بالطفل مر بأنواع مختلفة من الترويض الغرض الأول منها تمرين الجسم على الخشونة وتعويد صاحبه تحمل التعب والحرمان ؛ فالصبيان مثلا يرغمون على الاستحمام بالماء البارد فى الصيف والشتاء على السواء ، وعند خروجهم من الماء يلهبون بسياط من أغصان شجر الشربين ، ولكن لم تتخذ مع البنات مثل هذه الاجراءات الترويضية .

وكان لبلوغ الحدث عند هؤلاء الناس سن الحلم أهمية خاصة ، ومع أنهم لم يكونوا يقيمون لهذه المناسبة الاحتفالات الكبيرة التى عرفت عن

غيرهم من الشعوب البدائية ، إلا أنهم كانوا يفرضون نوعا من العزلة فى هذه السن ، فكانت البنت من بنات الهايدا تعزل وراء ستر فى منزلها نحو شهر ، بينما كانت فترة العزلة عند بعض الجماعات الأخرى تمتد إلى يوم الزفاف . وكان البلوغ يغير من حياة البنت تغييرا تاما، فهى لا تستطيع بعده أن تلعب مع الصبيان ، ويبدأ أهلها فى تلقينها واجبات النساء . أما الولد فإنه كان عند بلوغ الحلم يدخل فى مصاف الرجال ، ويحصل على الروح أو الأرواح التى تتولى رعايته ، ويسمح له بالانضمام إلى بعض الجمعيات الدينية السرية .

وعادة حصول الشاب على روح تحميه — وهى العادة المنتشرة بين الهنود — كانت أكثر شيوعا فى جنوب هذا الإقليم منها فى شماله ، ولكن الصبى عند الكواكيوتل لم يكن له أن يتخير إلا إحدى الأرواح المتوارثة فى الجماعة التى ينتمى إليها . ومن المحتمل أن تكون الجمعيات السرية قد نشأت فى الأصل بين هذه القبيلة ، وكان الانضمام إليها مباحا للرجال والنساء بعد تأدية طقوس ترويضية شاقة وطويلة تضمن لهم الرضاء والرعاية من لدن قوى خارقة خاصة تتولى حمايتهم . وكان لهذه الجمعيات بين الكواكيوتل من النفوذ ما جعلها تحل محل المنظمات الجماعية أثناء شهور الشتاء حين يعيش الناس معا فى القرى ويكثرون من إقامة الولائم

والمهرجانات . وكانت الجمعيات السرية منتشرة فى الشمال والجنوب على السواء ، ولكن نفوذها كان أقل ، فلم يكن زعماء الهايدا مثلا ليسمحوا لها أن تشاركهم السلطان .

ويبدأ تفكير الشاب فى الزواج عند بلوغه سن العشرين ، ولكن البنات كن يفعلن ذلك فى سن السابعة عشرة ، ولو أنهن كن يخطبن منذ صغرهن . ولم يكن الزواج على أى حال يقترن بشىء من العواطف لأن الآباء ، وهم الذين يفصلون عادة فى هذه الموضوعات ، كانوا يهتمون بالجاه والنفوذ أو الشجاعة والمهارة أكثر من اهتمامهم بعواطف الشباب الذى يعنيه الأمر . ثم إن هناك — كما هى الحال عند الأستراليين الأصليين — قواعد أخرى تجب مراعاتها ، ولو أنها لا تدانيها فى التعقيد ؛ وكان الزواج عند هنود سواحل الپاسفيك عبارة عن مبادلة مصحوبة باحتفال :

« يشترى الزوج زوجته ومعها بعض امتيازاتها الخاصة فى سلسلة من الاحتفالات ، ويقوم أهل الزوجة برد ثمنها فى السنوات التالية بطريقة مماثلة ، مع إضافة أرباح عن كل طفل يكون ثمرة هذا الزواج . وتستطيع الزوجة نظريا أن تفسخ العقد بعد أن يرد أهلها جميع ثمنها ، لكن الذى يحدث فعلا هو أن الزوج يجدد العقد بتوزيع الهدايا على أهل زوجته »[1]

(١) هنود كندا — تأليف د . جنس D. Jenness,

وكان تعدد الزوجات نادراً ، لكنه كان مباحا للرجال من الطبقة الراقية . و بعد الزواج يقوم الرجل بالأعمال الشاقة الخطرة كالقنص والصيد وقطع الأشجار وتشييد المسكن و بناء القوارب وعمل الأدوات المنزلية والأطباق والصحاف والصناديق الخشبية . أما الزوجة فعليها نقل الصيد من مكان صيده وجمع الثمار البرية والأعشاب البحرية وسمك المحار ، كما عليها تجهيز الطعام وطبخه أو حفظه ودبغ الجلود ونسج القماش وعمل الملابس والسلال وغير ذلك من الواجبات المنزلية .

على أن الحياة لم تكن كلها عملا متواصلا ، بل كانت لديهم فرص عديدة للهو والرقص ، وكان بعض لهوهم مقصوراً على الرجال و بعضه على النساء وأقله كان يشترك فيه الجنسان . وأشهر أنواع اللهو لدى الرجال المباريات الرياضية كالمصارعة والجرى والقفز ، ولكنهم كانوا يلعبون كذلك بعض ألعاب الكرة . وأحب الألعاب إلى الرجال والنساء هى ألعاب الحظ ، وكانوا يقضون كثيراً من وقتهم فى المقامرة ، ومن ألعاب الحظ المحببة إليهم لعبة يتخذون فيها من أسنان القندس «زهراً» منقوشاً ومنحوتاً بطرق مختلفة ، و يستعملون لتسجيل النتائج قطعاً صغيرة من العصى . وكذلك عندهم ألعاب شتى من ألعاب الحدس يلعبونها بالمراهنة .

على أن أشهر ألعابهم ما كان متعلقاً بالقوى الخارقة التى يعتقدون فيها

وكانوا يقضون كثيرا من أوقات الفراغ أثناء الشتاء فى حفلات راقصة . ويتغاضى بعض القبائل فى أثناء الحفلات عن نظام الطبقات الاجتماعية ويحل محله نظام الطبقات فى الجمعيات السرية . وكانت تلك الحفلات والرقص الذى يتخللها مطولة وكثيرة التعقيد ، يستعمل المشتركون فيها أنواعا مختلفة من الأقنعة ووسائل التنكر ، ويعتقدون أن الأرواح أيضا تشترك فيها ، ويُضبط الإيقاع أثناء الرقص والغناء بالضرب على ألواح الخشب أو بآلات موسيقية ، منها أنواع مختلفة مصنوعة من الغاب كانوا يستعملونها لتقليد الضوضاء التى تحدثها الأرواح ، ومنها شخاشيخ من الخشب ومن الحجر .

وتتكون المحلة التى يقطنونها من عدد من المساكن ، كل واحد منها يضم عددا من العائلات تنتسب إلى جد واحد وتضم معهم أتباعهم ، وقد يقطنون واحدا أو أكثر من هذه المساكن الجماعية . وهم عادة من ذوى القربى يشتركون فى الانتساب إلى جد واحد وفى علامة النسب الخاصة بهم ، و يتمتعون فى القرى الأخرى بامتيازاتهم الاجتماعية وغيرها .

وهنود سواحل كولمبيا البريطانية أبعد ما يكونون عن الديمقراطية ، إذ يتكون المجتمع عندهم من طبقات ثلاث : النبلاء والعامة والرقيق . والعامة هم الذين يتكون منهم سواد الشعب ، و يتكون الرقيق عادة

من أسرى الحرب أو من أبنائهم ، ولـكن بعضهم قد يشترى بالمال . وهم على العموم يلقون معاملة حسنة ، لـكن ليس لهم حقوق من أى نوع ، ولأسيادهم الحرية فى أن يفعلوا بهـم ما يشاءون حتى القتل ، كما كان يحدث أحيانا أثناء الاحتفالات . ولا يسمح للرقيق بالتزوج إلا من طبقتهم ، وكذلك كان الأمر فيما يختص بالعامة ، إذ لم يكن لهم نظريا حق الزواج إلا من طبقتهم ، لـكن الحد الفاصل بين العامة والنبلاء لم يكن محددا ، وكان التزاوج يحدث بينهم أحيانا . ولا شك أن كثيرين من العامة هم من نسل الشبان أبناء النبلاء لـكن من غير الطريق الشرعى ، ثم أصبحوا فيما بعد عالة على أقاربهم الأغنياء إذ لم يرثوا مناطق يحق لهم الصيد والقنص فيها ولم تـكن لهم امتيازات اجتماعية .

أما النبلاء أو الزعماء بالوراثة فـكان لهم حق امتلاك مناطق للصيد والقنص كما كان لهم حق احتـكار نشيد خاص ورقصة خاصـة وإقامة الحفلات والاشتراك فيهـا ، ولبس قناع خاص ، وأن تـكون لهم شارة خاصة تميزهم يحفرونها على واجهة مسكنهم أو على الأعمدة الطوطمية الخاصة بهم أو على قواربهم وصناديقهم وغير ذلك .

ولـكن النبلاء فى المسكن الواحد لم يكونوا جميعا فى درجة واحدة ، ويبدو أن أولئك الأقوام كان لديهم من الألقاب عدد يفوق عدد الرجال

الذين يستحقونها ، وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على لقب أو للارتفاع درجة بين الناس بذل العطايا بسخاء فى أثناء الاحتفالات ، إذ أن الثروة هى الباب الذى يؤدى إلى الجاه و إلى المراتب العالية ، وكان الرجل منهم على استعداد لأن يكدح السنوات الطوال فى سبيل الحصول على الفراء والجلود والرقيق والقوارب استعدادا لإقامة وليمة عظيمة تساعده على أن يرفع منزلته بضع درجات فوق منزلة منافسيه .

و يرث منزلة الزعيم ومركزه عند قبائل الجنوب ابنه ، أما عند القبائل الشمالية فـكان ابن الأخ هو الوارث الطبيعى ، وذلك تبعـاً لطريقتهم الخاصة فى حساب النسب ، لـكن لا بد للوارث أن يقيم وليمة فاخرة يوزع فيها العطايا كى يضمن حقه فى الميراث ، فإذا عجزت موارده ضاع عليه اللقب . وعلى العكس من ذلك إذا استطاع أحد العامة أن يجمع ثروة كبيرة — وقد يكون هذا عن طريق تجارة الفراء مع الأورو بيين — فر بما أقام وليمة فاخرة وحصل على لقب لم يستطع أهـله الحصول عليه لعجزهم عن إقامة مثل هذه الوليمة وتوزيع العطايا . وكان الرجل الذى يحمل أعلى الألقاب فى المسكن يعتبر رئيسا له ، فإذا كان مسكنه أهم المسا كن فى العشيرة أصبح هو زعيم العشيرة . على أن درجات الزعماء لم تـكن ثابتة ، لأن ضياع ثروة العائلة كان كفيلا أن يذهب بمكانتها . وكان التنافس بين النبلاء فى إقامة

الولائم وتوزيع الهدايا لا ينتهى ، وذلك لكى يزيدوا من أقدارهم . وكان زعيم العشيرة ذات المكانة الأولى فى القرية يعتبر زعيما للقرية كلها ، فإذا كان لقريته المكانة الأولى بين سائر قرى المنطقة فى القوة والنفوذ كان هو أهم رجل فى المنطقة كلها .

و إذا اتحد بيتان أو أكثر تكونت منها العشيرة ، وقد كانت فى الأصل تقتصر على إقليم خاص . وكانت تتكون من العشائر بين قبائل الهايدا والتسمشيان والتلنكت فى الإقليم الواقع شمال جزيرة فانكوفر مجموعات أكبر أو «أخويات» ، وكانت العشيرة و« الأخوية » وحدات اجتماعية ، ولم يكن توزيعها يتقيد بالتوزيع الجغرافى أو اللغوى ، وكان الزواج بين شخصين من « الأخوية » الواحدة محرما بصرف النظر عن الجماعة التى ينتميان إليها .

ولم يكن هؤلاء الهنود — على عكس الأستراليين الأصليين — يدعون الانتساب إلى الكائن الطوطمى الذى يتخذون منه شعاراً ينقشونه فوق أعمدتهم الطوطمية ، سواء أكان ذلك الكائن هو النسر أو الذئب أو الغراب الأسحم . أما بين القبائل الجنوبية فإن الزواج يتوقف على درجة القرابة دون سواها ، لا دخل فى ذلك لوحدة القرية أو وحدة العشيرة .

و إذا مات رجل من السالش آلت ثروته من جميع الأنواع إلى أبنائه ،

وعند النوتكا تؤول الثروة إلى أبنائه وأبناء أخواته ، بينما تؤول ثروة المتوفى عند الكوا كيوتل إلى زوج ابنته ، وهذا يورثها لأبنائه . وهذه الطريقة الأخيرة غير معروفة الأصل . وعند القبائل الشمالية تؤول ثروة الرجل إلى أبناء أخته ، وهذه الطريقة الأخيرة تعرف باسم الوراثة عن طريق الأم ، بينما طريقة السالش تعرف بطريقة الوراثة عن طريق الأب.

والثروة — وهى تقدر بجلود القندس أو بالأحرمة — لها تقدير خاص ، ولكن يبدو أنها لا تجمع إلا لكى توزع ، ويحدث التوزيع أثناء حفلة عظيمة هى عادةً — ولكن ليس دائما — وليمة يصحبها رقص تنكرى وتوزع فيها الهدايا على الضيوف . ومثل هذه الحفلات الفاخرة تقام فى المناسبات السعيدة كمولد طفل أو بلوغ صبى أو وراثة لقب أو إتمام بناء منزل ، كما كانت تقام أيضا فى مناسبة دفن قريب . وكانت الحفلات تكثر إقامتها فى الشتاء عن أى فصل آخر من فصول السنة .

وعند وصول المدعوين إلى الوليمة يعلن عن قدومهم كل فى دوره ، ويجلس كل فى مكان يراعى فيه مركزه مراعاة دقيقة . ويقوم على خدمة المدعوين أصغر الرجال والنساء من عشيرة صاحب الدعوة ، وبعد الطعام يبدأ الرقص والتمثيل الذى تلبس له الأقنعة والملابس الفخمة ؛ ثم يأتى فى النهاية دور توزيع الهدايا . ويلاحظ أن تكون كل هدية متناسبة مع مركز

المهدى إليه ، وهى تشمل جلود أنواع مختلفة من الحيوان وأدوات منزلية ، وكانت فيما مضى تشمل أحياناً القوارب والعبيد ، وتشمل فى وقتنا هذا الأحرمة والبنادق ، وحتى أوراق النقد تدخل أحياناً ضمن الهدايا . على أن هذه العطايا لم تكن هدايا بالمعنى الصحيح ، بل كانت فى الواقع سلفاً يجب ردها هى وفوائدها فى حفلات مستقبلة ، ومن يتأخر عن ذلك يعرض مركزه الاجتماعى للضياع . والديون التى تستحق بهذه الطريقة يرثها الأبناء بعد أبيهم ، ولم يكن رد الديون وأرباحها بهذه الطريقة معروفاً عند الشعوب الشمالية ، بل كانوا فى الغالب يؤدون بدلها خدمة من الخدمات كالمعاونة فى تشييد مسكن مثلا .

وكان هناك تنافس شديد بين النبلاء — ولا سيما من قبيلة بلا كولا Bella Coola — فى إقامة أروع الحفلات والحصول بذلك على أوسع صيت، وكثيرا ما كانوا يتلفون الأقوات والممتلكات — بما فى ذلك العبيد أحياناً — لا لغرض سوى الاستزادة من ذيوع صيت صاحب الوليمة . ومما يروى أنه من خمسين سنة مضت « أقام أحد زعماء جزيرة فانكوفر وليمة رائعة دعا إليها نحو ٢٥٠٠ مدعو من مختلف القبائل ، وظلوا فى ضيافته أكثر من شهر ، وقبل انصرافهم وزع عليهم كل ما ادخره فى السنوات الخمس السابقة . وكانت نتيجة تلك الوليمة المتصلة أن ذاع صيت

هذا الرجل فى كل مكان وأصبح يعتبر من أكبر الزعماء»[1] .

ومع أن الغرض الأساسى لأى أسرة من النبلاء كان جمع الطعام والممتلكات من أجل إقامة الحفلات ، إلا أن هؤلاء الهنود ندر أن كانوا يسطون على القرى المجاورة . على أن النزاع بين النبلاء كان سهلا نشوبه فى أي لحظة ، وكثيراً مانشبت الحروب من أجل إهانة أو ضرر وقع بالفعل أو توهموا وقوعه ، ولم تكن الحرب تنشب بين الجماعات المختلفه فحسب ، بل كثيراً ما نشبت بين أعضاء الجماعة الواحدة ، فقد كانت الحروب الداخلية فى قبيلة النوتكا مثلا أكثر من الحروب بينها و بين جيرانها من السالش والكوا كيوتل . وقد كان يحدث أحيانا أن يقلع أسطول كبير ليهاجم قرى على بعد خمسين ميلا أو مائة ميل ، لغرض واحد هو تدمير القرية ، أما أعمال السلب والنهب فتأتى فى المرتبة الثانية . وكل من يقع أسيراً يصبح عبداً رقيقاً، إلا من تدفع عنه فدية قبل انقضاء مدة معينة .

وأهم أسلحة الحرب عندهم الأقواس والحراب الثقيلة والهراوات ، وفى بعض الجهات الخناجر ، وهذه الأخيرة كانت شديدة الفتك على الأخص من مسافة قريبة ، وكانت أطرافها تصنع من الحجر أو العظام أو النحاس الأحمر المطروق، وكانت تثبت إلى الرسغ بسير من الجلد ، ثم أصبحت بعد

(١) السكان الوطنيون فى أمريكا الشمالية البريطانية تأليف س . هلتوت
Hill - Tout, C., the Natives of British North America.

الاختلاط بالأوروبيين تصنع من الصلب وانتشر استعمالها على طول الساحل.

ومن وسائل الدفاع عندهم دروع مكونة من طبقة إلى ثلاث طبقات من جلد الأيل تتدلى أحيانا إلى العقبين وتبلغ من المتانة أن تقاوم السهام وقد تقاوم أطراف الحراب .

وكانت القبائل الشمالية تستعمل صديرية خاصة تتكون من أعواد ضيقة من الخشب توضع رأسية بعضها بجوار بعض وتثبت بأربطة متشابكة من الجلد الخام ، كما كانوا يلبسون دروعا خشبية حول الرقبة تصل إلى العينين ، وخوذات من الخشب أو من الجلد . وكان الرجال فى بعض الجماعات الأخرى ، كالتلنكت مثلا ، يلبسون أحياناً أقنعة بشعة الشكل يحمون بها وجوههم وفى الوقت نفسه يدخلون بها الرعب إلى قلوب الأعداء .

ويودع هؤلاء الهنود جثث موتاهم مقرها الأخير بطرق شتى . فالمعتاد بين التلنكت والتسمشيان هو إحراقها ، ولكن التسمشيان كانوا أحياناً يدفنونها وكانوا أحياناً أخرى يمارسون نوعا من التحنيط . أما الهايدا فكانوا يودعون جثثهم الكهوف أو يضعونها فى توابيت فوق أعمدة محفورة أو فى فتحات فى جوانبها . وكانت جثث مشاهير الزعماء غالباً تُلبس أحسن ملابسهم وتترك فى مجالسهم بمنازلهم حولا كاملا تنقل بعده إلى مقرها الأخير . وكان الكوا كيوتل أحياناً يمارسون إحراق الجثث ، ولكنهم كانوا فى العادة يضعونها فى الأشجار أو فى الكهوف أو فى قوارب إذا كانت

جثة زعيم . وكان النوتكا يدفنون الجثث فى الكهوف أو يضعونها فى صناديق أو يلفونها فى أكفان من لحاء شجر الشربين ثم يتركونها فوق الشجر . أما الآن فإن القبائل جميعها تتبع طريقة الدفن فى جبانات خاصة . وعند موت زعيم تقام وليمة فخمة ويقام عادةً عمود طوطمى يحمل الشعار الطوطمى الخاص به .

ويعتقد هؤلاء الناس، كغيرهم من الهنود ، أنهم محاطون من كل جانب بكائنات مما وراء الطبيعة ، كما يعتقدون فى إمكان الاتصال بتلك الكائنات عن طريق رجال الطب أو الشامان ، وهذا ما كان يحدث فى أثناء حفلاتهم التى كانوا يقيمونها فى الشتاء . وقد يكون الشامان رجلا أو امرأة ، وهم يرثون مهنة الطب عن آبائهم ، ولكن بعض مشاهير رجال الطب لم يرثوا هذه المهنة . وعلى أى حال كان الاعتقاد أنهم قد وُهبوا القدرة الطبية من لدن الأرواح استجابة لصلواتهم وصيامهم ، كما كانوا يمارسون علاج الأمراض عن طريق الأدعية واستعمال بعض الأعشاب . ويلبس الشامان ملابس خاصة ، ويدفن عند موته فى مكان بعيد عن المدافن العامة ؛ وفى بعض المناطق لا يمشط الشامان شعره ولا يغسله ولا يقصه أبداً ، ومن الممتلكات التى يقتنيها الشخاشيخ والعصى ومواسير العظام المجوفة . ولا شك أن له شيئاً من القدرة على العلاج وله قدرة على السحر وعلى الشفاء منه ، وكان يدعى القدرة على التحكم فى الجو ، ولكن شفاء الأمراض كان مهنته الرئيسية ،

وكانوا ينسبون المرض إلى السحر من جانب الأعداء ، أو إلى غيبة مؤقتة من جانب الروح أو حلول روح خبيثة فى الجسم ، ويقوم الشامان فى الحالة الأولى غالباً بإيهام الناس أنه أخرج الشر من الجسد فى صورة حجر أو أى أداة أخرى ، وكان السحر يتحكم تحكما كبيراً فى حياة هؤلاء الهنود ، وكان فى مقدور أى إنسان أن يوقع الأذى بغيره عن طريق السحر ، ولكن الشفاء منه بعد ذلك كان بيد الشامان وحده .

وقد تناقص عدد هؤلاء الهنود كثيراً منذ اختلاطهم بالأوروبيين ، ويرجع هذا من جهة إلى الأمراض التى جلبها هؤلاء معهم . ومن جهة أخرى إلى ما طرأ على طريقة حياتهم من تغيير بسبب هذا الاختلاط . وقد تغيرت عقائدهم البدائية واختفت الحروب والرق ومعظم فنونهم وصناعاتهم ، لكن لا يزال صيد السمك هو المهنة الأصلية التى يعتمد عليها بعضهم فى معاشه ، وبعضهم يوفر الأيدى العاملة الرخيصة فى صناعة تعبئة علب السلمون ، ولكنهم فى هذا أقل أهمية من الصينيين أو اليابانيين . ويعيش معظمهم فى جزر مخصصة لهم أو فى مناطق محددة ، ولكنهم يجدون صعوبة فى منافسة الصينيين والأوروبيين إذ أنهم لم يتعودوا بعد مزاولة الزراعة ، ولم يستطيعوا بعد تغيير النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى كانت حياتهم تقوم عليه قبل أن يزحف سيل المستعمرين إلى قراهم ويغمر سكانها غمراً لا خلاص منه أبداً .

الفصل الثامن

الفويچيون

نظرة إلى خريطة أمريكا الجنوبية تبين لنا أن شاطئها الغربى جنوب خط عرض ٤٢° جنوباً يشبه شاطئ كولمبيا البريطانية شبها تاماً ، إذ يحفه آلاف من الجزر التى يفصل بعضها عن بعض وعن شاطىء القارة قنوات لا عداد لها كثيرة التعريج كثيرة التشابه . ويتخلل الشاطىء نفسه كثير من الخلجان المستطيلة الضيقة شديدة التعريج ترتفع منها فجأة جبال شاهقة تغطى قممها الثلوج وتغطى سفوحها إلى ارتفاع ألف قدم أو يزيد غابات يكاد يستحيل اختراقها ، وسكان هذه الأقاليم على مستوى ثقافى أقل كثيراً من مستوى السالش والهايدا وغيرهم من القبائل التى سبق الكلام عنها فى الفصل السابق ، رغم ما بين موطنيهما من تشابه . والواقع أن سكان هذه الجهات — كما وصفهم أحد الذين زاروا بلادهم — «من أكثر سكان الأرض انحطاطا وأكثرهم سرعة انقراض وأندرهم ذكراً» .

وتقرب فويچيا فى مساحتها من اسكتلنده ، وتتكون من أرخبيل شاسع فى جنوب مضيق ماجلان أكبر جزره هى ترادلفويجو « أرض

النار » المثلثة الشكل ، إذ تبلغ مساحتها تسعة عشر ألف ميل مربع تقريباً ؛ وتختلف سائر الجزر فى مساحتها من بقع صخرية صغيرة إلى جزر قليلة كبيرة تزيد مساحة الواحدة منها على ألف ميل مربع . وقد وصفها أحد الكتاب فقال : « حين يمر المسافر بين هذه الجزر لا يستطيع لحظة واحدة أن يقاوم الفكرة التى تتسلط على تفكيره ، وهى أن سلسلة جبلية قد هبطت هنا فى زمن متناه فى القدم ، فقد يبحر المرء أميالا وفراسخ دون أن يجد شاطئاً يتسع لقدم أو يصلح لإرساء قارب صغير ؛ ومن اليسير التأكد عن طريق الجس أن ذلك الانحدار العظيم الذى نشاهده مستمر كذلك تحت الماء » . على أن الأمر لا يخلو من وجود بضع مراسٍ صغيرة فى البقع غير المعرضة للعواصف ، ولكن الأرض التى تصلح للسكنى تكاد تقتصر على صخور الشاطىء .

ويأتى من المحيط القطبى تيار بارد يملأ القنوات والخلجان العديدة بماء فى برودة الثلج ويعمل على تكوين الضباب الذى يغمر البلاد . ولما كانت هذه الجزر واقعة فى نطاق عروض « الأربعين الصاخبة » كانت بالطبع من أكثر بلاد الدنيا عواصف ، فالرياح — التى تأتى غالباً من اتجاه غربى — تهب على هذه الشواطىء الشديدة الانحدار بقوة مخيفة فتحيل السفوح المعرضة لها إلى أرض جرداء خالية من الأشجار . ولا تقع العين

فى بعض هذه البقع إلا على صخور عارية ، وفى بعضها الآخر — إذا وجدت بها أشجار استطاعت أن تقاوم الأنواء — فإنها توجد كلها مائلة نتيجة هبوب الرياح المستمر . وتشتد قوة الرياح فيما جاور رأس هورن إلى درجة أنها تثير أمواجاً هائلة قد يبلغ ارتفاع الواحدة منها من ذروتها إلى حوضها أربعين قدماً . وعند وصول هذه الرياح الباردة المحملة بالرطوبة إلى اليابسة يحدث التكاثف بسرعة وتسقط فى كل مكان فى غرب الأنديز أمطار غزيرة (٥٠" — ١٠٠") ، وتهبط بعد ذلك الرياح المسلوبة الرطوبة إلى الجانب الآخر من المرتفعات فى شمال أرض النار وشرقها على هيئة رياح جافة ، ولهذا كان هناك فرق عظيم بين الجهات الغربية والجهات الشرقية ، فالأولى عبارة عن إقليم جبلى غزير المطر والثانية سهل متموج جاف نسبياً .

أما الحرارة — وهى أقل فى فويجيا منها فى كولمبيا البريطانية — فيندر أن ترتفع فوق ٥٠° ف حتى فى أكثر شهور السنة دفئا . والواقع أن انخفاض حرارة الصيف — وليس اشتداد برودة الشتاء — هو الطابع الواضح فى مناخ هذه البلاد ؛ وهو الذى يحول دون زراعة القمح وغيره من الحبوب فى الناحية الشرقية الأقل مطراً . وقد كتب أحد المبشرين مسجلا ملاحظاته عن مناخ الجهات الغربية التى تتميز بالجو الملبد بالضباب ، فقال : « ٣٠٠ يوم تسود فيها العواصف والأمطار و٦٥ يوماً لا تسر » .

وتتغطى الجزر وسفوح المرتفعات إلى ارتفاع ألف أو ألف وخمسمائة قدم — فيما عدا البقع المعرضة للعواصف — بغابات كثيفة يصعب اختراقها تتكون على الأخص من نوعين من شجر الزان دائم الخضرة وبعض أنواع من الماتوليا وأنواع أخرى من الشجيرات دائمة الخضرة . ويصل ارتفاع أعلى هذه الأشجار إلى نحو خمسين قدما وقطرها نحو قدمين ، تتدلى من أغصانها الطحالب وتنمو على جذوعها الفطريات والطفيليات ، كما تنمو بينها الشجيرات الصغيرة وتتناثر جذوع الأشجار المتكسرة التى صارت فى درجات متفاوتة من التحلل ، بينما تغطى الأرض فى كل مكان الطحالب الرطبة المشبعة بالماء التى تغوص فيها القدم والتى وصفها أحد السائحين بقوله : « لا يستطيع الإنسان أن يصل فيها إلى مسافة عشر أقدام من سطح الأرض » ومن الطحالب التى تنمو هناك السرخس والبنفسج الأصفر والأوركديا والكرانبرى Cranberry وغيرها من النباتات ، وكلها مشبعة بالرطوبة يقطر منها الماء معظم السنة ، لكن يغطيها الثلج فى زمن الشتاء ؛ وتمتلىء الوديان بالمستنقعات بينما توجد الغياض فى كل مكان حتى فوق سفوح الجبال . وتخف الغابات فيما زاد على ارتفاع ألف أو ألف وخمسمائة قدم ، وتتشابك الشجيرات، حتى ليخيل إلى الرائى أن السير فوق أعاليها هين يسير ، مع أن

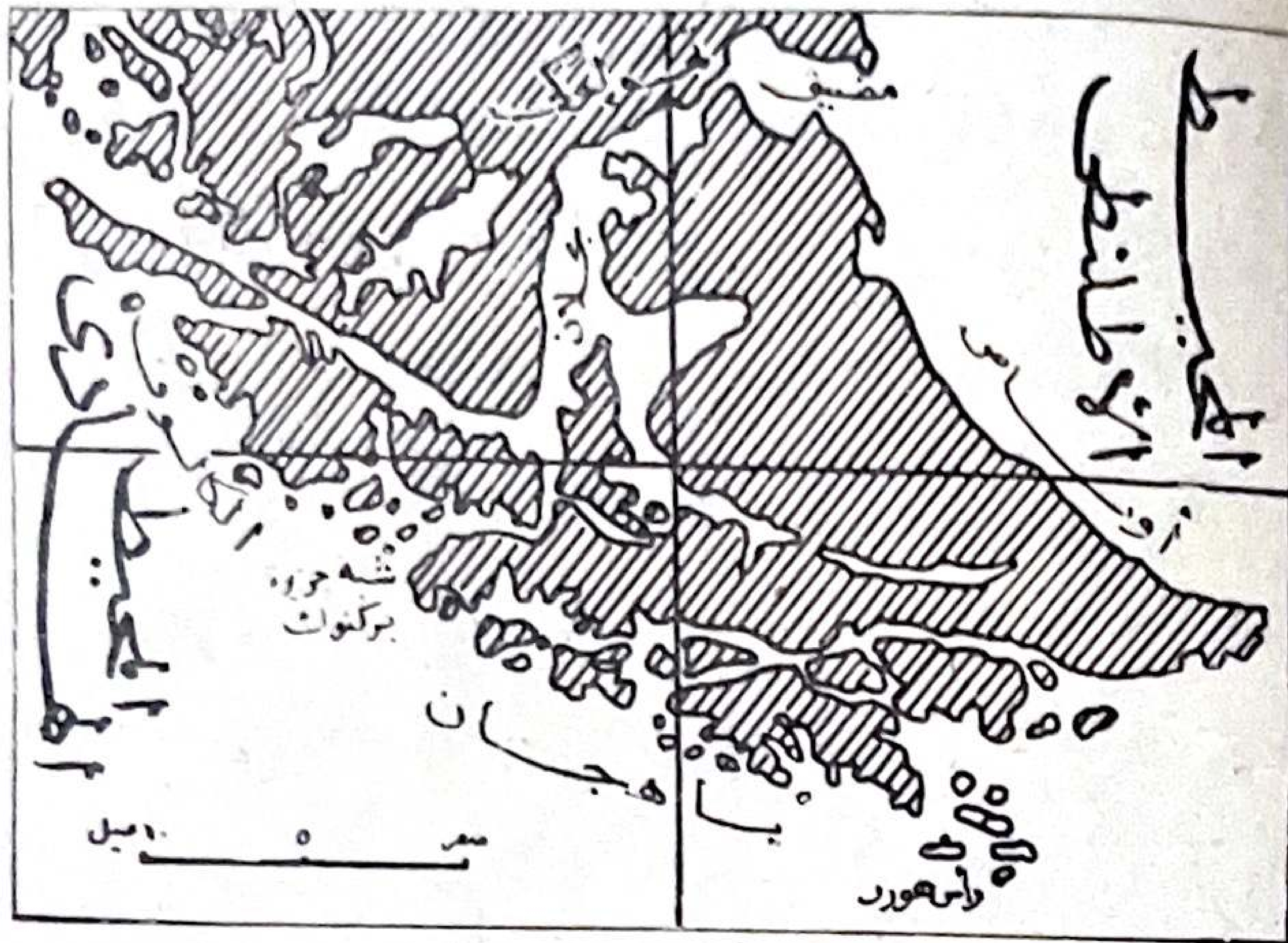
السير خلالها يستحيل إلا بعد أن يشق الإنسان طريقه بينها بقطع مايعترضه من النباتات . وفوق الارتفاع المذكور تختفى الأشجار والشجيرات وتحل محلها الطحالب يليها الثلج الذى يستقر فوق صخور عارية جرداء . وتصل الثلاجات إلى ساحل البحر فى بعض الجهات .

وينمو على سفوح الأنديز وقواعدها الشرقية نطاق من الغابات النفضية تتكون فى الغالب مما يعرف باسم زان المنطقة القطبية الجنوبية وفصائله ، وتخف هذه الغابات بالتدريج نحو الشرق والشمال تبعاً لقلة المطر الساقط ، وتنتهى إلى المنطقة شبه الصحراوية التى تقع فى شمال شرق أرض النار حيث لا ينمو سوى خصلات متناثرة من العشب هى كل ما يتغذى عليه الجواناكو البرى وما ترعاه قطعان الأغنام التى جُلبت إلى هذه البلاد. وبعض أجزاء القسم الجنوبى من الجزيرة يستحيل اختراقها لشدة وعورتها، كثيرة الغياض حتى أنه يستحيل على الهنود أنفسهم الحياة فيها .

وكانت سفوح الأنديز ذات الغابات الكثيفة والأرض المشبعة بالمياه وكذلك قممها التى تتوجها الثلوج ، تقوم حاجزاً يفصل فعلا بين الجماعات التى تعيش فى شرقها والجماعات التى تعيش فى غربها ، وكذلك كانت شبه جزيرة بركنك Brecknock الواقعة فى الجهة الغربية تفصل بين جماعات ليس لديهم من وسائل المواصلات البحرية غير خفاف القوارب . وتتفق

هذه الأقسام الثلاثة تقريبا مع الأقسام اللغوية الثلاثة التى تنقسم إليها فويجيا : فنى قسمها الشرقى يقطن الأوناس **Onas** الذين كانوا يعيشون على قنص الجوانا كو وهم راجلون، ومن هنا أطلق عليهم « الهنود الراجلون » . وعلى الشاطئ الغربى فى جنوب شبه جزيرة بركنك **Brecknock** يقطن الياهجان **Yahgan** ، وفى شمالها الألـكالوف **Alkaluf** ، وكانت كلتا الجماعتين تعيش على صيد السمك ، وكانت القوارب لذلك من مستلزمات حياتهم ، ومن هنا أطلق عليهم اسم « هنود القوارب » .

وكل هذه القبائل موغل فى البدائية ، ولا شك أنهم قد اضطروا تحت ضغط جماعات أكثر منهم قوة إلى الالتجاء إلى تلك الجهات الصغيرة التى مضى عليهم فيها قرون طويلة بعيدين عن أى مؤثر خارجى ، ولم يكن الأورو بيون الذين يمرون خلال مضيق ما جلان بعد كشفه فى ١٥٢٠ ينزلون بهذه الشواطئ ، ولم تـكن السفن الشراعية الدائرة حول رأس هورن ترى إلا النزر اليسير من تلك الشواطئ أو من سكانها ، وكان كثير من تلك السفن يرتطم بتلك الشواطىء الصخرية و بذلك يزيد قليلا فى موارد الفويجيين الهزيلة . ولما انتشرت الملاحة التجارية حل طريق مضيق ماجلان محل الطريق الدائر حول رأس هورن ، ولـكن حفر قناة بناما حول الملاحة نهائيا عن ذلك الطريق و بذلك عمل على زيادة عزلة الفو يجيين مرة أخرى .



(شكل ٣٣)

خريطة توضح قبائل منطقة « فويجيا »

والياهجان هم أحط الفو يجيين على الإطلاق ، ولهم كثير من صفات الهنود الأمريكيين ، لـكنهم أقصر من معظمهم قامة ، إذ يزيد متوسط طول الرجل قليلا على خمسة أقدام ، ويقل متوسط طول المرأة عن ذلك بنحو ثلاث بوصات . وأجسامهم متينة البنية ورقابهم ممتلئة وقصيرة ومنا كبهم

مستقيمة وأذرعهم طويلة مفتولة العضلات، ولكن أرجلهم مقوسة ورفيعة. وقد يكون هذا راجعا إلى طول ما يقضون من وقت فى قواربهم وطول ما يجلسون متربعين حول النار. ولهم فى مقدم الرأس لمة من الشعر الأسود الطويل الذى يتدلى من الأمام ويقص بمحاذاة العينين بحيث لا يحجب الرؤية.

وكان هؤلاء الناس قبل معرفة الملابس الأوروبية يتدثرون بقليل جدا من الملابس، بل كانوا أحيانا يسيرون عراة رغم البرد والمطر، على أنهم كانوا يدهنون أجسامهم بمادة دهنية على شكل زيت يستخرجونه من الحيتان والأسماك والطيور البحرية، وهذا الدهن يساعد على انزلاق البَرَد والمطر والرذاذ عن أجسامهم، أما الملابس فتمتص الرطوبة وتساعد على إصابتهم بالبرد. ومما كان يساعدهم على مقاومة البرد ما يستهلكونه من دهن الحوت ومن الطيور البرية الدسمة، كما كان يساعدهم على ذلك أيضا ما يتكون تحت جلودهم من طبقات دهنية. على أن الياهجان كانوا يحمون ظهورهم من البرد وكذلك أجزاء الجسم المجاورة للأعضاء الحيوية، بغطاء من جلد الجوانا كو أو عجل البحر أو القندس البحرى، ولم يكن الأمر أحيانا يعدو مجرد وضع قطعتين صغيرتين من جلد القندس فوق الكتفين وتحريكهما أحيانا حسب الاتجاه الذى تهب منه الريح.

ويغرم هؤلاء الناس، رغم فقرهم، بالتزين غراما شديدا، ولا يقتصر ذلك على نقش الجسم بالألوان — وهى الأسود الفاحم وأحمر المغرة الداكن والأبيض الناصع — بل يلبسون الريش وعقودا مصنوعة من صغار الأصداف وأساور من جلد عجل البحر أو من عُقَدٍ من عصب الجوانا كو وغير ذلك.

والياهجان آخذون فى الانقراض بسرعة بسبب حوادث الغرق والأمراض ولا سيما الحصبة، فقد كان تعدادهم منذ ستين سنة ألفين وخمسمائة، أما الآن فلا يصل عددهم إلى خمسين.

وكان الياهجان يقطنون الشواطئ الجنوبية لجزيرة أرض النار وما جاورها من الجزر الصغيرة حتى رأس هورن، ولكن البقع التى كانت تصلح للسكنى قليلة وموارد الأرض محدودة، ومع ذلك لم يعتمدوا كثيرا على النباتات الصالحة للطعام، فلا الكرفس البرى ولا حشيشة الخُفَر يبدو أنهم كانوا يهتمون بجمعهما، على أنهم انتفعوا بنحو عشرة أنواع أو أكثر من الطفيليات التى كانت تنمو على الأشجار الميتة ولو لم ينتفعوا بأى نوع منها مما ينمو على الأرض، وكذلك ندر أن كانوا يقنصون حيوانا بريا من أجل لحمه، وعلى ذلك لم يكن لهم بد من الاعتماد على البحر فى الحصول على معظم غذائهم. وكان من السهل عند انحسار الماء وقت

الجزر أن يجمعوا بأيديهم سمك المحار مثل القواقع و بلح البحر والسكابوريا الصالحة للطعام . وكانوا وهم فى قواربهم يصيدون السمك بالحراب ، كما كانوا يصيدون طيور البر والبحر و يجمعون بيضها من الأجراف الشاهقة ، وكذا كانوا يصيدون عجل البحر والقندس البحرى ، و يروى عن بعضهم أنهم استطاعوا صيد الحيتان . على أن القواقع و بلح البحر كانت هى مادة غذائهم الرئيسية . ومما لا شك فيه أن الياهجان كانوا عرضة للجوع والقحط ، وقد اضطرتهم مواردهم الضئيلة أن يعيشوا فى جماعات صغيرة أو حتى فى وحدات لا تتعدى العائلة الواحدة ، مما قوّى فيهم روح الاستقلال ، على أنه إذا قذفت الأمواج بحوت إلى الشاطئ اجتمع منهم مائة أو أكثر حول جثته يلتهمونها ، لأن القوارب كانت حينذاك تأتى من كل صوب استجابة لإشارات النار التى يوقدونها .

وكانت مساكنهم فيما مضى أرحب وأكثر عددا كما تدل على ذلك أكوام الأصداف المتروكة بقاياها على السواحل والتى يبلغ ارتفاع بعضها من ثمانية أقدام إلى عشرة . وكانوا إذا قل الطعام على شاطىء رحلوا إلى غيره ، لكنهم كانوا إذا عثروا على شاطىء يكثر به سمك المحار استقروا به هنيهة وعاشوا على خيراته ؛ وكانت معظم الموارد ملكا مشاعا كما كان كل الطعام يقسم بينهم بالتساوى .

ومنازل الياهجان بدائية إلى حد كبير ، يقيمونها على شكل مخروط أو نصف كرة تقوم على بضعة أعمدة تثبت فى الأرض وتغطى بلحاء الشجر أو بالعشب أو بالسمار ، ولكنها دائما مفتوحة من الجهة الواقعة تحت الريح ، وتغطى أرضها عادة بالطحالب أو بالعشب ، و يوجد قرب مدخلها مكان النار التى توقد غالبا من فروع الأشجار يلقون بها إلى النار المشتعلة . وعندما كانوا يزمعون الإقامة بعض الوقت فى الخيام كانوا يحفرون الأرض من الداخل ويكومون التراب الناتج على جوانب الخيمة زيادة فى وقايتها .

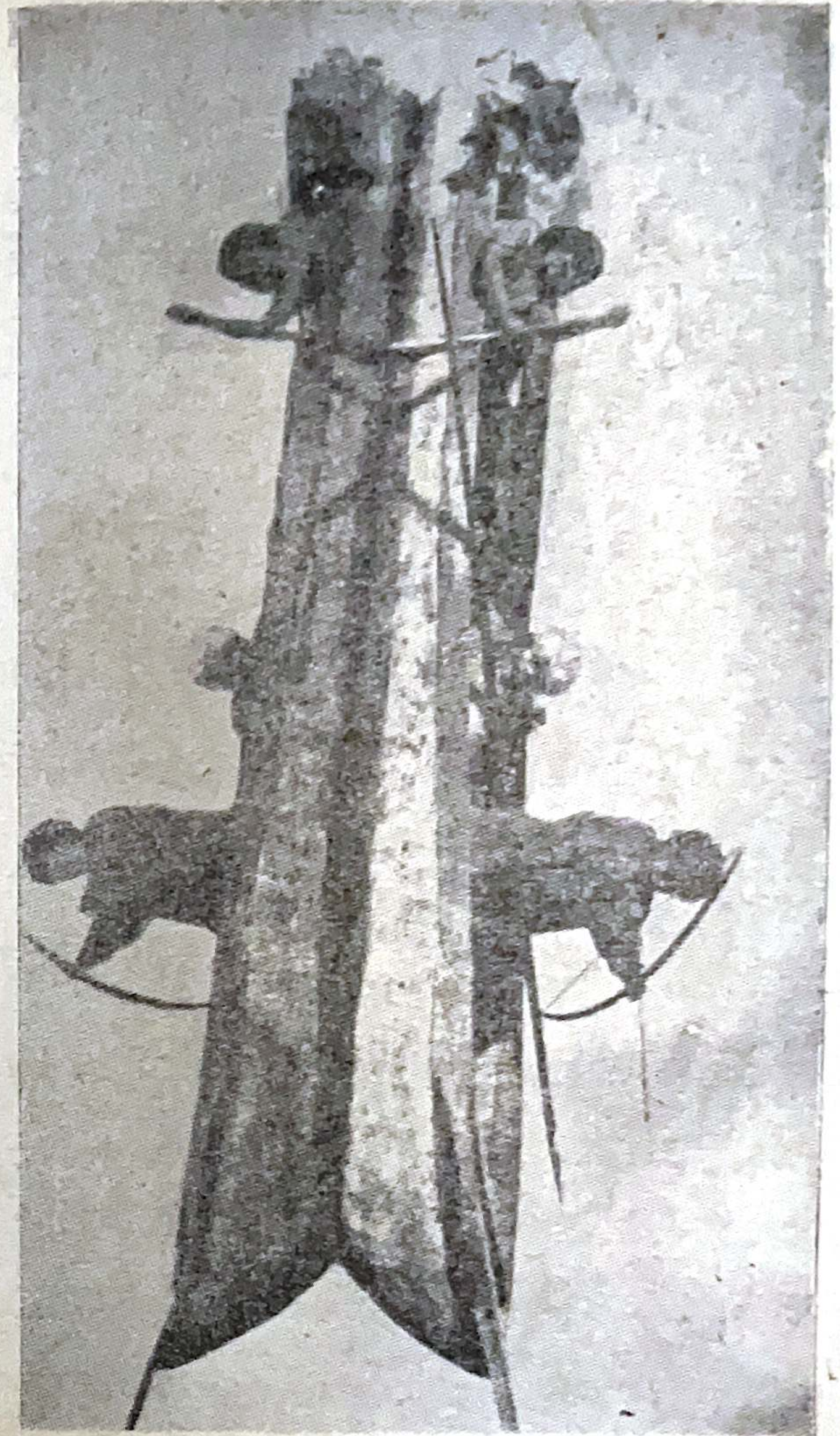
وكانت قواربهم تصنع من قشور خشب الزان ، وهى تبلغ من اثنى عشر إلى أربعة وعشرين قدما فى الطول وأربعة أقدام فى العرض وثلاثة فى عمقها عند الوسط . وكانوا إذا أرادوا فصل اللحاء عن الشجرة يحفرون حولها حزوزاً بواسطة الأصداف أو سكاكين من الحجر ، ثم ينزعون الألواح بواسطة أداة من الخشب أو من الحجر مستطيلة ومفلطحة ومنحنية قليلا تشبه إلى حد ما سكاكين فتح المظاريف ، وتثبت ألواح اللحاء بعضها إلى بعض بأربطة من العصب ثم تشد إلى هيكل من عروق وعوارض متقاطعة من الخشب أو من عظام الحوت .

وعندما يخرج القارب للصيد يأخذ الرجال أماكنهم فى مقدمته استعداداً لمهاجمة الفريسة ، بينما تجدف النساء فى مؤخرته . وكانوا يحتفظون

لأغراض الطبخ والتدفئة بنار موقدة على الدوام فى موقد من الطين موجود
بوسط القارب ، مما كان يوفر عليهم مؤونة توليدها من جديد . ولما كان
جوهم مشبعا بالرطوبة لدرجة تجعل من العسير توليد النار عن طريق حك
الخشب أو فتله ، كانوا يولدونها بقدح قطعتين من الصخر وترك الشرارة
المتولدة تسقط على قليل من زغب ريش الطيور الجاف ، ثم ينفخون فيه
وسرعان ماتشتعل فيه النار .

على أنه منذ بضع سنين أخذت القوارب المحفورة من جذوع أشجار
الزان تحل محل القواب المصنوعة من لحاء الشجر ، وكانوا يأتون بكتلة
الخشب فيجوفونها ببلطة بحيث تكون حافتها العليا منحنية نحو الداخل ،
و بعد ذلك يفرشون القاع بالرمل و يدهنون جميع جوانبها الداخلية بشحم
عجل البحر ثم يشعلون بداخلها النار فتعمل حرارتها على إلانة الخشب ،
وحينئذ يثبتون فيها عوارض لتبقى جوانبها مفتوحة . وكانوا عادةً يثبتون
فى قاع القارب قطعة من الصفيح يوقدون عليها النار و يحيطونها بالرمل زيادة
فى الأمان ، وقد اقتبس بعض الياهجان والألكالوف من جيرانهم الشماليين
« الكونوس Chonos » طريقة بناء القوارب من الألواح .

ولم يعرف الياهجان البلطة المصنوعة من الحجر والتى استعملها معظم
الشعوب البدائية ، لكنهم استعملوا بدلها بلطة من الأصداف كانوا



(شكل ٣٤) الفويجيون يصطادون

يقطعون بها الأشجار ويكشطون دهن الحوت ويقصون شعورهم . ولعمل مثل هذه الأداة يأتون بمحارة كبيرة من محار نوع خاص من السمك (Clam) يربطون أحد طرفيها بواسطة عصب الحيوان إلى حجر مستدير ، ويحكون الطرف الآخر على حجر ناعم حتى يصير حادا . كذلك كانوا يستعملون حربة ذات رأس من الحجر ، ولكن الرمح كان سلاحهم المفضل وكان يتكون من ساق من الخشب ورأس من العظام تثبت إلى الساق بطريقة تجعله يطفو عرضياً على سطح الماء عند ما يصيب الحيوان فيصعب على الحيوان الجريح أن يتخذ سبيله فى الماء . وكانت رأس الرمح تتخذ من رأس ضلع من أضلاع الحوت . فإذا أريد استعماله فى صيد الحوت أو القندس صنع له كُلاّب طويل عميق يمنعه من الخروج ، ولكن إذا أريد استعمالها فى صيد الطيور صنع لها صف طويل من الكلاّبات على جانب واحد منها . وإذا استعمل هذا الرمح فى صيد السمك ربطت اثنتان أو ثلاث من رؤوس الحراب الخاصة بصيد الطير إلى ساقه بحيث تتكون من أطرافها حربة تصلح لصيد السمك . ولم يعرف الياهجان السنانير ولا الفخاخ . وكانوا غالباً يستعملون إزميلا من الخشب حاداً لينزعوا القواقع الملتصقة بالصخور ، كما كانوا يستعملون سلالا من السمار يضعون فيها سمك المحار والأدوات الصغيرة . ولم يكن الياهجان يستعملون الأقواس فى الصيد إلا نادراً إذ كان من

الصعب الحصول على مدد جديد من السهام وهم فى عرض البحر ، ولكنهم استعاضوا عن الأقواس بالمقلاع حيث كانوا يجدون من حصى الشواطئ مدداً مضموناً من الذخيرة . وقد وصف الأستاذ هنرى بلفور مقلاعا من مقاليع الياهجان حصل عليه سبنسر فقال :

يتكون من قطعة كبيرة مستديرة من جلد القندس تُطبّق وفراؤها إلى الخارج بحيث يتكون منها جيب أو « مهد » للقذيفة الحجرية ، ويخاط إلى كل من الزوايتين العلويتين حبل (مبطط) طوله نحو ثلاثة أقدام ينتهى بعقدة خشنة مبطنة . ويلاحظ أن طول أحد الخيطين يزيد على طول الآخر بقدر ضئيل كما أنه ينتهى بعقدة أكبر قليلا من عقدته . ويُمسَك بهذا الخيط بين الخنصر والبنصر ، بينما يقبض على الآخر بالإبهام والسبابة حتى يسهل إطلاقه عند قذف الحجر ، ومن عادة الياهجان أن يلفوا المقلاع حول الرأس بعد الانتهاء من استعماله أو يلفوه حول العنق . وقد كان استعماله شائعا بين « هنود القوارب » (الياهجان والألكالوف) منذ خمسين سنة ، ولكنه الآن (١٩٣١) على وشك الانقراض .

وكان الرجال يقومون بالصيد والقنص ، وكثيراً ما يضطرون إلى الغوص فى ماء بارد كالثلج ليجمعوا سمك المحار ، أو إلى تسلق أجراف خطرة ليجمعوا بيض الطير ، كما كان عليهم أن يخاطروا هم وعائلاتهم بقواربهم الخفيفة

فى أجواء عاصفة وسط ممرات مائية شديدة التعرج سعيا وراء الطعام ، وكان على النساء دبغ الجلـــود وجمع سمك المحار ، والقيام بالواجبات المنزلية العديدة .

والزواج عندهم مسألة بيع ومساومة ، ويستطيع الرجل عادة أن يشترى زوجة فى مقابل قارب جديد . وتعدد الزوجات أمر عادى ، وللرجل أن يتخذ من الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، وعند ما يولد طفل يدقق الوالدان فى نوع الطعام الذى يتناولانه لأنهم يعتقدون أن بعض الأطعمة قد تضر الرضيع ، ومن عادتهم التزام الصمت مدة أسبوع أو أسبوعين عقب ولادة الطفل ، وبعد ولادته بأيام قلائل يأخذونه إلى البحر حيث يغطسونه فى مائه الشديد البرودة ، لأن ذلك فى اعتقادهم يساعد على سرعة نموه ، ومن عادتهم دفن موتاهم فى كهوف أو فى غابات رطبة ، ولا يذكرون اسم الشخص بعد موته أبداً ، فإذا كان الميت رجلا شقوا قاربه نصفين وعمدوا إلى جميع ممتلكاته فدمروها .

ومع أن هؤلاء الناس لا يعرفون من الأعداد ما زاد على ثلاثة إلا أنه كان لهم — على حد رواية توماس بردجس الذى قام بعمل قاموس إنجليزى ياهجانى — كلمات يصل عددها إلى أربعين ألفا . أما أغانيهم فقد كتب عنها الكولونيل **C.W. Furlong** (الذى كان أول من سجل بعضها على أسطوانات) يقول :

« مع أنها غريبة وتقتصر على المفاتيح الدنيا إلا أنها ليست غير سارة ، إذ أنها تنتمى إلى لغة عذبة على السمع غنية بأحرف السكون وأحرف الحركة المعروفة فى اللغة الإنجليزية » . وهو يقسم أغانيهم إلى ثلاثة أقسام : أغانى اللعب ، والأغانى الرمزية ، وأغانى الأفراح .

وقد ذكرنا فيما سبق أن فقر موارد البـلاد التى يستوطنها الياهجان قد اضطرهم إلى العيش فى جماعات صغيرة ، على أنهم قد يجتمع منهم أحيانا مائة أو أكثر ، ولكن مع ذلك لم يكن لهم زعيم ، على أن كثيرين منهم كانوا يظهرون الطاعة لرجل الطب أو للشيخ المحنك ، وهم عادة يقدرون الخبرة والقوة الجسمية . وقد أدى انعدام النظام الاجتماعى إلى انعدام الطقوس والأعياد ، ويبدو أنه ليس لهم أساطير ولا قصص شعبى ولا تقاليد ولا شىء مطلقا يدل على أنهم كانوا يعتقدون فى وجود كائن أعظم ، لكن من المؤكد أنهم كانوا يعتقدون فى وجود الأرواح والشياطين .

وقليل من السائحين من كتب شيئاً عن الألكالوف ، ولهذا كانت معلوماتنا عنهم محدودة . وهم يشبهون الياهجان كثيراً فى مظهرهم وعاداتهم وأحوالهم ولكنهم أحسن منهم ملبساً وأمتن بنية ويتكلمون لغة مختلفة .

وكان الألكالوف يقطنون من الجزر ومن شواطىء القارة ما يلى شبه جزيرة بركنك **Brecknock** شمالا وغربا ، بينما كانت شبه جزيرة تايتو

Tayto تفصلهم عن الـكونوس Chonos فى شمالهم . وكان الألـكالوف أيضاً يقضون معظم وقتهم فى قواربهم يجوبون بها آلاف القنوات البحرية سعياً وراء الطعام ، ولـكنهم كانوا أيضـا يقيمون لهم محلات على حواف كثير من الجزر ، بدليل الأكوام الـكثيرة المتخلفة من رماد النار والمحار ، وهى تدل على مواقع محلاتهم التى كانوا دائمـا يحسنون اختيارها . أما الآن فإنهم قد انقرضوا تقريبا من فويجيا عدا قليلين يعيشون فى بلاد الياهجان ، ولـكن عدداً منهم يعيش فى شمال مضيق ماجلان . والألـكالوف كالياهجان يتناقص عددهم بسرعة نتيجة للأمراض وللافراط فى تعاطى الروم ، إذ أنهم يقايضون جلود الحيوانات بالطباق والملابس والمشروبات الروحية . ويقدر عددهم اليوم بما لا يزيد على مائة وخمسين ، مع أنه كان يقدر منذ ستين سنة بثلاثة آلاف .

والأوناس ، الذين ينتمون فى رأى بعض الـكتاب إلى قبائل التهوالـكى Tehuelcke التى تقطن جنوب بتاجونيا ، أطول قامة وأجسامهم أكثر تناسبا من الياهجان والألـكالوف ؛ فمتوسط الطول بين الرجال خمسة أقدام وثمانى بوصات وأجسامهم تامة التناسب ومناكبهم عريضة وصدورهم قوية وأرجلهم مفتولة العضلات ولون بشرتهم مشرب بصفرة خفيفة ولـكن لونها الحقيقى يختفى عادة تحت طبقة من القذارة ومن المغرة الحمراء ،

وعيونهم سوداء وأنوفهم دقيقة ولـكنهـا أحيانا بارزة قليلا ، ووجوههم البيضوية يتوجها شعر أسود فاحم يستعملون فى تسريحه أمشاطا من عظام الحوت لا يعرفها غيرهم من الفويجيين .

وقد كان الأوناس فى وقت من الأوقات ينتشرون فى جميع الأجزاء الخصبة من أرض النار أى فى القسم الشمالى حيث تبلغ أعداد الجوانا كو أكثرها إذ توجد منه آلاف يخطئها العد . وفى تلك الأيام كان وجود مائة أو أكثر من الأهالى يعيشون فى معسكر واحـد أمراً عاديا ، ولـكنهم لم يكونوا يقيمون فى قرى ثابتة ، وكانوا حينذاك أقرب إلى نظام العشائر من أى شعب آخر من شعوب فويجيا . ثم جاء بعد ذلك رعاة الأغنام الأوروبيون فأخذوا من الأوناس أخصب أراضيهم ، وقابل الأوناس ذلك بسرقة قطعان الأوروبيين فنشبت بين الفريقين حروب وحشية لم يكن القوس فيها ندا للأسلحة النارية فقتل من الأوناس خلق كثير ، ولجأ من نجا منهم إلى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة حيث لا يوجد الجوانا كو بنفس الـكثرة وحيث الأحوال الجوية أسوأ كثيرا ، فأخذ الحصول على الطعام يزداد صعوبة واضطروا إزاء ذلك أن ينقسموا جماعات أقل عددا ، كل جماعة منهم تتـكون غالبا من أسرة واحدة تعيش على الصيد فى أراضيها . ولم يكن الأوناس يعترفون لأحد بالزعامة ، مثلهم فى ذلك مثل الياهجان .

وكان الجواناكو أهم حيوانات الصيد عند الأوناس ، وهو نوع برى من فصيلة الإبل ، ومن أنواعه المستأنسة اللاما والألپاكا ، وقد استعانوا فى صيده بنوع من كلاب الصيد ضخم الجسم قوى البنية، واستعملوا فى ذلك أقواسا جيدة الصنع أوتارها من عصب الحيوان . وكانوا يحملون سهامهم ذات الأطراف الزجاجية فى كنانات من الجلد . وكذلك صادوا الطير والكيورورو «Curoro» وهو نوع من الفئران ، وثعلب الذئب الفويجى. وكانوا أحيانا يذهبون إلى الشاطئ للحصول على سمك المحار ودهن الحوت ولكنهم لم يكونوا يملكون قوارب ولم يخاطروا بالنزول إلى البحر . وقد انتفعوا بكل جزء من أجزاء الجواناكو فأكلوا لحمه ولبسوا جلده وأقاموا منه مساكن مؤقتة ، كما اتخذوا منه قربا يحفظون فيها الماء ، وصنعوا من عصبه الخيط ومن عظامه المخارز .

وقد كان من أثر اضطرار الأوناس إلى الصيد فى مثل هذه البيئة الفقيرة، أن نمت فيهم قوة الاحتمال، كما نمت حاستا السمع والنظر ، والقدرة الخارقة على معرفة المكان الذى به حيوان الصيد ، وكذلك كان من أثره أن تعودوا الاستقلال والاعتماد على النفس ، وكان الأوناس مضطرين إلى التجول من مكان إلى مكان سعياً وراء الصيد ، ولم يستأنسوا من الحيوان غير الكلب ومع ذلك لم يدربوه على حمل الأثقال ، ولذلك كانوا

يحملون على ظهورهم كل مايملكون ، ويستخدمون لربط الأحمال إلى ظهورهم طقما من جلد الجواناكو . ويسير الرجال فى المقدمة ملتفين بجلد كامل من جلود الجواناكو ومسلحين بأقواس طويلة ، ولكنهم لم يكونوا يحملون من الأحمال إلا قليلا ، إذ كان عليهم أن يكونوا دائماً على أتم استعداد للطوارئ وللصيد . أما النساء فكن يحملن على ظهورهن الخيام مطوية ومعها الأدوات المنزلية البسيطة وكذلك الطفل الصغير فى ثنايا العباءة خلف العنق ، بينما يسير كبار الأطفال إلى جانب أمهاتهم خلف الرجال .

وكانوا يقيمون أثناء الترحال مساكن بدائية لا تزيد على بضعة أعمدة ينشر فوقها غطاء من جلود الجواناكو يقيهم الريح ، فإذا عثروا على قدر كبير من الطعام أقاموا مسكناً خيرا من هذا ، فيحفرون حفرة مستديرة غير كبيرة العمق ينصبون حولها بضعة أعمدة يغطونها بالحسك وبجلود الجواناكو ، وينام الأطفال ليلا فى وسطها ومن حولهم الكبار وبقربهم الكلاب لتبعث الدفء إلى أجسامهم .

وكان على الرجال أن يقوموا بالصيد وبالحصول على ما يلزم من مواد الطعام ومن الجلود ، وكذلك حماية المعسكر وعمل الأقواس والسهام . وعلى النساء دبغ الجلود والسهر على شئون الأسرة وصناعة السلال وقرب الماء .

ولم يكن يفوت الأوناس عند خروجهم للقنص أن يضعوا على رءوسهم قطعة مثلثة الشكل شهباء اللون من جلد رأس الجوانا كو ، اعتقاداً منهم أن الصائد الذى يزين رأسه بمثل تلك القطعة من الجلد إذا دلف إلى الجوانا كو من خلف شجرة أو ربوة فإن الحيوان لا يهرب منه . وهاك مثلا آخر من اعتقادهم فى الخرافات أو بالحرى فى السحر : فقبل أن يشترك الأوناس فى مسابقات الجرى يتجردون من ملابسهم ويربط كل واحد منهم على ذراعه الأيسر حزمة من ريش الطير ليزيد من سرعته فى الجرى.



(شكل ٣٥)

جماعة من الأوناس تحت مأوى من جلد الجوانا كو

ولا يعبر الأوناس عن حزنهم بالصراخ وقص الشعر فحسب ، بل أيضاً بقطع لحم الصدر والذراعين بقطعة من الزجاج أو العظم .

ويعتقد الأوناس أن أرواح الموتى تتجسد أحياناً فى هيئة أشياء أو ظواهر طبيعية كالسماء والسحاب والجبال والصخور . ومن أجل هذا يجتهدون فى أثناء رقصاتهم التنكرية التى يرمون من ورائها إلى إطلاع الأولاد على أسرار سن المراهقة ، يجتهدون أن يقلدوا تلك الظواهر تقليداً متقنا . وهم يتخذون أقنعة التنكر من جلود الجوانا كو بعد إزالة الشعر عنها ليسهل نقشها بالألوان اللازمة للمحاكاة ، فمثلا القناع الذى يلبسه رجل يمثل السماء يلون بلون أبيض عليه بقع حمراء ، وتلبس زوجته جلدا منقوشاً بلون أبيض خالص تحاكى به السحب التى تمثل هى روحها . بينما تعتبر روح الصخور السوداء والهوات المظلمة أشد الأرواح رهبة وتلون باللون الأسود .

وينتهى الأمر بالأرواح فى رأيهم إلى أن تتقمص الطير والسمك والجوانا كو ، ويرون أن الجوانا كو كان قبل ذلك امرأة لأنهم يعتقدون أن أرواح النساء تتقمص جسد هذا الحيوان .

وعادات الأوناس على العموم أرقى وأكثر تعقداً من عادات الياهجان والألاكالوف ، وعددهم — مثل عدد هؤلاء — آخذ فى التناقص بسبب الحروب والأمراض وصعوبة الحصول على الطعام . ويقدر عدد الموجودين

منهم اليوم على قيد الحياة بما لا يزيد على مائة نسمة . ولن يمضى وقت طويل قبل أن « يكون جميع الفويچيين قد انقرضوا من الوجود . وسيبقى من آثارهم بعض أكوام من المحار وقليل من الأدوات ، أما الفويچيون أنفسهم فسيبقون فقط فى ذمة التاريخ »[1]

---

(١) Albes, Edward, the Fuegians & their Cold Land of Fire.

الفصل التاسع

الإسكيمو

كما أن الياهجان الذين يقطنون فويچيا هم أبعد سكان الأرض إلى الجنوب ، كذلك الإسكيمو القطبيون الذين يقطنون شمال غرب جرينلند على مسافة تقل عن ألف ميل من القطب الشمالى هم أبعد سكان الأرض إلى الشمال .

والإسكيمو ينتشرون على طول خمسة آلاف ميل من شواطىء أمريكا الشمالية الواقعة على المحيط المتجمد الشمالى بين بحر بيرنج وشاطىء جرينلند الغربى ولبرادور . ويعيش قليل منهم على شاطىء جرينلند الشرقى وقليل على شواطىء بحر بيرنج الأسيوية . وتقع أشهر مواطنهم فى كندا فى المناطق القاحلة ، وهى شواطىء المحيط المتجمد وجزيرة بافن وجزيرة فكتوريا . وكانوا فيما مضى يعيشون أيضاً فى كثير من الجزر الأخرى الواقعة فى شمال كندا ، وقد يكونون هجروها بسبب صعوبة الحصول على القوت فيها . ولم يحدث أن عاش الإسكيمو أبدا فى الجزر الواقعة فى شمال أوراسيا .

ويوجد فى الوقت الحاضر موطنان اثنان للإسكيمو فى شرق جرينلند ، أحدهما جنوب الدائرة القطبية ويقطنه الأنجماجسالك Angmagssalik وهم من سلالة المهاجرين القدماء الذين أتوا من الشواطىء الغربية ، وثانيهما منطقة خليج سكورسبى Scoresby ويقطنها مهاجرون حديثو العهد جلبهم الدنمركيون. على أن هناك بقايا مساكن ومقابر تدل على أن الإسكيمو كانوا فى وقت من الأوقات ينتشرون فى معظم أجزاء الساحل الشرقى ، وفى سنة ١٨٢٣ كان كلافرنج Clavering يلتقى بهم فى جهات تمتد إلى الشمال حتى خط عرض ٦٤° ش . على أن هؤلاء قد انقرضوا من سنين ، وهذا لاريب راجع إلى الصعوبة المتزايدة فى الحصول على الطعام والكساء بسبب انقراض الكاريبو فى أواسط القرن الماضى ، وكذلك إلى الانخفاض الهائل فى عدد عجل البحر وثور المسك .

وعدد الإسكيمو أقل من أربعين ألفا ، منهم ١٥ ألفا يعيشون فى جرينلند ، و١٤ ألفاً فى كندا ، وألف وستمائة فى سيبيريا ، وألف فى لبرادور . وإذا استثنينا القاطنين منهم فى أقصى شمال جرينلند ، وربما القاطنين على ساحلها الشرقى كذلك ، وجدنا أن إسكيمو جرينلند ، أو الجرينلنديين كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم ، ليسوا من الإسكيمو الخلص لأن دماءهم خالطها دم المستعمرين الأوائل من الجنس النوردى .



(شكل ٣٦) خريطة تبين التوزيع السابق والحالى للإسكيمو

ولا يوجد خلال ذلك الإقليم الشاسع الذى يقطنه الإسكيمو إلا جنس واحد يتكلم لهجات مختلفة من لغة واحدة، على أن الاختلاف بين اللهجات المختلفة يسير .

وقد أطلق عليهم الهنود من قبيلة كرى Cree اسم إسكيمو أى «آكلو اللحم النيىء» ، ولكنهم يسمون أنفسهم إنوت Inuit ومعناه «الرجال» . والإسكيمو مفتولو العضلات متناسبو الأجسام ولكن أيديهم وأقدامهم صغيرة ، وقاماتهم تميل إلى القصر إذ يتراوح متوسط الطول بين الرجال من خمسة أقدام و بوصتين إلى خمسة أقدام وأربع بوصات ، بينما يقل المتوسط بين النساء عن هذا القدر بنحو خمس بوصات . و بشرتهم تميل إلى الأسمر الخفيف المشرب بصفرة ، ولكن لون الخدود يميل إلى الحمرة . ورءوسهم طويلة وعالية وشكل الجمجمة يدل على اتساع التجويف المخى ، ووجوههم عريضة و بيضوية ، وعظام الوجنتين بارزة ، وأنوفهم مستقيمة ودقيقة ولكنها طويلة قليلا ، وعيونهم سمراء قاتمة ، ومع أنها ليست منحرفة إلا أنها تنم عن بعض آثار انحراف العين المغولية . وشعرهم أسود خشن ولكن يندر أن يخطه الشيب ، وما ينبت على وجوههم من شعر قليل ، وهم ينتفونه حتى لا تتجمع عليه الثلوج فى جو الشتاء القارس . و يترك الرجال شعر الرأس يطول و يمنعونه من التدلى على عيونهم بخيوط من الخرز ، ويعقد بعض

النساء شعر الرأس فى أعلاها فى شكل عقدة ويتنافسن أيهن ترفعه فوق هامتها عالياً . وملامحهم الجسمية تخفى إلى حد ما — ولكنها لا تمحو — وحدة الجنس الذى يجمع بينهم و بين الهنود فى جنو بهم ، و بينهم و بين المغول القاطنين فى شمال آسيا الشرقى .

و يقطن الإسكيمو جميعا ، إذا استثنينا القليلين القاطنين داخل ألاسكا والبعض الذين يقطنون الأراضى الجرداء الواقعة غرب خليج هدسن ، يقطنون جميعاً شواطئ المحيط المتجمد الشمالى ، وكثيرون منهم شمال الدائرة القطبية الشمالية . و يتميز صيف تلك الجهات بنهار طويل مشمس مما يساعد على وجود فترة نمو سريع ولكنها قصيرة. وفى شمال الدائرة القطبية تصبح شمس نصف الليل ظاهرة تستحق الملاحظة ، وحول خط عرض ٧٠° ش تختفى الشمس تحت الأفق شتاء نحـــو ستة أسابيع ، ولكن الأرض لا يسودها الظلام لأن القمر يكون غالبا ساطع النور وتنير الجو غالبا أضواء الشفق القطبى الخافتة المتعددة الألوان التى تعبر الأفق مصحوبة بصفير خافت ؛ ورغم ذلك فإن فترة الظلام المستمر مرهقة ولا يستطيع غير من عرفها أن يقدر حق التقدير ما تحمله عودة الضوء والدفء والأمل من مغزى لتلك الشعوب الشمالية .

ومع أن المتوسط السنوى للحرارة تحت درجة التجمد ، ومع أن حرارة

منتصف الشتاء قد تهبط حتى تصل إلى درجة ٥٠ فهرنهيت تحت الصفر ، إلا أن الإحساس بالبرد لا يبلغ الإحساس به فى داخل سيبيريا أو فى بعض الجهات الداخلية فى أمريكا الشمالية . ومقدار الثلج الساقط قليل ، وتتغطى الأرض على العموم بطبقة غير عميقة من الثلج تستمر إلى أن تنكسر حدة البرد فى أبريل حيث تأتى العواصف الثلجية فى ركاب الرياح الجنوبية الشرقية العاصفة ، وحينئذ تأخذ الحرارة فى الارتفاع ويختفى الثلج ، ونحو أواخر يونية يظهر النبات وينمو بسرعة إلا فوق الهضاب العالية فى داخل جرينلند . وقرب نهاية أغسطس تأخذ الحرارة فى الهبوط مرة أخرى ، حتى إذا حل منتصف سبتمبر بدأ الجليد يتكون فوق البحيرات . وتعلو ماءَ البحر فى الخلجان المحمية من الرياح طبقة من الجليد يأخذ سمكها فى الازدياد حتى يتكون منها بعد مدة سطح مستو أملس من الجليد يحف باليابس ويصبح امتدادا مؤقتا له . أما فى المواقع المعرضة فإن الجليد يتكون ببطء أو لا يتكون إطلاقا ، ثم تسوق الرياح أيضا طافيات الثلج إلى الشواطىء فترتطم بها وتتكون منها أكوام جليدية غير منتظمة الشكل يستحيل على الزلاقات السير فوقها ؛ ومثل هذه الشواطىء يتجنبها الإسكيمو لأن صيد عجول البحر فيها شتاء مستحيل .

ويظهر تأثير البحار القطبية — بما يكثر بها من كتل جليدية هائلة تسوقها الرياح — يظهر أثرها واضحا فى مناخ تلك الجهات ، وبالتالى فى الحياة النباتية فيما جاور الساحل ، ففى فصل النمو القصير تتلقى المنطقة الساحلية قدرا وافرا من الرطوبة على هيئة مطر أو ثلج ، أو فى الأغلب الأعم على هيئة شابورة وضباب . ويعوق البرد المقترن بالرطوبة نمو الأشجار فلا تنمو حتى القزمية منها ، ولكن تزدهر الحشائش والنباتات العشبية فنجد المراعى القطبية الشاسعة التى تتكون من حشائش وحلفاء قصيرة ولكنها عظيمة القيمة الغذائية .

وعلى مسافة تتراوح بين خمسين ميلا وخمسة وسبعين ميلا إلى الداخل ينعدم تأثير البحر وتتغطى مساحات شاسعة من الأرض بأنواع من النباتات الخشنة القصيرة يكثر بينها شاى لبرادور ونبات الدُّفلى (**rhododendron**) والبتولا الأرضية والتوت الأزرق **blueberry** وعنب الديب (**cranberry**) ؛ وفى الوديان المحمية من الرياح تطول البتولا الأرضية والصفصاف القطبى وتتكون منهما أدغال متفرقة صغيرة المساحة ، وتتغطى الأرض فى كل مكان تقريباً ببساط سميك من الطحالب والطفيليات ، ومن هذه الأخيرة ، وكذا من عساليج الصفصاف والشجيرات يتكون الغذاء الأساسى لثور المُسك والكاريبو فى فصل الشتاء .

وتلبس التندرا القطبية أبهى حلتها حوالى منتصف شهر يونية ، « فنجد زهر الترمس الأزرق (blue lupines) الذى يضارع بألوانه وجماله الأنواع المنزلية المستنبتة ، يغطى مساحات واسعة من الأرض ، كما نجد



(شكل ٣٧)

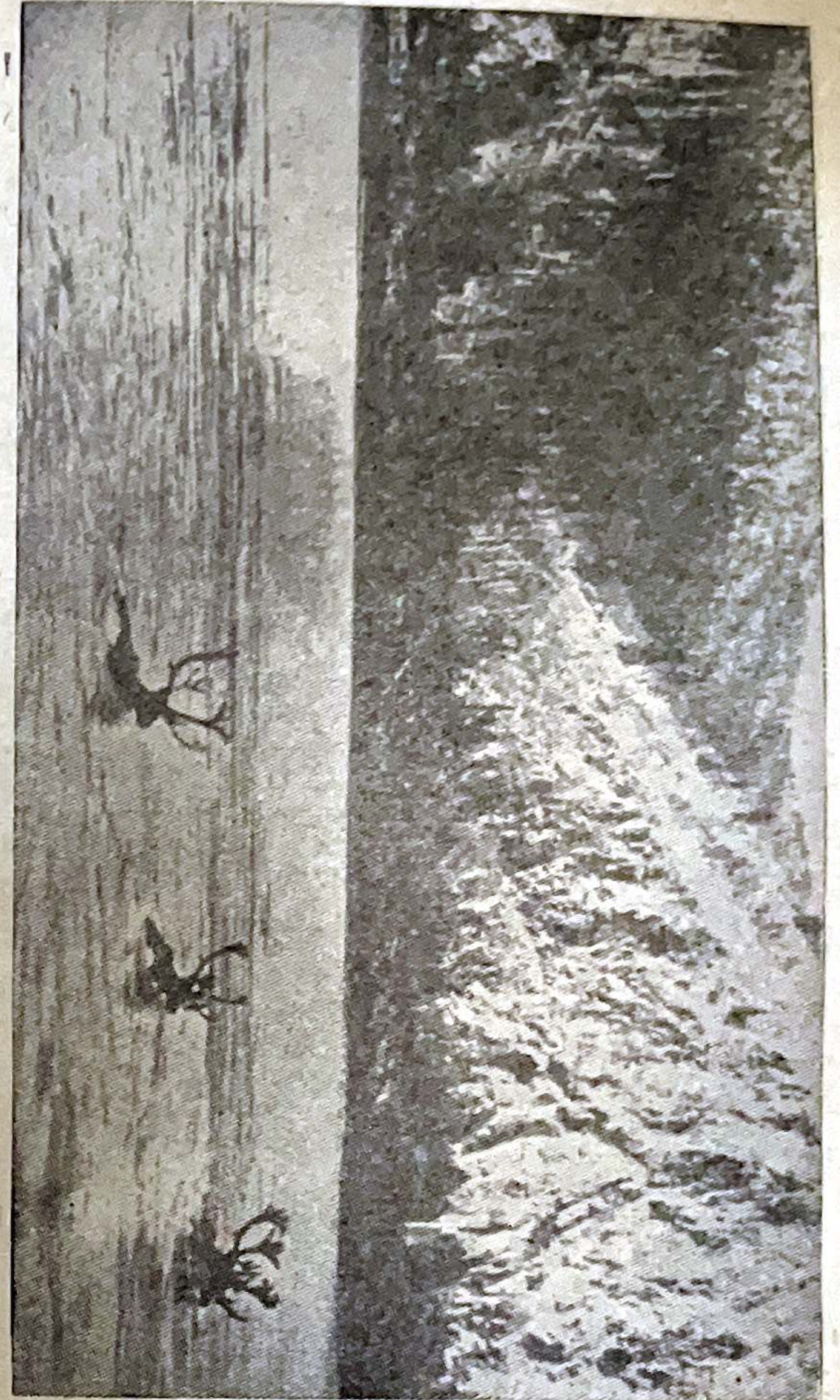
البرارى القطبية فى ألاسكا

زهر الخشخاش الأصفر وزهر الشمر البحرى (saxifrages) وزهر آذان الفار (forget - me - nots) وأنواعا أخرى عديدة من الزهور ساحرة الألوان »[١] .

(١) The North - West Territory

وكذلك تزدهر الحياة الحيوانية ، فالبعوض وباء مريع فى يولية وأغسطس ، وفى أواخر الصيف تظهر ملايين من الذباب اللاسع الذى ينفذ إلى العينين والأذنين والخياشيم والفم . وأهم ثلاثة حيوانات قطبية هى الدب القطبى والكاريبو وثور المسك . والكاريبو — أو الرنة الوحشية — يشبه الرنة المستأنسة شبها كبيراً فى شكله وطباعه . وكانت التندرا منذ سنوات غير كثيرة تموج بملايين عديدة منه تهاجر فى الربيع إلى الشمال وتنتشر على السواحل والجزر القطبية ثم تعود لتقضى الشتاء على حواف الغابات فيما يلى الدائرة القطبية الشمالية . ويكاد الكاريبو يكون من الضروريات التى لا يستغنى عنها الإسكيمو ، إذ هى تمده بالملابس الثقيلة الضرورية له فى ذلك الجو القاسى ، كما تمده بالعصب الذى يصنع منه حباله وخيوطه التى يصيد بها الأسماك وعجول البحر ، وبالعظام التى يصنع منها كثيرا من أدواته ، وباللحوم . وقد نقص عدد الكاريبو كثيراً ولم يعد يهاجر فى الربيع إلى السواحل والجزر ، ويبدو أن « سلسلة نقط الحراسة التى أقيمت على طول السواحل جملته يولى وجهه نحو الشرق ثم يستدير ثانيا إلى الجنوب قاصداً مراعيه الشتوية » .

وثور المسك له جسم أصغر قليلا من جسم البقر المستأنس ، ولكن ما ينمو فوق جسمه من شعر كثيف وما له من قرون هائلة يكسبه منظرا



(شكل ٣٨)
الكاريبو يسبح نهر اليوكون فى ألاسكا خلال هجرته السنوية



(شكل ٣٩)
ثيران المسك

هائلا ؛ ومن عادة هـذا الحيوان إذا أخيف أن ينتظم فى شـكل مربع يتقدمه الذكور لمواجهة العدو ، وهذا مايجعلها فريسة سهلة للصيادين . ومنذ سنوات قليلة نسبيا كان ثور المسك يهيم فى كل نواحى التندرا كما كان يهيم فى كثير من جزر المحيط المتجمد الشمالى و بعض نواحى جرينلند ، وهى لا تهاجر كما يفعل الـكاريبو ولـكنها تلزم مكاناً واحداً ترعى فيه ولا تتركه إلا إذا نفد ما به من مرعى . على أن الإسكيمو قد أعملوا فيها القتل السريع ولا سيما منذ عرفوا الأسلحة النارية ، حتى إنها قد أصبحت

اليوم نادرة الوجود ولم يبق منها إلا قليل فى بعض بقاع لا يسهل الوصول إليها . وقد حرمت الحكومة الكندية قتل هذه الحيوانات كما حرمت على البيض والوطنيين الاتجار فى جلودها ، رغبة منها فى المحافظة على ما بقى من هذا الحيوان ذى اللحم العظيم القيمة الغذائية . ومنذ سنوات وُضعت أكبر هذه القطعان البرية تحت حماية الحكومة فى « حرم » خاص فى ثلون Thelon .

ويفد على الأقاليم القطبية فى فصل الصيف كثير من الطيور ، يصيد الإسكيمو منها النورس (gulls) والغطاس (divers) والأوز والبط وأنواع القطا ، كما يجمعون بيض البط فى الربيع ، فيأكلون منه ما يحتاجون وما يتبقى منه يدفنونه فى الأرض لوقت الحاجة . وجدير بالذكر أن الإسكيمو لا يأنفون من أكل البيض الذى قد نسميه فاسداً ، ولا الطعام الذى بدأ الفساد يدب فيه .

وفى الأنهار توجد الأسماك ولا سيما جَبّاد العِرْق trout ، وفى البحار يوجد الحوت والهلبوت والسلمن ، كما يوجد نوع من الرنجة فى الأجزاء الجنوبية من خليج هدسن . ويلعب السمك دوراً هاماً فى غذاء الناس والكلاب ، ولكن أهم مواردهم الغذائية هى الثدييات البحرية المسماة حصان البحر (walrus) ، وهو نوع من الفقمة ، والحوت الأبيض وهو

نوع من الخنازير البحرية يصاد عادة بالشباك عند مصاب الأنهار الخليجية ، وكركدن البحر ، وهو نوع آخر من خنازير البحر للذكور منه أنياب يبلغ طولها ثمانية أقدام ، وعجل البحر . وهذا الأخير يمد الأهالى بالجلود التى يتخذون منها ملابس الصيف وأغطية القوارب وأغطية الخيام الصيفية ، وباللحم الذى يأكلون وبالشحم الذى يتخذون منه وقوداً لمصابيحهم التى يستعملونها فى التدفئة وفى الطبخ على السواء ، ولولا عجل البحر لأصبحت حياة الإسكيمو من الصعوبة بمكان .

ولا يجد الإسكيمو من الخشب إلا ما يقذفه البحر أو ينحدر مع مياه الأنهار ، وحتى هذا نادر جداً فى بعض المناطق ، فلا غرابة إذن أن كان شحم عجل البحر عندهم من الأهمية بمكان . وليس لديهم من الأغذية النباتية التى يمكن جمعها إلا قليل جدا ، ولا تستطاع زراعة شىء منها بسبب الأحوال المناخية التى تسود بلادهم ، ولذلك لم يكن لهم بد من أن يعيشوا على الصيد وأن يعتمدوا أكبر الاعتماد على صيد البر والبحر لا فى غذائهم فحسب بل فى ملبسهم ووقودهم وصنع أسلحتهم أيضاً ، وفى بعض الجهات فى إنشاء مساكنهم كلها أو أجزاء منها ، على أنهم يبدون عبقرية فائقة فى كل هذا .

ومن الإسكيمو قبيلة واحدة لا تعتمد فى حياتها على البحر إطلاقا وتجهل الحياة على السواحل جهلا تاماً ، ويعيش أفراد تلك القبيلة فى الداخل

إلى الغرب من خليج هدسن حول بحيرة ياتكيد Yat'ikyed ، وهم يعتمدون اعتماداً كبيراً على الكاريبو فى طعامهم وملبسهم ، ولذا أطلق عليهم اسم « إسكيمو الكاريبو » ، وهم يصيدون السمك أيضاً من البحيرات والأنهار بواسطة الفخاخ والحراب ، و يستعملون شحم الكاريبو فى الوقود ، ولكن ما يولده من حرارة يقل كثيراً عما يولده منها دهن عجل البحر ، ولذلك لا تبلغ منازلهم من الدفء فى الشتاء ما تبلغه منازل غيرهم ، وهم فى الواقع يحيون حياة أكثر تأخراً من حياة أى شعب إسكيمى آخر ، و يعتقد بعض الثقات أنهم بقايا الإسكيمو الأولين الذين بقوا فى هذه البقاع المنعزلة بينما هاجر سائر إخوانهم إلى السواحل .

لماذا هاجر أولئك من التندرا ؟ وهل وصلوا إلى السواحل فى أثر الكاريبو ؟ وهل اكتشفوا عند وصولهم إلى السواحل أن دهن الحيوانات البحرية يمدهم بحرارة أكثر مما يمدهم به شحم الكاريبو ؟ أو هل اضطروا إلى الهجرة صوب السواحل أيام ضغط قبائل معادية لهم من الهنود ؟ كل هذه أسئلة لم يعرف الجواب الصحيح عنها بعد . ولكن المتفق عليه عموما أن كثيرين منهم رحلوا إلى السواحل المتجمدة وهناك تطورت طرق حياتهم بحيث تتفق مع البيئة الجديدة من بحار وجليد ، وبعد ذلك انتشروا بالتدريج غربا إلى ألاسكا ، ولا يدرى أحد إذا كانوا قد انتشروا فى نفس الوقت نحو الشرق .

ثم نشأ فيما بعد نوع آخر من الثقافة حول شواطئ بحر بيرنج ، حيث تقدمت وسائل الصيد البحرى ولاسيما صيد الحوت والفقمة من قوارب مكشوفة مصنوعة من الجلد تسمى (يومياك) Umiaks . وقد انتقلت هذه الثقافة شرقا على طول ساحل المحيط المتجمد الشمالى على أيدى الإسكيمو الذين استوطن بعضهم جزر الأرخبيل القطبى وكذلك جرينلند .

وكان صيادو الثدييات البحرية هؤلاء ينشئون لأنفسهم مساكن نصفها تحت الأرض وحوائطها من الحجر والعشب وجماجم الحيتان وسقوفها تعتمد على عظام أضلاع الحوت وفكيه ، وكان يُدخل إليها من ممر حجرى ضيق وعميق ، وقد أطلق راسموسن Rasmussen على طريقة الحياة هذه اسم « ثقافة ثول » نسبة إلى مكان فى شمال غرب جرينلند عثر فيه لأول مرة على بقايا هذا النوع من الثقافة وأطلق عليه اسم ثول . ولا تزال طريقة الحياة هذه توجد اليوم — مع تطور طفيف — فى الأقاليم النائية فى إقليم بارو Point Barrow فى ألاسكا ورأس يورك فى جرينلند .

ويوجد شبه كبير بين ثقافة الإسكيمو القطبى القاطن قرب رأس يورك وبين ثقافة ثول ، فالرجال يلبسون سراويل من جلد الدب وتلبس النساء أحذية عالية بينما مساكنهم الحجرية المستديرة هى سليلة المساكن التى كانت تصنع من عظام الحوت . وهؤلاء هم أشد قبائل الإسكيمو عزلة ،

وعند مازار بلادهم سير جون روص فى ١٨١٨ وجدهم يعتقدون أنه ليس على ظهر الأرض سواهم . وأخيرا — وفى زمن حديث نسبيا — حدثت موجة من الهجرة من الأقاليم الداخلية ؛ والذين قاموا بهذه الحركة هم الذين يقطنون الآن بعض سواحل المحيط القطبى ، وهم الذين قضوا على ثقافة ثول فى الإقليم الواقع حول خليج هدسن .

ويمكن النظر إلى إسكيمو الأقاليم الوسطى على أنه يمثل الإسكيمو خير تمثيل، لأنه لم يتعرض لتأثير الأوروبيين إلى نفس الدرجة التى تعرض لها إسكيمو جرينلند ولبرادور والأقاليم الغربية من المنطقة القطبية . وهؤلاء الإسكيمو يقيمون مساكنهم الشتوية على الساحل وقد يقيمونها على الجليد نفسه ؛ وقد يبقون هناك حتى شهر مارس أو إبريل . وأهم مايقومون به فى تلك الفترة صيد نوع واحد من الحيوان هو عجل البحر ، فيقوم الصياد مع الفجر ويسير فوق الجليد يسحب معه كلبه الذى تقتصر مهمته على معرفة الثقب الذى يكمن فيه عجل البحر . فإذا عثروا على ذلك الثقب قام الصياد بفحصه فحصاً دقيقا فأدلى عودا طويلا رفيعا من قرن الكاريبو — وفى الأزمنة الحديثة يدلون سلكا ثقيلا من الحديد — للتعرف على المركز الحقيقى للثقب ، لأنه يتغطى عادة بثلج كثافته نحو قدم أو قدمين . ومن المهم جداً أن لايضطرب نظام الثلج لأن نفاذ أى قدر غير عادى من الضوء

إليه يمنع الحيوان من المجىء إليه للتنفس ، ويحتفظ كل عجل من عجول البحر بعدد من هذه الثقوب مفتوحاً ، ويبدو أنه يمر عليها بالتناوب . ويترك الصائد عادة فى كل ثقب « غمّازاً » من العاج أو العظام يتحرك بمجرد أن يطل العجل ببوزه ، ثم يقيم حاجزاً من الثلج لصد الريح . ويقف الصائد على أهبة الاستعداد ورمحه فى يده ، ويبقى فى الانتظار فى ذلك البرد القارس الذى يتميز به النهار القطبى القصير ، حتى يتحرك الغماز . وقد يحدث هذا بعد دقائق أو بعد ساعات ، وعند ذلك يرفع الصائد رمحه ويقذف به فى بوز العجل فتغوص رأس الرمح — وهى قابلة للانفصال — فى لحمه ، وينفك الخيط كلما حاول الحيوان الهرب ، ويقوم الصائد بإجهاد الفريسة ، وأخيراً يجرها إلى سطح الماء .

وتستعمل فى بعض أجزاء جرينلند طريقة خير من هذه ، فيستعمل ثقب أو ثقبان متقاربان قد يكون أحدهما أو كلاهما من عمل الصياد نفسه ، ويجلس أحد الرجال قرب أحدهما يراقب الحيوان ويحاول إغراءه بتقديم الطعم له ، بينما يقف الصياد على الثقب الآخر ، وعند ما تعطى إشارة متفق عليها يقذف بالرمح إلى الفريسة . ويستحيل صيد عجل البحر أثناء العواصف الثلجية أو الضباب الكثيف ، فإذا سادت مثل هذه الأحوال عدة أيام فقد يهلك الإسكيمو جوعا ، لكن ربما ينقذه من مثل ذلك المصير ما يكون قد ادخره مما صاد فى فصل الصيف .

وحوالى شهر مارس ، عند ما يزداد الدفء بازدياد طول النهار ، تتكون بين الجليد ممرات من الماء ، وعندئذ تبدأ العائلات فى التفرق ليقوموا بصيد عجول البحر فى الماء أو بمفاجأتها وهى تتشمس على حافة طافية ثلجية أو على الصخور أو بجانب ثقوبها التى تتنفس منها ، وفى هذا الوقت من السنة تتجمع عجول البحر فى قطعان كبيرة وتولد صغارها ، ولذلك كانت أيام الربيع الأولى هى الموسم الهام لصيد الحيوان عن طريق المفاجأة ، فيترك الصائد زلاقته على مسافة من المكان الذى ينتظر أن يجد فيه طلبته ، ويتقدم هو وكلابه حتى يلمح عدداً من العجول ، وحينئذ يزحف فوق الثلج ورأسه متخفية فى جلد عجل من عجول البحر إلى أن يصير على مسافة قصيرة تسمح له بأن يقفز فجأة ويغرس حربته فى أحد العجول . وقد يستطيع الصائد أن يحصل بهذه الطريقة على عدد كبير من العجول ، ولكن بعد فترة قصيرة تتكسر كتل الثلج وتتسع الممرات المائية ويصبح من العسير الصيد بهذه الطريقة .

على أن طريقة الصيد تختلف أيضاً فى جهات أخرى كجزيرة بافن وسواحل خليج هدسن الشمالية ، إذ يترك الصياد زلاقته ويلجأ إلى قارب من الجلد يسمى كاياك **Kayak** ويأخذ معه حربته ويتعقب عجول البحر وغيرها من الحيوانات البحرية كالحوت والقيطس .

وكان الإسكيمو فيما مضى يصيدون ثور المسك فى مثل هذا الوقت من السنة ، ولكن هذا الحيوان قد انقرض تقريبا . ويصاد الدب القطبى الذى يعيش فوق الجليد المندمج **Pack-ice** عندما يأتى إلى السواحل فى الربيع بحثا عن صغار عجول البحر ، وهم يتعقبونه فى زلاقاتهم إلى أن تضيق عليه كلابهم الخناق وتقضى عليه .

وعند اقتراب الصيف يترك الإسكيمو البحر ويتجهون إلى الداخل بحثاً وراء الكاريبو وغيره من حيوان الصيد ، ومن طرق صيد الكاريبو المفضلة والناجحة أن يساق قطيع إلى نهر أو بحيرة حيث تعمل فيه حراب الصيادين الذين يتربصون له فى قواربهم . وهناك طريقة أخرى هى سوق القطيع إلى واد ضيق نحو صف من الصيادين مختبئين فى نجوات أو خلف شجيرات ومسلحين بالأقواس والسهام . وتصاد الذئاب والأرانب بواسطة الفخاخ والحبائل ، بينما تصاد الطيور التى تهاجر شمالا فى الصيف بواسطة حراب خفيفة تقذفها أداة قذف خاصة ، وكذلك بواسطة الشباك .

وصيد السمك من أهم أعمالهم التى يقومون بها فى الصيف ، وأهم ما يصيدون هو السلمن **Salmon trout** . ففى الصيف تهاجر كبار الأسماك صعدا فى الأنهار صوب البحيرات ، بينما تهبط إلى البحر أسراب الصير التى لا تتعدى العام الثانى من عمرها . ويصاد السمك بحراب عبقرية الصنع

ذات ثلاث أسنان ، أو بالشباك — وهى طريقة منقولة عن الغرب ، أو يقيمون على مصاب الأنهار سدوداً يحجز السمك خلفها وقت الجزر . و يتخيرون لذلك بقعة ضحلة من مجرى أحد الأنهار يقيمون بها حائطا قليل الارتفاع موازيا للشاطئ ، ثم يبنون قرب طرفها المتجه نحو أعالى النهر حائطا دائرى الشكل يتركون فيه فتحة صغيرة تسمح بدخول السمك إلى البحيرة التى استحدثوها ، و ينشئون فى الطرف الأدنى من الحائط فتحات ضيقة وطويلة لكى يهرب إليها السمك عندما يزعجه الصيادون فى ماء البحيرة ، فإذا دخل إليها لم يجد منها مخرجا إذ ليس بها من الاتساع ما يكفيه للاستدارة والرجوع ، وحينئذ يصبح من السهل إمساكه باليد .

و يصاد السمك كذلك بسنانير من العظم أو العاج ذات « أذقان » ، وهى لشدة الشبه بينها و بين السمك الصغير تستعمل بدون « طعم » . وتقوم النساء فى فصل الصيف بجمع أنواع عديدة من التوت (berries) والجذور الصالحة للطعام ، على أن القدر الذى يجمعونه منها قليل ، ولذلك تعتبر فى نظرهم من مواد الترف . ومن عاداتهم خزن مقادير كبيرة من الطعام فى مخابئ تحت الأرض يغطونها بالحجارة لتذود عنها الثعالب وغيرها ، وكثيرا ما ينصبون الفخاخ للإيقاع بهذه الحيوانات المتلصصة .

للإسكيمو ، إذن ، نظام فصلى محدد ، فهم فى الشتاء يعيشون

فى جماعات صغيرة العدد تتكون من بضع عائلات تسكن بيوتا مقامة على الجليد أو على أطراف الشواطئ ، وعندما يحل الصيف تتفرق الجماعات إلى عائلات وتتجه نحو الداخل وتسكن الخيام . وقد وصف ديامندچنس **Diamond Jenness** هجرات الإسكيمو القاطنين فى إقليم خليج كورونيشن **Coronation Gulf** فقال :

« فى الشتاء عند ما تتغطى الأرض الجرداء الساكنة بالثلوج ، وعندما يكون الكاريبو قد هاجر إلى الجنوب ، وعندما تصير ساعات الشفق قصيرة والليالى طويلة ، يكون الأهالى قد تجمعوا سويا فى قبائل ، وتكون كل قبيلة قد انضمت إلى قبيلة أخرى ليتعاون الجميع فى الكفاح من أجل الحصول من البحر على قليل مما يقيم الأود . وقد صار الطعام قسمة بين الجميع ، وتلاصقت المنازل المقامة من الجليد حتى لكأن العائلات قد اندمجت كلها فى جماعة واحدة . وعند عودة الشمس وزيادة طول النهار استعادت الطبيعة نشاطها ، فظهرت عجول البحر فوق سطح الجليد ، وعادت قطعان الكاريبو إلى الشمال ، وتفرقت قبائل الإسكيمو إلى جماعات قليلة العدد ، وكانوا قد تلكأوا فوق الجليد برهة من الزمن ليصيدوا مزيدا من عجول البحر ، ثم ولوا وجوههم بعد ذلك شطر الداخل ليطاردوا الكاريبو فوق التلال التى تكسوها الثلوج وفوق السهول . ثم أخذ الثلج يختفى وتفرقت

قطعان الـكاريبو ، ولم يبق للناس مورد ثابت يعتمدون عليه إلى منتصف الصيف سوى الأسماك ، و بذلك أخذت الجماعة التى أصحبها — كما أخذت سائر الجماعات فى طول البلاد وعرضها — تتفرق إلى العائلات التى تتكون منها ، و بدأت كل واحدة منها تسعى وراء قوتها ، ولم يعد للقبيلة وجود بل تحلل المجتمع إلى عناصره الأولى وهى الأسرة » .

وتختلف طريقة الحياة اختلافا يسيرا نحو الغرب فى ألاسكا ونحو الشرق فى جرينلند ولبرادور بسبب الاختلاف فى المناخ ، ولا سيما فى طريقة تـكون الجليد والفترة التى يتـكون فيها . فى ألاسكا وغرب جرينلند ولبرادور يقصر الشتاء قليلا و يخلو البحر من الجليد فى فترات أطول ، بينما تصبح طافيات الجليد أقل مساحة ؛ وفى مثل هذه الأحوال يخرج الصيادون وحدهم فى زلاقاتهم فوق الجليد فى رحلات قصيرة يعودون بعدها إلى عائلاتهم المقيمة على الشاطىء فى أكواخ أمتن بنيانا من الإجلو (**Igloo** المنازل الجليدية) . فإذا اتجهنا نحو الجنوب، إلى جنوب ألاسكا وجنوب غرب جرينلند وجنوب لبرادور ، وجدنا الشتاء أقل قسوة والجليد فوق البحار أقل امتدادا ، ويعيش الأهالى على السواحل ويصيدون نفس الحيوان ، ولـكنهم يتبعون فى ذلك طرقا مختلفة ، فيحل القارب المصنوع من الجلد والمسمى كاياك **Kayak** محل الزلاقات وفرق الـكلاب ، ويخرج

الصائد إلى البحر فى قاربه الجلدى سعيا وراء عجول البحر والقياطس ، فإذا أريد صيد الحوت أو نقل عدد كبير من الناس استعملوا نوعا كبيرا من القوارب الجلدية يسمى يومياك **umiak** . ورغم هـذا الاختلاف لا يزال الناس هنا يهاجرون فى الصيف إلى الداخل ، إلا فى جرينلند حيث تقوم الغطاءات الجليدية الداخلية حائلا دون الهجرة وتقصر السكنى على المناطق الساحلية ، بينما فى جنوب لبرادور وألاسكا تغرى أرباح صيد الحوت والفقمة فى الصيف كثيرا من الصيادين بالبقاء على السواحل .

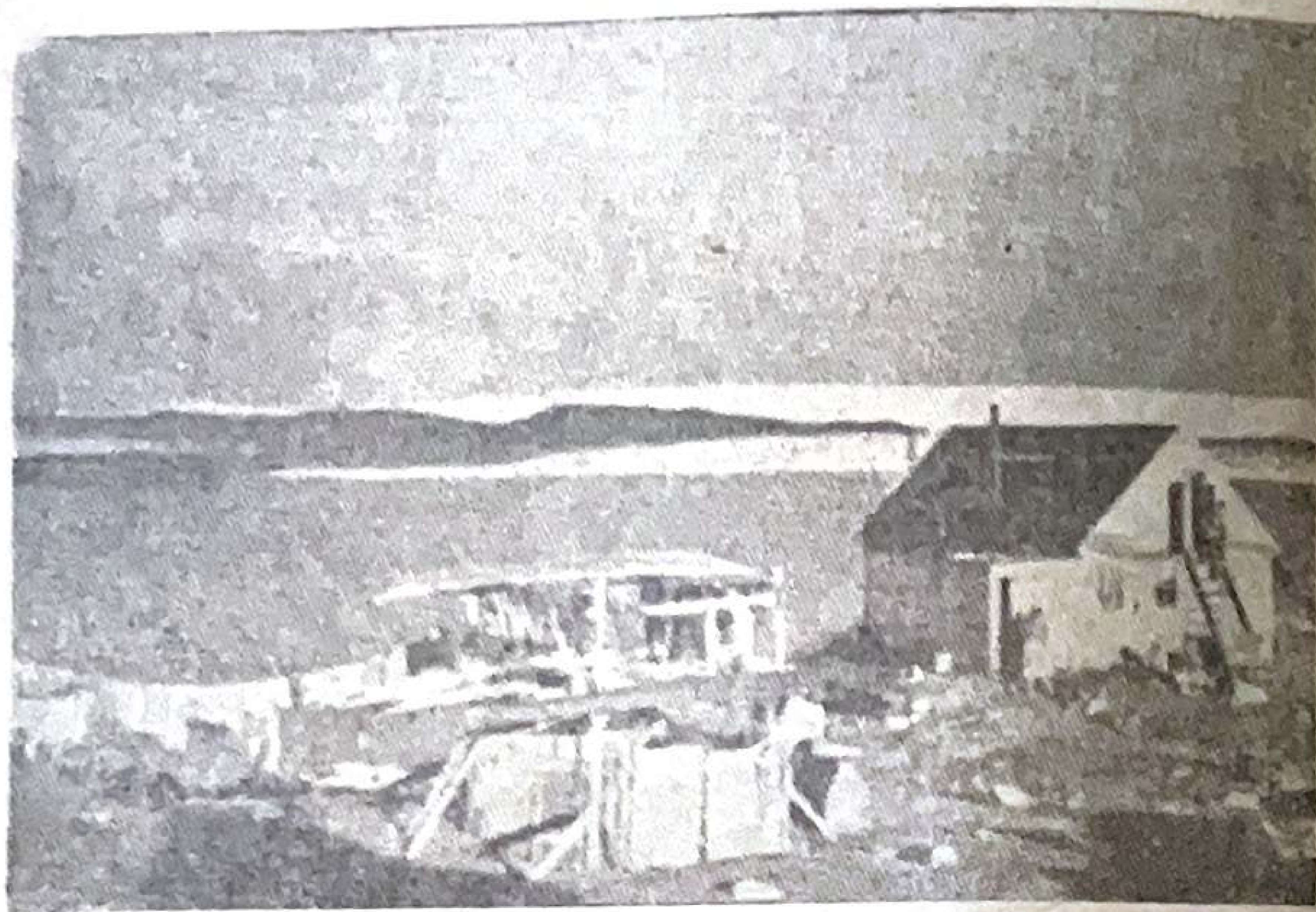


(شكل ٤٠)
إحدى خيام الإسكيمو المصنوعة من جلود عجل البحر

المساكن

ومساكن الصيف فى كل مكان خيام من جلود عجل البحر أو جلود الكاريبو ، ولكن شكلها يختلف اختلافا يسيرا من منطقة إلى أخرى ، فهى فى الشرق على هيئة جمالون جزؤها الخلفى شبه مخروط ، وفى الغرب مخروطية الشكل ، بينما فى حوض نهر مكنزى و بعض جهات ألاسكا يدعمون هيكل الخيمة المخروطى بطوق يرتفع عن الأرض نحو ستة أقدام ، وكثير من سكان ألاسكا ينصبون خياما مستديرة أو مقببة ، وهى منقولة عن جيرانهم من قبائل الكتشين (Kutchin) .

وتتباين مساكن الشتاء من جهة لأخرى ، ومن أسباب ذلك اختلاف الظروف فى كل منها ، فأينما تكثر الأخشاب التى تحملها المياه — كما هى الحال فى المناطق الساحلية من ألاسكا وفى دلتا نهر مكنزى — يبنى الإسكيمو منازلهم على شكل مستطيل يبلغ طوله من ثمانية أقدام إلى عشرة ولها مداخل طويلة ضيقة ، وهذه المداخل محفورة فى الأرض ، وكذلك الجناح الأوسط من المنزل ، ولكن أرض هذا تعلو عن أرض المدخل نحو قدم و بذلك تحول دون وصول التيارات الهوائية . وتبسط مستلزمات النوم من فراش وأغطية من الجلد فى الجزء الخلفى من المنزل إذ يحتفظون بالأجزاء الجانبية منه للخزين وللموقدين اللذين يخص كل منهما إحدى الأسرتين اللتين تسكنان الكوخ عادة . وفوق كل من الموقدين تعلق قدر الطهى ،



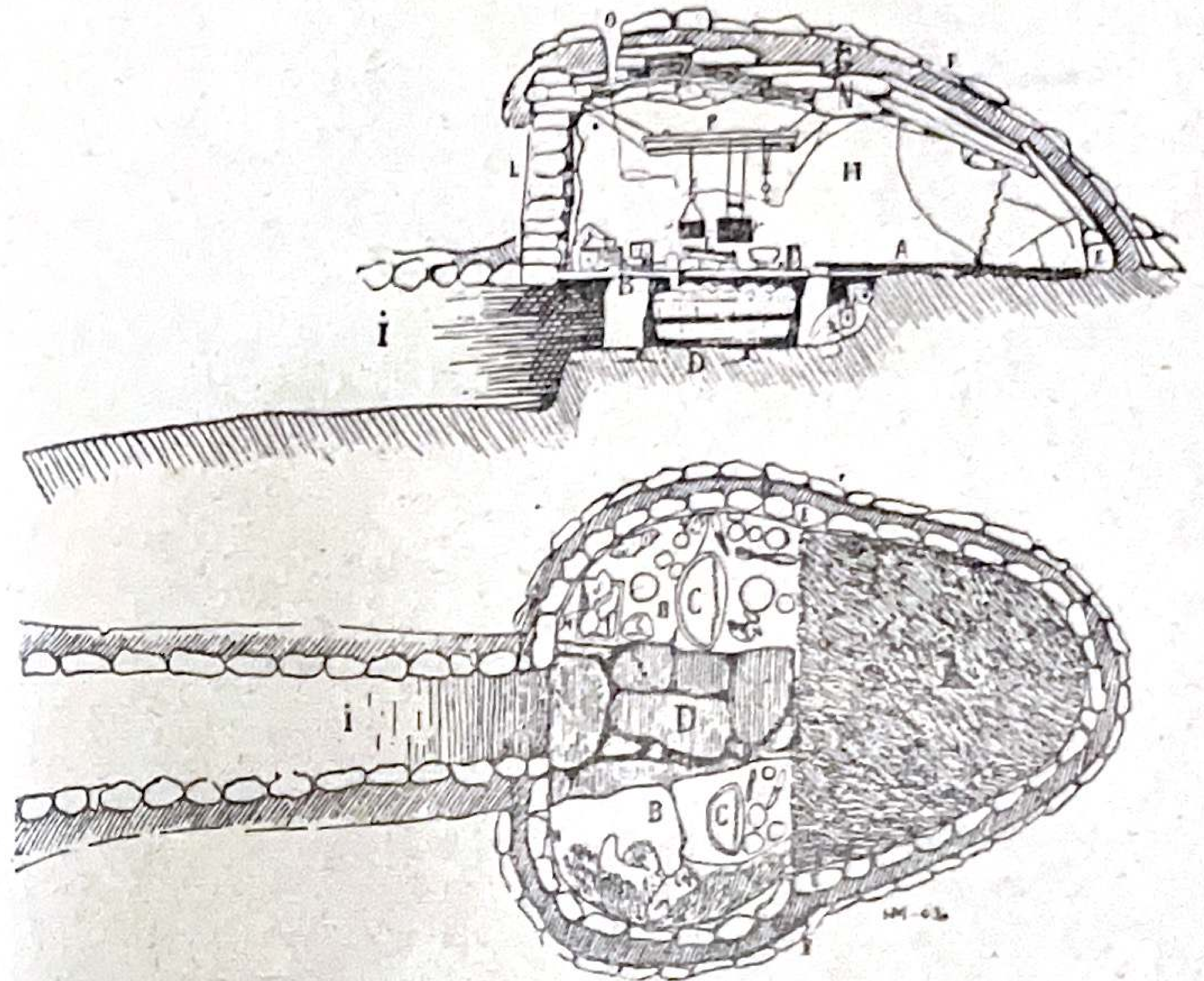
(شكل ٤١)

صورة أحد منازل غرب جرينلند وفيها تظهر حظيرة الكلاب والمكان المعد للزلاقات والكاياك

وفى أعلى هذه تثبت صينية كبيرة أو رف توضع فوقه الملابس لتجف . أما حيطان المنزل فمن كتل الخشب وطين الأرض أو الحجر وارتفاعها نحو خمسة أقدام أو ستة ، تستقر عليها عروق مائلة من الخشب الذى قذفت به المياه أو من عظام الحوت ، تغطى بطين الأرض أو بطبقتين من جلود عجل البحر بينهما طبقة من الطحالب . وفوق النهاية الداخلية للممر تثبت قطعة من جلد أمعاء الحيوان تقوم مقام النافذة .

ويبنى الجرينلنديون منازل من كتل الخشب ذات نظام يختلف عن نظام المنازل فى ألاسكا ، وهذا لا شك راجع إلى تأثير الجنس النوردى ، ولكن الإسكيمو القطبى لا يستعمل العظام ولا الخشب ولا كتل الجليد فى بناء

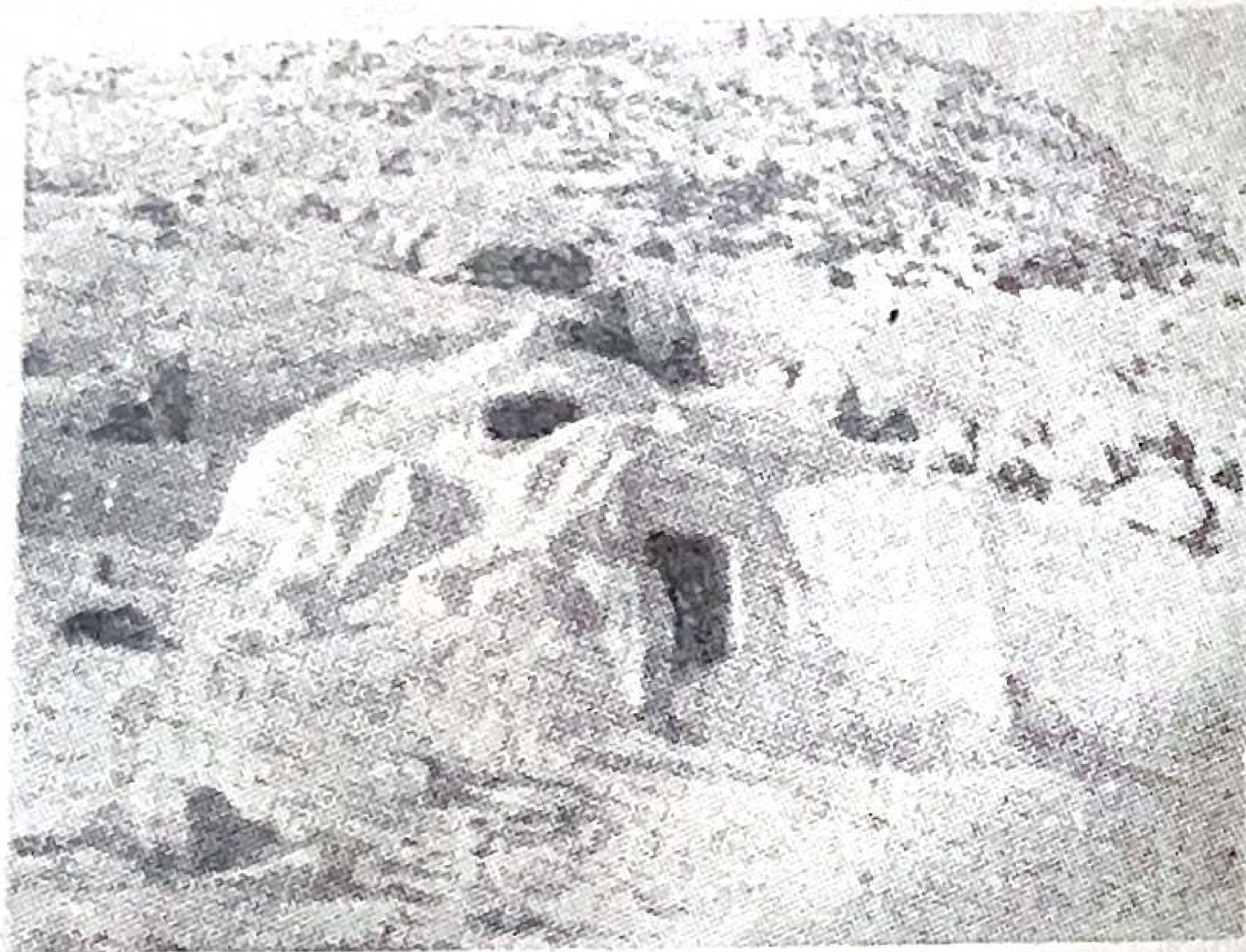
مسكنه ، فمنازلهم بيضية الشكل متسعة من الأمام وتضيق نحو الخلف ، ويندر أن تزيد على اثنى عشر قدما فى عشرة أقدام ، ولا يزيد ارتفاعها على القدر الذى يكفى لرجل متوسط الطول أن يقوم فيها واقفا . وتبنى



(شكل ٤٢)

قطاعان لمنزل الإسكيمو القطبى : A — مصطبة للنوم . B — مصطبة جانبية
C — مواقد من حجر الخفاف . D — أرضية من الحجر. EF — أحجار الحائط .
G — أعشاب . H — غرفة فوق المصطبة . I — صندوق اللحم .
K — سكين ربة المنزل . L — ضلفة من جلد الأمعاء . M — أوانى الطهى .
N — أحجار السقف . O — ثقب الهواء . P — إطار التجفيف .
R — غرفة تحت المصطبة .

الحيطان من الحجر وتستقر فوقها دعامات من الحجر فوقها طبقة من الأردواز ، وفوق كل هذا توضع طبقة أخرى من التربة وطبقة أخرى من الحجر . ويبلغ طول نفق الدخول نحو عشرة أقدام ويغطى بالحجارة والتربة، ويحمى مدخله حائط من الجليد . ويؤدى النفق إلى الغرفة الوحيدة عن طريق باب صغير يقل ارتفاعه عن قدمين . وتكاد أرض المسكن تصل فى ارتفاعها إلى مستوى سقف المدخل ، وترصف بالحجارة تغطيها طبقة من العشب والجلود ، وعلى جانبيها فى أقصى الداخل تقوم مصطبتان مرتفعتان ، كما يوجد فى واجهة المنزل وأعلى بابه نافذة صغيرة تطل على البحر .



(شكل ٤٣)

« إجلو » به نافذة من جلد الأمعاء

وتتركب النافذة من جلد تركب به قطعة من جلد الأمعاء فيها ثقب صغير للتطلع ، ولكى يصير الجلد ثابتا و يمنع دخول الهواء تثبت أطرافه تحت الحجارة والتربة فى الحائط وفى السقف . وتبطن الحيطان والسقف بالجلود ، بينما تتدلى الأدوات والممتلكات المنوعة من مشاجب من العظام. وتفرش المصطبة الخلفية بالطحالب اليابسة وجلود الدب ، وتستعمل لجلوس سكان المنزل ونومهم ، أما المصاطب الجانبية فتستعمل — كما هى الحال فى المساكن التى سبق الكلام عليها — للخزين ولوضع المواقد . والمساكن على العموم حسنة التهوية وهواؤها دائم التجدد ، فتتسرب الأدخنة والروائح عن طريق ثقب فى السقف أو ثقب التطلع ، ويدخل الهواء من النفق ويدفأ بمجرد وصوله إلى مستوى الموقدين وترتفع درجة الحرارة إلى حد يجعل السكان يخلعون بعض ما يلبسون .

والمنزل المقام من الجليد على شكل نصف كرة — المعروف باسم إجلو Igloo — والذى يبدو أن إسكيمو ألاسكا لم يعرفوه وأن إسكيمو دلتا نهر مكنزى وجرينلند كانوا يستعملونه فقط كمأوى مؤقت عندما يسافرون فى الشتاء ، كان هو النوع الوحيد الذى عرفه الإسكيمو الكنديون . ولإقامة هذا النوع من المسكن يقطعون كتل الجليد على شكل أسافين ، أى سميكة من أحد طرفيها ورقيقة من الطرف الآخر ، يقطعونها من ثلج شديد التماسك بسكين من العظام أو من العاج ، وترص هذه القطع على شكل

قبة ، وتوضع قطعة الجليد النهائية فوق فتحة المدخل بحيث تتدلى إلى الخارج ، وما يبقى فى النهاية من شقوق يسدونه بواسطة الثلج . ويزداد تماسك الجليد بعد فترة من استعماله ، لأن مايذوب من سطح الحوائط من الداخل سرعان ما يتماسك ثانيا ويتحول إلى جليد . وفى بعض المناطق يبطنون الكوخ بطبقة من جلود عجل البحر يشدونها بحبال مصنوعة من عصب الحيوان تمر من ثقوب فى الحيطان وتنتهى فى الخارج بعروة يمر فيها وتد ليمسك بها و يمنعها من الانفلات ، ويتركون بين الجلود و بين الحيطان مسافة كبيرة ليحول الهواء البارد فيها دون ذوبان الحيطان بسبب الهواء الدافئ فى داخل الكوخ . ويتركون نافذة يغطونها بالجليد أو بقطعة من جلد أمعاء الحيوان ، فوق مستوى النفق الذى يؤدى إلى مدخل الكوخ ، والذى يجعلون فى نهايته الخارجية حنية حادة تحول دون تسرب التيارات الهوائية الشديدة ، و يغلق باب النفق ليلا ، أو فى أى وقت شاءوا بقطعة من الجلد أو كتلة من الجليد . ويشبه نظام الكوخ من الداخل نظام الأنواع الأخرى التى سبق ذكرها ، ففى الجوانب توجد رفوف للخزين وللمواقد ، وفى الخلف توجد مصطبة النوم تغطيها الجلود والطحالب لتحول دون ذوبان الجليد الذى تتكون منه . وهذا الكوخ الجليدى الذى يؤوى فى العادة أسرتين يبلغ قطره من اثنى عشر قدما إلى خمسة عشر ، كما يبلغ ارتفاعه نحو تسعة أقدام أو عشرة ، و يستغرق بناؤه بعض الوقت ، لكن

المساكن المؤقتة التي يبلغ قطر أحدها ستة أقدام يمكن بناؤها فى ساعة واحدة . ويغلب أن يبنى عدد من هذه المساكن متجاورة ومتصلة بمرقص ، وهو مكان يستعمل للغناء وللعرض الذى يقوم به الشامان ، كما يستعمل للرقص .

ومهما كانت طبيعة المساكن الشتوية فإنها جميعاً تدفأ بطريقة واحدة هى طريقة المواقد ، والموقد هو « صينية » ضحلة مجوفة من حجر الخفاف أو من الصلصال كما هى الحال فى إقليم بحر بيرنج ، عليها صف من الفتائل مصنوعة من الطحلب أو من عشب القطن ، تتغذى بالزيت من شحم عجول البحر وغيرها من الثدييات البحرية أو من دهن السكاريبو . ويطهى الوطنيون الساحليون طعامهم فوق هذه المواقد فى قدور مصنوعة من الحجر المذكور ، أو من الفخار كما هى الحال فى ألاسكا . وفى فصل الصيف فقط ، من مايو إلى سبتمبر ، يستطيعون الاستغناء عن المواقد ، ويطهون طعامهم خارج الكوخ فوق نار موقدة من الخشب الذى تقذفه المياه ومن العشب والصفصاف القصيع وغيرها . وتولد النار بقدح قطعتين من حجر البيريت أو حك قطعتين من الخشب .

ومن الضرورى فى الأحوال الجوية السائدة أن تكون ملابسهم مما يبعث الدفء ، وهى تتخذ عادة من جلود السكاريبو لأنها أكثر دفئا وأخف حملا وأكثر طراوة من جلود عجول البحر . على أن لها عيباً واحدا

هو أن رطوبة الجو تذهب بما عليها من فراء ، ولذلك يحتفظ معظم الرجال بأردية من جلود عجول البحر يستعملونها فى الجو الرطب . وحيث لا يسهل الحصول على جلود السكاريبو — كما هى الحال فى شمال غرب جرينلند —



(شكل ٤٤)
فتاة من الإسكيمو ، من سكان سواحل خليج كورونيشن

يلبس الإسكيمو فى أوقات البرد القارس أردية من فراء الدب القطبى . وتصنع الأحذية والمراكيب من جلود عجول البحر ، وتصنع أولاهما فى الغالب من طبقتين من الجلد يحشى ما بينهما بالطحالب لتساعد على حفظ القدمين دافئتين . ولا تختلف ملابس الذكور فى شكلها عن ملابس الإناث ، وكذلك لا تختلف الملابس من مكان إلى آخر إلا قليلا فى أرجاء تلك المساحات الشاسعة التى يقطنها الإسكيمو . وليست ملابسهم مجرد دثارات يلتفون بها ، بل تفصّل تفصيلا وتخاط بعناية تامة كى تتناسب شكل الجسم وتسمح بحرية الحركة لأعضائه عند الرجال والنساء على السواء . وتخاط أجزاء الجلد بعضها إلى بعض بعناية بخيوط من العصب ، وتزين بشرائط رفيعة من الجلد أو من الفراء ملونة بألوان مختلفة . ومما هو جدير بالذكر هنا أن الإسكيمو هم الوحيدون من بين سكان أمريكا الشمالية الذين استعملوا الكشتبان . ولستراتهم التى تقفل من الأمام برانس يمكن رفعها فوق الرأس والأذنين ويستغنون بها عن لباس الرأس ، والواقع أنهم لا يلبسون شيئاً على رءوسهم إلا أثناء الرقص . وتقص السترة قصيرة من الأمام ، ولكنهم يتركون لها من الخلف ذيلا طويلا ينتفع به الصائدون والقانصون الذين يضطرهم عملهم إلى الجلوس أحيانا ساعات طويلة فوق الجليد ليراقبوا ثقوب عجول البحر . وتشبه سترة المرأة سترة الرجل شبها

كبيرا ، ولا فرق بينهما إلا فى ازدياد العرض عند الكتفين وكبر حجم البرنس .

وتحمل الأمهات صغارهن فى جيوب فى ظهر السترة ، وليست فى البرنس كما يقال أحيانا ، لأن ثقل الطفل قد يعرض الأم فى هذه الحالة للاختناق . ويتخذون من الفراء كفوفا يصنعونها بطريقة تجعل من السهل وصلها بأكمام ستراتهم ، ويلبس الرجال والنساء على السواء سراويل ، ولكن سروال المرأة يقل فى الطول قليلا عن سروال الرجل ؛ ويلبس الرجال جوارب (من الجلد) تصل إلى أطراف السروال وتغطى منه جزءا صغيرا ، وفى الصيف يلبسون أحذية فى مثل طول الجوارب ، ولكنهم فى الشتاء يستبدلون بها المراكيب (الأحذية الواطئة التى لا تصل إلا إلى العقبين) ، وتلبس النساء فى الشتاء مراكيب مماثلة ، ولكن جواربهن تشبه الأحذية الواسعة وتصل إلى الردفين ، وتشد إلى أحزمتهن بسيور من الجلد .

وللنساء فى إقليم خليج هدسن جيب واسع فى الجانب الخارجى من كل من الجوربين، ويلبسن فى الصيف أحذية تشبه جواربهن فى شكلها. وفى بعض المناطق يلبسن فى الشتاء رداء فوق آخر بحيث يكون فرو الرداء الداخلى ملاصقا للجسم ، وكثيرا ما يلبسن فوق كل ذلك رداء مانعا للماء

شبه شفاف مصنوعا من أمعاء القيطس ، ولا يزيد وزن جميع ما يلبس حتى فى الشتاء ، على خمسة أرطال ، وهى ملابس تعطى من الدفء ومن الراحة ما تعطيه ملابس من الصوف تعادل وزنها ضعفين . ويضع الإسكيمو على عيونهم فى الربيع وقاء من العاج به فتحة صغيرة مستطيلة لحمايتها من شدة الضياء المنعكس من الثلج والجليد .

ويتزين النساء بالوشم ، وطريقته هى إحداث غُرَز فى الجلد بخيط من عصب الحيوان مسوَّد بهباب الموقد ؛ وإذا كان الوشم على الخدين والذقن دل ذلك فى الغالب على أن المرأة متزوجة . وفى الأقاليم الغربية من ساحل المحيط المتجمد يتزين الشيوخ بقطع من الحجارة على شكل الأزرار تلبس فى ثقوب يثقبونها فى شفاههم أسفل جانبى الفم .

ويستعمل الإسكيمو الزلاقات فى السفر شتاء على الجليد والثلج ، وكذلك على التندرا المغطاة بالطحالب ؛ وتصنع الزلاقة من عظام الحوت أو عجل البحر أو من الخشب إذا تيسر الحصول عليه ؛ وتشد بعض أجزائها إلى بعض بسيور من الجلد تمر خلال ثقوب يثقبونها بخارز ؛ وتصنع زحافتاها الجانبيتان — البالغ طولها من خمسة أقدام إلى خمسة عشر قدما — من عظام الحوت أو عجل البحر أو من الخشب الذى قذفت به المياه ، وترتكزان على « نعلين » من أنياب الفقمة أو أنياب كركدن

البحر أو من العاج أو عظام الحوت ، ويضيفون إلى ذلك أحيانا « نعلين » من الجليد ، وذلك بدلكهما بالثلج . ولكن الجليد لا يلتصق دائما بالعظام ، ولذلك « ينعلون » الزحافتين بطبقة متجمدة من الطين أو الطحالب ، أو حتى من دم عجل البحر المتجمد ، وهى مواد يلتصق بها الجليد التصاقا تاما . ويبرز فى مؤخر الزلاقة عمودان بينهما وصلة مشدودة بسيور من الجلد ، وقد يستعاض عن هذه بأعواد من القرون . وتصنع الجرات والسرع من الجلود ، ويجر كل كلب مجرا منفردا يتصل بسرع يمر تحت أضلاعه الأمامية وحول صدره ، وينتشر فريق الكلاب أمام الزلاقة على شكل مروحة ويسير كل منها فى طريقه الخاص ، ويربط



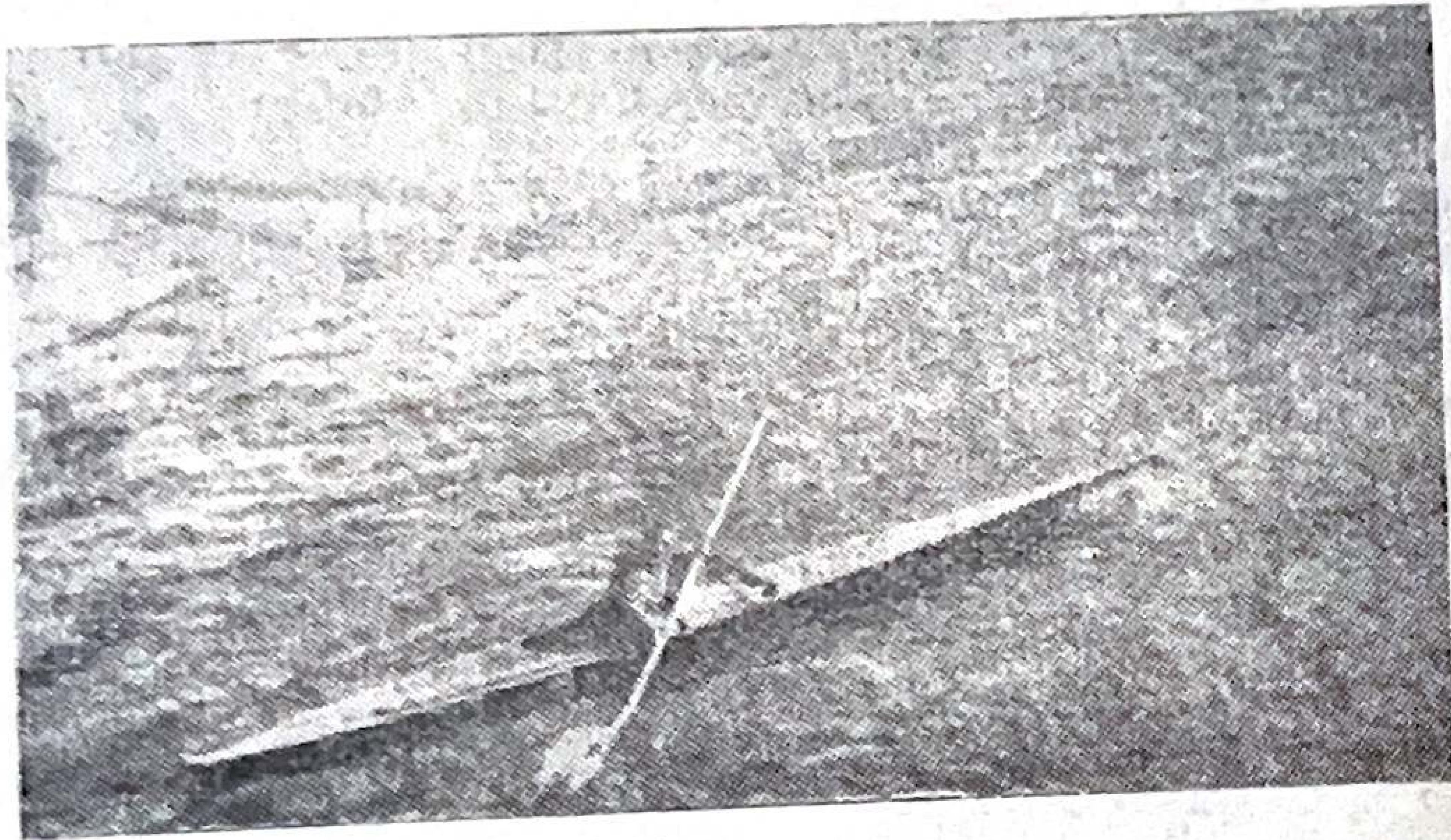
(شكل ٤٥)
الإسكيمو فى رحلتهم

أسرع الكلاب وأكثرها نشاطا إلى السرع الأطول ، وبذلك يتقدم سائر الكلاب ويكون لها بمثابة القائد . ويسير فريق الكلاب — ويبلغ فى عدده خمسة أو ستة — يدفعه إلى الأمام سوط السائق وصوته . ولا بد للكلاب أن تعرف قائدها ، فإذا لم تكن قد تعود بعضها بعضا أصبح من الصعب قيادها . وتمتاز كلاب الإسكيمو بالإخلاص الشديد لصاحبها وبصبرها العجيب ، ولكنها تبدى العداوة نحو فرق الكلاب الأخرى .

ومن المشاكل التى لا يجب أن تغيب عن بال الإسكيمو مشكلة إطعام الكلاب . ويستعمل الإسكيمو كذلك نعالا خاصة بالجليد عندما يسافرون فوق الثلوج .

ولا يستغنى الإسكيمو عن قاربه الجلدى — المسمى كاياك — فى الصيد فى الأنهار والبحيرات الساحلية . ويصنع هيكل الكاياك من الخشب أو عظام الحوت ، ويغطى بجلود عجول البحر بعد إزالة شعرها وخياطة بعضها ببعض بعناية . وفى الإقليم الواقع غرب خليج هدسن تغطى القوارب بجلود الكاريبو ، وتستعمل فى الأنهار أكثر مما تستعمل فى البحار . ولا يستعمل الإسكيمو القاطنون بين خليج كورونيشن **Coronation Gulf** والقطب المغناطيسى الكاياك فى صيد عجول البحر ، بينما لا يستطيع الإسكيمو القطبيون حول خليج سمث **Smith Sound** استعماله أكثر من شهرين اثنين كل سنة .

ويبلغ طول الكاياك نحو خمسة وعشرين قدما ، ويأخذ فى الضيق فى كلا اتجاهيه حتى ينتهى بنقطتين دقيقتين ، وله سطح من الجلد يغطيه تغطية تامة ، إلا من ثقب فى الوسط لا يزيد اتساعه على ما يسمح بوضع قدمى الإسكيمو الذى يحركه بمجداف طويل ذى حدين . وعلى سطح القارب



(شكل ٤٦)
كاياك الإسكيمو

سيور من الجلد مثبتة ليضع صاحبها تحتها أسلحته وليربط إليها ما يصيده من عجول البحر . والقارب خفيف سهل الحمل ، ولكنه فى يد الملاح الماهر يستطيع أن يمخر عباب البحر فى أمان تام . ولا ينفذ الماء إلى الثقب أبداً مادام ملاحه يلبس سترته المانعة للماء والتى يلفها حول رقبته لفاً محكما ويحبكها حول الثقب بعناية ، وحتى إذا حدث أن انقلب الكاياك فى

وسع راكبه أن يعيده إلى مكانه بحركة واحدة من مجدافه ، ويستطيع بعض الجرينلنديين أن يوجهوا القارب باستعمال الذراعين فقط وبغير حاجة إلى المجداف .

واليومياك (Umiak) أو قارب النساء — وسمى كذلك لأن النساء تسيره — مغطى كذلك بالجلود ، وهو متسع ومكشوف ويسير بمجدافين بدل المجداف ذى الحدين ، ولكن له بدل السكان مجدافاً صغيراً يوجهه .

ويستعمل بعض الجرينلنديين شراعا طويلا مصنوعا من شرائط من الجلد محيطة بعضها ببعض ، ولكن هذا قد يكون مأخوذاً عن النرويجيين .



(شكل ٤٧)

يومياك الإسكيمو ، أو قارب النساء الجلدى

ويستعمل اليومياك فى صيد الثدييات البحرية الكبيرة ، ويستعمل فى ألاسكا وجرينلند للنقل ، وهو معروف كذلك فى خليج هدسن ، ولكنه غير معروف فيما يلى ذلك الخليج غربا حتى خليج كورونيشن .

وللإسكيمو مهارة فنية وميكانيكية عظيمة ، فقبل معرفتهم الحديد كانوا يصنعون أطراف الحراب والسهام وحد السكين والمنشار والمثقب والمكشط من الحجارة كالصوان والكوارتز يشطفونها لا بالطرق بل بالضغط بأداة مصنوعة من القرن . وكانت سكاكين القنص ذات الحد الواحد أو الحدين تصنع من الإردواز . وقد استعمل الإسكيمو فى إقليم خليج كورونيشن النحاس المستخرج محليا فى صنع جميع الأدوات القاطعة ، واستعمل بعض الجرينلنديين الحديد ، ولكن المعدن فى كلتا الحالين كان يشكل بالطرق لا بالصهر . ومن أشهر أدواتهم التى كانوا وما زالوا يصنعونها المثقب ذو القوس (أداة للثقب تدار بواسطة قوس تتحرك بسرعة إلى الإمام وإلى الخلف) ويصنع قوس المثقب عادة من العظام أو من ناب الفقمة ، ويصنع وتره من العصب . وتمسك ساق المثقب فى وضع رأسى لا بالأيدى بل بالأسنان ، التى توضع بينها قطعة خاصة من الخشب — يمكن أن نسميها خشبة الفم — وفى الناحية السفلى من خشبة الفم ثقب صغير يوضع فيه طرف المثقب المزود بسنٍ من الحجر ، أو من خشب الصفصاف

اليابس إذا كان المراد توليد النار . وتدار القوس بيد واحدة إلى الأمام وإلى الخلف فتتحرك الساق ويؤدى المثقب عمله . وكثيراً ما تحفر على هذه المثاقب ذات الأقواس وعلى غيرها من الأدوات المنزلية مناظر تمثل حياة القارب وغيرها من المناظر ، وكذلك ترسم مثل تلك المناظر على المجاديف وغيرها من الأدوات الخشبية . ويبدى الإسكيمو كذلك مهارة كبيرة فى نحت الأدوات والنماذج من العاج أو من القرون ، ومن ذلك بعض أجزاء الحراب والسهام وأزاميل الجليد « ونعال » الزلاقات وسنانير الصيد وأيدى مختلف الأدوات و « نظارات » الضوء واللعب .

ورمح الإسكيمو من المبتكرات التى تدل على العبقرية ، وهو يختلف فى التركيب اختلافا يسيرا حسب الغرض المقصود منه ، ولكنه يتكون دائما من خمسة أجزاء ، فهناك ساق خشبية متينة طولها من أربعة أقدام إلى خمسة ، لها رأس من العاج تربط إليها بإحكام ، وتثبت فوق الساق قطعة من أنياب الفقمة — تسمى الساق الأمامية — طولها نحو ثلاثة أقدام تربط إلى الساق الأصلية بسيور من الجلد بحيث لا تكون ثابتة بل تدور فى زاوية صغيرة . أما رأس الرمح — وهى من العظام ولكن سلاحها من الحديد — فتوضع بحيث توافق الساق الأمامية . ووجه العبقرية فى هذا الرمح أن سلاحه يستدير فى لحم الفريسة عندما يصيبها فلا تستطيع الفرار ،

لأن هناك حبلا طويلا يمر خلال ثقوب فى جانب السلاح ويلف بإحكام حول ساق الرمح متجها إلى أسفل حتى يصل إلى كعبرة من العاج فى وسطه فيربط بها ربطا محكما ، بينما تتدلى بقية الحبل وتتكوم بجانب الصائد . وعند ما يستقر سلاح الرمح فى جسم الحيوان تطفو الساق فوق الماء، وبذلك لا تضيع على الصائد قطعة الخشب القيمة ؛ أما الحيوان الجريح فلا يزال الصائد يداعبه ويرخى له العنان إذا دعت الحال . وكثيراً ما تُعلق بالحبل كرات جلدية منفوخة وطوق مكسو بالجلد لتجعل حركة الحيوان فى الماء أكثر صعوبة وبذا تعجل بإجهاده .

وكذلك يهتمون بصنع الحراب الخاصة بصيد السمك والطيور ، ولديهم أداة خاصة يقذفون بها الرمح لتزيد قوة انطلاقه ، تسمى عصا القذف أو قاذفة الرمح ، وهى نفس الطريقة التى يستعملها سكان أستراليا الأصليون. وتستعمل الأقواس والسهام فى صيد الكاريبو وثور المُسك ، وتصنع القوس من ثلاث قطع من الخشب أو قرون الكاريبو تسمر وتربط بعضها إلى بعض بطرق شتى ، وتقوى بسيور من العصب تشد هيكلها الخارجى . وتمسك القوس فى وضع أفقى ؛ وهى لا تستعمل إلا فى الصيد من مسافة قصيرة . وتراش السهام وتصنع إبرها من العظم أو القرن أو الحديد .

ويستعمل بعض الإسكيمو فى صيد الطيور اختراعا عبقرى الابتكار

يشبه «البولا» التى يستعملها أهل بتاجونيا ، يتركب من سبعة أو ثمانية حبال من عصب الحيوان طول كل منها نحو ثلاثة أقدام تربط بعضها إلى بعض من طرف واحد ، بينما تثبت فى أطرافها الأخرى قطع ثقيلة من الحجارة أو من العاج. وقبل أن تصوب هذه الأداة إلى الطير تدار بسرعة فوق الأرض ، حتى إذا انطلقت من اليد بقيت محتفظة بحركتها الرحوية و بقيت الأثقال بعيدة بعضها عن بعض وأصبح قطر الإصابة نحو خمسة أقدام أو ستة . ويسقط الطير إذا أصابه أحد الأثقال أو « يتكعبل » فى الحبال .

ولا يعرف الإسكيمو إلا القليل جداً من صناعة السلال والفخار ، إلا فى بعض أنحاء ألاسكا ، وفيما عدا ذلك تحل حقائب من الجلد محل السلال والقدور .

ويبدى الإسكيمو عبقرية كبيرة فى صنع كثير من الأدوات مع ماالديهم من موارد محدودة ، ولهم مهارة عظيمة فى الحفر والنحت ، ولكن حياتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية لا تصل فى مستواها إلى مثل نظائرها لدى كثير من هنود أمريكا الشمالية . وقد ذكرنا فيما سبق أن الظروف التى تحيط بهم تضطرهم أن يقضوا معظم شهور السنة جماعات متفرقة قليلة العدد . والعائلة هنا هى الوحدة الاجتماعية الأساسية ، وهى تشمل الأب و زوجته أو زوجاته وأولادهم ومن يعولونهم . وتجتمع فى الشتاء كثير من

العائلات وتعيش فى مجتمع واحد ، ولكنهم لا يعترفون بزعيم عليهم ، على أن الرجل القدير أو ذا الشخصية القوية — لا سيما إذا كان من رجال الطب (شامان) — له شىء من النفوذ ، ولكن يندر أن يصدر لأحد أمرا بعمل شىء ، ولو أنه يرشدهم إلى أنسب وقت للارتحال أو الصيد .

وقد يكون «الشامان» رجلا أو امرأة ، يدعى القدرة — عن طريق اتصاله بالأرواح — على تعليل الكوارث والعلم بما يجرى فى الجهات البعيدة والتوسط بين الناس و بين عالم ما وراء الطبيعة ، وهم يقومون أحيانا بأعمال سحرية . وتختلف طرقهم فى علاج الأمراض باختلاف أسباب العلة فى رأيهم . وترجع العلة فى اعتقادهم البدائى إلى أعمال السحر أو إلى ارتكاب أمر تحرمه العقائد الدينية ، أو عداوة شخص ما ، أو إلى غضب الأرواح أو انفصال الروح عن الجسد . والواقع أن « الشامان » عند الإسكيمو هو الطبيب وهو رجل الدين .

والإسكيمو قوم محبون للنظام مسالمون فيهم بساطة وصراحة وأمانة ومرح ، ولكن يغلب على طبعهم التبذير وقلة الاكتراث ، وليس للغنى عندهم امتياز على الفقير ، وهم دائما على استعداد لأن يشركوا فى طعامهم أى إنسان ولو كان عدوا .

وتعدد الزوجات — وكذلك تعدد الأزواج — أمر غير منكر بينهم ،

فالرجل يحل له أن يتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك يحل للمرأة أن تتخذ أكثر من زوج فى وقت واحد . ويحدث فى أغلب الأحوال أن تعقد خطبة الأطفال وهم فى سن مبكرة ، ويتم الزواج دون أى احتفال ، ويقضى الزوجان عادة عامهما الأول بين أهل الزوجة . وللنساء بينهم منزلة محترمة ، وقد يرجع ذلك إلى أن المرأة هى التى تحيك الملابس، وهى ضرورة حيوية فى ذلك المناخ القارس . وواجب الرجال القيام بالصيد ، وهم يقضون وقتهم فى فصل الشتاء الطويل فى صنع أدوات جديدة أو فى تزيين أدواتهم القديمة أو فى الحفر على العاج . وعلى النساء القيام بشئون المنزل ودبغ الجلود وعمل الملابس والأغطية الجلدية للقوارب . ويبدى الآباء حباً شديداً لأبنائهم إذا بقوا على قيد الحياة ، وكان بعض الإسكيمو فيما مضى يقتلون كل بنت عند ولادتها ، وكانوا يقتلون بعض البنين أيضاً ، لأن الأم لا تستطيع أن تقوم على تربية كثير من الأطفال ، إذ عليها أن تقوم بإرضاع الطفل حولين أو يزيد . ومن بلغ منهم أرذل العمر وأحس أنه عالة على غيره كان يشنق نفسه ، ولم يكن ذلك العمل الجافى للإنسانية ناتجاً عن قسوة فى طبعهم ، ولكنه أمر دعت إليه مشقة الحصول على الطعام ، وحيث يندر القوت يشتد الإغراء بالإبقاء على أقل عدد ممكن من البطون التى تتطلب الإشباع .

ويصعب على الإسكيمو فى أغلب الأوقات أن يدفنوا موتاهم ، لأن تربة الأرض متجمدة دائما إلى عمق بضع بوصات ، ولذلك كان من عادتهم تغطية جثة الميت بقطع من الحجارة ، ولا يزيد إسكيمو الأقاليم الوسطى على تغطية الجثة بقطعة من الجلد . وتترك بجوار جثة الرجل أدوات صيده ، وبجوار جثة المرأة أدوات حياكتها ، وذلك لكى ينتفع بها كل منهما فى حياته المقبلة ، فإنهم يؤمنون بالآخرة . ويمتنع كل من كانت له صلة بالميت ، وكذلك الزوج والزوجة ، عن بعض أشياء يحرمونها على أنفسهم ، ولا يبالغون فى إظهار الحزن ولا يشوهون أجسامهم كعادة بعض الشعوب التى يتناولها هذا الكتاب .

ويغرم الإسكيمو بالرقص غراماً شديداً ، وفى بعض المناطق يلبسون أثناء حفلات الرقص أقنعة خاصة ، وكثيراً ما يقضون ليالى الشتاء الطويلة فى الولائم والرقص ، وهم لا يعرفون من الآلات الموسيقية غير آلة تشبه الدف .

ويعتقد الإسكيمو — كغيرهم من الشعوب البدائية — أنهم محاطون بعالم من الأرواح بعضها شريرة ، وبعضهم يرهب إلهة البحر وينسب إليها التحكم فى الأحوال الجوية وتنظيم رزقهم من محصول البحر .

وقد كان سكان جرينلند أول شعب من الإسكيمو اتصل بالأوروبيين ، فمنذ القرن العاشر إلى الخامس عشر كان بالجزيرة عدد

كبير من النورديين ، وتؤكد الأبحاث الأخيرة أن النورديين كانوا فى وقت من الأوقات يملكون مائة وتسعين مزرعة وكثيراً من الكنائس والأديرة ؛ ولكن لم يحل القرن السادس عشر إلا وكانت جميع المستعمرات النوردية قد اختفت ، على أنه قد حدث بين العنصرين بعض التزاوج ولذلك نجد القليل فقط من الجرينلنديين من دم إسكيمى خالص ، وكذلك حدث فى ثقافتهم بعض التغير .

أما إسكيمو لبرادور وشرق كندا فقد اتصلوا بالأوروبيين منذ مائتى سنة ، وكان ذلك غالباً عن طريق القانصين وصائدى الحوت والمبشرين . واتصل إسكيمو نهر مكنزى بالأوروبيين منذ مائة عام ، بينما لم يحدث الاتصال بين إسكيمو الأقاليم الوسطى والأوروبيين إلا فى القرن العشرين . وقد نتج عن هذا الاتصال بالأوروبيين أن قليلين جداً من الإسكيمو لا يزالون يحتفظون بثقافتهم الخاصة . وإن السرعة التى حدثت بها التغيرات لأمر يثير العجب حقاً ، فلم تمض على تأسيس العلاقات التجارية خمس سنوات حتى كان إسكيمو « النحاس الأحمر » قد تخلوا عن القوس والسهم واستعملوا البندقية، وتخلوا عن الأدوات المنزلية المصنوعة من الحجر واستعملوا قدوراً مصنوعة من الحديد ، واستبدلوا بالجلود الخيش (Canvas) فى عمل الخيام .

حياتهم حاليا

وقد نتجت عن اختلاط الإسكيمو بالأوروبيين تغيرات كثيرة ، فقد حلت البندقية محل الرمح ، والأدوات المنزلية المصنوعة من الصلب محل الأدوات المصنوعة من العظام ، وقدور الحديد والألومنيوم محل قدور الفخار والحجر ، وأحذية « ولنجتن » محل الأحذية الجلدية ، والمنازل المصنوعة من الخشب محل المنازل المصنوعة من الجليد والطين والحجر ، وحل الخيش (Canvas) محل الجلود فى عمل الخيام ، والملابس الصوفية محل الفراء ، والقوارب الكبيرة والصنادل البخارية محل الكاياك والبومياك ، وأصبحت فى متناول أيديهم مواد الترف كالشاى والسكر والطباق . والواقع أنه لولا البندقية والذخيرة لتعرض الإسكيمو للموت جوعا . ولولا الطباق والشاى لأصبحوا من البائسين . وقد اعتنق كثير منهم ديانة البيض المسيحية أو اعترفوا اسميا باعتناقها . وكثير منهم يستطيع القراءة . وقد تعلم إسكيمو لبرادور قراءة الحروف اللاتينية وأدخلوا إلى لغتهم — على أيدى المبشرين — عددا من الكلمات الإنجليزية والألمانية . ومن جهة أخرى تعلم إسكيمو الأقاليم الوسطى قراءة الحروف المقطعية . وهى طريقة عبقرية لقراءة الرموز ابتكرها أحد المبشرين فى أوائل القرن التاسع عشر .

ويشتغل الإسكيمو بالقنص كى يحصلوا على الجلود ، ولا سيما جلود الثعلب الأبيض كى يبيعوها لتجار الجلود من البيض ويحصلوا فى مقابلها

على بضائع الرجل الأبيض . ولا يقوم بالصيد فى الشتاء على مقياس كبير إلا قليل من الإسكيمو . فنى جنوب جرينلند مثلا أخذ صيد السمك ولا سيما الهلبوت (Hallibut) يحل شيئاً فشيئاً محل صيد عجل البحر .

وقد كتب و . ﻫ . ب . هور عن إسكيمو نهر ماكنزى فقال :

« الإسكيمو قوم ماهرون فى التجارة ولهم قدرة على عقد الصفقات الرابحة ، وكان من أثر ذلك أن أصبحوا أثرياء ، ولم يعودوا أولئك المتوحشين الذين يقطنون فى الشتاء أكواخا من الثلج ، ويضطرون إلى استخلاص القليل الذى يقيم الأود بالصراع العنيف ضد قوى الطبيعة ، فقد اختفت الأكواخ الثلجية وحلت محلها منازل شتوية تتوفر فيها أسباب الراحة وتبنى من كتل الخشب ، وفى كثير من الحالات تغطى حيطانها بالألواح .

ويدخل فى غذائهم الآن الدقيق الفاخر والسكر والزبد والمربى والفواكه المحفوظة وغيرها من مواد الترف ، وصاروا يقضون لياليهم فى سمر وسرور ينصتون إلى الموسيقى الجميلة تنبعث من الجراموفون الفاخر وجهاز الراديو . وحلت سرر النحاس والحديد محل الفراش العائلى المتخذ من أكوام الجلود ، وساعدت آلات الخياطة الحديثة على تسهيل الأعباء الملقاة على عاتق النساء .

ويسكن بعضهم فى الصيف مراكب بخارية سريعة تمخر عباب دلتا

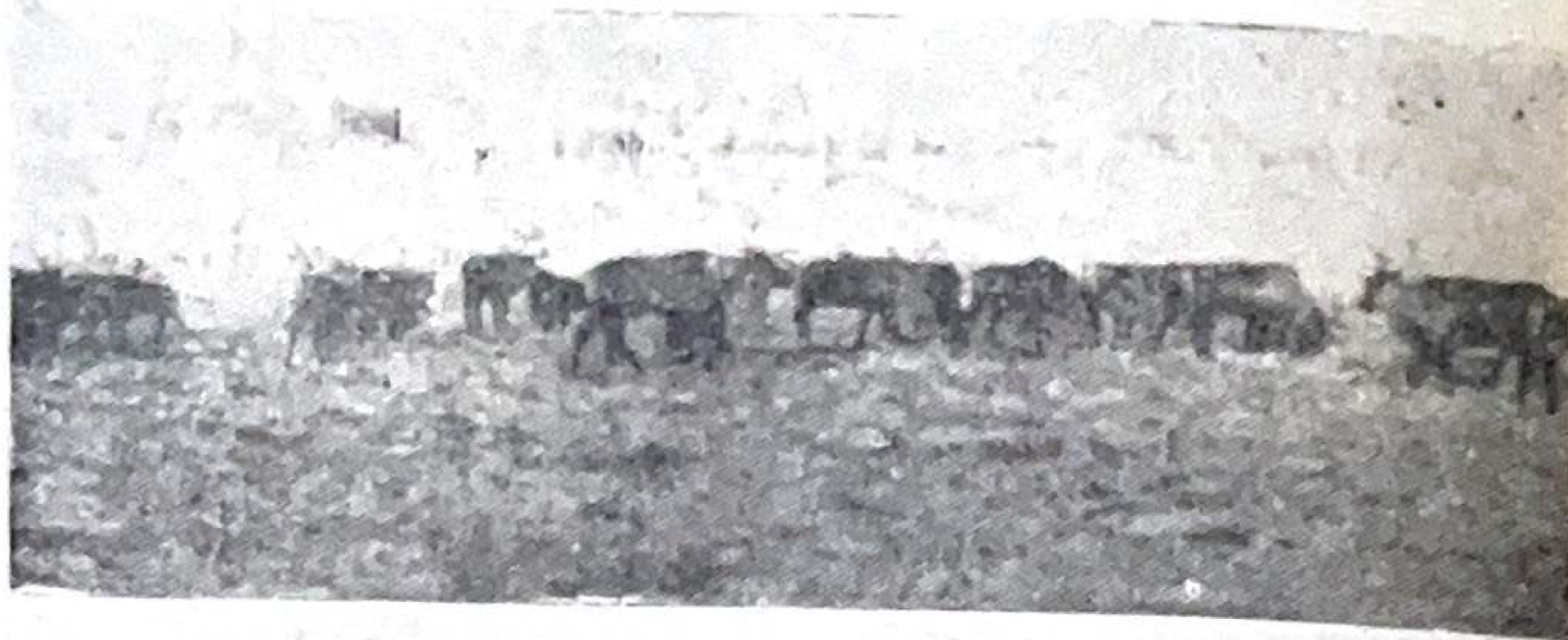
الماكنزى ، أو تسير بحذاء ساحل البحر للبحث عن الحيوانات البحرية أو لزيارة مراكز التجارة . وشاع استعمال آلات التصوير والساعات والزجاجات الحافظة للحرارة وأمواس الأمان والبنادق البعيدة المدى وكثير غير هذه من مستحدثات الحضارة الحديثة . ويستطيع جميع هؤلاء الإسكيمو تقريبا قراءة لغتهم ، ويعرف معظمهم قدرا كافيا من الإنجليزية » .

ولكن هذه التغيرات لم تكن كلها خيرا محضا ، فإن دخول الأسلحة النارية قد زاد من سرعـــة القضاء على الحيوان ولا سيما عجل البحر والكاريبو وثور المسك ، ونتج عن ذلك ازدياد صعوبة الحصول على الطعام وعلى الجلود الصالحة للملبس . صحيح أن كثيرين منهم يحصلون من التجار على الملابس الصوفية ، ولكن هذه الملابس لا تدانى فراء الحيوان لا فى دفئها ولا فى جمال شكلها . والواقع أنه قد قيل إن الإسكيمو يحصلون فى الوقت الحاضر على قدر من الدفء ومن التغذية يقل عما كانوا يحصلون عليه أيام عزلتهم ، ومن المشكوك فيه كثيرا ما إذا كان من الخير أن يعيش الإسكيمو فى منازل خشبية ، فإن ذلك من شأنه تشجيعهم على التخلى عن حياة الصيد .

وقد جلب الأوروبيون فى أعقابهم عددا من الأمراض من أهمها الجدرى والإنفلونزا والحصبة والتيفوس والسل الرئوى ، وقد قضت هذه

الأمراض على عدد كبير من الإسكيمو ، ففى عامى ١٧٣٤ و ١٧٣٥ مات بالجدرى ألفان من أهل جرينلند ، وفى ١٩٠٢ قضى التيفوس على أهل جزيرة سونمبتن جميعا ما عدا طفلين اثنين ؛ وحتى فى الوقت الحاضر يموت ٥٠٪ من أهل جاكوبزهافن Jacobshaven فى جرينلند بالسل الرئوى.

ومن حسن الحظ أن الدول الأربع التى تحكم الأقاليم التى تسكنها تلك الشعوب ، وهى دانمرك وكندا والولايات المتحدة ونيوفوندلند ، كلها تحرم بيع المشروبات الروحية للإسكيمو . ثم إن هـذه الدول جميعا تبذل كل ما فى وسعها لخير الإسكيمو من حيث توفير الخدمات الطبية والمحافظة على حيوان الصيد وإدخال الرنة المستأنسة . فمنذ بضع سنين أدخلت الرنة إلى لبرادور وألاسكا ، وبعد ذلك أدخلت إلى كندا منذ سنوات قليلة (١٩٣٥) . وقد استغرق القطيع الذى اشترى فى ألاسكا أكثر من خمس سنين فى قطع مسافة ١٦٠٠ ميل حول شمال ألاسكا الغربي إلى محلة تقع على الشاطىء الغربى لنهر ماكنزى مساحتها ٦٦٠٠ ميل مربع . وسوف تؤدى تربية الرنة المستأنسة إلى أن يتحول الإسكيمو من حياة الصيد إلى حياة الرعى . وكذلك تقوم شركة خليج هدسن بنشر صناعات جديدة بين الإسكيمو بالقرب من المحطات التجارية . وفى جرينلند أخذ عدد السكان فى الازدياد بفضل رعاية الحكومة الدنمركية .



(شكل ٤٨)

قطيع من الرنة

ومما لا شك فيه أن الإسكيمو لا يسيرون إلى زوال ، وأن لغتهم وتقاليدهم ستظل باقية ، ولكن كثيرا من ثقافتهم سوف يصبح بعد زمن وجيز أثرا من الآثار ، ولن يبقى لها وجود إلا فى أطلال المنازل والمقابر أو فى المتاحف .

القسم الثالث

المشتغلون بالزراعة

الفصل العاشر

الزراع البدائيون فى آمازونيا

من المتبع بين جماعات القناصين أن تقوم النساء بجمع الفواكه والجذور الصالحة للغذاء ، وهو عمل فى العادة شاق و يستلزم التجول فى مساحات واسعة ، فإذا كان ما يصلح منه للجمع محدود القدر كان جمعه منهكا غاية الإنهاك . ومن الواضح أنه لو أنشئت حول كل مسكن حديقة صغيرة لأمكن توفير كثير من ذلك الجهد ، ولم يحدث هذا إلا لأن امرأة قد استطاعت بقوة الملاحظة أن تكشف الطريقة التى تتكاثر بها النباتات .

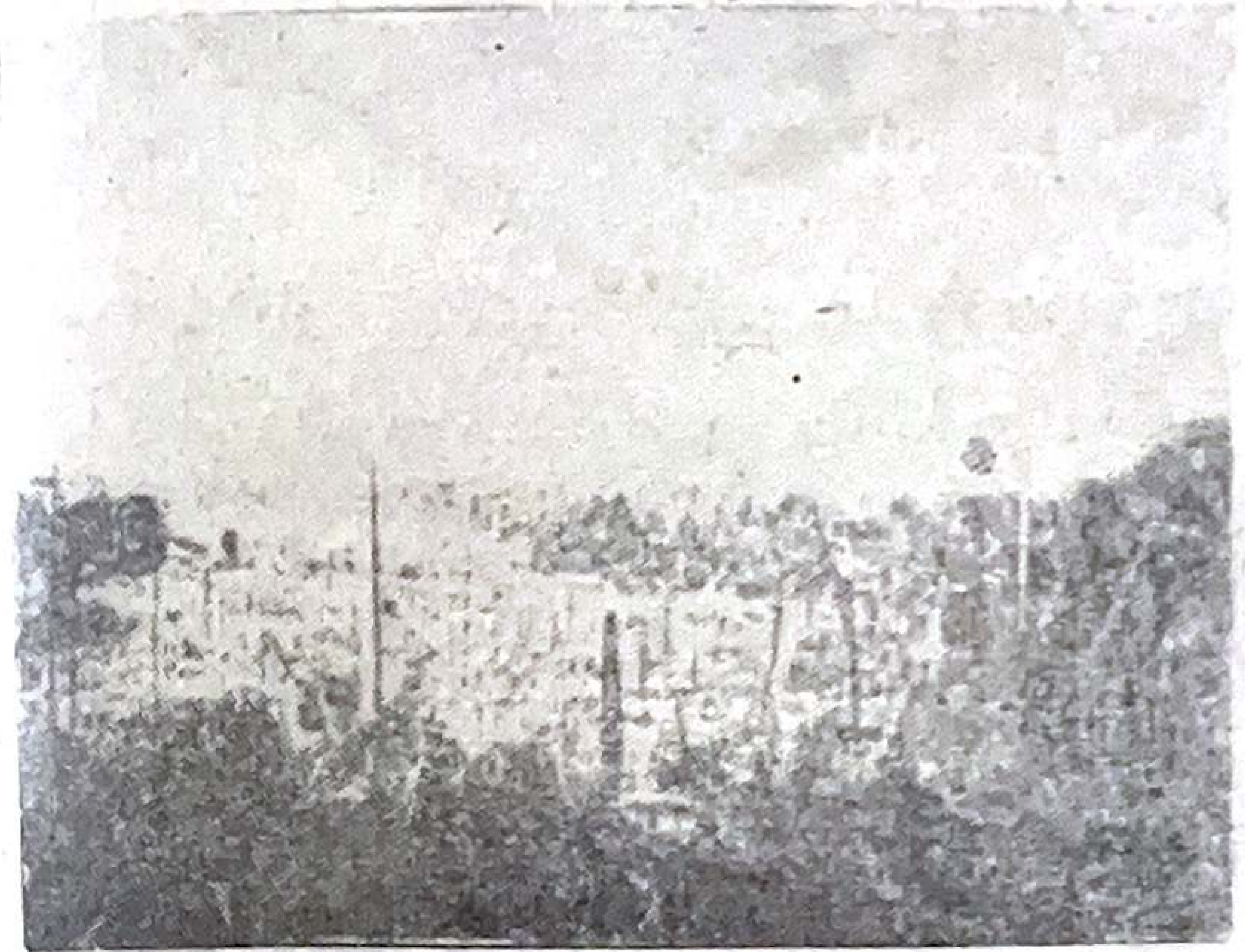
ولا ريب أن طريقة نمو بعض النباتات قد ساعدت على الوصول إلى ذلك ؛ فنى البطاطا مثلا تنمو جذور جديدة عند كل عقدة من العقد العديدة التى فى سيقانها بمجرد ملامستها للتربة ، و بذلك يتكون فى النبات الواحد نحو

أربعين أو خمسين عيناً جديدة تصلح للغرس . على أن عملية جمع الجذور فى ذاتها خطوة فى سبيل معرفة طريقة الغرس ، فإن عملية الغرس لا تكاد تختلف عن عملية الاقتلاع ، وكذلك الأداة الواحدة — وهى عصا تعرضت للنار لتزداد صلابتها — يمكن استعمالها فى حالتى الزرع والاقتلاع على السواء .

ولما كان العثور على الصيد فى أمازونيا غير مضمون ونتاجه قليلا ، وجمع الفواكه البرية غير ميسور ، كان من حسن الحظ وجود نبات المانيوق البرى ذى الأنواع العديدة التى تصل إلى الأربعين . والمانيوق شجيرة تنتمى إلى فصيلة اليوفوربيا التى تبلغ درناتها غاية نموها بعد السنة الأولى من عمرها ، وهذه الدرنات ذات شكل بيضى غير منتظم وتحتوى على مادة نشوية بها عصير سام إلى حد ما .

ويتكاثر النبات بالانقسام ، بينما زراعته ميسورة ومحصوله وفير يعوض مايبذل فى زراعته من جهد . وعند ما وصل الأوروبيون الأوائل إلى القارة الأمريكية كان هنود البرازيل وجيانا والهند الغربية والأجزاء الحارة من المكسيك يزرعون المانيوق و يتخذون من جذوره — حتى السامة منها — غذاء . وكانت الأنواع التى يزرعونها كثيرة ، مما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم قد عرفوا زراعتها قبل ذلك بزمن طويل .

ولا يزال جميع هنود الأمزون يزرعون للمانيوق ، ويقوم الرجال منهم بما تتطلبه زراعته من عمل شاق كقطع أشجار الغابة وتجهيز أرضها البكر للزراعة . وتقع كل قطعة تجهز للزراعة — خلا القطعة الواسعة الخاصة



(شكل ٤٩)

غابة أزال الهنود أشجارها بحرقها تمهيداً لزرعها

بالزعيم — على بعد من المسكن ، وهم يقطعون صغار الأشجار ببلطة من الحجر ، ويقضون على كبارها بالحريق .

والبلطة عند القبائل القاطنة على مقربة من الچاپورا قطعة من الحجر على شكل إسفين ، طرفها مستدير فيه قرب رأسه أخدود تثبت فيه يد غليظة من أغصان الشجر بالألياف والقطران .

أما بقايا جذوع الأشجار التى قطعت على ارتفاع نحو أربعة أقدام من سطح الأرض فسرعان ما تتحلل أو تقضى عليها جيوش النمل ، بينما تشمل النار فى الأغصان عندما تجف إلى درجة تسمح باحتراقها . وبعد أن يقوم الرجال بتجهيز التربة بواسطة عصى الحفر وما شابهها ، يقوم النساء بما يلى ذلك من الأعمال .

وليس ، هناك شبه بين القراح [1] وبين ما نسميه نحن حديقة ، فإن القراح غير مستوى السطح تتناثر فيه هنا وهناك جذوع الأشجار المحترقة كما تملؤه المواد المتفحمة المتخلفة عن الحريق . وعلى النبات الجديد أن يفسح لنفسه مكاناً بين كل هذا ، وأن يشق خلاله طريقه إلى الهواء ، كما أن عليه أن يتغلب على النباتات البرية التى تعود بسرعة إلى النمو ، بينما تغير على القراح من جميع الجوانب النباتات الزاحفة وغيرها .

ولا تزيد الأدوات التى تستعملها المرأة الزارعة على قطعة من الخشب على شكل إسفين ، تستعمله فى الحفر وفى التسوية والعزق . وتتوجه المرأة كل صباح إلى القراح ، حيث تقضى النهار كله فى غرس نبات جديد أو رعاية نبات نام أو اقتلاع الأعشاب أو فى الحصد ، إذا كان بعض المحصول قد آن

(١) القراح هو الأرض التى قطعت منها الأشجار والأعشاب تمهيداً لإعدادها للزراعة .

حصاده ، ثم تعود إلى مسكنها فى آخر النهار وهى تحمل على ظهرها سلة ملأتها بالحصيد ، وشدتها برباط طويل يمر من خلف ظهرها إلى ما فوق جبينها . ويقع موسم الغرس عادة فى الفصل المطير ، ولكن ليس هناك موسم حصاد محدد فإن الحاصلات تنضج فى جميع فصول السنة .

وأهم محصول عندهم هو المانيوق الذى يصنعون من جذوره طعام الكاسافا (Cassava) . وجذور أنواعه المستأنسة أكبر كثيرا من جذور الأنواع البرية ، وهو يزرع فى يوليه وأغسطس ، فبعد أن تخطط الأرض توضع عقد المانيوق فى حفر صغيرة فى قلب الخط ، وبعد نحو ثمانية أشهر تصبح الجذور صالحة للحصاد . أما الدرنات التى تغذى الجذور فإنها تستمر فى النمو عدة مواسم زراعية . ويتراوح وزن الواحدة منها من نصف رطل إلى عدة أرطال . وهم يزرعون أيضا أنواعاً أخرى من النباتات الدرنية كالصرغم والبطاطا ، ولكن ما يزرع منها يقل كثيراً عما يزرع من المانيوق ، كما أن الفلفل والبقول والأناناس وبعض أشجار الفاكهة والبطيخ نصف البرى لا تخلو منها حديقة . وتزرع قبائل الوتوتو Witoto قليلا من قصب السكر ، ويزرع الهنود القاطنون بين نهرى جابورا Japura وإسا Issa قليلا من الأذرة أيضا ، مع أن غيرهم من هنود الأمزون يزرعون منها الكثير .

وهناك مخدران يزرعهما هنود الأمزون بكثرة ، هما الكوكا والطباق . وليست زراعة الكوكا بالأمر السهل ، فإنها تحتاج إلى كثير من الرعاية فى أطوار نموها الأولى ، وتزرع حبوبها عندما تبدأ الأمطار الغزيرة فى السقوط ، فإذا بذلت للنباتات الصغيرة الرعاية الكافية أصبحت بعد فترة شجيرات غليظة يتراوح ارتفاعها بين خمسة أقدام وستة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من غرسها تبدأ فى إخراج ثمارها المخدرة ، وتظل تثمر نحو ثلاثين سنة أو أربعين . والرجال هم الذين يقومون بزراعة الكوكا ، وهم الذين يقومون على رعايتها ، لأن النساء يحرم عليهن لمس المخدر . ولكن النساء يقمن من جهة أخرى بزراعة الطباق وإعداده ، مع أن استعماله محرم عليهن .

وقد عرفت الكوكا منذ زمن بعيد بين الهنود الذين يقطنون الأنديز ، ومنهم انتشر استعمالها شرقا إلى القبائل التى تقطن غرب الأمزون . وهم يستخلصون المادة المخدرة المعروفة باسم الكوكايين من أوراق الكوكا الخضراء ، بتجفيفها على النار ثم طحنها فى هاون من جذوع بعض الأشجار بعد خلطها بالطين المحروق وأوراق الكاسافا وقليل من الجير يحصلون عليه من سعف النخيل المحترق ، وبعد أن تتحول كلها إلى مسحوق ناعم يحملونه فى كيس حول العنق . ويأخذ أحدهم بعض هذا المسحوق ويضعه

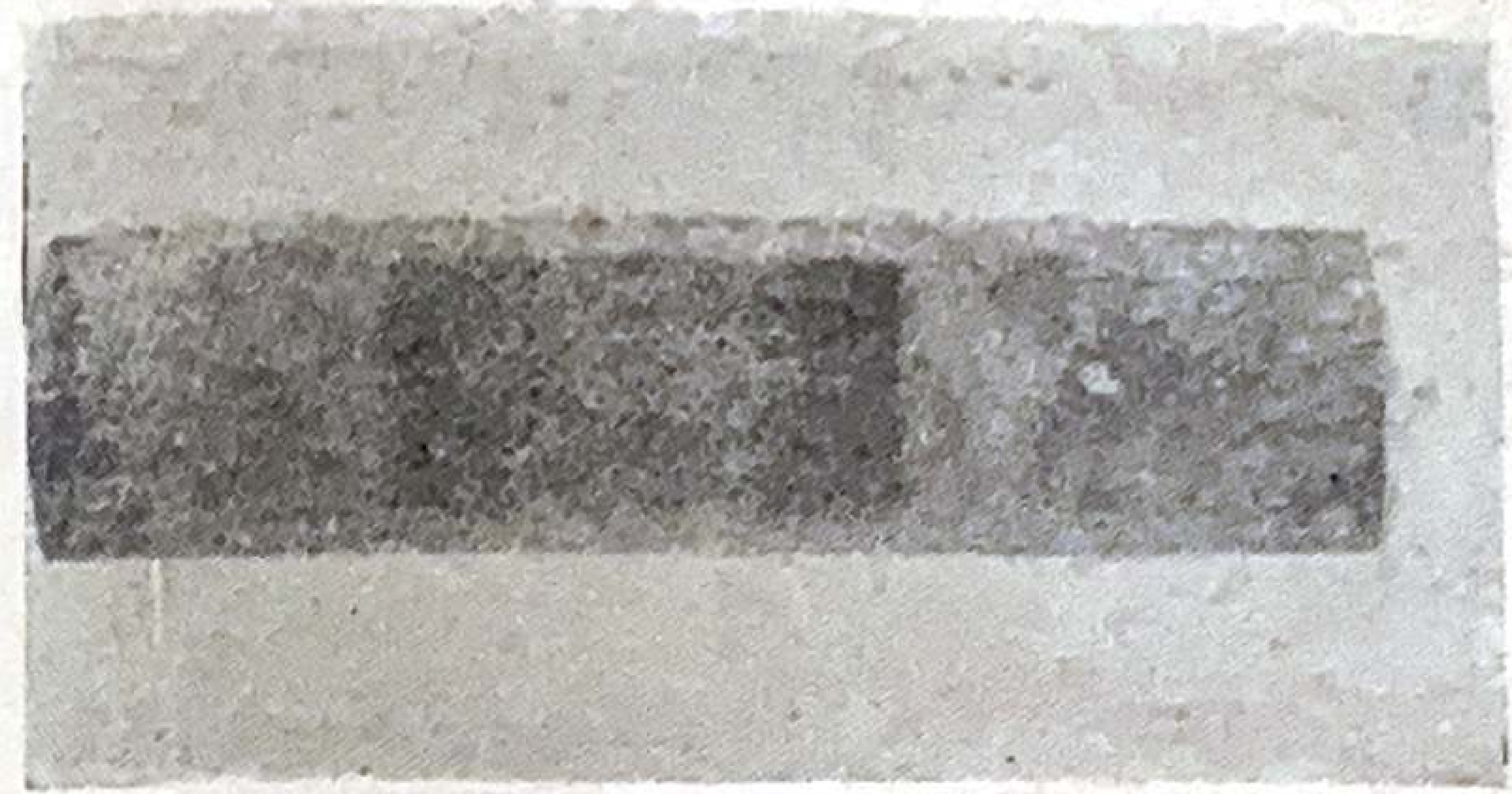
فى ورقة مثناة ثم يقذف به إلى فمه ، وعندما يختلط باللعاب يتحول إلى كرة صلبة تظل بالفم . ويتسرب منها الكوكايين بالتدريج إلى اللعاب . ويستطيع الهندى إذا احتفظ بكرة من هذا المسحوق فى شدقه أن يظل عدة أيام بغير نوم ولا طعام ولا شراب .

أما عادة تدخين التبغ فإنها غير معروفة لدى الهنود الذين يقطنون حول جابورا ، ولكنهم بدل أن يدخنوه يصنعون منه عجينة يلحسونها ، وتنقع أوراق الطباق ثم تدق فى هاون ثم يضاف إليها قليل من نشاء الكاسافا ، فيتحول المخلوط إلى سائل أسود يابس ، ويحفظ هذا المعجون الأسود فى إناء يصنع عادة من قشر البندق بعد أن يخرقوا فى أعلاه فتحة يدخلون فيها عصا يلحسون ما يعلق بها من قطرات .

وهم يتناولون الطباق فرادى أو فى جماعات ، ففى أثناء الاجتماعات التى تعقدها القبيلة لتناقش فيها أموراً تتعلق بالمصلحة العامة أو لتعقد صلحاً بين المتخاصمين ، تمر آنية الطباق على المجتمعين قبل كل قرار يتخذونه ، ومن كان موافقا على رأى المتكلم غمس فى الإناء عودا ثم لحسه ، أما الذين لا يوافقون فإنهم يدعون الإناء يمر دون أن يذوقوه ، وعلى هؤلاء أن يدلوا بالأسباب التى حملتهم على المخالفة ، ويستمر هذا حتى ينتهى جميع المخالفين من شرح وجهة نظرهم ، وينتهى الأمر بالموافقة على الرأى الذى حاز

رضاء الأغلبية ، فإذا تساوت الأصوات رجحت الكفة التى يؤيدها الزعيم . ومن عاداتهم أن يغمس المتنازعون أعوادهم بعضهم فى أوانى البعض توكيداً للاتفاق بين الأفراد والتزامهم به .

ولا يستعمل المانيوق السكرى إلا قليلا مع أنه ينمو بحالة برية ، وأشهر ما يزرعون من أنواعه نوع يسمى Manihot utilissima ، ولكن جذور هذا النوع تحوى حامض سيانور الحديد الذى يجب التخلص منه كى يصير صالحا للطعام . وطريقة تحضير الجذور للطعام أن تقشر بسكين خشبية أو مكشطة حادة بعد أن تقوم النساء بغسلها فى طريق عودتهن إلى المنزل ، على أنهن أحيانا يستعملن أسنانهن فى تقشير الثمرات ، ولكنهن حينئذ يأخذن أشد الحذر كى لا يصل إلى جوفهن شىء من العصارة السامة ، ثم تغسل الجذور مرة أخرى بعد تقشيرها فتصبح بيضاء اللون ، ثم تقطع إلى شرائح وتنقع فى إناء مدة أربع وعشرين ساعة ، حتى إذا لانت لينا كافيا أضيفت إليها قطعة من المانيوق المتعفن تزيد من سرعة تخمرها ، وبعد ذلك تؤخذ الجذور وتكشط بواسطة مبشرة أحد طرفيها فى حوض وطرفها الآخر يرتكز على ركبتى امرأة . والمبشرة فى هذا الإقليم الخالى من الحجارة لوح بيضى الشكل مملوء بأشواك النخيل تثبت فيه وتبرز منه أطرافها ، أما فى شرق أمازونيا فإن اللوح تثبت فيه شظف حادة من الحجارة ، وتوضع

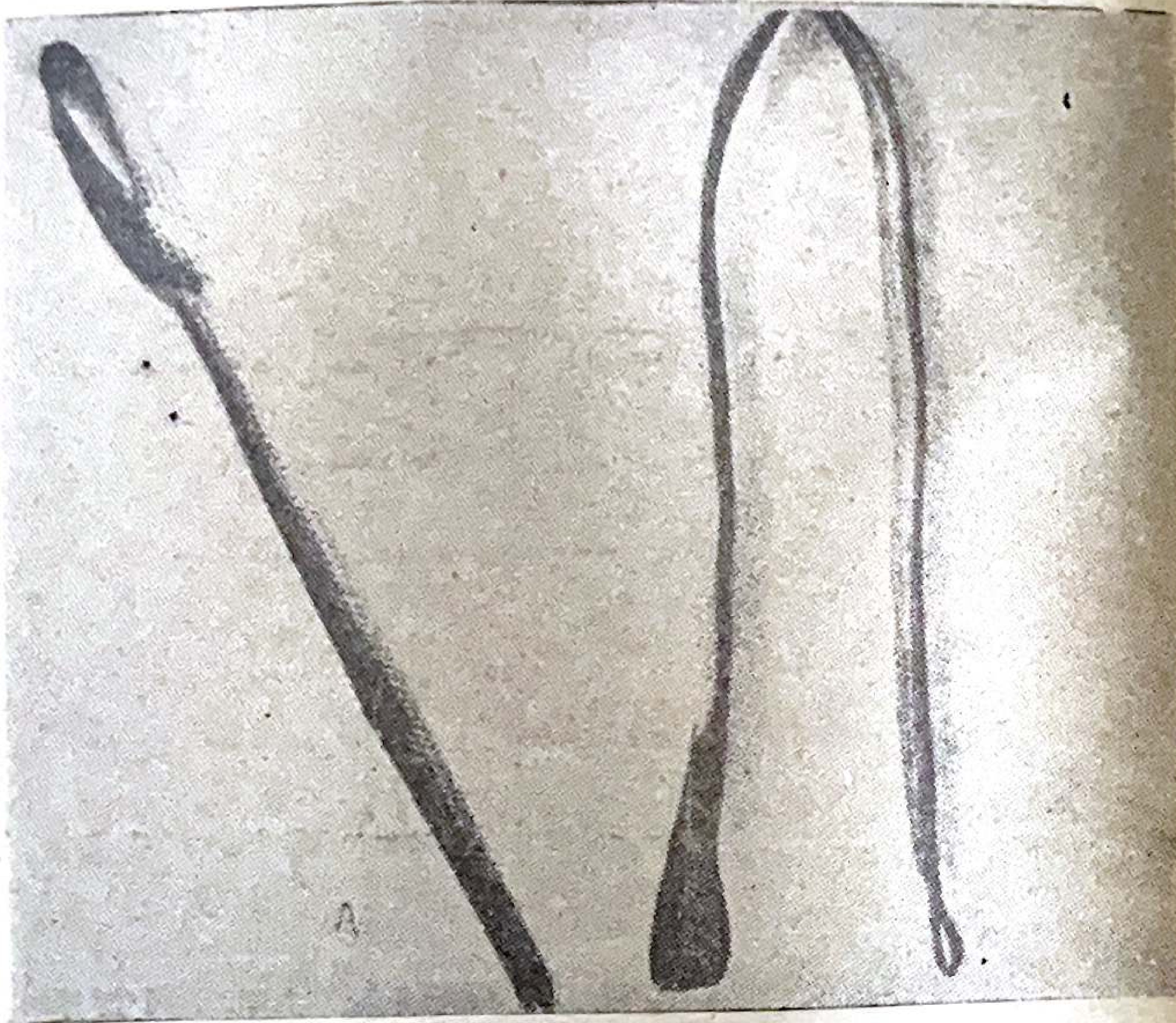


(شكل ٥٠)

مبشرة المانيوق

المادة المهروسة فى أسطوانات من لحاء النخيل المثنى ، فإذا حدث مايدعو إلى زيادة طول الأسطوانة ازدادت ضيقا وضغطت على المادة التى بداخلها فتتسرب منها العصارة جميعا . وطريقة إطالة الأسطوانة كى تضيق وتعصر العجينة التى بداخلها ،هى أن يعلق أحد طرفيها على وتد وتجلس إحدى النساء على عصا غليظة تمر فى حلقة فى الطرف الآخر ،وتضغط المرأة بكل قوتها فتعصر المادة السامة كلها وتتسرب إلى الخارج . ولقبائل الوتوتو Witoto طريقة أخرى للتخلص من المادة السامة ، فهم يأتون بالعجينة المهروسة ويلفون حولها بطريقة حلزونية نسيجاً شبكيا من ألياف النخيل ، ثم يبرمون هذا النسيج باستعمال عصا مربوطة بأحد طرفيه فيحدث الضغط الذى يخلص العجينة من العصارة السامة . وبعد ذلك

تؤخذ العجينة وتجفف تجفيفاً تاماً، ثم تضغط باليد وتمرر خلال غربال ويلقى بعيداً بما يتخلف عنها من مادة خشنة، ثم يؤخذ المسحوق ويحمى عليه فوق لوح من الفخار ، مع تقليبه مراراً للتخلص مما قد يكون عالقا به من مواد سامة سريعة التبخر . ويعجن الدقيق الناتج من ذلك بالماء ويوضع فى إناء



(شكل ٥١)

أداة عصر الكاساقا

من الفخار فوق نار مكشوفة ، فيتحول إلى كعكة جلدية القوام من خبز الكاسافا الذى لم يختمر والذى لايسمح للونه أبداً بالاحمرار . ومن الممكن أيضاً تناول أوراق شجيرة المانيوق ، فهى تغلى حتى تصير لينة ثم تطحن جيداً وتطبخ مع مايتيسر الحصول عليه من أسماك أو ديدان أو ضفادع أو توابل لتكتسب نكهة ، ويؤكل هذا المخلوط مع خبز الكاسافا واللحم .

والكاسافا هو غذاء الهنود الأساسى ، ومن مستلزماته قدور البهار أو القدور الساخنة التى يوضع فيها جميع السمك واللحوم ، وهم يحتفظون بالقدور دائماً جياشة فوق النار لاينفد منها الطعام أبداً ، بل يضيفون إليها كلما دعت الحال شيئا مما يحصلون عليه من الصيد ، ويقوم الرجال على العموم بالحصول على الغذاء الحيوانى ، وتقوم النساء بالحصول على النبات .

والمنطقة المحصورة بين نهر جابورا ونهر إسا Issa تقع بين خط الاستواء وخط العرض ٢° جنوبا و بين خطى ٧١° و ٧٥° غربا ، وفى هذه المنطقة نرى السهول التى تغمرها مياه الأمزون أثناء فيضانه ترتفع ارتفاعا تدريجياً غير محسوس نحو سفوح الأنديز المرتفعة، وتعترض أنهارها المساقط أحيانا ، ولكن الأرض مازالت أعلى من مستوى البحر بما لايزيد

على بضع مئات من الأقدام ، ومدى الحرارة بها قليل ولكنها دائما عالية ، و يندر أن تزيد على ٩٠° ف أو تقل عن ٧٠° ف ، بينما يتراوح معدلها الذى لا يختلف إلا قليلا من شهر إلى شهر بين ٨٠° ف و٨٥° ف ، على أن التيارات الباردة والعواصف المتوالية والتبخر الشديد تلطف من درجة حرارتها نوعاً .

وتسقط الأمطار غزيرة فى هذا الإقليم ، ولا يمضى يوم دون أن ينهمر المطر مدراراً فى الصباح وفى وقت العصر ، ولا يتساءل الناس هنا إلى متى يظل المطر فى السقوط ، ولكن السؤال الذى يدور على ألسنتهم دائماً هو متى تنتهى فترة المطر وتحل فترة الصحو ، فإن الجفاف هنا جفاف بالاسم فقط ، وهو إنما يعتبر كذلك إذا قورن بالفصل الأكثر أمطاراً الذى يمتد من نوفمبر إلى مايو . و يسقط الندى أثناء الليل كالمطر ، بينما تخيم الشابورة فوق الأنهار فى الصباح الباكر وفى المساء على السواء ؛ أى أن الجفاف لا وجود له على الإطلاق .

وقد كانت الحرارة الشديدة المقترنة بالرطوبة وبالتربة السوداء الخصبة الغرينية التى تتكون من الطمى النهرى ومن النباتات المتحللة ، والتى يبلغ سمكها بضعة أقدام لا تتخللها صخور مطلقاً ، من الأسباب التى جعلت الأرض تتغطى بالنباتات الاستوائية الكثيفة ذات النمو القوى التى يوجد

منها ما يربو على عشرين ألفا من مختلف الأنواع ، فهناك الأشجار الضخمة المغطاة جذوعها بالطحالب والطفيليات ترفع هاماتها فوق طبقة كثيفة من شجيرات ومن نخيل بعضها ذو أشواك يبلغ طول الواحدة منها ست بوصات ، بينما النباتات المتسلقة التى يتراوح حجم سيقانهـا من حبال غليظة إلى خيوط رفيعة ، تبدو كأنها تصل الجميع وتجعل منها كتلة يكاد اختراقها يكون مستحيلا . وأوراق هذه النباتات من الكثافة بحيث تحول بين ضوء الشمس و بين التربة المشبعة بالرطوبة ؛ على أنه من الممكن أحياناً رؤية السماء من خلال الأغصان المتشابكة . ولا يمكن الوصول إلى الضوء والهواء إلا فى أعالى الأشجار ، وهنا تلبس الحياة حلة زاهية ويتجلى جمال الطيور والحشرات والأزهار . ولا تعرى الأشجار هنا أبدا ، « فإن الحجاب الدائم من الأوراق يغطى على الدوام ما تحته من فضاء شاسع غامض ، ولا يزال دائم البلى دائم التجدد » .

والنفوذ إلى داخل الغابة أسهل ما يكون عن طريق الأنهار ، وهناك عدد كبير من المجارى تبدأ من الأنديز وتتجه نحو الأمزون العظيم ، ومن هذه الأنهار نهر چاپورا ونهر إسا Issa ، وهذا الأخير يزيد عرضه على ميل عند التقائه بالأمزون ، على أن الهنود لا يفيدون من النهر فائدة تذكر إلا فى زيارة يقومون بها لجماعة قريبة بحثاً عن زوجة أو دفعا لإهانة لحقت بهم

فعلا أو تخيلوا لحاقها ، ولكنهم لا يستعملون النهر أبدا فى سفر بعيد لغرض المتاجرة .

والسفر خلال الغابة شاق للغاية ، ومن أيسر الأمور أن يضل المسافر فيها طريقه ، وعلى أى حال يجب عليه أن يشق بنفسه كل خطوة يخطوها ، وهو معرض فى كل خطوة لأن تطحن عظامه تحت ثقل شجرة قد تسقط بدون سابق إنذار ، أو تخترق قدمه أو ذراعه واحدة أو أكثر من الأشواك الكثيرة ، أو تلسعه بعوضة أو ذبابة من أنواع الذباب العديدة ، وقد تخترق جلده حشرة وتزحف على قدميه النمال ، أو قد تهاجمه جيوش الزنابير والنحل والنمل إذا اهتزت من حوله شجرة . وهناك فوق ذلك الثعابين التى تزحف على الأرض ، ولو أنها يندر أن تهاجم الإنسان إلا إذا آذاها ، كما أن هناك التماسيح التى تزخر بها الأنهار . ولكن الحيوان الثديى الوحيد الذى يخشى خطره هو الببر ، يضاف إلى كل هذه الصعوبات أن المسافر قد يقع فريسة للشعور القاتل بالوحشة والملل من المناظر المتشابهة والأصوات غير المتغيرة والخوف الدائم من أن يضل الطريق ، ومن المحتمل دائما أن يقضى المسافر أياماً دون أن يقابل أحداً من السكان .

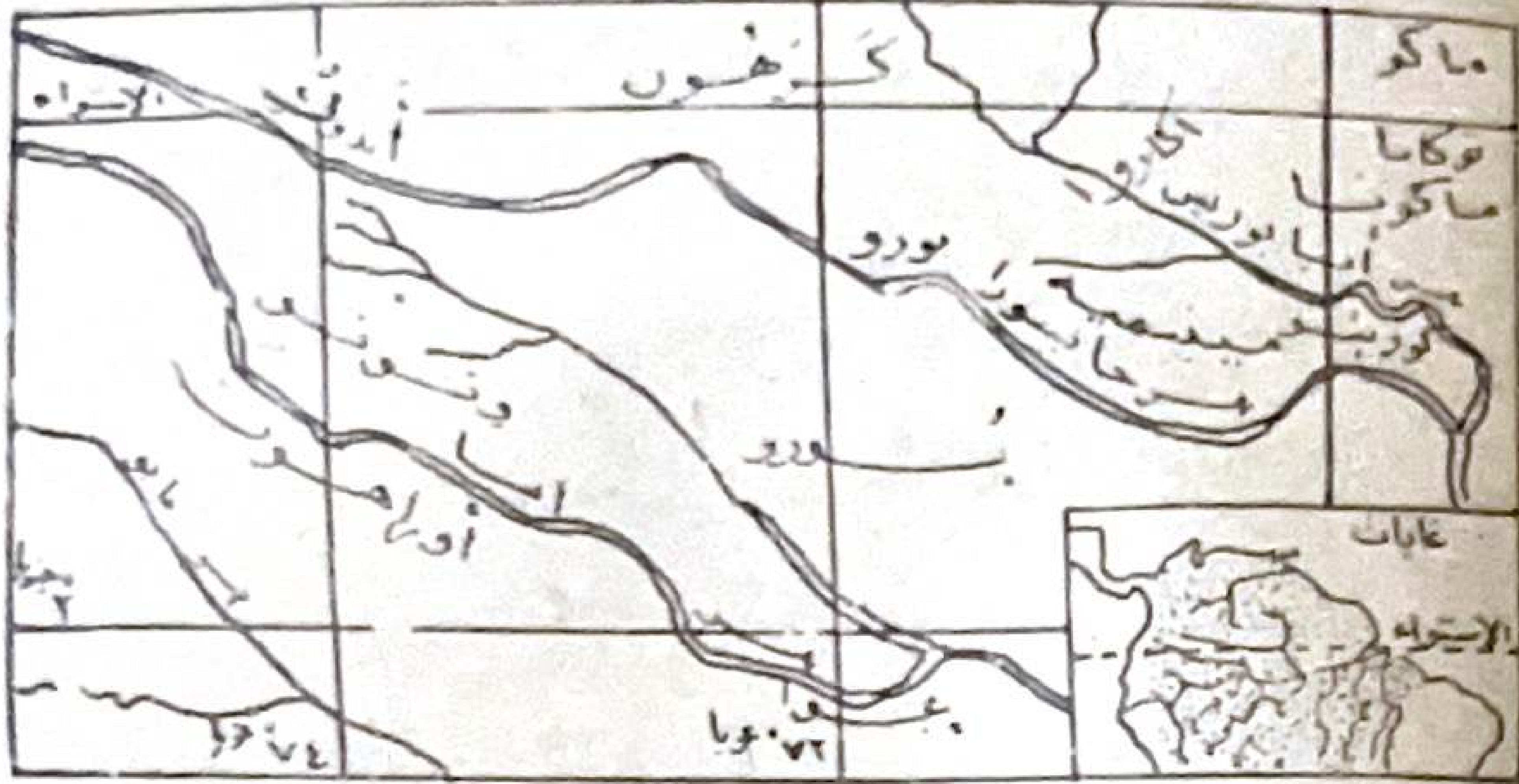
ولكن الإقليم الذى يتناوله هذا الكلام ليس إلا جزءا يسيراً من غابات الأمزون الشاسعة التى تبلغ مساحتها نحو مليونين من الأميال

المربعة ، » وكل شيء فيها ، سواء الغابات اللانهائية أو الأنهار العظيمة ، هائل لدرجة أن الإنسان يختلط عليه الأمر فيما يتعلق بالتفاصيل ولا يقر فى ذهنه غير صورة اللانهائية التى لا تغير فيها » .

ثم إن الأنهار العظيمة ونهيراتها التى لا عداد لها ، والمناطق التى يغمرها فيضانها تقسم الأرض إلى بقع منفصلة مما يجعل العلاقة بين بعض القبائل و بعض من الصعوبة بمكان ، ومن أجل هذا يقطن هذا الإقليم عدة مئات من القبائل المتباينة ، ولكنها جميعاً — فيما عدا القليل — قد أمكن تقسيمها إلى مجموعات لغوية ، على أن أحدا من هذه الأقسام لا يقطن إقليما منعزلا ، فهى جميعاً مختلطة اختلاطا شديداً مما يدعو إلى الاعتقاد بحدوث هجرات كثيرة .

والهنود القاطنون ما بين نهرى إسا وجابورا لا يختلفون فى شيء عن سائر الهنود الحمر من حيث مميزاتهم العامة ، ولكن التفاصيل الدقيقة تختلف اختلافا كبيرا من مجموعة إلى أخرى . فلون بشرتهم يميل إلى الصفرة السمراء ، وقد يميل أحيانا إلى الحمرة ولكنه فى الأغلب الأعم برونزى ؛ وشعورهم مستقيمة سوداء خشنة غزيرة إلا فوق أجسادهم ، وما يوجد على أجسادهم من شعر قليل ، يزيلونه نتفا بعصارة شجر المطاط التى تلتصق بأجسادهم حتى إذا جفت وجذبت اجتذبت الشعر معها . وتقص النساء

شعرهن أو يحرقن أطرافه بالنار ، أو يصففنه على شكل ذيل الخنزير . ويقص أغلب الرجال شعرهم أقصر من شعر النساء ، ويفرقونه فى الوسط



(شكل ٥٢)
خريطة يبدو فيها توزيع قبائل معينة فى أمازونيا

ويقصونه فوق الجبين فى خط مستقيم ، على أن قبائل البورو يفضلون الشعر الطويل . ورءوسهم متوسطة النسبة ، ووجوههم ليست حادة التقاطيع ، وأنوفهم عريضة ، وشفاههم غير غليظة ، وعيونهم قاتمة أو سوداء وصغيرة ومنحرفة ، وأجسامهم متوسطة الطول ، إذ يبلغ متوسط الطول بين الرجال خمسة أقدام وأربع بوصات ، و بين النساء أربعة أقدام وثمانى بوصات ، وأقدامهم كبيرة ومفلطحة ، وفى مقدورهم أن يلتقطوا أى شيء من فوق الأرض بأصابع أقدامهم . أما من حيث الطباع فإن الهندى قوى الشخصية (impressive) صبور مخادع هادئ وذو قدرة كبيرة على الاحتمال .

وليست للملابس ضرورة فى مثل مناخ أمزونيا الحار غير المتطرف ، زد على ذلك أن الملابس الفضفاضة قد تحول دون سهولة السير فى الغابة ، وقد تتمزق على أفرع الأشجار وأشواكها . والأهالى على العموم لا يلبسون شيئاً على رءوسهم ولا أيديهم ولا أقدامهم ، ولا ترتدى النساء شيئاً ، أما الرجال فلا يلبسون غير قطعة من لحاء الشجر المطروق يضعونها بين الفخذين ويشدونها بحزام من نفس المادة يربط حول الوسط . وحتى الزعماء لا يختلف ملبسهم عن ذلك ، ولكن من السهل تمييزهم عن غيرهم لأنهم يلبسون عادة حول العنق عقدا من أسنان الببر ، بينما يتميز المحارب القدير بعقد من الأسنان البشرية يلبسه حول عنقه . ويقوم كل فرد بصنع ملابسه بنفسه ، فهو يذهب إلى الغابة وينتقى شجرة مناسبة فينتزع من لحائها شريطا يبلغ طوله نحو ستة أقدام ثم يأخذ الطبقة الداخلية من ذلك الشريط فيقطعها نصفين وينقعها فى ماء النهر ثم يدقها بمدقة خشبية .

ويلبس الهنود القاطنون إلى الغرب وإلى الجنوب من نهر إسا Issa فوق مآزرهم قميصا طويلا من ألياف لحاء الشجر عليها زخارف حمراء ، وبعض الذين يقطنون فى شمال نهر چاپورا يلفون حول أجسامهم جدائل من ألياف لحاء الشجر ، يلفونها لفا محبوكا حتى تصبح متماسكة القوام ، وهناك قوم آخرون يلبسون إزارا من ألياف اللحاء يتدلى إلى العقبين ، ولكنهم

يرشقونه بين الفخذين أثناء السير ، ومن تقاليدهم أن أحدا لا يجوز له أن يخلع ملابسه فى حضور شخص آخر سواء من الرجال أو من النساء .

ومع أن ما يلبسه الهنود من الملابس قليل جدا ، إلا أنهم يتزينون بكثير من الحلى ، سواء فى ذلك الرجال والنساء ، ولا سيما أثناء حفلاتهم . فيرتدى كل من الرجال والنساء أساور مزخرفة من الألياف مشدودة حول الساعدين ، ويلبس الرجال عصابة من هذا النوع على كلا الذراعين ، ويلبس النساء واحدة منها أسفل الركبتين مباشرة وأخرى أعلى العقبين ، حتى يصبح لحم بطن الساق فيما بينهما منتفخا بدرجة غير عادية . وتتزين النساء فى الحفلات والرقص فيرسمن على أفخاذهن وأجسامهن أشكالا هندسية باللون الأحمر والأسود والأبيض ، ويتحلى كلا الجنسين بأدوات من الريش ، فيلبس الرجال فوق رءوسهم أدوات من الريش جميلة الصنع ، وتلصق النساء زغب الريش الأبيض على لحم بطن الساق فيما بين العصابتين اللتين تلبسهما ، ويلبس الرجال والنساء على السواء حول العنق عقودا من الأصداف والأسنان وأقراص من العظام والحبوب الملونة . وبعض القبائل يلبس أفرادها أمشاطا مصنوعة من خشب النخيل يتخذون أسنانها من أشواك بعض أنواع النخيل يلصقونها إليها بواسطة القار ثم يزينونها بالريش ؛ وكثيرا ما يلبس الهنود فى أرجلهم شخاشيخ وحليا من الريش ،

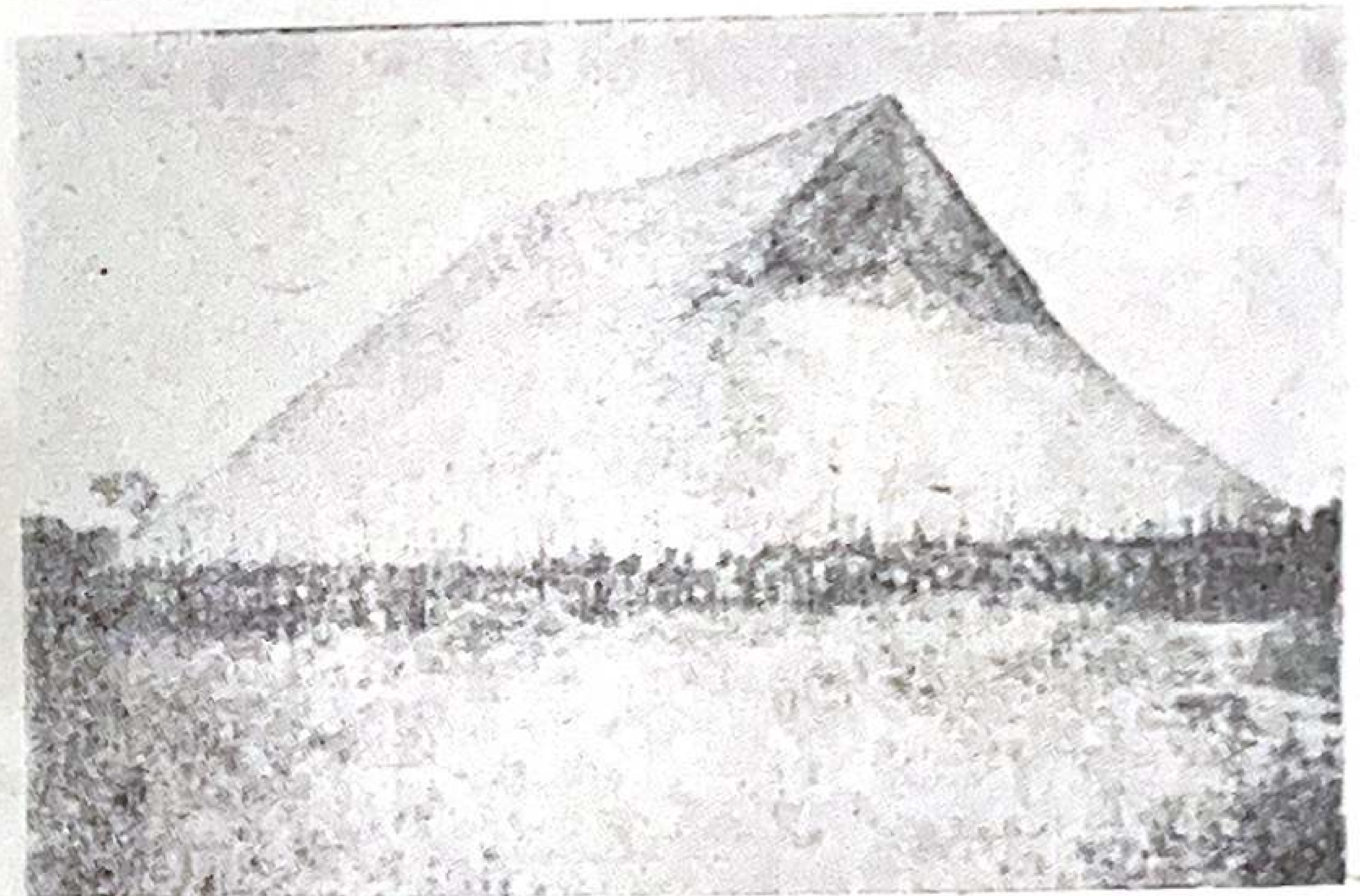
كما تلبس الأساور المصنوعة من ذنب نوع من أنواع السحالى لأن لها فى اعتقادهم خواص سحرية . وكلا الجنسين يخرق شحمة الأذن ويضعون فى الخرق عودا من الخشب ، غالبا ما يضيفون إليه على سبيل الزينة خصلة من الريش ، وكذلك يخرقون بنفس الطريقة أنوفهم ليرشقوا فيها دبابيس أو أعوادا أو ريشا. ويخرق البورا وغيرهم من الهنود شفاههم ليلبسوا فيها أدوات الزينة .

ويقيم الهنود الحمر مساكنهم عادة على مسافة من النهر ليكونوا فى مأمن من الفيضانات والحشرات ، وكذا ليضمنوا أن لا تقع عليهم عين عدو قد يمر بطريق النهر ، ويوجد دائما طريق يصل بين النهر وبين مكان إقامتهم ،وقد يكون هذا الطريق مستقيما فى جزء من أجزائه ولكن يراعى دائما أن يكون معظمه ملتويا ومختفيا عن الأنظار بكل وسيلة ممكنة. وبدل أن يقيم هؤلاء الناس فى مجموعة من الأكواخ نراهم ينشئون مسكنا جماعيا كبيرا يسمونه «مالوكا» يتسع لعدد كبير قد يصل من ستين إلى مائة شخص. ثم يقطعون الأشجار والعشب أمام المالوكا ويدكون الأرض بأقدامهم لتكون ميدانا يرقصون فيه ، بينما تقع خلف المالوكا حديقة الزعيم ، أما بقية السكان فلكل منهم حديقته التى تقع على مسافة تتراوح بين نصف ميل وبين مسيرة يومين من المالوكا ، وفى هذه الحالة الأخيرة قد يقيم الهندى مسكنا مؤقتا أو « منزلا ريفيا » بجوار أرضه .

وتختلف المساكن فى بعض التفاصيل ، ولكنها عادة مربعة الشكل أو مستطيلة ، على أنها فى الحوض الأدنى لنهر أبوبورس **Apoporis** مستديرة الشكل ، ويغلب أن يبلغ المالوكا نحو ٧٠ قدما فى الطول و ٦٠ قدما فى العرض وثلاثين قدما فى الارتفاع ، وهو يقوم على أربعة أعمدة كبيرة تغرس فى الأرض ، ويستقر على هذه وعلى عمود آخر جمالون . وعلى عروق وعوارض تربط إلى بعضها ربطا محكما بالحبال وجذور الأشجار، سقف من القش ينحدر من الجمالون إلى علو نحو ياردة واحدة من الأرض. ويتكون السقف والجوانب من طبقات من أوراق النخيل،الأطراف العليا لكل طبقة تستقر فوق الأطراف السفلى للتى تليها إلى أعلى ، وجميع الطبقات مثبتة بواسطة الغاب المفلوق ، ويبلغ سمك هذه الطبقات من ١٢ إلى ١٨ بوصة ، وهى بهذا السمك تحول تماما دون نفوذ ماء المطر . على أن الحيطان تصنع أحيانا من صف من الأوتاد المتقاربة يربط إليها طبقات من القش . أما المدخل أو المداخل — لأنه كثيرا ما يكون للمسكن مدخل فى كل جانب من جوانبه — فإنها لا تزيد على فتحات فى القش ارتفاع كل منها ثلاثة أقدام وعرضها قدمان ، وهى تبقى دائما مغلقة وقد يكون ذلك بواسطة جزء متحرك من القش أو بستارة من القش أيضا. ولا يوجد للمسكن نوافذ ، وما يدخل إليها من ضوء وهواء إنما ينفذ إليها عن طريق ما يوجد بالقش من الشقوق ، ويتسرب الدخان بنفس

الطريقة إلى الخارج ، ولا تختلف الظلمة فى داخله نهاراً عنها ليلا ، علاوة على كونها دائماً حارة ومملوءة بالدخان، ولكن هذا يقيهم من الحشرات ، ولو أن العناكب والعقارب وحتى الوطاويط تتخذ مأواها فى القش .

ويترك الجزء الأوسط داخل المسكن خالياً يتخذ منه الأطفال ملعباً والكبار مكانا للاجتماع أو الرقص ، وفى الركن القصى منه يتخذ الزعيم وأسرته مقامهم ، وفى بعض منازل الوتوتو يفصل هذا الجزء عن سائر المسكن بستار من الحصير ، وتقتسم سائر العائلات ما يتبقى من الفراغ الذى يلى الحيطان ، ويكون لكل عائلة موقدها الخاص . ولا يوجد فى العادة فاصل



(شكل ٥٣)
« مالوكا » الوتوتو

بين العائلات المختلفة ، فيما خلا قبائل الأبوبورس **Apoporis** حيث تقام حواجز من الحصير المجدول من لحاء الشجر المضروب تفصل بين كل عائلة وأخرى . ولكل عائلة فى العادة ثلاث أرجوحات **hammocks** تعلق فى الحائط وفى أعمدة المنزل أو فى أعمدة تقام خصيصاً لها وترتفع فوق الأرض نحو قدمين ونصف قدم ، وتوضع هذه الأراجيح فى شكل مثلث بحيث تكون قريبة جداً من الموقد ، وتخصص واحدة منها لنوم رب العائلة وأخرى لزوجته والثالثة لمن لا ينام من الأطفال على الأرض العارية .

وتتكون النار من ثلاثة أفرع تتجه رءوسها نحو الوسط ، وتدفع الكتل إلى داخل الموقد كلما أكلت النار طرفها ، ولا يسمح للنار أن تخبو أبدا ، لأن القبائل التى تقطن جنوب نهر چاپورا لا يعرفون كيف يوقدون النار. وفى شمال النهر يولد الأهالى النار عن طريق إدارة قصبة فى عصا مخرمة بمساعدة الصوفان ، وهى عملية شاقة فى هذا الجو المشبع بالرطوبة . وعندما يزمعون الرحيل يحملون معهم جذوة خامدة فى لحاء شجرة من الأشجار ذات العصير التى يمكن اشتعالها بالنفخ فيها عند اللزوم . ويحتفظ الهنود بين عروق الخشب أو على الأرض بما يملكون من متاع قليل ، كالآلات والأدوات والسمك المجفف واللحم المدخن .

وهذه المساكن التى تستلزم إقامتها بعض الوقت والجهد لا يستعملونها إلا لمدة سنتين أو ثلاث ، وسرعان ما يهجرونها بمجرد ما يبدأ المطر ينفذ

من شقوق السقف ، لا سيما أن المزرعة أيضاً تكون قد فقدت خصوبتها ويكون مقامهم قد صار معروفا لأعدائهم ، فيقومون بإعداد مكان جديد على مسافة أميال قليلة يقيمون فيه مسكنا جديداً ويزرعون أرضاً جديدة . وهم لا ينقطعون عن التردد على مزارعهم القديمة لجمع الثمار منها ، ولكنهم لا يزرعون نفس البقعة ثانيا أبدا . ولما كانت الأرض التى زرعت مرة تفقد خصوبتها ، فإن الزارع البدائى لا بد أن يحيا دائماً وإلى حد ما حياة التنقل التى يحياها القانص .

ويخرج الوطنيون مع الفجر إلى النهر ليستحموا فيه ، وتعود النساء يحملن فوق رءوسهن جراراً كبيرة ملأى بالماء ، وعند العودة إلى المسكن يتناولون وجبة خفيفة من خبز « الكاسافا » البارد أو المغموس فى قدر الفلفل ، تصحبها جرعة من شراب مصنوع من خليط من الأعشاب . وبعد الانتهاء من تناول هذه الوجبة تتوجه النساء إلى المزرعة أو إلى الأدغال بحثا عن الحاصلات البرية . ويخرج الرجال للقنص أو صيد السمك . وتعود النساء قبيل المساء بعضهن يحملن أطفالهن فوق خصورهن . وبعضهن يحملن سلالا كبيرة مملوءة بحاصلات المزرعة ، بينما اللائى كن قصدن إلى الأدغال يعدن وقد أصبن شيئا من الكائنات الصغيرة كالسحالى والثعابين والضفادع . ولا تعود المرأة أبدا صفر اليدين، بينما الرجل قد يخطئه الحظ أحيانا فلا يصيب شيئا من الطعام .

وفى الفترة التى يكونون فيها خارج المسكن لا يذوقون من الطعام سوى ما يجمعون من الثمار البرية ، فإذا عادوا إلى مساكنهم فى المساء واستحموا فى النهر مرة أخرى قاموا بإعداد وجبة الطعام الأساسية ، وسرعان ما يمتلئ الجو بالروائح الشهية المنبعثة من خبز الكاسافا الساخن ومن قدور الطعام التى تغلى . وتقوم أوراق النبات العريضة مقام الصحون والمفارش، كما تقوم الأصابع مقام أدوات المائدة . ويتناول الرجال طعامهم أولا كل منهم بجوار موقده ، أما الشبان غير المتزوجين الذين يحملون إلى الزعيم ما أصابوا من صيد فإنهم يتناولون طعامهم من قدر الزعيم ومن خبز الكاسافا الساخن الذى هيأته زوجة الزعيم وأتباعه . فإذا انتهى الجميع من الطعام استرخى الرجال فوق أراجيحهم وقرفصت النساء بجوار المواقد .

وتختلف واجبات النساء لدى الهنود الحمر عن واجبات الرجال ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب البدائية ، فعلى الرجال القيام بالأعمال الشاقة والخطرة كقطع الأشجار وإعداد الأرض للزراعة وبناء المساكن وحفر الفلائق وعمل الأسلحة ، وعليهم أيضا الصيد والقتال والتجديف . أما النساء فهن ربات البيوت وأمهات الأطفال وطاهيات الطعام ، وهن اللائى يقمن بالزراعة ويصنعن القدور والأراجيح ومعظم السلال ، « فحياة المرأة سلسلة متصلة من أعمال شاقة لا يسرى عنهن إلا فرحة الاستعداد للرقص أو الاشتراك فيه » . وتلقى النساء على العموم معاملة حسنة، ولكن محظور عليهن الاشتراك

فى بعض الاحتفالات ومشاهدة الأشياء المقدسة وتناول أطعمة خاصة واستعمال الكوكا والطباق .

والهنود فيما بين نهرى إسا وجابورا لايعرفون المعادن ولا الأحجار ، وما لديهم من بلط حجرية ذات أيد خشبية يتوارثونه عن آبائهم ، ولديهم مخارز ومكاشط من أسنان الحيوان ، ولكن معظم أدواتهم من الخشب كالمبشرة المصنوعة من خشب المانيوق والسكين المصنوعة من خشب الحديد والهاون والمدقة والأمشاط والقصع والجرون **troughs** والطبول .

وتقوم نساء جميع القبائل بصنع قصع وأوان بسيطة من الفخار ، ولكن ماتصنعه نساء قبيلة منيميهى **Menimehe** من هذه الأدوات يفوق ما يصنع لدى سائر القبائل فى هذه البقاع . وهم يقايضون على بعض ما يصنعون من هذه الأدوات مع بعض من يجاورهم من القبائل أو يقدمونها إليهم على سبيل الهدية . وتصنع القدور وتشكل بالأيدى ، فيؤخذ الطين من النهر ويخلط برماد نار الخشب وتصنع منه أسطوانات مستطيلة تلف بعد ذلك لفات متعاقبة ثم تعجن وتحول إلى الشكل المطلوب . وتجفف الآنية فى الشمس وتحرق ، وطريقة إحراقها أن تغطى برماد النار الساخن ومواد بطيئة الاحتراق. وطريقة صنع الأوانى الكبيرة التى تقدم فيها المشروبات المخدرة أثناء الاحتفالات هى أن تخاط قطع من لحاء الشجر بعضها إلى بعض بالأشواك أو بأخذ جزء من جذع شجرة وتجويفه حتى يصبح على شكل حوض .

وينام كل هنود حوض الجابورا فى أراجيح ، وهذه يقوم النساء بصنعها على إطار يتكون من عمودين وحبل طويل من خيوط الكورانا (**curana**) أو ألياف النخيل ، يلف حول العمودين على مسافات تبلغ كل منها نحو بوصة أو بوصتين . وتربط إلى هذه الألياف أعواد من القصب متعامدة عليها . وعندئذ يشد النسيج الشبكى الناتج بواسطة عصوين ويعلق بالحبال فى عمودين يرتفعان عن الأرض نحو قدمين وست بوصات .

وأحسن الأراجيح ما تصنعها قبيلة الوتوتو (**Witoto**) إذ فيها أشرطة للأرجل والأيدى مزخرفة زخرفة جميلة معقودة بالأصابع وليس لها إطار . وهم يصنعون الحصير ، ولكنهم لايعرفون النسيج ، ويقوم الرجال والنساء على السواء بصنع السلال البسيطة الأشكال ، وذلك باستعمال شرائح من لحاء الشجر والقصب وأوراق النخيل ، وتزخرف معظم السلال برسوم جميلة ، وفى هذه الناحية يفوق الكاراهونى والبورو ماعداهم من الشعوب .

وتصنع الفلائق من تجويف جذوع أشجار الشربين أو الغار أو سواها من الأشجار التى تصلح لهذا الغرض ، وقد يبلغ طول الفليقة عشرين قدما ولكن عرضها لا يزيد فى العادة على ثمانى عشرة بوصة . ويقوم الهنود بخرق ثقوب فى كتلة الخشب ليحصلوا بذلك على الاتساع المناسب

ثم يشطفون بعض أجزائها ببلط خشبية ويوقدون فى الشطف النار، ويتركونها موقدة تأكل جوانب الجذع وقاعه إلى أن يصل التجويف إلى القدر المطلوب، وبعد أن يزيلوا الجمر المحترق، وبينما لا يزال الخشب ساخناً يضغطون جوانبه إلى الخارج بعوارض خشبية تباعد بين الجانبين وتزيد فى اتساع الفليقة إلى أن يصل إلى الحد المناسب . وهذه العملية تتطلب مهارة وعناية وبدونهما يتعرض الخشب للتشقق . ومن فوائد الحرارة أيضاً أنها تساعد أطراف القارب على الانثناء إلى أعلى وبذلك تصبح مقدمة القارب ومؤخرته أعلى من وسطه . وتعد الفلائق ملكا للجماعة ، وهم يخبئونها فى الأدغال على مقربة من النهر ، ولكن المجاديف يحتفظ بها فى المسكن . وهناك فلائق صغيرة غير متقنة الصنع يمكن صنعها فى ساعة واحدة وذلك بتجويف جذوع النخيل الغليظة ، فيزال لبها اللين من داخل الغلاف الصلب بالسكين أو يسحق بالأصابع ، وبعد ذلك تقوى الجدران بالطين . وكلا النوعين من القوارب يسير بمجاديف طول كل منها أربعة أقدام أو خمسة ، يقطعونها من كتل صلبة من الخشب ولها حد طويل غير مستدير . ويجدف الرجال وهم متجهون بوجوههم نحو الجهة التى يقصدونها، وتتحرك مجاديفهم فى وقت واحد حركة منتظمة متناسقة . ومع أن الأنهار هى أسهل سبل الاتصال وسط تلك الغابات الكثيفة، إلا أن هنود الأمزون الأعلى لا يحبون ركوب الماء .

ولا يتعفف الهنود القاطنون قرب نهر چاپورا عن أكل أى شىء بما فى ذلك قمل الرأس ، وتقوم النساء — علاوة على زراعة المانيوق وغيرها من الحاصلات — بجمع ما يستطعن جمعه من الحيوانات الصغيرة كالفئران والجرذان والضفادع والسحالى والثعابين . ويتسلق الرجال الأشجار بحثا عن الثمار البرية وأنواع البندق وبراعم نخيل الكرنب (**cabbage-palm**) الغضة ، ويصيدون السلاحف إذا عثروا عليها فوق الشواطئ الرملية وذلك بأن يقلبوها على ظهورها ، وهم يأكلون بيضها ولكنهم لا يأكلون بيض الطيور ، وكل هذه الأشياء يلتهمونها بلذة ، وكذلك يأكلون الصلصال ولا سيما ما يكشطونه من تحت المواقد ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى قلة ملح الطعام فى غذائهم . ويجمع العسل من الأشجار المجوفة وغيرها من الأماكن فى داخل الغابة بعد أن يسلطوا الدخان على النحل ليطردوه . أما المنيميهى **Menimehe** فلا يجمعون العسل بهذه الطريقة بل يقيمون فى القش جذع شجرة مجوفاً كى تتخذ النحل فيه بيوتها . والعسل عنصر أساسى فى المشروبات التى يتناولها الهنود فى احتفالاتهم .

ولا يربى الهنود من الحيوانات المستأنسة سوى عدد قليل جدا من الكلاب وعدد أقل من الحيوانات المنزلية ، ولذلك يعتمدون اعتمادا كبيرا على قنص الحيوان أو إيقاعه فى الفخاخ للحصول على ما يلزم لغذائهم من

اللحوم . وليس حيوان الصيد نادرا فعلا فى الغابة ولكن العثور عليه غير هين ، وعلاوة على ذلك تحول كثافة النبات دون سهولة صيده . على أن الهنود ذوو قدرة كبيرة على تعقب آثاره ، ولهم معرفة تامة بعادات كل نوع وبالأماكن التى يقيم فيها ، وفى مقدورهم أن يقنصوا بالحراب الخفيفة حيوانات كبيرة كالسِّناد (tapir) وأن يسقطوا ببنادق النفخ كثيرا من الحيوانات الصغيرة كخنزير الغابة (bush-pig) والكسلان (sloth) والدب آكل النمل والقرد ، وكذلك الطيور كالببغاء والماكاو (macaw نوع من الببغاء يعيش فى أمريكا الجنوبية) والتوكان (toucan) ومالك الحزين (egret) .

ويصنع الهنود حرابهم من خشب صلب يأخذونه من نوع من النخيل ، ولكى تصير ناعمة ملساء يحكونها بفك سمكة البيراى pirai الذى يشبه المبرد ثم يصقلونها ببعض أوراق الشجر ذات السطح الخشن . وللحربة رأس قصير ذو نصل مسموم يصنع على حدة من قصب البامبو ثم يثبت إلى الساق . ويحمل القانص عادة نحو سبع من هذه الحراب فى يده وسبع أخر فى كنانة من قصب البامبو ، وفى مقدوره أن يصيب بها إلى مسافة ثلاثين ياردة .

وبندقية النفخ هى أهم أسلحتهم ، وهم لايحملونها إلا للصيد إذ أنها لا تستعمل فى القتال ، وهى قريبة الشبه بتلك التى يستعملها الوطنيون

فى جنوب آسيا الشرقى (انظر الفصل الثالث) ، ويختلف طولها من ثمانية أقدام إلى أربعة عشر قدما ، وتتركب من قسمين هما عادة قطعتان من نخيل الشنتا chonta palm تهذبان بعناية ثم تحزان بالرمل وبأداة مصنوعة من أسنان الباكا[1] إلى أن تتطابقا ، وبعد ذلك تثبت إحداهما إلى الأخرى بمهارة فائقة ، ويلف حولها جميعا أشرطة من لحاء الشجر أو خيوط من الألياف ثم تكسى بطبقة من العصارة اللزجة . ويبلغ قطر فتحة هذه الأداة نحو ربع بوصة ، وهى تصقل من الداخل بواسطة خيوط قد غمست أولا فى الصمغ ثم فى الرمال . وبعد ذلك يثبت إلى أحد طرفيها مبسم من العاج يبلغ قطره الخارجى نحو بوصة ونصف ، وتثبت على بعد قدم من المبسم قطعة من العظم تكون بمثابة « ذبابة التصويب » . أما القذائف الصغيرة التى لا يزيد طولها على تسع بوصات ولا يزيد قطرها على قطر عود الثقاب فإنها تحمل فى كنانة من قصب البامبو مبطنة بالعشب أو السمار يلفعونها وراء ظهورهم ، يضاف إليها قرعة صغيرة تحوى زغبا ناعما مأخوذاً من لوزات شجرة قطن الحرير silk-cotton ليلصقوا قليلا منه على مؤخرة القذيفة قبل وضعها فى البندقية ، كما يضاف إليها أيضاً عظمة فك سمكة البيراى Pirai التى يبردون بها أطراف القذائف . والسم الذى يستعمل هو مادة الكيورارى Curare

(١) نوع من القوارض يعيش فى البرازيل يشبه الحيوان الصغير المعروف باسم خنزير غانة

للشهورة التى يحصلون عليها بغلى عصارة شجرة من الأشجار التى تفرز الاستركنين السام strychnos toxifera مخلوطة بعناصر أخرى حسب وصفة معروفة يتوارثها الأبناء عن الآباء . ويحمل السم فى وعاء صغير يعلق فى طوق حول العنق حتى يكون دائما فى متناول اليد إذا أرادوا أن يدهنوا نصل سهم أو قذيفة. وأمهر الناس فى صنع هذا السم هم الأندوكى Andoke ؛ ويستطيع الصائد الماهر أن ينفخ القذيفة من بندقية النفخ فتحدث صوتاً خفيفاً وتنطلق إلى الهدف فتصيب على مسافة مائة قدم ، أما أصغر الطيور فيمكن إصابتها على بعد عشرين ياردة ويكون موتها حينئذ محققا ولو أنه قد لا يحدث فى الحال .

ولهؤلاء الهنود أيضا مهارة فى استعمال الفخاخ ، فهم أحيانا يوقعون الحيوانات الكبيرة فى شباك ضخمة يمدونها بين الأشجار ويستعملون مصائد بسيطة لصيد الطير ، ويضعون الحبالات المصنوعة من جذور الأشجار للإيقاع بالقردة ، وهم يثبتونها فى جذوع الأشجار فى الأماكن التى تتردد عليها هذه الحيوانات ، وينصبون الفخاخ الساقطة dead falls [1] التى تصيد أى شىء ، من الفأر الصغير إلى النمر . ويحفرون فى طريق حيوان الغابة حفرا يغرسون فى قاعها خوازيق يخفونها بالعشب ثم يغطون الحفرة بأغصان الشجر .

(١) الفخاخ الساقطة (dead-falls) نوع من الفخاخ لها ثقل يسقط على الحيوان بمجرد لمس الفخ فيقضى عليه أو يمسك به .

ولا يهتم البورو بصيد السمك إلا قليلا ، لكن سائر الشعوب المجاورة لهم يصيدونه بطرق مختلفة منها الشباك الضيقة المصنوعة من ألياف النخيل ينصبونها عمودية فى مجرى الماء ، ومنها الفخاخ الضيقة المصنوعة على هيئة سلال ، ومنها الحراب ذات الخطاف ، ومنها السنانير المصنوعة من الألياف يثبت فى أطرافها خطاطيف من الخشب أو من الأشواك مطعومة بالديدان . على أن أهم طريقة لصيده هى استعمال السم المأخوذ من جذور الباباسكا Babasca . وعندما يزمعون استعمال السم يقيمون بعرض النهر خوازيق من فروع الشجر . ويحتفظ النابو Napo بالسم المجهز فى سلة يغمسونها فى النهر ، لكن معظم القبائل يكتفون بإلقاء الجذور فى الماء فينتشر فيه السم وسرعان ما يطفو السمك على سطحه وحينئذ يقومون بجمعه ، ومن حسن الحظ أن هذه الطريقة لا تنال من صلاحية السمك للطعام .

ويحتفظ الهنود فى كل بيت بزوج من طبول الإشارة يشبه البراميل شبهاً كبيراً ، يعلقونهما مائلين فى عروق السقف بواسطة حبال من صنعهم ، وتصنع هذه الطبول من كتل من الخشب الصلب يبلغ طولها نحو ستة أقدام وقطرها نحو قدمين ، وهم يفتحون فى كل كتلة فتحة طولية ضيقة تتسع عند كلا الطرفين ثم يجوفونها بحجارة محماة ومناقيب من أسنان الحيوان وبلط من الحجر ، وكلها تعمل من خلال الفتحة الضيقة . وهم يراعون عند التجويف

أن تختلف قشرة الطبلة فى سمكها من نصف بوصة عند أحد الطرفين إلى أربع بوصات عند الطرف الآخر كيما تعطى نغمات مختلفة عند كل من الطرفين ، والطرفان هما عبارة عن خشب الشجرة الذى لم تتم إزالته . ويختلف أحد الطبلين فى حجمه عن الآخر ، فالأكبر منهما (أو الأنثى كما يسمونه) يحدث أصواتاً أقل ارتفاعاً مما يحدث الأصغر (أو الذكر) ، أى أنهما يعطيان معاً أربع نغمات . ويقف الضارب بين الطبلين ويضرب عليهما ضربا سريعاً فى نغمات قصيرة أو طويلة بعصا ذات رأس من المطاط فتنبعث منهما أصوات جوفاء مكتومة قد تسمع على بعد عشرين ميلا .

وتستعمل هذه الطبول للتحذير ، وقد تستعمل كذلك فى إرسال إشارات وتعليمات مطولة ، والواقع أنها هى الوسيلة التلغرافية والتليفونية فى حوض الأمزون ، وهى شبيهة بما هو متبع فى إفريقية وجنوب آسيا الشرقى وميلانيزيا .

وهذان الطبلان — علاوة على استعمالها فى الإشارة — يستعملان كذلك لضبط الإيقاع ولزيادة الضوضاء العامة أثناء الرقص . على أن الطبول الصغيرة المصنوعة من جذوع النخيل بعد تجويفها أو من قصب البامبو شدت إليه جلود القردة هى الأدوات التى يغلب استعمالها لمصاحبة الساجات والشخاشيخ والمزامير المصنوعة من قصب البامبو ، ومن عظام سواعد مَن

ذُبح من الأسرى، والأراغيل التى تتركب من ثلاثة أو خمسة أو ستة أو سبعة أو أكثر من أعواد القصب مختلفة الطول ومربوطة بعضها إلى بعض بألياف النخيل . ويبدو أن هؤلاء الهنود لا يقصدون من استعمال الآلات أثناء الرقص إلى ضبط الإيقاع بقدر ما يقصدون إلى زيادة الضوضاء .

والجماعات التى نطلق عليها اسم القبائل كالوتوتو والبورو وما إليها هى فى الواقع وحدات لغوية أكثر مما هى وحدات سياسية ، والوحدة الأساسية هى العشيرة أو الجماعة التى تقطن مسكنا واحدا ، وهى تضم عددا من الأنفس يتراوح بين ستين ومائة وقد يزيد ، يشتركون جميعا فى مسكن واحد وفى منطقة للقنص ومنطقة لصيد السمك يُعترف بحقهم فيها ، ويخضعون جميعا لزعيم واحد . ولكل مجموعة من مجموعات العشيرة اسم مشترك يطلق على جميع أفرادها ويتوارثه الأبناء عن الآباء . وقد يقام فى بعض البقاع أكثر من مسكن واحد (مالوكا) يجاور بعضها بعضا لكل منها فى العادة زعيمه المستقل ، ولكن ليس هناك زعيم واحد يعترف به الجميع، وليس هناك أى تنظيم يربط جميع العشائر ويجعل منها وحدة كبرى . على أنه يوجد شعور بالألفة يربط بين مختلف العشائر التى تنتمى إلى مجموعة لغويةواحدة ، وقد تتحد تحت قيادة رجل ذى مواهب فذة إذا دهمها خطر مشترك ، ولكن هذا حدث نادر الوقوع . وللزعيم

حق القيادة فى القتال والصيد ورياسة الاحتفالات، ولكن ليس من حقه أن يصدر إلى أحد من العشيرة أمرا أو أن ينزل بأحد عقوبة ؛ والواقع أن سلطانه يتوقف على نفوذه الشخصى وعلى مقدار ما يتمتع به منافسه رجل الطب من نفوذ . ويرأس الزعيم المجلس الذى يضم جميع رجال العشيرة ، وهذا المجلس يسير فى مناقشاته حسب تقاليد خاصة تلعب فيها « قارورة الطباق » دورا رئيسيا . والعادات الموروثة هى القانون الوحيد السائد بين هذه القبائل ، ويقضى العرف أن يرث الزعيم أكبر أبنائه ، ولكن المجلس قد ينحيه ويولى بدله أحد شيوخ العشيرة .

ومن عاداتهم أن لا يتزوج الشاب من عشيرته ، بل يختار زوجته من عشيرة أخرى ، والنسب بينهم يرجع إلى الأب . وعند ما تتزوج المرأة تنتقل إلى حيث يقيم زوجها .

والشامان — رجل الطب — فى أمزونيا هو الطبيب وهو الساحر ، ولكنه ليس من رجال الدين ، وهو منوم مغناطيسى وساحر وصانع سم وغالباً ما يكون ذا دراية بخواص العقاقير . وهو يدعى القدرة على كشف أسباب المصائب وقراءة الغيب والتنبؤ بالكوارث وشيكة الوقوع ، كما يدعى القدرة على إنزال الضرر بالناس عن طريق السحر الأسود . ويعتقد من حوله أنه يستطيع الاتصال بالأرواح والتشكل فى صورة ببر، ولكن عمله

الرئيسى ينحصر فى قدرته على شفاء الأمراض . وهم يؤمنون بهذه القدرة إيماناً عميقاً ، والواقع أن ما ينالونه من الشفاء يرجع إلى هذا الإيمان أكثر مما يرجع إلى علاج الطبيب .

ويعتقد الهنود أن كل ما يحل بهم من ألم ومرض وموت مرجعه إلى فعل أرواح شريرة سلطها عليهم أعداؤهم ،وتنحصر مهمة الشامان فى محاربة هذه الأرواح إذ أن «السحر لا يبطله إلا السحر» ، فإذا نجح الشامان فى مهمته أجزل له العطاء،أما إذا فشل فإنه ينتحل الأعذار ويتوجه إلى الغابة ليأتى بأعمالا سحرية ضد منافسه الذى تغلب عليه على حد قوله .

ويخلف الشامان ابنه ، فإذا أعقب أكثر من ولدخلفه أغزرهم شعراً . ويتبع الولد أباه فى جولاته ليأخذ عنه أسرار المهنة ، وعليه أن يجتاز فى النهاية اختباراً فى هذه الناحية . ولكل شامان مسكن خاص وهو يشترك فى النشاط العام للعشيرة ، وقد يزيد نفوذه على نفوذ الزعيم . وهناك أشياء لا يقربها الزعيم ، فمثلا لا يحل له تناول أنواع خاصة من الأطعمة أثناء ارتداء ملابسه ، على أنه يحمل معه دائماً حقيبة من نسيج من لحاء الشجر أو من جلد الحيوان تحتوى على شخشيخته وأدوات أخرى منوعة مثل مخلب صقر ضخم وخيطاً من رءوس الكوارتز وكوبا مصنوعا من صدف نوع خاص من الأسماك النهرية . ويسود الاعتقاد بأن الشامان إذا مات تحول إلى ببر يجوب أنحاء الغابة .

وتكاد الحروب بين القبائل لا تنتهى ، ويشترك البورو ومن جاورهم من الأوكاينا Okaina والرزيجيرو Resigero فى كراهيتهم للوتوتو ، وحتى بين الجماعات التى تنتمى إلى مجموعة لغوية واحدة تقع الحروب أحيانا ، وهى لا تنشب بدافع الطمع ولكن بسبب خوف بعضهم من بعض ، ويرون أن القضاء على أعدائهم هو الضمان الوحيد لسلامتهم . ومن معتقداتهم أيضاً أن كل مايلحق بالإنسان من ضرر إنما يرجع إلى فعل عدو ويجب الانتقام منه .

ولا يقيم الهنود حول مساكنهم أى نوع من التحصينات ، لكنهم يحفرون أحيانا على طول المسالك المؤدية إلى المحلة حفرا يثبتون فى قاعها خوازيق حادة . وعندما يزمعون الغزو يجتهدون دائما أن يفاجئوا العدو ، ويفضلون أن يكون ذلك فى أعقاب احتفال حين يكون الأعداء نياما أو سكارى . ويتسلح المهاجمون بحراب مسمومة أكبر من حراب الصيد ، وبسيوف خشبية ذات حدين طولها نحو ياردة، وبأقواس يطلقون منها سهاما ذات أطراف مسمومة يصنعونها من النخيل الصلب . ويفاجأ العدو بضربة سيف على الفخذين فيهوى على الأرض وحينئذ يقضون عليه بضربة هراوة ثقيلة على أم رأسه .

والذين لايفرون من المعركة يقتلون جميعاً أو يؤسرون ، فالأطفال دون

السابعة الذين لايستطيعون لصغر سنهم أن يرتكبوا خيانة فى حق المنتصرين يصبحون ملكا للزعيم ، وبمضى الزمن تتزوج البنات ويمنح الأولاد حريتهم عندما يبلغون الحلم ، أما سائر الأسرى فيبقون يوما أو نحو ذلك ريثما يتم الاستعداد لحفلة ابتهاج بالنصر قد تدوم عدة أيام يتخللها كثير من الولائم والشراب ، وفى هذه الحفلة تقطع رقاب الأسرى بالسيوف الخشبية وتقسم لحومهم، ثم تقام وليمة تلتهم فيها هذه اللحوم عدا الأجزاء التى يعتقدون أنها غير صالحة للأكل كالجذع والأمعاء والمخ فيقذف بها فى النهر أو يلقى بها للكلاب . أما عظام الساعدين فإنهم يصنعون منها صفافير ، بينما عظام الذراع يقلب بها الوعاء الذى يحوى مشروبات الاحتفال ، ويصنعون من العظام عقودا ، أما عظام الجماجم بعد أن يأتى النمل على محتوياتها فإنها تعلق فى المسكن تخليدا للنصر . على أن البورو لايحتفظون بالجماجم على هذه الصورة . والسبب فى أكل لحوم الأسرى أن المنتصرين يطمعون من ناحية فى اكتساب بعض صفاتهم ، ومن ناحية أخرى — وهى الأهم — أنهم متعطشون للثأر راغبون فى أن يلحقوا بأعدائهم أعظم قدر مستطاع من المهانة .

والزواج من امرأة واحدة هو القاعدة المتبعة فى غرب أمزونيا ، وعلى الشاب أن يختار عروسه من عشيرة أخرى غير عشيرته ولكن صديقة لها ،

و بعد أن يبرهن على أن فى مقدوره أن يعول زوجا — وذلك بإعداد أرض الغابة و إقامة المسكن — عليه أن ينال موافقة والدى العروس ، لكنه لا يدفع لها ثمنا ولا يأخذ منها مهرا . و بعد قليل تأخذ العروس طريقها إلى حيث يقيم أهل العريس . هذا و يحدث أحيانا أن تعقد خطبة الولد والبنت وهما لا يزالان فى سن الطفولة .

وعند ما تحمل المرأة تمتنع عن تناول أنواع خاصة من الأطعمة ، ولكنها بعد الولادة بقليل تباشر واجباتها المعتادة ، بينما يلزم الأب أرجوحته و يمتنع عن تناول أنواع خاصة من الأطعمة ، كما يمتنع أسبوعا كاملا عن صنع الأسلحة وعن استعمالها ، وهذا التقليد الغريب الواسع الانتشار الذى يقضى على الأب بلزوم فراشه عندما يولد له طفل يسمى كوڤادى (couvade). وترضع الأم وليدها حولين أو ثلاثة مما يجعل العائلات قليلة العدد ؛ ومن عاداتهم أن الطفل المشوه وكذلك التوأم الأصغر يؤخذ إلى الغابة حيث يترك ليلقى حتفه .

ويغرم الآباء بأبنائهم ولا يوقعون بهم عقاباً ، و يختار للطفل اسم بعد ولادته بثمانية أيام ، و يصنع الرجال لأبنائهم اللعب على هيئة حراب وسيوف خشبية و بنادق نفخ ، ولكن الأولاد يندر أن يلعبوا بها . ولا يتلقى الأولاد أى نوع خاص من التعليم ولكنهم يتعلمون كل شىء عن طريق التقليد ،

ولا يسمح للأولاد والبنات بتناول اللحوم إلا بعد البلوغ ، وحينئذ يدرب الشبان على الصيد و يحضرون مجلس العشيرة ، بينما تلجأ البنات إلى منازل سرية فى الغابة حيث يبقين إلى أن تتم معدات زواجهن .

و يدفن الميت فى نفس يوم وفاته ، فيحفرون فى أرض المسكن تحت الموقد لحدا غير عميق يبطنونه بأوراق الشجر ، ثم يضعون فيه الجثة فوق أرجوحتها فى وضع الجالس ومعها كل ما كان يملك صاحبها من الحلى والأسلحة والأوانى ، ثم توقد فوق اللحد نار يبقونها مشتعلة بضعة أيام ، و بعد ذلك يقصد كل من اشترك فى تشييع الجنازة إلى النهر ليتطهر بالاستحمام . أما فى حالة وفاة الزعيم فإن منزله يحرق و يقام بدلا منه منزل جديد بالقرب منه على أرض العشيرة .

و يعتقد هؤلاء الهنود أن للإنسان روحاً تترك الجسد مؤقتاً أثناء النوم ونهائياً عند الموت ، وأنها تظل باقية طالما بقى الميت مذكوراً ، لكن فكرة خلود الروح بالمعنى الدقيق غير معروفة لديهم . وكذلك يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت تشبه الحياة الدنيا شبهاً كبيراً ، ولكنها أوفر منها حيوانَ صيدٍ ، وأن جميع الكائنات من حيوان وجماد لها أرواح منها الخير وغير الخير ، و يتقون شر النوع الأخير باستعمال التعاويذ ، و يعتقدون كذلك فى التفاؤل

والتشاؤم ، ولكنهم لايتجهون إلى آلهتهم بالعبادة أو بالقرابين ، على أنهم يقيمون حفلات دينيه يحتل فيها الرقص مكانة ممتازة .

وتحدث الدعوة إلى الرقص بضرب الطبول ؛ وعندما تدق الطبول داعية إلى حفلة راقصة يدهن النساء أجسامهن ويلبس الرجال والنساء أبهى حللهم ويعقدون اجتماعا فى الجزء الأوسط المظلم من المنزل الذى لايضيئه إلا ضوء ضئيل ينبعث من مشاعل خافتة . وفى بعض رقصاتهم يتجمع الرجال الذين غالباً ما يلبسون أقنعة من نسيج من لحاء الشجر ويحملون الدفوف والشخاشيخ ، على هيئة دائرة متشابكى الأذرع ، أما النساء فإنهن يرقصن داخل هذه الدائرة أو خارجها وقد وضعن أيديهن اليسرى على أكتاف الرجال . ويتخلل الرقص غناء وولائم وشراب .

وقد تغير نظام حياة الهنود الذين يعيشون قرب الأنهار العظيمة لاسيما فى أجزائها الدنيا ، وذلك عن طريق احتكاكهم بالجنس الأبيض . أما القبائل التى لا تزال على حالتها البدائية فإنها لا توجد الآن إلا فى أعماق الغابات الكثيفة ، وحتى فى الأجزاء الشمالية الغربية من أمزونيا بين نهرى إسا Issa وجابورا تطورت حياة الهنود نتيجة لاختلاطهم بتجار المطاط . وفيما بين ١٩٠٣ و ١٩١٠ تغيرت نظم الحياة بين الوتوتو تغيرا تاما وتعرضوا لكثير من أعمال الوحشية ، ومعظمهم يعيش الآن فى جمهورية

پيرو ويتكلمون اللغة الإسپانية . وكذلك البورو الذين كان عددهم يقدر بنحو خمسة عشر ألف نفس قد نقصوا إلى العشر ، نتيجة للعسف الذى قوض أسس الحياة القبلية فى الإقليم بأجمعه ، وكثير من الذين بقوا على قيد الحياة يشتغلون الآن بصناعة المطاط ويتكلمون الإسپانية ، ولكن عددا قليلا منهم فقط لا يزال يعيش فى البرازيل .

الفصل الحادى عشر

الزراع البدائيون

فى إفريقية الاستوائية

الغابات الاستوائية الإفريقية التى توجد فى الناحية الغربية من القارة — لا فى الناحية الشرقية كما هى الحال فى أمريكا الجنوبية — لا تبلغ فى امتدادها ماتبلغه نظيرتها فى أمزونيا . وتغطى النباتات الضخمة الكثيفة الإقليم الذى تجرى فيه روافد الكنغو الشمالية ، وكذلك الإقليم الواقع حول الأجزاء الدنيا لروافده الجنوبية ، وتمتد بحذاء ساحل غينيا حتى نهر جامبيا . على أن غابات حوض الكنغو ليست متصلة كغابات ساحل غينيا أو أمزونيا ، إذ توجد هنا مناطق منخفضة مغطاة بالغابات تتخللها مناطق من الساڤانا ذات الأعشاب الطويلة والأشجار المتناثرة . وتنمو فى الغابات بعض الأشجار ذات الخشب القيم كالموجنه ونخيل الزيت وشجر المطاط وكذلك الموز والكولا .

وتقع المنطقة التى تغطيها الغابات على جانبى خط الاستواء ، ولذلك كان معدلها الحرارى عاليا إذ يبلغ نحو ٨٠° ف (نحو ٢٧° م) على أن معدل الحرارة فى بعض أجزاء ساحل غانة يقل عن ذلك ما بين ديسمبر وفبراير ، إذ قد تهبط الحرارة إلى ٦٥° ف (نحو ٢٢° م) كلما هبت الرياح المعروفة باسم الهارمتان .

ويسقط المطر فى جميع فصول السنة ويزيد متوسطه فى كل مكان على ٦٠ بوصة ، وقد يزيد على ١٠٠ بوصة فى بعض البقاع ، ولكنه لا يسقط فى جميع الفصول بنفس المعدل ، ففى بلاد غينيا مثلا يسقط أغزر المطر من إبريل إلى يولية ، بينما فى بعض أجزاء حوض الكنغو يسقط أغزره بين أغسطس وديسمبر . وقد كان من أثر هبوب تيار غينيا الحار أن صار المدى الحرارى فى إقليم غينيا قليلا جدا وصار مطره أغزر ، ومن جهة أخرى يتسبب تيار بنجويلا البارد الذى يسير شمالا بحذاء الساحل الغربى لإفريقية الجنوبية فى خفض حرارة هذا الإقليم وتقليل مقدار المطر الساقط على الساحل جنوب مصب الكنغو . والرطوبة عالية دائما فى كل مكان ، والجو دائما خانق ومشبع بالبخار كما هى الحال فى أمزونيا .

وقد أدى تناقص مقدار المطر وزيادة طول الفصل الجاف إلى التناقص

فى كثافة النبات على أطراف الغابات وانتهائها تدريجيا إلى السافانا ثم إلى أرض البساتين ، فنرى الأشجار الضخمة دائمة الخضرة التى تنمو فى الغابات الاستوائية قد حلت محلها هنا أشجار نفضية مثل الباوباب والخرنوب (Locust) ، بينما العشب الذى قد يصل ارتفاعه إلى اثنى عشر قدما يزكو خلال موسم المطر فقط ثم لايلبث أن يجف ويصبح من السهل إشعال النار فيه .

و إذا استثنينا الأقزام الذين تكلمنا عنهم فى الفصل الأول نجد أن سائر سكان الغابة يعيشون على الزراعة ، ولا تزيد أدواتهم الزراعية على عصى الحفر والفؤوس ، وهذه الأخيرة أرقى كثيراً من الأولى . وللفأس سلاح من الحديد طوله نحو قدم وعرضه نحو سبع بوصات أو ثمان ، وفى أسفلها خرزة من الحديد لا من الحجر . وقد وصف أحد الرحالة طريقة إعداد الأرض فى غابة من غابات حوض الكنغو فقال :

« تقطع أولا النباتات التحتية والفروع الصغيرة ، ثم تقطع الأشجار الكبيرة على ارتفاع نحو ثمانية أقدام من سطح الأرض، ويتركونها مكانها بعد سقوطها . وعند انتهاء العملية يكون العشب والنبات التحتى الذى قطع أولا قد جف لدرجة تسمح باستعماله فى القضاء على الأشجار الضخمة التى لم تقطع بعد ، فيجمعونه حول ضخام الأشجار ويوقدون فيه النار

فتحرق قشورها وتقضى على الحياة فيها ولا تترك منها إلا أغصانا جرداء تمد أذرعها فوق زراعات الموز والدخن والأرز والذرة والبطاطا والمانيوق »[1] .

وقد أنشأ الوطنيون فى بعض البقاع مزارع للموز ، ولكن هذه لا تمتد شمال خط عرض ٤° ش فى وسط القارة وخط عرض ١١° ش فى سائر الجهات . وزراعة الموز عمل هين تقوم به النساء ، فإن شجرة الموز الأصلية تخرج كل عام أعواداً جديدة يمكن نقلها إلى مزارع جديدة . وهم يحفرون فى الأرض حفرة يضعون فيها العود ثم يردمونها ويدكونها بالأقدام حول العود دكا جيدا، وبعد ذلك يؤتى أكله فى نحو عشرة أشهر. وتقطع النساء أغصان الموز بالسكاكين ويحملنها إلى المنازل فى سلال . ويقال إن الرجل فى إقليم الموز يستطيع بمساعدة ثلاث زوجات أو ثلاثة عبيد أن يحيا حياة سهلة ميسرة ، لأن النساء يحملن إليه الموز كل يوم من المزرعة ، وقد يزيد وزن مايحملنه فوق ظهورهن من ثمار الموز على قنطار . ومما تقوم النساء بعمله أيضا تحضير شراب مخدر من ثمار الموز .

على أن زراعة الجذور ولاسيما الصرغم أوسع انتشارا ، ويزرع الدخن فى بعض المناطق ولاسيما التى تقطنها شعوب أتت فى الأصل من الأقاليم

(1) Major Powell - Cotton, Geog. Journal, vol. XXX. P. 377

المكشوفة فى الشمال حيث تكون زراعة هذه الحبوب أكثر سهولة . وقد حلت زراعة الأذرة والمانيوق ، وكلاهما مستورد من أمريكا ، محل الدخن والصرغم فى أكثر المناطق لسهولة زراعتها ولكثرة مايعطيان من محصول بالنسبة لما يبذل فى زراعتهما من جهد .

ويلعب الدخن دورا هاما فى الزراعة الإفريقية فى جميع الإقليم الواقع بين الغابات والصحراوات ، وتؤكل حبوبه بطرق شتى كما يصنع منها الخبز أيضا . والعمل فى إقليم الدخن أشق منه فى إقليم الغابات ، بسبب تناقص المطر واقتصاره على أشهر الصيف وطبيعة التربة الفقيرة الصلدة . على أنه من السهل إحراق العشب . ويقوم الرجال فى هذا الإقليم بدور فى الزراعة أكبر مما يقوم به الرجال فى إقليم الغابات .

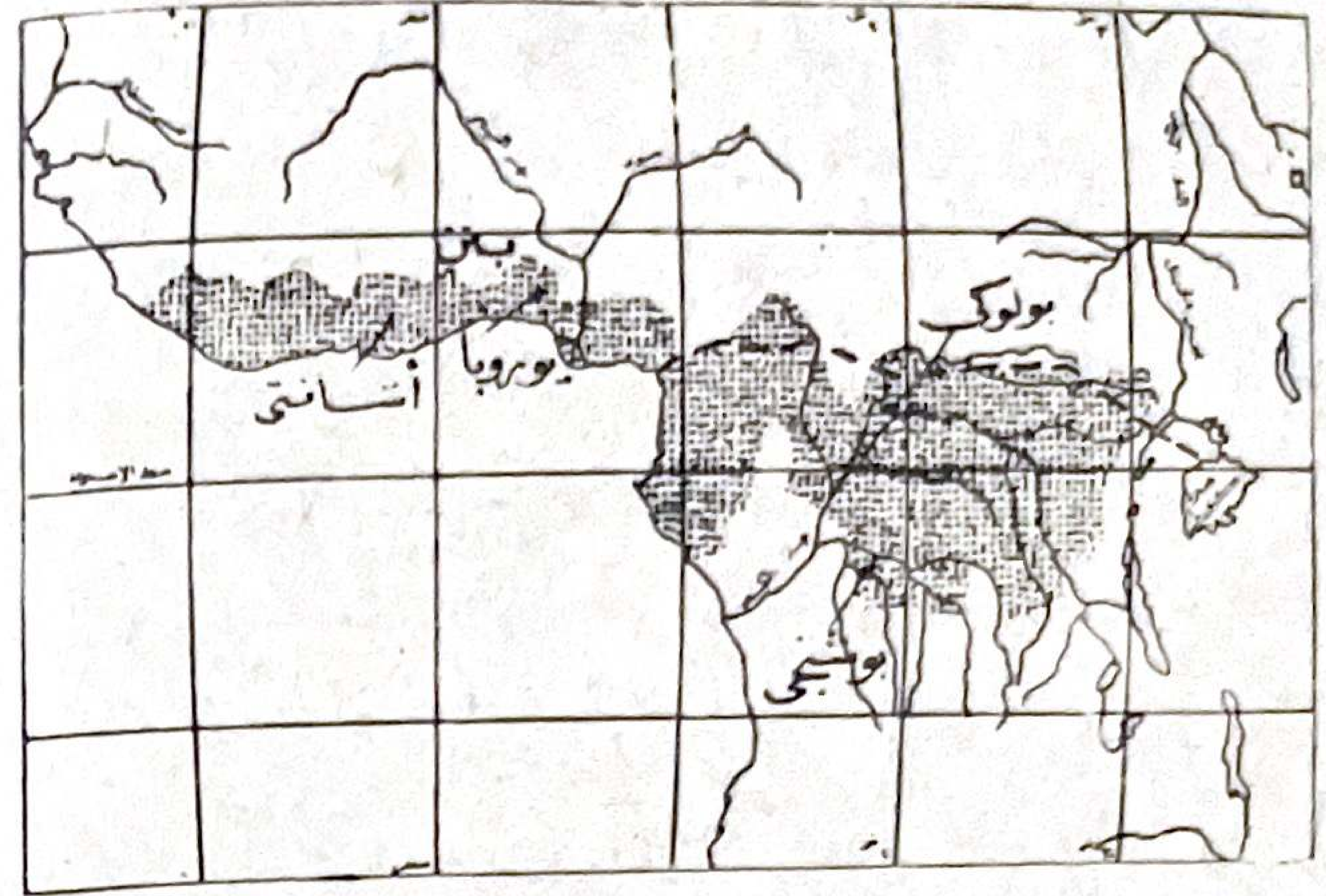
وتزرع حبوب الدخن فى نهاية الفصل الجاف ، فتحفر فى التربة حفر غير عميقة بعضها على بعد نحو ثلاثة أقدام من بعض ، وتوضع فيها الحبوب ثم تغطى بالتراب . وبعد ماينمو النبات يقلعون من كل حفرة بعض الأعواد ليبقى النبات خفيفا[1] . وما يقلعونه من حفرة يستطيعون زراعته فى مكان آخر . وتُعزق الأرض مرة واحدة ثم يترك النبات وشأنه إلى وقت الحصاد . ولا بد لهؤلاء الزراع من الصبر وبعد النظر لأن كل تقصير

(١) العملية المعروفة عند الفلاحين المصريين باسم « خفّ النبات » .

من جانبهم له عواقبه السيئة ، لأن « الذى يخلو مخزنه لابد أن يجوع أو يلجأ فى النهاية إلى جحور النمل ليسلبها مابها من حبوب » .

وقد يبادر أحد بعيدى النظر إلى مد يد المساعدة إلى من أهمل فيقرضه طعاما فى مقابل خدمة ، وبهذه الطريقة يستطيع بعيد النظر أن يكسب نفوذاً ، وقد ينتهى به الأمر أن يصبح نافذ الكلمة فى قومه أو شبه زعيم .

وجميع سكان الغابات ، فيما عدا الأقزام ، ذوو بشرة قاتمة وشعر أسود متلبد ، وهم جميعا زنوج خلص أو زنوج يتكلمون البانتو ، أوهم — كما يطلق عليهم أحيانا — بانتو . ويتشابه الزنوج فى كل مكان فى مميزاتهم الجسمية وفى تعدد لغاتهم تعددا مدهشا . بينما نرى العكس هو الصحيح فيما يختص بالبانتو الذين يتكلمون جميعا لهجات مختلفة تنتمى إلى لغة واحدة . والواقع أن اسم بانتو يطلق على جميع الشعوب ذات البشرة القاتمة الذين يستعملون لفظ « نتو » مثل أمْ — نتو (رجل) و « أبا — نتو » (رجال). والزنوج من أحسن المشتغلين بالزراعة من الشعوب البدائية ، فهم يكافحون سرعة نمو النباتات البرية ويقطعون الأشجار ويحرقون الغابات ليعدوا الفراغ اللازم لزراعاتهم ؛ وفى كثير من البقاع يزرعون أكثر مما يحتاجون ويخزنون ما فاض عن حاجتهم فى مخازن فوق سطح الأرض أو تحتها .



(شكل ٥٤)

خريطة تبين الجهات التى تسكنها بعض قبائل إفريقية الاستوائية

والمعتقد أن ظهور البانتو يرجع إلى نحو حوالى ألفى سنة ، وأنهم نشأوا فى إقليم البحيرات الاستوائية الإفريقية نتيجة التزاوج بين الزنوج و بين الحاميين ذوى البشرة الأخف سوادا ، وهم لذلك يجمعون بين رعى الماشية الذى يشتغل به الحاميون و بين الزراعة التى يشتغل بها الزنوج ، ولكنهم يفضلون الزراعة على الرعى حيثما كانت الأرض صالحة لذلك .

وسكان إقليم غانة زنوج حقيقيون ، بينما سكان حوض الكنغو ينتمون فى الأصل إلى البانتو . والخط غير المنتظم الذى يفصل البانتو عن الزنوج الحقيقيين يمتد من مصب نهر ريى **Rio del Rey** فى الغرب عبر القارة

إلى مصب نهر تانا[١] . والحد الشمالى للإقليم الذى تقطنه الشعوب ذات البشرة السوداء يمتد من مصب نهر سنغال إلى تمبكتو إلى الخرطوم ، ثم يسير جنوبا وغربا إلى الحبشة حيث يسير مع حدودها الغربية والجنوبية إلى نهر جوبا ، و بعد ذلك يسير مع مجرى النهر حتى مصبه فى البحر .

والإقليم الذى تغطيه الغابات يقطنه عدد من الجماعات المستقلة ، ولكن يوجد عدا ذلك قليل من الولايات الوطنية الكبيرة بكل منها ربع مليون من السكان أو يزيد ، ولكل منها نظامها الحكومى المستقر . ومن هذه الولايات أشانتى وداهومى ويوروبا وتقع جميعها فى غرب إفريقية . ولكن كانت هناك أيضا دول من هذا القبيل فى حوض الكنغو حيث كانت مملكتا كنجو و بالوندا فى القرون الوسطى ومملكة بوشونجو فيما تلا ذلك من العصور . والذى كان يحدث غالبا أن هذه الممالك كان يؤسسها شخص أجنبى على جانب عظيم من القوة كان تفوقه الحربى يساعده على بسط نفوذه السياسى .

والبوشنجو الذين كانوا يسيطرون على منطقة تقع فى حوض الكاساى يشتهرون فيما اشتهروا به بالفنون الرفيعة . ولا تقتصر هذه على الصور

---

(١) نهر ينبع من جبل كينيا ويجرى إلى الجنوب الشرقى ويصب فى خليج يونجاما فى المحيط الهندى .

الخشبية المتناسقة تناسقا عجيبا والمغطاة برسوم غاية فى الجمال ، بل لقد مارسوا أيضا صناعة التماثيل ، وما صنعوه لملوكهم الأقدمين من تماثيل خشبية يعد من أبدع ما أنتجه الوطنيون فى إفريقية . وقد كانت أرقى قبائل غرب إفريقية فى الفنون هى قبائل بنين Benin التى أظهرت مهارة عظيمة فى صناعة الصلصال ، كما أن أدواتهم المنحوتة من العاج وأقنعتهم الخشبية والعاجية وأدواتهم المصنوعة من البرونز كلها جديرة بالذكر . وأحسن مثل لهذه الأخيرة رأس زنجية شابة محفوظ الآن بالمتحف البريطانى . وأرق هذه التحف الفنية تنسب إلى القرن السادس عشر ، ومع أنه لا جدال فى أنها من صنع الزنوج إلا أنه لا مفر من اعتبارها دليلا على تأثير الفن الأوروبى ، ونعنى الفن البرتغالى بالذات .

ولنتكلم الآن عن حياة جماعة من الجماعات الصغرى الأبعد بدائية فى حوض الكنغو ، ولتكن جماعة البولوكى التى تعتبر فى رأى بعض الثقات بطنا من بطون البانجلا ، والتى تنتشر مساكنها فى مسافة مائة وخمسين ميلا على طول نهر الكنغو ، بالقرب من الثنية الكبرى الواقعة فى منتصف مجراه على بعد درجات قليلة إلى شمال خط الاستواء . ومجرى النهر فى هذه المنطقة مملوء بالجزر وتحتل مجاريه العديدة منطقة عرضها سبعة أميال أو ثمانية . وفى كل عام يفيض النهر مرتين ، فى مايو ونوفمبر ، فيغطى

الأراضى الواطئة ، فإذا انحسر ماء الفيضان بقيت هذه الأرض مملوءة بالبرك والمستنقعات التى تحف بها غابات من نخيل يسمى رافيا **raffia palms** يصنع الأهالى منه خمراً .

والبولوكى — كمعظم قبائل حوض الكنغو — شعب من شعوب البانتو ، وهم يتفاوتون تفاوتاً عظيما فى صفاتهم الجسمية ، ورجالهم على العموم أطول من المتوسط قليلا ، وأعضاؤهم متينة البناء وأجسامهم متناسقة تناسقاً مدهشاً ، ورؤوسهم طويلة وأنوفهم عريضة ومفلطحة فى الغالب ، وفكاكهم بارزة وشفاههم غليظة ولون بشرتهم داكن كالشوكولاتة وشعرهم أسود ومفلفل وقصير ، على أن منهم — كما هى الحال فى كل مكان — أفراداً ملامحهم أقل زنجية ، فلونهم أخف سواداً وشفاههم أقل غلظة وأنوفهم أقل فلطحة .

ولا يتدثر هؤلاء الناس إلا بالقليل من الملابس ، ويسير الرجال والنساء حفاة الأقدام عراة الرؤوس ، وتلف النساء حول الوسط مآزر من أهداب مصنوعة من جريد النخل المكحوت ، وقد يصل عدد ما يلبس من هذه أحياناً إلى خمس عشرة ، وحينئذ تصبح صلبة ذات قوام متماسك كفستان الرقص . ويغطى الرجال الكشحين بإزار من لحاء الشجر ، فتؤخذ قطعة من لحاء شجرة التين البرية وبعد أن تنقع فى الماء توضع فى راحة اليد



(شكل ٥٥)
امرأة ثرية من الأهالي الأصليين

وتضرب بمدقة من العاج . على أن أغلب الوطنيين الآن يغطون مزيداً من أجسامهم بمنسوجات قطنية من صنع أوروبا .

ويتزين الوطنيون بعقود من الخرز ، ولكن أعجب ما لديهم من أدوات الزينة حلقات متفاوتة الاتساع من النحاس الأصفر تلبس النساء عدداً منها حول الذراعين وواحدة أو أكثر حول كل من إبهامي القدمين ، بينما تلبس حول الساقين حلقات حلزونية الشكل . وتلبس حول العنق أحياناً طوقاً ثقيلا من النحاس أيضاً قد يصل وزنه إلى ثمانية وعشرين رطلا .

ولا يعرف هؤلاء الناس الوشم بمعناه الصحيح . ولكنهم يعرفون التشريط ، وهو غالباً من العلامات الدالة على القبيلة . وطريقة التشريط هي أن يحدثوا جرحاً فى اللحم ثم يحشوه لكى يبقى اللحم على جانبي الندبة بارزاً . وتقص النساء أحياناً شعر أزواجهن ليتمشى مع « المودة » السائدة .

ويقيم البولوكى قراهم على ضفاف الأنهار أو بالقرب منها ، وهى تختلف فى مساحتها من القرى الصغيرة التى تضم خمسين أو ستين نفساً إلى المدن التى تضم بضعة آلاف . وكل قرية من هذه القرى تتكون من صفوف متوازية من الأكواخ تتجه واجهتها فى العادة جهة النهر ، ويفصل كل صف عما يليه طريق متسع أو زراعة من زراعات الموز . وكثيراً ما يكون صف كامل من الأكواخ ملكا لفرد واحد يخصص الأوسط منها



(شكل ٥٦) شارع قروى فى مونسى

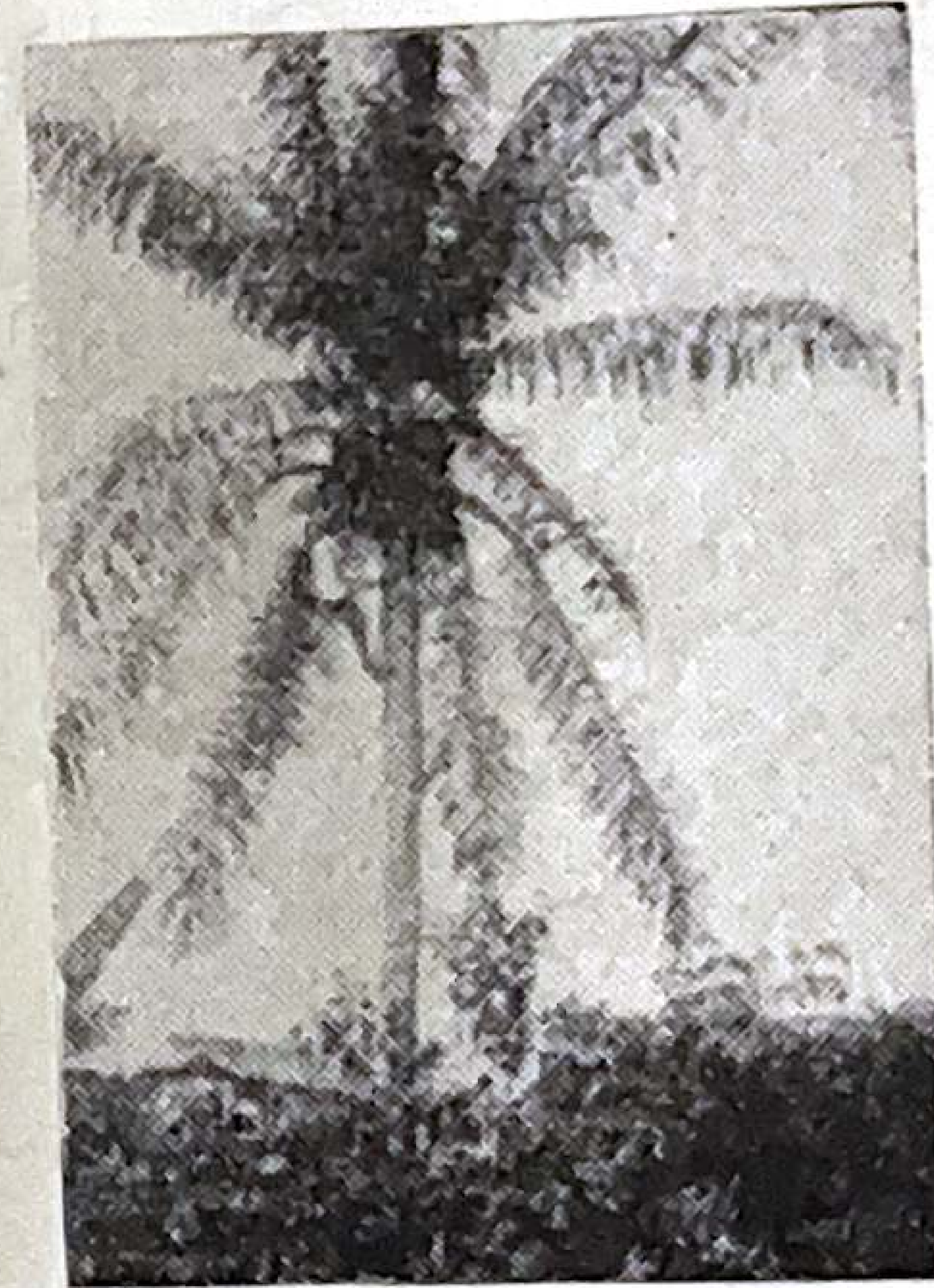
لسكناه وسائرها لزوجاته الكثيرات ، ولا يقتصر منهم على زوجة واحدة إلا أفقر الرجال . ويُقام الكوخ على أرض مستطيلة الشكل ، وتصنع حيطانه من طبقتين من القصب المفلوق بينهما فراغ عرضه بوصة أو نحوها يملأ بالعشب الجاف . وتربط الحيطان بالجديل إلى أعمدة تدق فى الأرض ، ويصنع السقف المنحدر من أغصان النخيل الجافة .

وتحيط بكل قرية أرضها التى تمتلكها بحدودها التى يعترف بها جيرانها والتى تتبع عادة بعض المعالم الطبيعية . وعند ما تتباعد القرى أو المدن تعتبر الأرض التى تفصل حدودهما أرضا محايدة ، يحل الصيد فيها وقطع الخشب منها لكل من الفريقين .

ويستطيع الفرد أن يزرع أى بقعة فى حدود الأرض التى تملكها قبيلته ، طالما أن هذه البقعة لا تقوم فيها زراعة شخص آخر . ولما كانت الأرض تتعرض للاجهاد السريع كان من الضرورى إعداد بقعة جديدة كل ثلاث سنوات أو أربع . ويقوم الرجال بإعداد الأرض ويساعدون أحياناً فى عمليات الزراعة الشاقة التى لا بد منها عندما يوشك فصل الأمطار العظمى أن يحل ، وماعدا ذلك من أعمال الزراعة والحصاد يوكل إلى النساء . وتستمر أعمال الزراعة والحصاد على مدار السنة ، وأشهر الحاصلات التى يزرعونها الصرغم والمانيوق والقرع والدخن والذرة . وتزرع

من هذه الحاصلات أنواع عديدة وفى مواسم مختلفة ، كى يكون هناك عدة محاصيل فى السنة الواحدة . وما يخزن من حبوب الصرغم المعدة للتقاوى يكوم أكواماً كل منها ارتفاعه نحو قدم وطوله نحو قدمين ؛ أما أعواد الصرغم فتسند بالعصى أثناء نموها . ويُزرع بين هذه الأكوام القرع وغيره من المحاصيل . والمانيوق الذى حل محل الصرغم فى أكثر الأنحاء من أجل دقيق الكاساڤا الذى يؤخذ من درناته يمكن حفظه عدة أسابيع بعد طبخه ، وتخزن منها مقادير كبيرة .

وتجمع من الغابات محاصيل كثيرة ،منها حبوب الكولا ونخيل الزيت



(شكل ٥٧)
نخلة الزيت

وغيرها من الثمار . وحبوب الكولا التى تستعمل غذاء كما تستعمل منبها هى ثمرة شجرة تسمى ستيركوليا ألومنياتا (**Sterculia Aluminiata**) ، وهى تخرج عدداً من الثمرات الضخمة كل منها تحتوى على عدد من ثمار الكولا يتراوح بين أربعة وستة لونها يضرب إلى الاحمرار ، وهى قريبة الشبه جدا بثمرة كستناء ضخمة . ومن الممكن الاحتفاظ بها صالحة للطعام مدة عامين أو ثلاثة طالما بقيت رطبة ، لكنها إذا جفت تشققت وتغضنت وأصبحت صلبة كالخشب ولم تعد لها فائدة .

وتنمو أشجار نخيل الزيت متفرقة فى أنحاء الغابة ، ويزداد عددها فى البقع التى يغزر فيها المطر ، وذلك قرب سواحل البحار . ففى نيجيريا مثلا يقال إن نخيل الزيت لا ينمو على مسافة من البحر تزيد على ١٥٠ ميلا



(شكل ٥٨)
ثمرة نخلة الزيت

وعندما تقطع الأشجار فى أى بقعة لإعدادها للزراعة لا يمس ما قد يكون بها من هذه الأشجار . والنخيل من ممتلكات الأفراد الخاصة ، وليس من الضرورى أن يكون هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين يزرعون البقعة التى تقوم فيها أشجار النخيل . وينمو ثمر النخيل على هيئة عناقيد أسفل الجريد ، ويضطر الوطنى أحياناً أن يتسلقها إلى ارتفاع مائة وخمسين قدما حتى يصل إليها . والثمرة فى شكلها « شىء بين الأناناس وبين عنقود ضخم من الصنوبر ملئت ثناياه » ، ويحتوى قشرها الخارجى على كثير مما يسمى « البندق » ولو أن هذه التسمية غير دقيقة لأن الثمرة تشبه البرقوق الأصفر شبها كبيراً ، وجلدها الناعم اللزج يضم كتلة من الألياف والدهن . وتقوم النساء بتحضير الزيت ، فهن يغلين الثمر بعد نزع قشرته الخشنة ثم يعدن غليه مرة أخرى ويكشطن المادة الدهنية التى تطفو على السطح . ويستعمل الوطنيون هذا الدهن فى تحضير كثير من أطعمتهم كما يستعملونه أحياناً فى الإضاءة .

ويحضّر النبيذ من تخمير عصارة نخيل الرافيا ، وذلك بأن يقطعوا فى الشجرة حزوزا يسيل منها العصير فيتلقونه فى قرعة أو أى إناء آخر مثبت إلى جذع النخلة أسفل الحزوز . على أنهم قد يقطعون الشجرة ثم يأخذون كتلة الجمار التى تعلوها فينزعون ما بها من جريد صغير ثم يمتصون

منها العصير ، وهو ذو طعم يميل إلى الحلاوة ، ولكنه بعد أيام من تخمره يكتسب طعما مرا لاذعا كحوليا جدا . وهناك نوع آخر من النبيذ يحضرونه من قصب السكر ، فيأخذون أعواد القصب ويقشرونها ثم يدقونها حتى تتحول إلى كتلة من العجين ، وكثيرا مايضيفون اليها مادة مأخوذة من قشور نوع خاص من الأشجار لتزيد من سرعة تخمره ؛ وعندئذ يعصرون العجينة بطرقهم البدائية ويأخذون السائل الذى ينضح منها ويخزنونه فى أوانٍ من الفخار مدة عامين أونحوهما ثم يصبح بعد ذلك صالحا للاستعمال .

ولا يربى البولوكى من الحيوانات المستأنسة سوى سلالات منحطة من الكلاب والماعز والأغنام ، وهى تمدهم بقليل من اللحوم ، لأن أكثر اللحم الذى يستهلكونه يحصل عليه الصيادون الذين يقنصون حيوانات الصيد المختلفة من خنازير الأدغال إلى الجاموس البرى والأفيال . على أن حيوانات الصيد ليست وفيرة ، لأن فيضان النهر قد أدى إلى نقص فى عددها ، كما أن حركة الملاحة فى النهر قد ملأت بعضها رعبا فنأى بنفسه عن شواطئه . ويقوم الرجال — تحت إرشاد القادة المشهود لهم بالتوفيق فى الصيد — بالالتفاف حول الحيوان فى المنطقة التى تملكها القبيلة ، ولكنهم يحرصون قبل بدء هذه العملية على أن يقيموا الاحتفالات اللازمة لمقاومة فعل أرواح الغابة ، وكذلك يحرصون على أن يحملوا معهم أينما كانوا تمائمهم الخاصة . ويتسلح الرجال بحراب خفيفة ذات أيد رفيعة

ورؤوس صغيرة بعضها مسنن على كلا الحدين . وتصاد الحيوانات الصغيرة — مثل صغار الغزلان وفئران النخيل وخنزير الأدغال — بواسطة إيقاعها فى شباك مصنوعة من حبال طويلة توضع فى شكل نصف دائرة حول المكان الذى به الحيوان ، و بعد ذلك يعمل الصيادون على سوقه نحوها .

أما حيوان الصيد الكبير كفرس النهر والفيل والتيتل ، فتنصب فى طريقها فخاخ ذات زنبرك . وطريقة نصب هذه الفخاخ أن يقام على جانبى الطريق الذى يمر به الحيوان عمودان بينهما نحو أربعة أقدام وتثبت فوقهما عارضة خشبية مثبتة تعلو عن الطريق اثنى عشر قدما ، وفى وسط هذه العارضة وفوق الطريق تماما تربط كتلة من الخشب مثبت فى طرفها الأسفل حربة قوية أو نحوها ، بحيث إذا مر بالطريق حيوان ومس الحبل الذى يعترضه هوت الكتلة الخشبية وارتشقت الحربة فى جسم الحيوان . وقد يلجأون إلى حفر يحفرونها فى الطريق التى يمر منها الحيوان ويثبتون فى قاعها خوازيق ثم يغطونها بالأغصان وأوراق الشجر والعشب .

والسمك فى نهر الكنغو وفير ويصاد بوسائل متنوعة ، ففى وقت الفيضان تقام بعرض الروافد التى تزخر بالماء فخاخ وحواجز من الجديل ، فإذا انخفض مستوى الماء فى النهيرات أصبح من السهل الحصول على مقادير كبيرة من الأسماك ، وهذه يحتفظون ببعضها فى المستنقعات ويغذونها

بالقواقع ودقيق الكاسافا ادخاراً لوقت الحاجة . وتستعمل للصيد فى نهر الكنغو نفسه أنواع عديدة من الشباك ومن الفخاخ المصنوعة على هيئة السلال . وقد يخرج الصيادون جماعات صغيرة فى ليلة مظلمة يحملون فى أيديهم مشاعل تغرى السمك بالظهور على سطح الماء وحينئذ يقذفونه بالحراب . و يختلف حجم الحراب التى يصاد بها السمك ، ولكن أيديها دائماً طويلة إذ يتراوح طولها بين عشرة أقدام واثنى عشر ، وتأخذ فى الدقة نحو نهايتها ، وهى غالبا ذات سن واحدة ، ولكن معظمها مسننة (مشرشرة) . وكذلك يستعملون أنواعا عديدة من سم السمك يقتصر استعمالها على إلقائها فى الأنهار والغدران ، ولبعضها القوة على تخدير الأسماك وحينئذ يصبح من السهل صيدها .

وتطهى اللحوم والأسماك بطرق شتى فهى تطبخ فى قدور صغيرة من الفخار أو تسوى على النار أو تلف فى أوراق الشجر وتغطى برماد النار الساخن : فإذا تعذر الحصول على اللحم والسمك صنعوا صلصة من الأوراق المعجونة مع الفلفل وزيت النخيل وأكلوها مع الكاسافا ، وهذا هو الصنف الرئيسى فى أكلة المساء التى تكاد تكون الأكلة اليومية الوحيدة.

ولا يجلس الرجال والنساء إلى الطعام سويا ، ويقدم الطعام أولا إلى من هم أكبر سنا ، فإذا كان هناك ضيوف قدم الطعام إليهم أولا

كل حسب سنه . ويُشرب الماء بعد الطعام ، لكن الخمر لا تقدم إلا فى المناسبات الخاصة ، ويغسل القوم أفواههم قبل كل وجبة و بعدها .

ومن عاداتهم الشائعة إقامة مجلس للشراب فى موسم حصاد قصب السكر ، وقد تدوم حفلات الشراب هذه أحيانا ثمانية أيام أو تسعة ، ويجتمع فيها الرجال الذين يجيئون هم وزوجاتهم على صوت الطبول (أو تليفون الطبول) كل زوجة تحمل الكرسى الخاص بزوجها ، كما تحمل إناءه الخاص الذى يشرب فيه . ولا تشرب امرأة إلا إذا ناولها زوجها القدح الذى به الشراب .

وللبولوكى ولع شديد بالغناء والرقص ، وكثيراً ما ينفجرون بالغناء حين يرقصون أو حين يجدفون فلائقهم قاصدين إلى زيارة ودية . وكثير من أغانيهم لا يخرج عن سرد حوادث محلية تافهة ، بينما أغانى الرثاء عبارة عن تعداد لمناقب الميت . وهم عادة ينشدون أغانيهم مجتمعين ، ولكن بعض أغانيهم ينشدها واحد تردد وراءه جماعة . وقد يغنى كل من الرجال والنساء على حدة ، لكن الغالب أن يغنى الرجال والنساء معا بمصاحبة آلة أو مع ضبط الإيقاع بالضرب بعصا على لوح أو بالتصفيق باليدين . ويبدو أن قرع الطبول المنتظم يحدث فيهم أثرا لا يحدثه صوت آخر ، فهو يشجعهم على بذل أقصى جهد فى التجديف ساعات متواصلة تحت

أشعة الشمس المحرقة ، وعلى الرقص أمسيات بأكملها وهم يتصببون عرقا ، أو ليالى بطولها ، وعلى خوض المعارك مستهينين بالحياة ، وعلى الاستمرار فى الشراب حتى لا يستطيعون المزيد .

وللرجل أن يتخذ من الزوجات العدد الذى تسمح به موارده ، على أن يقيم لكل منهن مسكنا خاصا لأنهن جميعا متساويات فى الحقوق . وإذا تزوج الرجل من سباياه — على أن الرجال الأحرار لا يفعلون ذلك أبداً — بقيت زوجاته إماء له و بقى له حق قتلهن أو بيعهن. ويحصل الرجل على زوجته بطريق الشراء ، ولكن كثيراً ما تُخطب البنات أو حتى الأطفال ، وفى هذه الحالة يضع الشارى فى ذراع البنت بمجرد دفع مهرها أسورة من النحاس الأصفر أمام شهود قائلا : « هذه زوجتى » ، لكن الزواج الفعلى لا يتم إلا عند بلوغ الفتاة السن المناسبة ، فاذا كبرت الفتاة وقررت أنها لا تميل إلى الرجل فانها عادة لا تعدم وسيلة ترفض بها الزواج على شرط أن يُرد المهر الذى سبق دفعه .

ولا يقام وقت الزفاف غير حفل صغير ، ولا يتم الزفاف إلا بعد أن يعد العريس لعروسه منزلا ، فإذا حل اليوم المرتقب يصحب الوالدان ابنتهما ، ويحملان معهما مدداً من الطعام والخمر إلى منزل الزوجية ، و يسلمان العروس إلى زوج المستقبل بوضع يدها فى يده بحضور شهود يشتركون فيما بعد فى

الولية والشراب والرقص التى بها تكمل بهجة الحفل . والعائلات فى العادة
قليلة العدد ، ومن الشيع أن يرث الأطفال طوطم أبيهم ، إذ تقضى التقاليد
أن يرث الأبناء حقوق والدهم . ويلقى الأبناء من آبائهم معاملة حسنة إلى
حد أنها قد تفسدهم . ومن عاداتهم أن يحدثوا فى جبهة الطفل وهو فى سنى
طفولته الأولى ندوبا هى فى العادة علامة ترمز إلى القبيلة التى ينتمى إليها .
وعند ما يكبر الطفل يشجعونه على أن يحدث بنفسه هذه الندوب وعلى
أن يتحمل آلام ذلك بشجاعة . وفى سن الثامنة عشرة أو العشرين تكون
كل الندوب التى استحدثت بجبهته قد نتج عنها تجمعات فى الجلد تجعله
شبيها بعرف الديك ، وعلى عارضيه تجمعات تشبه جريد النخيل . وهناك
نوع آخر من الألم يدرب النشء على تحمله هو برد القواطع الأمامية حتى
تصير مدببة على شكل حرف V .

وأطفال الأم الواحدة سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً ينشأون معاً فى منزلها
إلى أن يكبر الذكور ويصبح فى مقدورهم بناء مسكن خاص بهم . ولا يتعلم
الأطفال شيئاً عن طريق التلقين بل عن طريق الملاحظة والتقليد، وهم بهذا
يعرفون الشيء الكثير عن نواحى الحياة ، لأن كل شيء فى القرية يتم
علانية ، وكذلك يكتشفون بأنفسهم كثيراً من أحوال النبات والحيوان
وكذلك النجوم . فإذا كبر الأولاد وأصبح فى مقدورهم الخروج مع آبائهم،
صحبوهم فى خروجهم إلى الصيد والقنص والمتاجرة ، ويتعلمون أثناء ذلك

السباحة والتجديف وصنع الفخاخ ونصبها والشباك وإلقاءها وقذف الرماح .
وإذا كان للطفل قريب يشتغل حداداً أو طبيباً ساحراً ، ففى استطاعته حينئذ
أن يختار إحدى المهنتين وأن يعرف الكثير عنها عن طريق مصاحبته
لقريبه . وتصاحب البنات أمهاتهن إلى المزارع حيث يتعلمن الحرث والعزق
والزرع وجمع المحصول ، وهن فى المنزل يتعلمن الطهى وصنع الفخار والسلال ،
كما يجب على البنت أن تتعلم تسريح الشعر وتزيين الوجه والجسم بمختلف
النقوش والأصباغ لأن زوجها يتوقع منها أن تكون على علم بكل هذا .
وكذلك يجب أن تعرف كيف تصنع لنفسها إزاراً ذا أهداب من ألياف
جريد النخيل . ويتعلم الأولاد والبنات على السواء من آبائهم كثيراً مما
يتعلق بالسحر والتمائم .

ويلعب الأطفال كثيراً من الألعاب ، ولهم ولع خاص بألعاب
المحاكاة ، فهم مثلا يقلدون فى ألعابهم فن إدارة البيت والتسوق وإقامة
الولائم والزراعة . والآباء الذين يدللون أبناءهم يصنعون لهم حرابا صغيرة
ومجاديف وسلالا وفؤوساً يلهون بها . ويصنع الأولاد لأنفسهم أحياناً
دروعاً من الجدائل طولها نحو ثلاثة أقدام وعرضها نحو ثمانى بوصات ، وبعد
أن يتسلحوا بسيقان أعشاب الماء يتخذون منها حرابا وبسيقان الموز
يتخذون منها هراوات وبسكاكين من الخشب يرشقونها فى أحزمتهم ،

ينتظمون صفوفاً ويخوضون ما يعتبر محاكاة لمعركة حربية . وكذلك يغرم الأولاد بالمصارعة . ومن ألعابهم المفضلة أيضاً لعبة « مهد القط »(١) التى يقضى الأولاد والبنات على السواء ساعات طويلة يلعبونها ويرسمون بالخيوط أشكالا منوعة على أصابع اليدين والقدمين . ولا يشترك الكبار فى ألعاب الصغار ، فيما عدا لعبة واحدة من ألعاب المراهنة ، ولكن الكبار من جهة أخرى يحتكرون الرقص ، وهو لهو يشترك فيه الذكور والإناث .

ويمارس النساء صنع الفخار والسلال والحصير . ولهن مهارة فى ثنى الأعواد إلى الأشكال المنوعة اللازمة لصنع السلال ، وأشهر هذه الأشكال شكلان ، أحدهما كبير على هيئة إسفين ويستعمل لحمل حاصلات المزرعة إلى المنزل ، والآخر على هيئة مخروط ذى غطاء يمكن إحكامه ، وهو معد لوضع جذور المانيوق فيه أثناء نقعها . والنوع الأول من السلال يحملونه على الظهر ويمسكه رباط يمر حول الوسط أو حول الجبين ، أو يربط بشريطين صغيرين يمر خلالهما ذراعا الشخص الذى يحمله . ومعظم الفخاخ التى تستعمل لصيد السمك من نوع السلال .

---

(١) لعبة « مهد القط » لعبة شائقة فى كل مكان، وهى التى يمسك الشخص فيها بخيط طويل بين أصابع اليدين والقدمين ويرسم بالخيط أشكالا كلها تحاكى نسيج العنكبوت .

وتشمل صناعة الفخار عمل الصحون والقدور التى تختلف فى حجمها ولكنها لاتختلف فى شكلها ، وكذلك أقداح الخمر التى يتراوح ارتفاعها من ست بوصات إلى ثلاثة أقدام ، ومواقد النار التى تستعمل لحمل النار أثناء سفرهم فى فلائقهم . ولايستخدم البولوكى عجلة الفخار ولايحرقونه فى قمائن ، بل يصنع القدر أو القدح على قاعدة يضعون الطين فوقها طية فوق طية، مع إلصاق طرف الطية بما جاورها ثم تسوية جوانبها بالأصابع ، وهكذا يستمر العمل وتضغط الطبقات وتسوى جوانبها إلى أن يحصلوا على الارتفاع الذى يريدون ، ثم تسوى بعد ذلك الجوانب الداخلية والخارجية حتى تصير ملساء ، وفى أكثر الأحيان يزينونها بالأشرطة وعظام سمك الرنجة . وتحرق هذه القدور بوضعها فوق الخشب وتغطيتها بالأغصان ثم إشعال النار ، وبذلك تشتد صلابتها . وتطلى بعض القدور وهى لاتزال ساخنة جداً بصمغ السندروس فتصبح براقة ، وعندئذ تصبح من أنسب الأوانى للشرب ولكنها لاتصلح للطهى لأن السندروس قابل للالتهاب .

ويقوم الرجال بعمل الصناعات الجلدية والشباك المنسوجة من خيوط مصنوعة من لحاء الشجر ، والشراك والحراب . وتجهز الجلود عن طريق شدها ثم تثبيتها إلى الأرض بأوتاد من الخشب ،أو عن طريق ربطها إلى دعامات على شكل إطارات حتى يسهل إزالة ماقد يبقى عالقا بها من قطع

اللحم ، و بعد ذلك يدلك الجلد برماد النار و يترك فى الشمس حتى يجف . فإذا أرادوا الحصول على جلد طرى دلكوه بالزيت بعد أن يتم جفافه فى الشمس . وتستخدم الجلود فى أغراض شتى ، فجلد النمر مثلا إذا كان كاملا يستعملونه بساطا يجلس عليه الزعيم ، وجلود الثعابين الكبيرة يتخذونها أحزمة وأغمادا وجلودا للطبول ، بينما يتخذون من جلد فرس النهر دروعا .

وللحداد — الذى يعتقدون أنه يستخدم فى صناعته نوعا خاصا من السحر — مركز اجتماعى محترم بين قومه ، وهم يعتقدون أن ناره ذات خواص مقدسة . وفرنه حفرة مكشوفة عمقها نحو ثمانى عشرة بوصة، وقطرها عند فتحتها نحو خمس عشرة بوصة، وعند قاعها من ثماني بوصات إلى عشر . وتوضع قدر الصهر التى بها الحديد الخام فى الحفرة ، ويحمى عليها بفحم الخشب ، ثم يسلطون عليها تيارا هوائيا من منفاخ بدائى الصنع ليزيدوا النار اشتعالا . ويتكون النافخان من تجويفين أسطوانيين فى كتلة من الخشب ،بكل منهما فتحتان تتصلان بأنبوبة خشبية مشتركة تنتهى إلى ممر من الطين يؤدى إلى وسط الفرن . ولكل من الفتحتين غطاء من جلد ناعم مثبت فى وسطه عصا . ويحرك الحداد العصوين بالتناوب إلى أعلى وإلى أسفل،وكلما زادت همته زادت النار اشتعالا . وسندان الحداد قطعة من

الحجر الصلد ، ومطرقته قضيب من الحديد طوله من ثمانى بوصات إلى عشر ، بينما كماشته التى يقبض بها على قطع الحديد القصيرة عبارة عن قطعة من الخشب . ويستورد الحديد الخام من مسافات بعيدة ، و بعد أن يصهر فى أفرانهم البدائية تصنع منه الأدوات المختلفة كالفؤوس والبلط والسكاكين ورؤوس الحراب والسنانير والأزاميل والمناقير . على أن الواردات الأوربية من الأدوات الحديدية قد قضت على الصناعة المحلية .

وكذلك يشتغل الحداد بصناعة النحاس الأصفر ، فيعمل منه أدوات منوعة للزينة . وهو يحصل على حاجته من ذلك المعدن بقطع أجزاء صغيرة من القضبان النحاسية التى هى وسيلة التعامل ، وبهذه الطريقة لا يدفع ثمنا لحاجته من المادة الخام . وتصنع من النحاس الأصفر أيضا عقود كبيرة تلبس حول العنق ، وهى تصنع بطريقة الصب فى القوالب :

« فهم يأتون بمادة جذور الموز التى تشبه قطعة البطاطس ، يقطعونها حسب الشكل الذى يناسب الضخامة والاتساع المطلوبين ، ثم يؤخذ القالب ويحاط بالصلصال المعجون جيدا ، مع ترك فتحة على هيئة مدخنة ليتسرب منها الدخان وليخرجوا عن طريقها بقايا الجذور المحترقة ويصبوا منها النحاس المنصهر . وبعد أن يتم صنع هذا القالب يحرق فى النار فتحترق حينئذ

جذور الموز التى يتكون منها القالب ، وحينئذ تنظف بقاياها المحترقة ويصب مكانها المعدن السائل . وبعد أن يبرد يكسر القالب ويؤخذ منه الطوق المعدنى فيُلمع بالكحت والدلك ثم تحفر فيه رسوم تمثل أشكالا هندسية وعظام أسماك » .

وتصنع الأساور وأدوات الزينة الأخرى من أسلاك النحاس الأصفر ، وتصنع الحجال الحلزونية الشكل بالطريقة الآتية :

« يؤخذ عود القصب ويشق نصفين ، ثم يستخرج لباب أحدهما إلى العمق المطلوب ويصب مكانه المعدن السائل ، وبهذا يحصلون على قضيب من النحاس الأصفر يساوى السبابة فى سمكه ، فيأخذونه ويطرقونه بعناية ثم يكحتونه ويلمعونه ، وبعد ذلك يلفونه حول الرجل من العقب إلى قرب الركبة ، بحيث تكون كل حلقة من حلقات الحلزون أوسع قليلا من التى تحتها مباشرة » .

وتصنع أشرطة النحاس الأصفر بطرق قضبانه حتى تصل إلى الاتساع المطلوب ، وتستعمل هذه فى تزيين أيدى الحراب والسكاكين ومقابض المجاديف وغيرها .

وللنجارين مهارة فى صنع المجاديف وأيدى البلط والفؤوس والمقاعد والكراسى ؛ وهذه الأخيرة — وهى تنحت من كتل خشبية صماء —

ذات أربع أرجل وظهر منحن ، ولكن تكاليفها باهظة بحيث لا يستطيع اقتناءها غير الزعماء والرؤساء . وتصنع الوسائد من الخشب ، وهم لا يوسدون عليها رؤوسهم بل أعناقهم ، حتى يحتفظ الشعر بتسريحته ونظامه اللذين يبذلون فى سبيلهما كثيرا من الوقت والمال .

ويصنع البولوكو فلائق متنوعة الأحجام ، فبعضها صغير لدرجة أنه يصبح من السهل على أى طفل أن يسيّره ، وبعضها كبير لدرجة أنه يتسع لستين أو سبعين من الرجال يجدفونه ، ويتسع إلى جانب ذلك النحو نصف طن من البضاعة . وهى جميعا فلائق من النوع المحفور من جذوع الأشجار ، وتصنع عادة من نوع متين من الخشب ، كالشربين والموجنة والكام (camwood) . وعندما يتم اختيار الشجرة التى تناسب غرضهم يقطعونها ويقومون وهى فى مكانها بتشكيلها تشكيلا مبدئيا ، ثم يرسلونها نزلا فى النهر إلى حيث يوجد إخصائى الفلائق ، وهناك يجرونها على الأرض ويقيمون فوقها مظلة بدائية الصنع تحميها فى أثناء صنعها وتظلل الصانع الذى يقوم بعملها ، ولا يفوتهم أن يعلقوا فى المظلة تميمة ، إذ هى فى اعتقادهم تحول دون تشقق الفليقة وتبطل مفعول ما قد يراد بها من شرور السحر .

ولا يشرب صانع الفليقة ماء أثناء قيامه بالعمل فيها ، لأن ذلك فى اعتقادهم يؤدى إلى تشققها .

والبولوكى تاجر ماهر . ولكن لا توجد هناك أسواق ثابتة كما هى الحال فى غرب إفريقية ، وإذا فاض لدى أحدهم فائض من طعام أو بضاعة حمله فى القارب إلى قرية أخرى وعرضه للبيع . ومعظم البيع يحدث بالمقايضة ، وعندما يحدد البائع الثمن الذى يطلبه مقابل سلعته لا بد أن يدخل فى حسابه الجهد الذى قضاه فى عرضها للبيع ، وأجور الرجال الذين ساعدوه فى التجديف أثناء السفر بها إلى أماكن بيعها ، فان لم يفعل ذلك فقد يبوء من رحلته بالخسار .

وتعتبر الأرض ملكا لأهل البلدة جميعاً ولكن الفرد له الحق فى أن يملك العبيد وأن يملك مؤقتا القراح الذى أعده للزراعة ، كما أن له الحق فى أن يملك بعض الأشجار . ويرث الابن الأكبر مكانة والده وقدرا من ممتلكاته يزيد على ما يرثه سائر الأبناء ، وتؤول أملاك الزوجة إلى زوجها ، وإلا فإنها تؤول إلى ذريتها من الذكور والإناث .

وليس للبولوكى زعيم أعلى معترف به ؛ ولكل رب عائلة شىء من النفوذ بين عشيرته ، وهو مسئول عن الأخطار التى يرتكبها أفرادها . ويتكون من رؤساء العائلات مجلس قروى ، ولرئيس أهم العائلات النفوذ الأكبر فيه . على أن بعض القرى تتعاون وتنتخب من بينها قاضيا للإقليم يفصل فيما قد يقع بين القبائل من خلاف .

ومنذ سنين قليلة كان ما يقرب من ربع هؤلاء الناس أرقاء ، ومن هؤلاء من ولد رقيقاً ، ومنهم من قبض عليه وفاء لدين ، ومنهم من باع نفسه لسداد ما عليه ، ومنهم قليلون من أسرى الحروب . ولمالك العبيد مطلق الحرية فى التصرف فيهم كيف شاء ومن ذلك حق قتلهم ، ولكنهم فى العادة يلقون معاملة حسنة ، وإلا كان من السهل عليهم أن يتخلصوا من أسرهم بالهرب . وللعبيد الحق فى اقتناء ممتلكات ، على أن يكون ذلك بإذن أسيادهم الذين يعتبرون مسئولين عن أعمال مواليهم . أما الإماء فكانت وظيفتهن العمل فى الزراعة ورعاية الأطفال ، وكن أكثر من العبيد عدداً وأكثر منهم قيمة .

وكثيراً ما يعطى الوالد ولده رهينة فى مقابل دين . والرهينة أعلى منزلة من العبد ، فهو يؤدى عمله ولكنه لا يباع ولا يورث ، بل يمكن افتداؤه فى أى وقت وبذلك يسترد حريته مرة أخرى . والواقع أن عدد الأحرار أو المستقلين من الرجال والنساء قليل إذا استثنينا الرؤساء والزعماء ، أما سائر الناس فإنهم يرتبطون بالزعماء برابطة القربى أو العبودية أو الرهن أو التبعية الاختيارية ، إذ يحدث كثيراً أن عائلة ضعيفة ترتبط بالتبعية بعائلة قوية كى تتجنب المصير الوحيد للعائلات التى لا تجد من يحميها ، وهو العبودية .

وقد كانت الحروب فى الماضى تقع أحيانا بين بعض القرى و بعض ، بل كانت أحيانا تقع بين عائلات القرية الواحدة ، ولكن لم تكن هناك حروب منظمة أو غزوات من أجل الحصول على أسرى أو من أجل الفتح. وكانت الحراب والسكاكين — وفى الزمن الحديث البنادق — هى أسلحة تلك الحروب ، وكانوا يتقون ضربات الحراب بالدروع و بأحزمة جميلة الصنع من نسيج القطن تلف مراراً كثيرة حول الوسط . و بعض الرجال كانوا يلبسون فوق ظهورهم أيضاً دروعا من جلد فرس النهر لتحميها من الحراب . وكانت دروعهم الطويلة الضيقة من أعشاب مضغوطة تجدل جديلا قويا تزين بالجلود حول أطرافها ، بينما يضعون على الظهر لوحا تبلغ مساحته ربع مساحة الدرع يثبتون فيه الجديل . وفى الحروب الكبيرة كانت قرى القبيلة المنهزمة تنهب وتهدم مساكنها ، ويؤخذ الأسرى حتى يدفعوا الفدية ، فإذا لم يفتدوا فإنهم يبقون فى الرق أو يباعون أو يقتلون . وكانت جثث القتلى فيما سلف من الزمان تنقل من ميدان المعركة وتقام بها وليمة عظيمة .

ويعتقد البولوكى أن الموت يحل بالإنسان بإرادة الله أو بفعل ساحر أو بفعل الإنسان نفسه . فإذا غرق رجل بسبب غرق قاربه أثناء عاصفة فإن الموت هنا بإرادة الله ، أما إذا مات شخص على أثر انقلاب قاربه بفعل

فرس النهر أو التمساح فإن الموت هنا من عمل ساحر ، لأنهم يعتقدون أن الحيوان لا يتعرض للقارب إلا إذا دفعته إلى ذلك روح شريرة ، وعلى الكاهن أن يكشف عن سبب الوفاة ، فإذا قرر أنها بسبب سحر ساحر فمن المحتم الاهتداء إلى المجرم .

ولا يتخلف ذوو القربى عن عيادة المرضى من أقاربهم ، وهم يسهرون على راحتهم ويخلصون فى خدمتهم ، ويقوم النساء على الأخص بالعناية بالمرضى وهن يلزمن فراشهم ويقترحن أنواع الأدوية والتعاويذ ويقضين بجوارهم أياما طويلة إلى حد أنهن قد يهملن مزارعهن . وإذا مات ميت له مكانته بعث أهله فى طلب الرجال المتخصصين فى تزيين الجثث فنقشوا الجثة وزينوها بالخرز والأصداف والملابس الجميلة ، وبعد ذلك يثبتونها فى وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الطبيعى ، وكثير من الناس يدفع عن طيب خاطر شيئاً ليتاح له حضور هذه العملية ، أما صناديق الموتى — وهى غالباً عبارة عن قوارب قديمة — فإنها تبطن أحياناً وتغطى بالأقمشة الرخيصة، ولكنها فى الغالب تزخرف بمختلف الأصباغ . فإذا كان الميت من غير ذوى اليسار فإن جثته تدلك بالزيت ورماد النار المتخلف عن إحراق خشب الكام ثم يلف فى حصير النوم ، أما جثث الفقراء والمعدمين فيكتفون بلفها فى حصير النوم .

ويحفر القبر عادة فى داخل أى منزل من المنازل التى يملكها المتوفى أو بقربه . فإذا كان الميت شخصاً ذا مكانة فيجب أن يراعى أن لا يتعرض صندوق الدفن للتلف عند ما يهيلون عليه التراب المبلل بعد دفنه ، فيحفرون لذلك فى أحد جوانب القبر كهفاً يتسع للصندوق ، أو يحفرون فى جوانبه حفرا يثبتون فيها عوارض أو عصياً يستقر فوقها التراب فلا يسقط على الصندوق ويتلفه . ولا حاجة لاتخاذ هذه الإجراءات عند دفن الفقراء ، لأنه لا يوجد لهؤلاء صناديق يخشى عليها من التلف . وتدفن جثة الميت عادة فى خلال ثلاثة أيام من الوفاة ، وعند تشييع جنازات الرجال تطلق البنادق ويتوقف عدد الطلقات على المركز الاجتماعى للمتوفى ، وفائدتها إخطار أرواح الحياة الآخرة كى تتوجه إلى مدخل القبر وتستقبل الميت . وكانت العادة فيما مضى قتل اثنين من الرقيق توضع جثة أحدهما عند رأس الميت وجثة الآخر عند قدميه ، وكذلك كانوا يأتون بزوجة أحد الأرقاء فيدفنونها بالحياة مع جثة المتوفى إذا كان من الأعيان .

ويعبر البولوكى عن حدادهم بطرق شتى ، وفى أغلب الأحيان تزيد الضجة كثيراً على الحزن الحقيقى ، وإذا أهمل الشخص مظهره إهمالا تاما اعتبر ذلك علامة من علامات الحداد ، كما أن الرقص يعتبر أحد الإجراءات الجنائزية الهامة . وإذا مات رجل ذو مكانة صدرت الأوامر بتحضير خمر

من قصب السكر ، ويستغرق تحضيرها بضعة أيام فإذا تم صنعها دقت الطبول ليجتمع على دقاتها المشيعون من الرجال والنساء ويشتركوا جميعاً فى الرقص مدة ثلاثة أيام بلياليها ، أو إلى أن ينفد ما صنعوه من الخمر .

ويعتقد البولوكى أن هناك مكانا فى بقعة ما من الأرض تذهب إليه أرواح الموتى ، ويعتقدون أن الحياة فى ذلك المكان لا تختلف عن الحياة الأرضية ، مع فارق واحد هو أن من كان يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بمركز اجتماعى هام لن يفلت فى الحياة الأخرى من العقاب الذى يستحقه جزاء ما اقترفت يداه من ذنوب على هذه الأرض ، كما يعتقدون أن الأخيار سوف يخلدون فى تلك الحياة المستقبلة ، ولكن أرواح الذين كانوا يعملون السيئات سوف يطردون منها بعد أن يلبثوا فيها برهة وجيزة ، ثم تأوى أرواحهم إلى الأخوار والأنهار والغابات وتعيث فيها فساداً فتسبب الفيضانات وتحول دون دخول الأسماك إلى الشباك ووقوعها فى الفخاخ ، كما تبعد الحيوان عن طريق الصيادين .

ويعتقد البولوكى أن الأرواح الشريرة على استعداد دائماً للإضرار بالناس ، ولا يدخل أحدهم الغابة بعد غروب الشمس خوفاً من أذاها ، ولا يقل عن ذلك خوفهم من الأرواح التى تتقمص أجساداً . ومن معتقداتهم أن الروح تترك الجسد أثناء نومه ولكنها تعود إليه دائماً بمجرد أن يستيقظ

مهما كان ذلك وشيكا ، فليس من المستغرب حينئذ أنهم يعتقدون فى الأحلام ، ويروون عن بعض الناس قدرتهم على الاتصال بالأرواح ومخاطبتها ، وأنهم يفعلون ذلك بلغة من اللغات التى انقرضت من على الأرض ، كما يعتقدون أن مثل هؤلاء الناس — ومنهم الأطباء — يستطيعون فعلا رؤية الأرواح التى فارقت أجسادها . وهكذا يعيش هؤلاء الأقوام فى خوف وفزع من الأرواح ، ولا شىء يجعلهم فى منجاة من أذاها غير إيمانهم فى الساحر الذى يستطيع أن يتحكم فى الأرواح إلى حد أنه يستطيع القضاء عليها ، ومن أجل ذلك لا يتردد أحدهم فى أن ينفذ عن طيب خاطر كل ما يأمر به الساحر ، فيقطع جلده ويمتنع عما يحرمه الساحر باسم الآلهة ، ويدفع ما يطلب الساحر من أجر باهظ .

وهناك كثير من أنواع السحر يستطيع أى شخص القيام بها ، على أن يكون ملماً بما يجب عليه عمله ، ولكن هناك كما ذكرنا أناسا تخصصوا فى أعمال السحر يعرفون باسم رجال الطب أو ممارسى الطب عن طريق السحر أو السحرة ، ويقوم هؤلاء بتلقين علومهم لأتباعهم الذين هم فى الغالب أبناؤهم . ويمارس الطب عن طريق السحر الرجال والنساء على السواء ، وليس من الضرورى أن يكون جميع المشتغلين بهذه المهنة على درجة واحدة من المهارة ، ولا يعالجون جميعاً أنواعاً واحدة من الشرور ،

والواقع أنه يوجد لدى البولوكى ما لا يقل عن ثمانية عشر نوعاً من السحرة ، ومن الطبيعى أن أمهر هؤلاء السحرة وهم الذين يملكون أشد الأدوية أثراً يتطلبون دائماً أعلى الأجور . ويمارس هؤلاء الأطباء السحر الأسود والسحر الأبيض على السواء ، والأول منهما يتعلق بالعلاج من الأدواء ويقوم بطرد الأرواح الشريرة حتى يزول المرض أو النحس ، بينما السحر الأسود يمارسونه ليسلطوا الأرواح الشريرة على شخص من الأشخاص لتحل به العلل أو المصائب . ومن عمل السحرة أيضاً معرفة أسباب المرض ومعرفة علاجه وحماية الناس من جميع الأرواح الشريرة التى تحيط بهم ، وذلك عن طريق التعاويذ والطلاسم والأحجبة والتمائم .

والتعاويذ أشياء يعتقدون أن فيها بركة ، والطلاسم هى الأشياء التى تجلب للابسها البركة والحظ الحسن . والأحجبة هى التى تحمى من الشر . أما التمائم فهى أشياء من أى نوع كان — قد تكون صورة أو قرن حيوان أو صدفة من الأصداف أو إناء — ينسبون إليها قوى خارقة اكتسبتها عن طريق سحر أودعه إياها الساحر .

وليس للتميمة فى حد ذاتها قيمة ، ولكنها بعد أن يضع فيها الطبيب الساحر قسماً من الحزمة السحرية يرتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً حتى أنه قد يصل إلى بضعة شلنات أو إلى بضعة جنيهات ، تبعاً لما ينسب إليها من القوة

الخارقة . وتختلف التمائم باختلاف الغرض منها ، ولـكنها ليست أشياء مقدسة ، ولا يوجد بينهم من يعتقد أن لها صلة بالقدرة الإلـهية ، فهم يخشونها ولـكنهم لا يعبدونها ، ولو أنهم قد يقدمون القرابين للأرواح التى تحل فيها ، على أنهم مع ذلك يصبون عليها خمر قصب السكر ليجعلوها أطوع لأوامرهم ، وقد يدمرونها إذا لم تسارع إلى تلبية طلباتهم .

ولا يحيا سائر الزراع فى الغابات الاستوائية نفس الحياة البدائية التى يحياها البولوكى ، ففى بعض الجهات ولا سيما فى غرب افريقية توجد دول كبيرة يحكمها الوطنيون مثل أشـــانتى وداهومى وبينى **Bini** ويوروبا . وتسكن الشعوب التى تتكلم اليوروبا إقليما مساحته أربعون ألف ميل مربع فى جنوب غرب نيجيريا ويبلغ تعدادهم مليونين، وقد تمزقت إمبراطوريتهم القوية — التى كان الملك أويو **Oyo** حاكمها الاسمى — إلى عدة ولايات مستقلة .

وفى هـذه الولايات الوطنية الـكبيرة يعيش السكان — أو كانوا يعيشون — متحدين يحكمهم رئيس واحد تعاونه حاشية كبيرة من رجال الدين. وكانت تلك الوحدات الـكبرى تقوم فى الأصل على أساس الفتح ويتوقف بقاؤها على وجود حكام أقوياء ؛ وكانت القبائل فيها تميل — إذا كانت الظروف مواتية — إلى أن يستوعب بعضها ثقافات بعض وأن تتخلى عن

مقومات ثقافاتها الخاصة ، وكان الحكام فى بعض الأحيان غرباء مستبدين ، وقد قيل إن شعور الرعية فى داهومى نحو الملوك هو شعور الحياء أو الرهبة لا شعور الإخلاص ، وكان نفوذ الزعيم فى أغلب الأحيان يتوقف على إرادة رؤساء العائلات القوية . وفى بعض الجهات كانت هناك أشياء محرمة عليه تحد من حريته فى التنقل ، وكان هو نفسه يصبح أحياناً محرماً فلا يجوز أن تقع عليه عين إنسان . وقد كتب وسترمان **Westermann** فى كتابه « الإفريقى اليوم » فقال :

« يقوم نفوذ الزعيم على اعتبار أنه سليل أول قائد للجماعة ، فهو ممثل الأجداد وهو القوَّام على قوانينهم وعلى قدرتهم على السحر ، وهو بهذا رمز لاتحاد القبيلة فإذا كرَّمته القبيلة فإنها بذلك تـكرم نفسها وتاريخها . وقد يـكون من ضمن واجبات الزعيم واجبات دينية كتقديم القرابين لأرواح السلف أو لآلهة القبيلة ، أو على الأقل الإشراف على الطقوس القربانية » .

وقد تطورت عبادة السلف فى غرب إفريقية إلى درجة لم تبلغها فى مكان آخر ، ويرجع إلى هذا — من بين عوامل أخرى — أن أصبحت التضحية البشرية طابعا واضحا للشعائر الجنائزية ، فمن ذلك أن الأموات يظلون فى الآخرة محتفظين بالمركز الاجتماعى الذى كانوا يتمتعون به فى هذه الحياة ، ولا بد إذن أن يكون للعظماء منهم رقيق وزوجات وأتباع ،

كل حسب مركزه ، مما دعا إلى تقديم القرابين البشرية حتى أضحت العواصم الهامة وكأنها مذبح معلقة فيه جثث بشرية » .

وقد كتب الميجر بارتن C. Barton فى سنة ١٨٩٦ عن كومازى Kumasi (ومعناها فى لغة أشانتى مكان القرابين) فقال : « تتغير طبيعة الأرض بسبب الرماد المتخلف عن العظام المتحللة ، وتتناثر عظام الجماجم من جميع الأعمار تحت الأشجار بالمئات » .

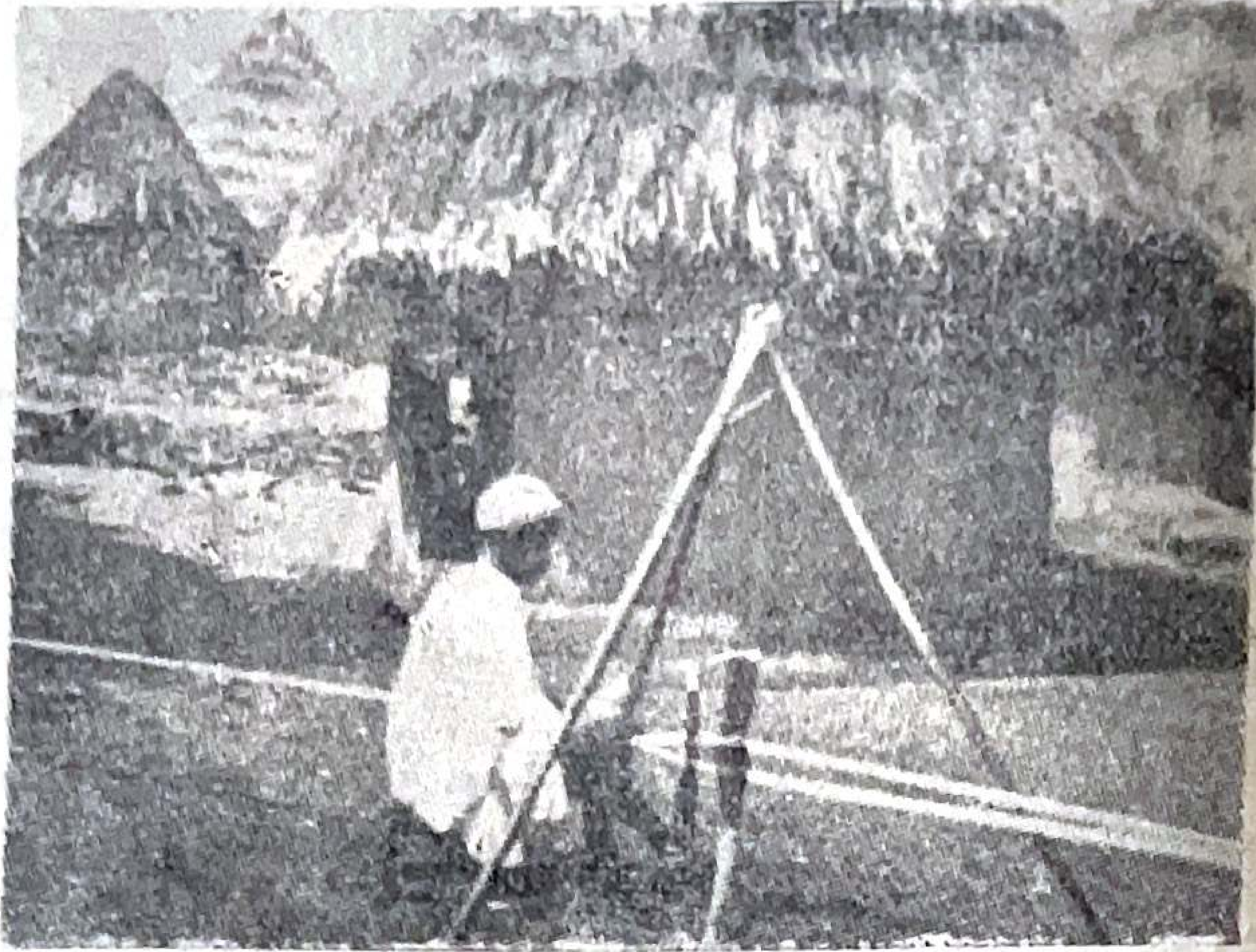
ويربى معظم الوطنيين فى غرب إفريقية بعض الحيوانات المنزلية كالدجاج والخنازير والماعز ، بينما يقوم قليل من القبائل بتربية بعض الماشية . وتنتشر فى كل مكان تربية الدجاج ، ولا يزيد حجمه على حجم الحمام ، ويؤكل بيضه ولحمه . على أن الزنوج قوم زراعيون فى المكان الأول . ويقع عبء العمل كله تقريباً على عاتق النساء فى بعض القبائل مثل قبائل الداهومى ، وذلك إذا استثنينا قطع الأشجار وتجهيز بقعة جديدة من الأرض للزراعة . لكن الأمر غير ذلك عند بعض القبائل الأخرى كاليوروبا إذ يقوم الرجال بالنصيب الأكبر من الحرث والعزق والحصاد . وموطن اليوروبا فى الأصل مناطق السافانا التى تقع إلى الشمال، حيث يكون تجهيز الأرض أمراً يسيراً لم يكن يستلزم سوى إحراق العشب ، ولكن شق الأرض التى تعرضت للجفاف الشديد وللصلابة تحت أشعة الشمس

المحرقة هو الذى كان يستدعى بذل الجهد ، ولذلك وقع هذا العمل فعلا على عاتق الرجال ، وكانوا كلما تقدمت عندهم الزراعة زاد مجهودهم الذى يبذلونه . فلما انتقلوا إلى إقليم الغابات ظل الرجال يقومون بالعمل الذى كانوا يقومون به فى موطنهم الأول . وحيث يقوم الرجال بالنصيب الأكبر فى الزراعة نجد أبناءهم يصحبونهم منذ نعومة أظفارهم إلى الحقول ، حتى إذا بلغوا العاشرة أو الثانية عشرة كان لهم الحق فى زراعة حقول خاصة بهم فى البقعة المجاورة لحقول آبائهم . وتتم الزراعة فى بعض جهات غرب إفريقية عن درجة عالية من الجد والخبرة ، ولكن الفأس الحديدية لازالت أهم الأدوات الزراعية . وتجود الزراعة على الأخص حيث تزيد كثافة السكان، إذ أن شدة الحاجة إلى الأرض الصالحة للزراعة تضطرهم إلى بذل كل جهد لاستغلال الأرض على أتم وجه . ويقيم الكابورى Kabure الذين يقطنون الإقليم الجبلى الواقع فى توجو الشمالية أسوارا من الحجارة حول حقولهم ويروونها من آبار ينشئونها بمهارة ويسمدونها بفضلات الحيوان التى يحصلون عليها من الزرائب ، ولا يتركون أى مساحة من الأرض دون أن يستغلوها مهما كانت صغيرة ، ومهما كان بها من الصخور التى يجب إزالتها قبل أن تصير معدة للزراعة .

والزنوج القاطنون على السواحل ، يعتمدون فى المحل الأول على صيد السمك ، ومعظم مايصيدونه منه يجفف فى الشمس أو يدخن على

النار ، و بعد ذلك يحمله التجار إلى المناطق الداخلية حيث يقايضون عليه بالمحاصيل الزراعية . وتستعمل فى صيد السمك الحراب والشباك والفخاخ ، وكذلك يستعمل السم فى صيده من الغدران التى تحف بالشاطئ . وتحصل بعض القبائل الساحلية على الملح من أوراق أشجار المانجروف ومن جذور النبات ، فيأخذون الرماد المتخلف من إحراق هذه المواد ويضعونه فى سلال محبوكة ينفذ منها الماء ببطء ، ثم يأخذون هذا الماء فى قدور ويغلونه على النار حتى يتبخر جميعه وتتخلف عنه طبقة من الملح الذى يجمعونه ثم يعبئونه فى سلال من أوراق النخيل محبوكة النسج .

ويوجد بين زنوج غرب افريقية تخصص فى العمل إلى درجة تفوق كثيرا ما يوجد بين البولوكى ، فحتى الصيد عند اليوروبا يقوم به صيادون متخصصون ، ولكن أشهر الحرف فى الإقليم جميعه هى الحدادة والنسج وصنع الفخار وفتل الحبال و بناء القوارب . وتقوم تجارة القطن — الذى يزرع فى بعض الأجزاء — وتنتشر فى جميع الجهات ، وهم ينسجونه شرائط ضيقة يبلغ عرضها خمس بوصات أو ستا على نول بدائى الصنع أفقى الوضع يتحرك فيه المكوك بالأرجل ، وتخاط هذه الشرائط بعضها إلى بعض وتصنع منها الملابس . وقد أدخلت إلى بلادهم حديثا أنوال رأسية الوضع يمكن أن تنسج عليها أقمشة عرضها أربعة أقدام أو خمسة . وقد كان النسج فيما مضى من عمل الرجال دون النساء ، ولكن النساء فى الوقت الحاضر يقمن بمعظمه .



(شكل ٥٩) نساج قروى فى ساحل الذهب

وكلما زاد التخصص فى الإنتاج زادت الحاجة إلى التبادل . وقد كان هذا التبادل ولا زال يجرى على الأخص فى الأسواق التى يعقدونها فى جميع القرى والمدن الكبيرة ، وتقوم النساء بمعظمه ، على أن بعض السلع — مثل السمك المجفف والملح والأدوات المعدنية — ترسل إلى أسواق بعيدة ، وهى تجارة يقوم بها الرجال فينظمون قوافل من الحمالين يجوبون البلاد بمتاجرهم . ويستطيع الحمال المتمرن أن يحمل على رأسه ما يتراوح وزنه بين خمسين رطلا ومائة رطل .

وتقوم معظم التجارة فى هذه البضائع على المقايضة ، على أن مقاطع القماش والوَدع تستعمل فى بعض الأسواق وسيلة للتعامل كما تستعمل أيضا فى دفع الضرائب . وجدير بالذكر أن الودع الهندى الصغير الذى انتشر عبر إفريقية من ساحلها الشرقى أغلى قيمة من الودع الإفريقى . أما قضبان الحديد والنحاس وغيرهما من المعادن فربما يرجع استعمالها وسيلة للتعامل إلى الأوروبيين الأوائل الذين أدخلوها .

وفيما يلى كشف بالسلع التى كانت معروضة للمقايضة فى إحدى الأسواق الإفريقية كما أوردها شاهد عيان فى سنة ١٨٩٤ :

« قطن خام وأقمشة محلية الصنع ومقاطع طويلة من القماش المنسوج بالنول عرضه نحو أربع بوصات وخيوط قطنية ملفوفة على مغازل وخيوط قطنية مصبوغة باللون الأزرق ملفوفة على هيئة كرات ، وأوراق النيلج المجففة التى تستعمل فى الصباغة وأوراق الطباق المجففة وجوز النخيل وزيت النخيل وزيت جوز النخيل وأدوات حديدية محلية الصنع وأرز مضروب وغير مضروب وفول سودانى وخوص هندى وحبوب غينيا وموز وقاوون وچاكاتو (وهو نوع من الطماطم) وبطاطا مسلوقة وأوكوا (Okua) مجففة وكاساڤا وطيور ونمال طائرة مجففة وجرذان مجففة على السيخ وسمك مجفف وحصير قروى جيد الصنع ، وكميات كبيرة من الأوانى

الفخارية المصنوعة محليا ولا سيما القدور وقليل من الماشية والأغنام والماعز وكميات قليلة من الملح ومسحوق البارود » .

ويشيد اليوروبا وغيرهم من القبائل منازل مستطيلة الشكل منحدرة السقوف حيطانها من الطين وارتفاعها من أربعة أقدام إلى ثمانية . وتبنى حوائطها من طبقات تترك كل منها فترة تسمح بجفافها قبل أن توضع فوقها الطبقة التى تليها . وليس الطين مادة مناسبة للبناء فى مثل مناخ غرب إفريقية المطير ، على أن الحيطان تحميها سقوف بارزة تتكون منها (ڤراندة) عريضة حول المنزل . ولا ريب أنهم اقتبسوا هذه الطريقة من القبائل التى تقطن فى الشمال ، فإن أسوار المدن وحيطان المنازل فى أقاليم الساڤانا تبنى كلها من الطين أو الصلصال . أما السقوف التى ترتكز على أعمدة عالية فتغطى بأوراق الأشجار وبالعشب ، شأنها فى ذلك شأن أغلب المساكن فى إقليم الغابات الاستوائية . وفى داخل المسكن مقعد مفروش ، وقد يوضع — لدى بعض القبائل — مقعد آخر فى الڤراندة . وليس للمنازل منافذ ولا مداخن . ومن المتبع أن العائلات التى تربطها أواصر القربى تقطن مجموعة متصلة من المساكن تبنى بحيث تحيط بفناء مربع الشكل يؤدى إليه مدخل واحد .

ومن النادر وجود فناء منعزل ، لأن الأهالى يفضلون التجمع فى قرى أو فى مدن . ويحيط بالقرى والمدن الكبرى سور حوله خندق ، وتترك فى

المواقع المناسبة من السور بوابات يقوم على حراسة كل منها موظف يوكل إليه جمع الإتاوات المفروضة على التجار . وتوجد خارج السور عادة منطقة من الغابات ، لأن الأرض المنزرعة تكون فى الغالب بعيدة بعض البعد عن المساكن ، على أن سكان كل منزل يجتهدون دائماً أن يكون لهم بالقرب من منزلهم مساحة يزرعونها ، أما الحقول الرئيسية فأنها تقع أحياناً على مسافة بعيدة ، حتى إن أصحابها يضطرون إلى هجر مساكنهم الأصلية هجراً مؤقتاً والإقامة بضعة أسابيع بجوار مزارعهم فى مواسم الزراعة والحصاد . وقد تكل العائلات القوية أحياناً إلى عبيدها العمل فى الحقول البعيدة فيقيمون فيها إقامة دائمة فى مساكن منعزلة أو فى كفور صغيرة .

ويختلف نظام ملكية الأرض من قبيلة إلى أخرى ، وهو أحياناً معقد تعقيداً كبيراً ، ولكن السائد أن تعتبر الأرض ملكاً للجميع ، فاليوروبا مثلا تعتبر الأرض ملكاً للشعب فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن أرض المزارع تحل فيها أرواح أسلافه وأرواح الأرض . ويعتقد اليو Ewe أن الأرض أعظم نعمة وهبها الخالق لبنى الإنسان ليورثوها أعقابهم . بينما يعتقد أغلب الوطنيين فى غرب إفريقية أن الأرض هى مقر أسلافهم وموطن آلهتهم ، فلا غرابة إذن أن يتعلق الزنجى بأرضه ولا يقبل التخلى عنها .

والاعتقاد السائد هو أن الأرض قانوناً ملك للجميع ، ولكن مصالح الجماعات المختلفة ومصالح القبيلة ومصالح العشيرة ومصالح سكان القرية يجب أن تكون جميعها محل الاعتبار ؛ فالأرض التى تملكها إحدى عشائر القبيلة تعتبر نظريا ملكا للملك أو للزعيم الأعلى ، بينما يعتبر كل إقليم فى داخل هذه الأرض ملكا لزعيم الإقليم ، وهكذا تسير الأمور نزولا حتى نصل إلى رؤساء العائلات فنجد أنهم هم الذين يديرون الأرض التى تملكها العائلة . ولا يملك أصحاب الأرض الاسميون أن يتصرفوا فيها بأكثر من استغلالها ، فليس لهم حق بيعها أو إقامة مزارع خاصة عليها ؛ ولا يجوز طرد أى شخص من بقعة من الأرض يقوم فعلا بزراعتها ، ولكن من الضرورى دائماً إعداد أرض جديدة للزراعة ، لأن عدم استعمال الأسمدة المخصبة يجهد الأرض وشيكا ويذهب بخصوبتها . وجدير بالذكر أن الحدود التى تفصل بين الملكيات المختلفة معروفة تماماً وتراعى بدقة .

ويختلف نظام الوراثة لدى القبائل المختلفة ، فالوراثة عند اليوروبا وبعض القبائل الأخرى تكون للأصلاب ، أى أن الرجل إذا مات يرثه أبناؤه الذكور ، ويكون لأكبرهم فى العادة أكبر نصيب . وهناك قبائل أخرى تكون الوراثة فيها للأرحام ، أى أن الرجل إذا مات آلت أملاكه لأبناء أخته . ومن المحتمل أن الأرض كانت فى أول الأمر ملكا مشاعا

للجميع ، إلا أن نظام الزراعة الكثيفة يؤدى دائماً إلى الملكية الخاصة ، لأن استغلال الأرض استغلالا حقيقياً لا يتيسر فى ظل أى نظام آخر .

وقد تقدمت النظم السياسية تقدما كبيراً فى معظم جهات غرب إفريقية، ولكن نفوذ الحكام يحد منه نفوذ الجمعيات السرية . ويختلف عنصر السرية اختلافاً كبيراً ، فبعض الجمعيات لا يكلف الاشتراك فيها أكثر من دفع الرسم المقرر، بينما يستوجب الاشتراك فى بعضها كثيراً من الإجراءات المعقدة . ولأكثر الجمعيات رموزها التى تميزها ، وهذه قد تكون ندوبا فى الجلد أو كلمات سرية أو لغة خاصة وطقوساً . وبعض الجمعيات كبيرة جدا ولا يقتصر الاشتراك فيها على قبيلة واحدة ، كما أن أغراض الجمعيات متباينة ، فبعضها — مثل جمعية الفهد فى مندى **Mendi** — تجعل الاغتيال من أهم أغراضها ، على أن أغراض كثير من الجمعيات هى تبادل المنفعة ، وبعضها يؤدى خدمات عامة عن طريق تقييد صيد السمك وجنى الحاصلات بوضع شاراتها على النهر أو على المحصول علامة على أنه ممنوع . وكثيرا مايلبس أعضاء الجمعيات أقنعة أثناء اجتماعاتهم ، بينما تمارس بعض الجمعيات الأخرى طقوسها ليلا فى أعماق الغابة ، فإذا ضبط أثناء اجتماعها دخيل كان جزاؤه القتل أو البيع فى سوق الرقيق . وتعتبر الجمعيات السرية والأقنعة طابعين ثقافيين هامين يتميز بهما غرب إفريقية .

وقد كانت الحروب تنشب فيما مضى على مقياس كبير ، وكان لمعظم الزعماء حرس من الرقيق المدربين ، ولكن القليلين منهم كانوا يحتفظون بجيش قائم . وكان من أحسن جيوش غرب إفريقية نظاما وشجاعة جيش قوامه ألفان وخمسمائة من النساء المحاربات، هو جيش «مسترجلات داهومى» الشهير . وكان المتبع فى غرب إفريقية أنه إذا قامت حرب سارع جميع الرجال القادرين فحملوا السلاح وانضووا تحت لواء زعمائهم ، وكان حاكم أويو (**Oyo**) فى نهاية القرن الثامن عشر يستطيع أن يجند مائة ألف مقاتل. وكذلك كانت العادة أن فرق المشاة تدعمها فرق الفرسان وأن يكون جميع الضباط راكبين . وقد حلت الأسلحة الحديثة الآن محل الأدوات القديمة من أقواس وحراب وبلط . وكان الغزو يهدف غالباً إلى الحصول على أسرى ، وكانت الطريقة المعتادة هى محاصرة قرية العدو ليلا ثم مفاجأتها بالهجوم مع الفجر ، ولم يكن ينجو من هذه الغزوات أحد ، فمن نجا من القتل أخذ أسيراً ، وكان المهاجمون يستولون على الماشية والمنقولات ثم يحرقون المساكن لا يتركون لها أثراً إلا إذا كان من المستطاع ضمها إلى ممتلكاتهم .

ويرجع الرق فى إفريقية الغربية إلى زمن سحيق فى القدم ، وقد كان للسيد دائماً حق التصرف فى عبيده بالبيع والتأجير والرهن فى مقابل ديونه ، ومن القبائل من كانت تعطى سيد الرقيق حق التصرف فيهم بالقتل .

لكن الرقيق كانوا على العموم يلقون معاملة حسنة لأنهم يعتبرون من الممتلكات القيمة . وكان رقيق اليوروبا يقطنون قرى صغيرة بجوار مزارع أسيادهم ويقومون على زراعة أرضهم ، وكانوا كثيراً مايوهبون مزارع صغيرة يزرعونها لحسابهم . وهناك جهات أخرى من غرب إفريقية كان يسمح للرقيق فيها باقتناء ممتلكات خاصة بهم ، وكذلك كان لهم حق افتداء أنفسهم من الرق ، بينما كانت هناك جهات أخرى — مثل داهومى — لم يكن للرقيق فيها حق امتلاك أى شىء . وقد أدت تجارة الأوروبيين فى الرقيق — وهى تجارة رفعت من أثمان العبيد — إلى تنظيم الغارات التى كانت تهدف إلى الحصول على الرقيق ، كما أدت إلى كثير من أعمال الوحشية .

وقد حدث كثير من التغيرات فى إفريقية الاستوائية نتيجة لدخول الجنس الأبيض ، فقد أوشك أن يختفى الرق وتقديم القرابين البشرية وأكل لحوم البشر ، وكذلك اختفى كثير من الصناعات التى كان الأهالى يقومون بها فيما مضى .

« وإلى أواخر القرن الماضى كان كثير من المواد الخام يستورد من أوربا ويقوم الأهالى بصنعه ، فكانوا يستوردون من البرتغال معظم النحاس اللازم لصناعة البرونز فى بنين Benin ، وكان الحدادون يصنعون

الأدوات الحديدية من حديد مستورد من أوروبا بالإضافة إلى الحديد المحلى ، وينسج معظم النساجين اليوم خيوطا مستوردة من أوربا ، وبذلك تعطلت أفران الصهر المحلية وترك النساء صناعة الغزل ، لكن ظلت صناعة الحدادة والنسج فى ازدهار إلى أن جرفهما فى النهاية تيار البضائع الأوربية الجاهزة . وقد تبقى بعض الحرف فى ازدهار ، فإن المنسوجات التى ينتجها النساجون المحليون فيها من حسن الذوق ومن المتانة مايضمن أن تجد لها سوقا بغير عناء »(١) .

ويتوقف مستقبل الزنجى على مقدار استطاعته تكييف نفسه ليلائم الظروف الجديدة التى نشأت عن نشاط الأوربيين فى القارة الإفريقية ، ويقع كثير من هذا على عاتق الجنس الأبيض ، إذ على معاملته تتوقف قدرة الزنوج على الاحتفاظ بمقومات الثقافة الأوربية وبالصفات التى يمتاز بها الجنس الأبيض ، وكذا قدرته على استيعابها وتكييفها بحيث تلائم طريقته الجديدة فى الحياة .

---

(١) D. Westermann. The African to-day.

الفصل الثانى عشر

الزراع والصائدون البدائيون

فى البحار الجنوبية

١ — كلمة عامة

المحيط الهادى أعظم المحيطات ، وهو فى الواقع أطول المحيطات وأوسعها وأعمقها جميعاً ، ومساحته تزيد على مساحة جميع الأرض التى تعلو فوق مستوى البحر ، ويبلغ امتداده من الشمال إلى الجنوب ثلث محيط الكرة الأرضية، ويبلغ اتساعه عند خط الاستواء عشرة آلاف ميل، وفيه يقع نصف عدد الأعماق العظمى المعروفة وأعمقها جميعاً أخدود إمدن (Emden) (٣٥ ألف قدم) الواقع شرق جزر الفلبين . ولكن الذى يعنينا هنا هو سكان الجزر المختلفة التى تنتشر فى هذا المحيط العظيم .

وفى جنوب المحيط الهادى — البحار الجنوبية، كما يطلق عليه فى كثير من الأحيان — جزر لا عداد لها ، ولكن مساحتها جميعاً بما فيها زيلاندا الجديدة لا تزيد على ستين ألف ميل مربع . وتختلف الجزر فى مساحتها

من جزر كبيرة مثل كاليدونيا الجديدة التى يبلغ طولها ٢٥٠ ميلا وعرضها من ٢٥ إلى ٣٠ ، إلى جزر مرجانية صغيرة . وتتقارب الجزر بعضها من بعض فى الجزء الغربى والجزء الأوسط منه ، أما فى الغرب فإن مساحة الجزر فى الغالب صغيرة تفصل بينها مسافات شاسعة من المحيط تبلغ أحياناً ألف ميل . ومما هو جدير بالذكر أن ماجلان ، بعد ما خرج من المضيق المسمى باسمه وخاطر بالدخول إلى المحيط الهادى لأول مرة، ظل ثلاثة أشهر يمخر عبابه لم تقع عينه فى أثنائها إلا على صخرة عديمة الماء .

وتوجد جزر المحيط الهادى عادة فى مجموعات كمجموعة ميلانيزيا — جزر الزنوج — التى تقع فى الغرب، وتشمل جزر سليمان وكاليدونيا الجديدة وهبريديز الجديدة؛ ومجموعة ميكرونيزيا وهى الجزر الصغيرة فى الشمال والوسط وتشمل جزر پيليوز Pelews ومارياناز وكارولينز ومارشلز وجلبرتس ؛ ومجموعة پولينيزيا ، وهى الجزر العديدة فى الشرق ، وتشمل هاواى وإيستر وغيرها . وجميع هذه الجزر — فيما عدا كاليدونيا الجديدة — إما مرتفعة وبركانية مثل فيجى وهاواى ، وإما واطئة مرجانية كجزر إليس Ellice وكوك . ولا تقع مجموعات الجزر مبعثرة كيفما اتفق، ولكنها تتجمع على طول خطوط معينة . وترتفع بعض الجزر البركانية من ماء المحيط فجأة ، فتعلو من شاطئ ضيق إلى ارتفاع أربعة آلاف قدم، وفى هاواى أربعة عشر ألف قدم. ولكن بعضها قد انخفض ثم اختفى تحت سطح الماء ، على أن الانخفاض

أعضاؤه وهى مراكز التوالد والنمو فيه »[1] .

وفى حالة التكوينات المرجانية المحاذية يوجد عادة بينها و بين الشاطىء مسافة ميل أو ميلين من الماء الضحل الرائق ، بينما يفصل بين الشاطىء و بين الحاجز المرجانى مسافة أكبر صالحة للملاحة وتستطيع أكبر السفن أن تسير فيها ، والماء فى هذا الحيز هادىء نسبيا لأن الحاجز المرجانى يؤدى وظيفة حاجز للأمواج .

وترتفع الجزر المرجانية ارتفاعا قليلا فوق مستوى الماء ، وهى عادة جزر دائرية الشكل فى وسطها غدير .

« وفى الغدير يقل عمق الماء تدريجا ويغطى القاع رمل ناعم لزج ، تتخلله مجموعات من المرجان ، ويلى ذلك شريط من الشاطىء يغطيه الماء أثناء المد تعانقه صغار الأمواج ، وعلى مجموعات المرجان التى تكثر وسط الغدير يكثر نمو نوع من الكائنات البحرية الضخمة تسمى (tridacna) يصل وزنها — من غير صدفتها — إلى ٢٠ رطلا ، وقد يصل وزنها هى وصدفتها إلى خمسمائة رطل . وإلى الداخل قليلا توجد طبقات من أصداف اللؤلؤ ، وتسبح الأسماك الجميلة التى بهرتنا فور دخولنا ، وهى جميعا ذات ألوان خلابة . ولكن سائر الأصداف ذات لون أبيض كلون الجير

(١) Gardiner, J. Stanley, Coral Reefs & Atolls.

أو تتخللها بقع وردية باهتة إلى أقصى حد ، و بعضها الآخر ميت تتقاذفه الأمواج . وحتى فى الغدير حيث يبدو أن بعض الأسماك يصيبها الهزال ، نجد بعضها الآخر — وهذا أمر عجيب — يزدهر ازدهارا عظيما ويصبح أساس الثروة فى هذه الجزر . والغدير بحيرة مقفلة تزخر بالأسماك ، وتكثر فيه حيوانات القرش ولا سيما عند المداخل كى تتغذى على هذه الوفرة . ويخيل للإنسان أن الصائد لا يتكلف فى الصيد أكثر من إعداد سنارته ، ولكن الأمر مع الأسف ليس كذلك ، فإن بعض هذه الأسماك الملونة التى كانت تحوم بكثرة هائلة حول القارب الداخل له أشواك سامة ، و بعضها الآخر لا يصلح للأكل لأن لحمه سام »[1] .

والغدير — وهو عادة غير منتظم الشكل — قد يكون دائريا أو بيضويا أو مثلثا ، ويتراوح قطره من بضع مئات من الياردات إلى بضعة أميال . والتكوين المرجانى الذى يحيط به يكون عادة قليل الاتساع ، ويتكون من ركام مرجانى قذفت به الأمواج وألقت ببعضه فوق بعض . وهذا المرجان يتفتت تدريجا ويتحول إلى تربة ينمو فوقها ما قد تقذفه الأمواج من جوز الهند وما قد تسقطه الطير من بذور . ويندر أن يكون

(١) Stevenson, R L. In the South Seas.

شط الغدير الضيق متصلا ، بل هو فى الغالب سلسلة من الجزر تحيط بالغدير وتترك له كثيراً من المداخل . ويقيم الأهالى مساكنهم على ناحية الشط المجاورة للغدير ، ويتركون الناحية الأخرى مهجورة ، لأن الأمواج لا تزال باستمرار ترتطم بها وتتكسر عليها ، وهذا هو سبب الصوت المدوى الذى تشتهر به الشطوط المرجانية . وتبلغ الشطوط المرجانية ٩٠ ٪ من مجموع التكوينات المرجانية فى مجموعات الجزر التى تملأ المحيط «الهادى الهندى» . ومن أشهرها شط فونا فوتى فى المحيط الهادى الجنوبى حيث حفرت الجمعية الملكية فى سنة ١٨٩٩ إلى عمق ١١١٤ قدما ولم تصادف غير تكوينات من الجير المرجانى . وقد وصف ر . ل . ستيفنسن غدير فاكاراڤا والشط المحيط به فقال :

«والجزيرة ذات امتداد عظيم ، ويبلغ طول الغدير الذى تحيط به ثلاثين ميلا ، ويتراوح عرضه بين عشرة أميال واثنى عشر ميلا . والشط المرجانى الضيق الذى يحيط بالغدير والذى يسمونه الأرض اليابسة يبلغ نحو ثمانين أو تسعين ميلا وعرضه نحو « مرجع » واحد(١) . وقد مرقت بنا السفينة بين طرفى الشط وانفلتت إلى داخل الغدير ، وقد كان هذا من الاتساع وكان الشط المحيط به من الضيق بحيث خيل إلينا أن الغدير يمتد أمامنا

(١) المرجع يساوى $\frac{1}{8}$ ميل أو نحو ٢٠٠ متر .

إلى مالا نهاية . نعم كان يلوح لنا هنا وهناك ، فى البقع التى كانت تنتهى عندها اليابسة ويحل محلها بوغاز يؤدى إلى الغدير ، خط رفيع من أشجار النخيل ؛ وكان يخيل إلينا أحيانا أن ذلك الخيط الأخضر من النبات يمتد أمام أعيننا إلى مرمى البصر . وفى الناحية الأخرى وتحت الأشجار الواقعة فى أعالى الشط رأينا بضعة منازل بيضاء هى بلدة روتواڤا **Rotoava** أكبر محلة من محلات البوموتس **Paumotus** . وهنا ألقينا مراسى السفينة قرب الشاطئ فى أول مياه هادئة صادفناها منذ غادرنا سان فرنسسكو ، وكان عمق الماء هنا خمس قامات ، وكان بوسع الواحد منا أن يطل من فوق ظهر السفينة ويظل النهار بطوله يتطلع إلى الحبال الغليظة التى تمسك السفينة إلى الشاطئ وهى آخذة فى الاختفاء تحت الماء ، وإلى بقع المرجان والأسماك المتعددة الألوان ، ويرى بحرا ممتدا إلى الأفق تتحرك فوق سطحه أمواج صغيرة كما لو كان سطحه سطح بحيرة صغيرة ، بينما يرى فى الناحية الأخرى على مسافة قصيرة إلى الخلف بحرا آخر صاخبا تزمجر فيه الأمواج .

وليست الشطوط المرجانية بالأماكن التى يجد فيها الناس مقاما مريحا ، وبعضها — وقد تكون هذه من القدم بمكان — تعلوه تربة سميكة تزكو فيها أغلى أنواع الفواكه . وقد جست خلال واحد من هذه الشطوط وكانت تتملكنى الدهشة والإعجاب على حد سواء ، وأنا أسير

وسط غابة من أشجار ثمار الخبز الضخمة أتغذى على الموز وأتعثر فى جذور التارو Taro(١) . كان هـذا هو شط نامورك Namorik فى أرخبيل مارشال وهو شط لم أر فى حياتى له مثيلا . والآن دعنى أصف لك شطاً آخر على النقيض من ذلك تماما ومع ذلك فهو أصدق منه تمثيلا لما عليه سائر الشطوط ، ذلك هو شط فا كارافا Fakarava الذى لا يزيد على شريط ضيق يتكون فى أكثر أجزائه من جير مرجانى متفتت شبيه بفتات اللافا البركانية وشديد الإيلام للقدم العارية ، وقد يصادفنا هنا وهناك طبقة من رمل أبيض شديد النعومة ، وهذه هى أقل البقع إنتاجا .

وما ينمو بهذه الجزر من النباتات المتنوعة يزكو حيث تتكون التربة من المرجان المتفتت ، وهى تجود فيها بتلك الدرجة العجيبة التى تضفى على الجزر ذلك الجمال الساحر الذى يطالع القادم إليها من البحر . وتزكو أشجار جوز الهند على الأخص فى تلك التربة الجامدة ، فتضرب بجذورها إلى الطبقات السفلى حيث الماء الآسن الذى يتخللها ، بينما ترفع هاماتها الخضراء عالية إلى مهب الريح تحمل كل مظاهر الصحة والحبور . وتلى أشجار الباندانا Pandanus أشجار جوز الهند فى الأهمية، وهى أيضا

(١) نبات من فصيلة اللوف أو « خبز القرود » درناته صالحة للطعام .

من النباتات التى تستعمل فى الطعام وتجود فى هذه التربة كما تجود أشجار جوز الهند . وهناك أيضا شجيرات خضراء تسمى ميكى Miki تنمو فى كل مكان . وقد تصادفك فى بعض الأنحاء شجيرات البوراو Purao وأنواع عديدة من أعشاب ليس لها قيمة ، على أن عدد ما ينمو على شط مثل فا كارافا من أنواع النباتات المختلفة لا يزيد على العشرين ، بل قد لا يصل إلى ذلك العدد ، لكن لا يوجد بينها نصل واحد من الحشائش ولا توجد ذرة من فطر الأرض النباتى (Humus) إلا حيث يكون أحد من الناس قد جلب منه كيسا أو كيسين ليحاول زراعة شىء يسميه حديقة . وتكثر الحشرات فى بعض الأحيان ، فتصادفك سحب من البعوض أو من الذباب الذى هو شر من البعوض بكثير . وقد تُرى الحناجل قابعة فى جحورها ، وقد تحاصر الجرذان بالليل المنازل والحدائق الاصطناعية . والحناجل غذاء شهى ، وقد تكون الجرذان كذلك ولكنى لم أذقها . وفى جزر جلبرت يصنعون من ثمار الخبز نوعا من الحلو على شاكلة ما قد يتناوله الناس بعد غذاء متعدد الالوان ، على أنه لا يروق لى بعد أكلة أساسية ، أما سائر ألوان الطعام فى شط مقفر مثل شط فا كارافا فيمكن تلخيصها بأسلوب أهل الأرخبيل الفكاهى بقولنا : « كتل من جوز الهند تشوى على الحجر أو تحمر فى الدهن » ، فإن قائمة الطعام عندهم لا تعدو جوز الهند الفج وجوز الهند الناضج وجوز الهند المتخمر ، وجوز الهند للأكل وللشرب ،

وجوز الهند النيء والمطبوخ ، وجوز الهند الساخن والبارد»[١] .

وليس هنا مقام الكلام عن أصل الجزر المرجانية وتكوينها ، ويكفى أن نذكر أن الحواجز والجزر المرجانية هى تكوينات من الحجر الجيرى الصرف يغلب فيها هياكل جيرية لكائن عضوى هو حيوان المرجان (Coral polyp) ، ولكنها تحتوى كذلك على بقايا عضويات نباتية وحيوانية مما يعيش مع حيوان المرجان . وللمرجان أشكال متعددة ولكن أهمها فى بناء الحواجز ما يتحد وتتكون منه شعاب هائلة .

ويستطيع حيوان المرجان أن يعيش فى ماء المحيط على أى عمق ، ولكن الذى يبنى الحواجز المرجانية يزكو حيث لا يزيد عمق الماء على مائة قدم ، على أن يكون الماء خلواً من الطمى ، وأن لا تهبط درجة حرارته عن ٧٠° ف (٢١° م) وأن لا يخلو الماء من ذرات الطعام التى تجلبها تيارات المحيط . ولكل هذه الأسباب تكثر التكوينات المرجانية فى وسط البحار المدارية وفى غربها حيث تساعد التيارات الاستوائية على نموها .

ويلاحظ فى الحواجز المرجانية دائماً ثغرات حيثما يصب نهر من الأنهار ويلقى إلى البحر بحمولته من الطين .

وينتمى سكان جزر المحيط الهادى إلى عنصر أو إلى آخر من العناصر الثلاثة الآتية : الميلانيزى والپولينيزى والميكرونيزى : على أن هجرات

(١) Stevenson, R. L., In the South Seas

بحرية كثيرة قد حدثت ونتج عنها أن اختلطت العناصر وإلى أن صارت مجموعات كبيرة تنتمى إلى عنصر آخر . ويقطن العنصر الميلانيزى سلسلة الجزر التى تمتد من غينيا الجديدة إلى الجنوب بمحاذاة شواطىء أستراليا ولكن على بعد ألف ميل منها . على أن هناك ما يدل على أنهم كانوا فى زمن بعيد يقطنون بعض جزر پولينيزيا . والميلانيزى قصير القامة يتراوح طوله بين خمسة أقدام وبوصة واحدة وبين خمسة أقدام وثلاث بوصات ، وله رأس مستطيل وجلد بنى أو قاتم جداً ، وشعر ملبد ، وأنف عريض ولكنه غالباً أقل فلطحة من أنف الزنجى الإفريقى . وشعرهم — الذى يستشزرونه عادة إلى أعلى ويجعلون منه كتلة سميكة — أطول من شعر الزنوج الإفريقيين ، وكذلك حواجبهم أغزر من حواجب أولئك الزنوج .

ومن المتفق عليه عموماً أن الميلانيزيين نشأوا من عناصر اختلطت بعضها ببعض ، ويرى بعض العلماء أن ذوى الرؤوس العريضة منهم هم نتيجة اختلاط الميلانيزيين بالأقزام .

ويقطن الپولينيزيون الجزر الشرقية من ساموا إلى إيستر ومن هاواى إلى زيلندا الجديدة . ولكن هناك جماعات متفرقة منهم تعيش فى داخل ميلانيزيا نفسها ، بينما الفيجيون خليط من العنصرين من الناحيتين الجنسية والثقافية . ومن المؤكد أن الپولينيزيين خليط من العناصر، ولذلك يختلفون فى المظهر ، وهم فى العادة أطول من الميلانيزيين إذ يبلغ متوسط

الطول بينهم خمسة أقدام وثمانى بوصات ، ولهم جلود يختلف لونها من الأسمر الزيتونى إلى البنى الفاتح ، وشعر أسود مستقيم أو مموج ، وبعضهم ذوو سحنة تشبه السحنة الأوروبية إلى حد عجيب ، ولكن البعض الآخر — كأهالى طونجا وأهالى فيجى مثلا — أكثر شبهاً بالميلانيزيين . وتوجد أدلة وجيهة تدعو إلى الظن أن أحد العناصر التى نشأ عن اختلاطها هؤلاء الناس كان ينتمى إلى جنس البحر المتوسط ، وأنه كان منذ قرون يعيش فى وادى نهر الكانج ثم هاجر إلى جاوه حيث عاش زمنا طويلا تعلم خلاله ركوب البحار واستبدل أثناءه تدريجا بطعام الأرز طعاما من ثمار الخبز. ثم عبر هذا العنصر مضيق مولقا (Moluccı) وانحدر على طول الشاطئ الشمالى لغينيا الجديدة إلى فيجى وساموا ثم إلى غيرهما من الجزر ، وكان استعماره نيوزيلندا فى عام ١٣٥٠ . وهناك عنصر آخر أكثر وضوحا فى الأجزاء الشمالية من پولينيزيا منه فى غيرها ، نشأ عن هجرة عناصر تنتمى إلى سكان جنوب الصين ، ثم عنصر ثالث لم يُعرف أصله بالضبط يمتاز بالرأس العريض واللون الفاتح والأنف الدقيق والملامح التى لاتختلف أحيانا عن ملامح الأوروبيين .

ويعيش الميكرونيزيون فى الجزر الواقعة إلى الشمال وإلى الشمال الشرقى من ميلانيزيا ، وهؤلاء أيضاً خليط من العناصر ولكنهم أقرب شبها إلى البولينيزيين منهم إلى الميلانيزيين ، وهم على العموم أقصر قامة

من البولينيزيين ، وبعضهم ذوو جلد مشرب لونه بصفرة خفيفة نتجت عن تزاوجهم مع عنصر الملايو .

وتتمتع جزر البحار الجنوبية — كسائر الجزر المحيطية — بمناخ غير متطرف الحرارة ، على أنها لموقعها الجغرافى تكون دائمًا دافئة أو حارة ، إذ أن معدل حرارتها السنوى أعلى قليلا من ٨٠° ف (٢٦ ٢/٣° م) . وقد كان من أثر الامتداد العظيم للمحيط الهادى أن أصبحت الرياح والتيارات البحرية فيه أكثر مطابقة للتوزيع النظرى منها فى أى جزء آخر من العالم . لكن فى الأجزاء الغربية تعمل الكتل اليابسة المجاورة للمحيط (آسيا وأستراليا) على هبوب الرياح الموسمية . ويوجد فى الأقاليم الاستوائية نطاق من الرهو والأمطار التصعيدية تهب فى شماله وفى جنوبه الرياح التجارية . وقد كان من نتائج انتقال هذا النطاق الظاهرى شمالا وجنوبا تبعا للحركة الظاهرية للشمس أن أصبح أكثر هذه الجزر يتعرض فى بعض الفصول للرياح التجارية وفى بعضها الآخر للرهو الاستوائى والأمطار الغزيرة . على أن مايقع من هذه الجزر قرب المدارين مثل فيجى وهاواى يتعرض للرياح التجارية على مدار السنة ، وهى فى كثير من جهات العالم رياح جافة ولكنها هنا تتحمل بالرطوبة بسبب مرورها على مساحات شاسعة من المحيط وتسقطها على السفوح المواجهة لها من الجزر «المرتفعة» .

وهذا التوزيع المطرى غير المتوازن يلاحظ على أوضحه حينما يكون اتجاه الشواطئ عموديا على اتجاه الريح كما هى الحال فى جزيرة أواهو Oahu التى تقع بها هونولولو ، إذ يزيد متوسط المطر السنوى بها على مائة بوصة فى الشرق بينما لا يصل فى الغرب إلى خمس وعشرين بوصة . وقد كان من أثر هذه الفروق فى توزيع المطر أن صارت الحياة النباتية فى الجانب المواجه للريح من كل الجزر أزكى منها فى الجانب الآخر ، على أن الجانب المواجه للريح فى بعض الجزر تغزر به الأمطار لدرجة تجعله غير ملائم للزراعة ، ولهذا تتركز معظم الزراعة فى الجانب الأقل مطرا حيث يضطر سكان السهول إلى الاعتماد على الرى . وتسقط أغزر الأمطار على المناطق الساحلية فى الجزر الغربية (مجموعة ميلانيزيا) وتصل أحيانا إلى مائتى بوصة فوق المرتفعات وإلى مائه بوصة فى السهول . وعلى العكس من هذا نرى بعض الجزر فى الشمال الغربى (أى فى ميكرونيزيا) تتعرض أحيانا لجفاف عارض ولكنه قد يكون شديداً .

وتكاد الجزر المرتفعة تكون مغطاة تماما بنباتات استوائية كثيفة من الشجيرات السرخسية ، وتمدها بالكفاية من الماء أنهار تنحدر من المرتفعات تحمل الطمى الخصيب إلى الوديان . أما الجزر الواطئة فمطرها قليل والحصول على ماء الشرب فيها عسير ، والتربة فى الغالب من حجر المرجان

الناعم ، ولذا كان معظمها قاحلا . وتتعرض الجزر لعواصف إعصارية هى الهاريكين الرهيبة التى تسبب كثيراً من الأضرار . وفى بعض الجزر لا يحس الإنسان بذلك الانتعاش الذى ينشأ عن التغيرات الجوية ، بينما فى بعضها الآخر ولاسيما ما كان منها على مقربة من خط الاستواء ، لا يحس الإنسان بفروق الحرارة وإنما يحس بفروق الرطوبة ، فالفرق بين الرياح التجارية المنعشة وبين الحرارة الخانقة التى تصحب الرياح الموسمية أوضح ما يكون .

وبعض النباتات فى ميلانيزيا ترجع إلى أصل آسيوى ، بينما لا يوجد فى الجزر الأخرى من النبات إلا ما يستطيع الطير والريح نقل بذوره وفسائله ، ولا من أشجار الفاكهة إلا ما تستطيع ثماره أن تعوم دون أن يصيبها الماء الملح بأى ضرر ؛ وأشهر هذه الأنواع هى ثمرة جوز الهند التى تستطيع أن تعوم على سطح الماء ستة أشهر أو يزيد دون أن يتعرض جنين النمو فيها للتلف . فإذا ما قذف الماء بالجوزة إلى الرمال الدافئة أو ألقت بها الأمواج فوق حاجز مرجانى ، فسرعان ما ينبثق عودها من الطرف المدبب ، بينما تمتد الجذور الرقيقة من الطرف الآخر المستدير إلى التربة أو إلى المرجان المتحلل ، كيفما تكون الحال .

ويكون نمو شجرة جوز الهند على أتمه قرب البحار لأنها تحب ضوء الشمس والهواء الطلق والتربة المملحة . وتتغطى شواطئ الجزر إلى حدٍّ ما

بغابات من النخيل ترتفع سيقانه الخضراء الشبيهة بالأعمدة إلى علو يتراوح بين ثلاثين وسبعين قدما تعلوها هامة من الأفرع الخضراء وثمار الجوز . وتُرى أقرب الأشجار من البحر مائلة إلى الخارج فوق الماء ، بينما يتمايل الشجر جميعاً مع النسيم ذات اليمين وذات الشمال ويمد جذوره فى أسفل تضرب فى الأرض وتعمل على تماسك التربة تحتها. وتبدأ شجرة جوز الهند فى حمل الثمار بعد غرسها بست سنين أو ثمان ، وتؤتى ثمارها أربع مرات أو خمساً كل عام ، وتستمر على ذلك خمساً وعشرين سنة أو يزيد . وأول الثمار نضجاً أسفلها على النخلة مكاناً ، وتظهر الثمار الجديدة باستمرار نمو الشجرة ، على حين تذوى الأغصان السفلى تدريجاً وتموت .

ومن الصعب أن نتصور ماذا كان يفعل سكان هذه الجزر لو لم تكن شجرة جوز الهند ، لأنهم لا يدعون جزءاً منها دون الانتفاع به ؛ فخشبها يستعمل فى أغراض عديدة ، وجريدها يمدهم بسقوف لمساكنهم ، وعندما يجف يستعمل فى الوقود وفى الإنارة . وتمدهم قشورها بألياف يصنعون منها الخيوط والحبال . ومن قشر الثمرة الكاملة يتخذون أوانى الشرب ، فإذا قسمت القشرة نصفين اتخذوا منها الأكواب والصحون . ويمدهم لبن الثمار الخضراء ، أى الجوزة التى لم يتماسك بعد لبابها ، بشراب شهى مفيد . وتؤكل الثمار عند ما تصبح لينة ،أى قبل أن تصل إلى الدرجة المتخشبة المعهودة لنا ، وعندما تنضج الثمرة وتلتقط من فوق الأرض يلقى بما فيها

من اللبن ولكن اللباب يبشر وتصنع منه الفطائر . ولزبدة جوز الهند ، وهى المادة الدهنية المستخرجة من لباب الثمرة ، منافع منزلية عديدة ، وهى الأساس الذى يتخذ منه جميع أنواع « المروخ » .

وقد قيل إن مساحة تتراوح بين فدانين وعشرين فداناً من أرض جوز الهند الجيدة فى جزيرة تبلغ ضعف المساحة المذكورة تكفى جماعة من الناس يبلغ عددهم مائة نفس ، فإذا توافر لهم إلى جانب ذلك متسع من الشطوط المرجانية يستطيعون ارتيادها وقت الجزر لجمع الأسماك منها كان ذلك مما يجعل حياتهم ميسرة . وفى هذه الأيام تشق كميات كبيرة من جوز الهند ، وبعد أن يجفف لبابها الأبيض — وهذا يكون غالباً فى أفران كبيرة — يتحول إلى تلك المادة الزكية الرائحة المعروفة فى الأسواق باسم زبدة جوز الهند ، التى يأخذها التجار فى مقابل بضائع أوروبية . ولكن هذه التجارة قد أصبحت الآن أقل ازدهاراً مما كانت منذ بضع سنين .

وقد كانت الحياة الحيوانية معدومة فى هذه الجزر فيما عدا الوطاويط والطيور ، وفيما عدا قليلا من الأوبوسم **opossum** الذى كان يعيش على الأشجار فى بعض أنحاء ميلانيزيا ، وبقيت الحال كذلك حتى أدخل الإنسان إليها الكلاب والخنازير والدجاج ، وأدخل كذلك — على غير قصد منه — الجرذان . وقد أدى انعدام الحياة الحيوانية إلى أن صار

السكان زارعين وصائدى أسماك . ويعتمد سكان السواحل فى الجزر الكبرى على صيد السمك فى المكان الأول ، بينما يعتمد سكان المناطق الداخلية على الزراعة . ومن المعروف أن « مصايد الأسماك كانت دائما مهدا الملاحين » ، وسنرى بعد قليل أن كثيراً من أهل تلك الجزر كانوا من كبار الملاحين .

وبين شعوب البحار الجنوبية شبه كبير فى طرق الحياة وفى الحرف ، رغم الاختلاف فى الجنس وفى التربة وفى البنية الجسمية . وقد يكون هذا راجعا إلى التشابه فى نوع المناخ السائد فى ذلك الاقليم الشاسع . على أن بينهم اختلافات كثيرة فى التفاصيل .

ولمعظم سكان جزر البحار الجنوبية مهارة فى فلاحة الأرض ، مع أن أهم أدواتهم الزراعية لا تتعدى عصا يستعملونها فى الحفر . ويشترك الرجال والنساء فى أعمال الفلاحة . ولا تخلو أكثر الجزر جدبا من قليل من نخيل جوز الهند ، بينما لا يُترك فى بريطانيا الجديدة شبر من الأرض دون أن يستثمر فى الزراعة ؛ وفى كاليدونيا الجديدة وجزر بانكس حدائق تقوم على ماء الرى ، ولأهل فيجى عبقرية فى إنشاء قنوات قد يبلغ طول الواحدة منها بضعة أميال ، وقد تمر فوق المنخفضات والأغوار السحيقة لتوصيل الماء إلى حيث تقوم مزارع التارو (Taro) . وفى بعض جهات پولينيزيا يصبح رى

أحواض التارو أمراً ضروريا بسبب قلة ما يسقط هناك من المطر . ومن المناظر المألوفة فى بعض الجزر المرتفعة مناظر المدرجات ذات الشطوط الصناعية فوق السفوح المنحدرة . وفى فيجى مثلا يبذل الناس جهداً كبيراً فى إقامة حوائط حجز الماء حول الأحواض أو المدرجات الواقعة على سفوح التلال . « وتتعاقب هذه الأحواض واحداً فى إثر واحد ، ويتراوح انخفاض كل واحد منها عن الذى قبله من أربع بوصات إلى عدة أقدام ، وذلك حسب انحدار البقعة » .

وتتناثر مزارع القرويين الساحليين غالباً فى مساحات شاسعة خلال الأحراش المحيطة بقراهم ، وكثيراً ما تمتد من الشاطىء إلى ارتفاع عظيم . وعلى الرجال إعداد الأرض للزراعة ، فتقطع الأشجار وتقتلع من الأرض جذورها ويحرق ما ينمو بينها من شجيرات ومن أعشاب . على أن المتبع فى بعض جزر سليمان أن تنزع قشور الأشجار الكبيرة لتجف وتموت وتترك قائمة لتكون دعامات لنبات الصرغم ، وبعد ذلك «تخرط» الأرض إذا لزم الأمر ، وطريقة ذلك فى فيجى أن يحفروا بعصيهم حول قطعة من التربة يبلغ قطرها نحو مترين ثم يستخدمون عصيهم فى رفع هذا الجزء من التربة وجعل أعلاه أسفله . ويأتى الأولاد بعد ذلك ويمسكون عصياً قصيرة يضربون بها ذلك الجزء حتى يتكسر وحينئذ يتناولونه بأيديهم سحقاً .

ولا تزرع البقعة الواحدة من الأرض إلا مرة واحدة أو مرتين ثم تهجر، ولا يعودون لزراعتها مرة أخرى قبل ثمانى أو عشر سنوات ، وحينئذ لابد من قطع أشجارها مرة أخرى وإعدادها للزراعة من جديد ، ولكن ما يكون قد نما فيها من أشجار ومن أعشاب لا يكون فى كثافة ما ينمو بالأرض البكر . ومثل هذا النظام الزراعى يستلزم مساحة كبيرة من الأرض لتكفى عدداً قليلا من السكان .

وأهم ما يزرعه الميلانيزيون جوز الهند والموز وقصب السكر والصرغم والتارو والبطاطا ، على أن ثمار الخبز والساجو حاصلات هامة فى بعض الأنحاء . وأهم ما يزرعه البولينيزيون إلى جانب جوز الهند ثمار الخبز والتارو ، وكلاهما من الحاصلات التى أدخلوها هم إلى بلادهم ، كما أنهم أدخلوا الأذرة والمانجو والبرتقال والليمون وغير ذلك من النباتات بعد ذلك بكثير .

والصرغم نبات شبيه فى أوراقه ومظهره بنبات العليق ولكنه يزرع من أجل درناته ، وهذه ذات قشور سمراء داكنة وذات لب يشبه البطاطس ويتراوح وزن الواحدة منها بين رطلين أو ثلاثة إلى مائة رطل وذلك حسب نوعها . وهذه الدرنات — وهى تستطيع أن تبقى سليمة عدة أشهر — تؤكل مسلوقة أو مشوية أو مطهية على البخار . وزراعة الصرغم

هى أهم ما يقوم به أهل ميلانيزيا من الأعمال ، وحولها تتركز كثير من المعتقدات السحرية . ويقوم الناس كل عام بإعداد بقعة جديدة من الأرض لزراعة الصرغم ، ولكن المعتاد أن يزرعوا فى نفس البقعة فسائل الموز بمجرد جمع محصول الصرغم . وتحاط الحقول عادة بأسوار قوية لتذود عنها الخنازير ، وإذا كانت الأرض مستوية حفرت بها قنوات مكشوفة لصرف الماء الزائد إذ أن الصرغم يحتاج إلى أرض جيدة الصرف . ولكل من الزرع والحصاد مواسم محددة ،ولا تعزق الأرض لزرع الصرغم بل تكوّم التربة أكواماً صغيرة على أبعاد تتراوح بين ثلاثة أقدام وخمسة . ويزرع فى كل كوم نبتة صغيرة أو تاج نبتة من نبات الصرغم ، ويغرسون بجانب كل منها عصا أو خابورا ليسند الساق الرفيعة الطويلة . وبعد خمسة أشهر تبدأ السيقان فى الجفاف مما يدل على أن الدرنات قد نضجت وحينئذ يحفر الرجال الأرض لاستخراجها ، ولكن هذه العماية لا تبدأ فى بعض الجهات إلا بعد أن تقدم للأرواح قرابين من « بشائر المحصول » . وتخزن الدرنات فى أكواخ جيدة التهوية أو تحملها النساء فى سلال كبيرة على ظهورهن للتخزين بالقرية . ولا بد من التفتيش على الدرنات بين حين وآخر لإبعاد ما أصابه التلف منها ولإزالة ما يكون قد نما على سطحها من نباتات .

وهناك أنواع عديدة من التارو ، وهو نبات يشبه الزنبق وأوراقه شبيهة بأوراق اللوف الضخمة ، ودرناته التى يزرع من أجلها تختلف فى وزنها من رطل واحد إلى اثنى عشر رطلا ، وهى ذات لون أشهب ضارب إلى الزرقة وتشبه فى شكلها وقوامها الصابون « المجزّع » ، وتؤكل مسلوقة أو مشوية ، ولكن أهل بولينيزيا يطحنون الدرنات فتتحول إلى نوع من الدقيق يمزجونه بالماء ثم يتركونه حتى يتخمر . وهذه العجينة يسمونها بوا (Poi) . وتصلح أوراق النبات أيضا للطعام بعد تحضيرها بطرق شتى .

والتارو — على خلاف الصرغم — عرضة للتلف ، ولذلك يؤكل عقب اقتلاعه من التربة ، وليس له موسم محدد للزرع ولكن يزداد الاهتمام به فى بولينيزيا بعد موسم حصاد الصرغم . ولا بد للتارو من رطوبة كثيرة ، ولهذا يجب ريه إذا زرع فى جهات ذات مطر قليل . وفى بولينيزيا تغلب زراعته فى أرض مدرجة ترويها قنوات متعرجة يسهل تحويلها . والتارو أقل إجهادا للأرض من الصرغم ، ولذلك يمكن زرعه مرتين متتاليتين فى البقعة الواحدة . وطريقة إعداد الأرض لزراعته لا تختلف عن طريقة إعدادها للصرغم ، غير أن شتلات التارو تزرع فى صفوف بين كل واحد منها والذى يليه نحو قدمين أو ثلاثة أقدام ، على أن المسافة بين كل شتلة والتى تليها تقل عن ذلك كثيرا . وتحفر فى الأرض (جُورٌ) عمقها نحو

تسع بوصات ، يوضع فى كل منها قطعة رقيقة ينزعونها من قمة الدرنة مع ساق الورقة الملتصقة بها ، وينزعون منها الأوراق ليحولوا دون فقد رطوبتها عن طريق التبخر . ولا يحتاج النبات بعد زرعه إلى أى مجهود إذا استثنينا تنقية العشب من أرضه أحيانا ، وهى عملية يقومون بها أثناء الجو المطير . وبعد نحو عشرة أشهر أو اثنى عشر شهرا تكون الدرنات صالحة للحصاد ، وهذه حقيقة يدل عليها جفاف الأوراق .

وثمار الخبز — وهو يلى التارو فى الأهمية كمادة غذائية فى بولينيزيا — يسمى عماد حياة بولينيزيا ، وثماره المستديرة ذات اللون الأخضر فى أول الأمر ، والذى يتحول عند النضج إلى الأصفر الذهبى ، يبلغ قطرها نحو ست بوصات وتغطيها قشرة خشنة نوعا ، وشجرتها عالية وارفة الظلال يزيدها جمالا ما تحمل من الأوراق السوداء اللامعة ومن مئات الثمرات ذات اللون الأخضر الخفيف أو المائل إلى الصفرة . ويختلف موسم نضج الثمار حسب نوعها ، ولهذا كان الحصول على الثمار الناضجة ميسورا فى كل آن . وتتكاثر الأشجار بطريق الفسائل التى تنمو عند جذورها أو بطريق (العُقَل) ، وهى تزرع بجوار المنازل أو على سفوح التلال التى تحول شدة انحدارها دون زراعة التارو ، وتبدأ الشجرة فى حمل الثمار بعد غرسها بخمس سنين وتستمر على ذلك خمسين عاما .

ولا يأكل ثمار الخبز نيئة أبدا غير الخنازير ، أما الأهالى فيتبعون فى إعدادها للطعام طرقا شتى ، فإذا كانوا على سفر فهم غالبا يشوونها على الحجر ثم ينزعون قشرها ويأكلون لبابها .... وأحسن طريقة لإعدادها وأكثرها ذيوعا إنضاجها فى فرن من الحجارة المحماة ثم نزع القشرة وقطع الثمرة إلى ثلاثة أجزاء أو أربعة واستخراج اللباب منها ... وعندما تنضج يتحول قشرها إلى لون محمر جميل ، ويتخذ لبابها قواما لحميا شبه شفاف ولونا أبيض أو ضاربا إلى الصفرة ، وهو فى مجموعه يشبه منظر فتات صغير مصنوع من القمح ؛ على أن الشبه بينه وبين الخبز يقتصر على اللون والحجم والتكوين ، ولكن مذاقه غير واضح ، وهو يميل غالباً إلى الحلاوة ، وطعمه دقيق نوعا ولكنه لا يبلغ فى ذلك مبلغ كثير من الخضروات الأخرى ، وقد يقل فى ذلك عن البطاطس الانجليزية ، كما يقل عنها أيضا فى مذاقها المستساغ ، وهو حريف نوعا ولا بأس به كخضار ولكنه لا يقوم مقام الخبز الانجليزى .

ويحفظ ما زاد عن حاجتهم من الفواكه بطرق شتى ، وتعتبر ثمار الخبز من أهم ما يتزودون به فى أسفارهم البحرية .

وتوجد إلى جانب الفواكه والدرنات التى ذكرناها أنواع عديدة من الأشجار تمدهم بأصناف أخرى من الأطعمة ؛ ومن ذلك أشجار الموز

وهى أهمها جميعاً ، وثمارها الناضجة تؤكل دون طهى ، فإذا كانت فجة أكلت مشوية على النار أو طهيت بعد خلطها بزبدة جوز الهند وعصير قصب السكر فتتحول إلى نوع من الفطائر ؛ وتستعمل أوراقها العريضة صحونا وأغطية للموائد كما تستخدم فى التغليف . وأكثر ما تزرع أشجار الموز على جوانب الطرق ، وفى مزارع الصرغم بعد جمع محصول . وهى تؤخذ فسائل وتغرس على بعد نحو ثمانية أقدام . وتؤتى الشجرة ثمارها بعد عامين أو ثلاثة من غرسها . ومن الأشجار التى لا بد من ذكرها شجرة لوز الكاناريوم (canarium almond tree) التى تنمو فى ميلانيزيا وتعطى قدرا كبيرا من الثمار ، ولإعدادها للطعام تنزع قشرتها الصلبة ثم تجفف على دخان النار وتضاف إلى أصناف الصرغم والتارو فتكسبها مذاقا شهيا لولاه ما كانت تستساغ . وكذلك يوجد فى ميلانيزيا تفاح الملايو وشجرة السو (su'e tree) التى يؤكل ثمرها وورقها وزهرها جميعاً ، ونخيل الأريكا (areca palm) الذى يتكاثر تلقائياً وينتشر فى مساحات واسعة . وتعتبر بساتين جوز الهند والأريكا ملكا للأسرة ، ويقوم أفرادها جميعاً بالعناية بها وتنقية الأعشاب من أرضها واقتلاع الزائد من شجيراتها واقتسام ثمارها . أما ما عدا ذلك من الأشجار فإنها ممتلكات فردية تؤول بعد وفاة صاحبها إلى ورثته .

وثمرة نخيل الأريكا ذات الحجم الصغير واللون الأصفر تمضغ مخلوطة بأوراق فلفل الطامبول (betel pepper) والجير الذى يحصلون عليه من المرجان المحروق ، وهذا المخلوط مغذ ومنبه معا ، وهم يتناولونه عقب كل طعام ، كما يتناولونه فى أوقات مختلفة من النهار وفى جميع الاحتفالات. وعادة مضغ الطامبول — كما يسمونها — منتشرة فى جنوب الهند وفى إندونيسيا وفى كل مكان عدا جنوب ميلانيزيا ، ولكنها غير معروفة فى پولينيزيا .
أما الپولينيزيون فيستخرجون من جذور عدة أنواع من الفلفل قريبة الشبه بالأنواع التى يمضغ الميلانيزيون أوراقها ، شرابا منبها ذا خاصية مخدرة نوعا يسمونه كاڤا kava . ولتحضير هذا الشراب تمضغ الجذور جيدا ثم يتفل العصير واللب فى أناء من الخشب ، و بعد ذلك يقلب هذا الخليط بالماء و يصفى . و يقتصر شرب الكاڤا فى الغالب على المناسبات السعيدة ، وتمر الكأس التى تحتويها على القوم من شخص إلى آخر بالترتيب الذى يتفق مع مركزهم الاجتماعى ، وذلك بعد أن يريق الزعيم قليلا منه على الأرض تقربا إلى الآلهة .

وقد استبدل الپولينيزيون الذين هاجروا إلى نيوزيلندا ، بالصيف الدائم الذى يسود المناطق المدارية مناخا أكثر برودة ورطوبة ، ونقلوا معهم التارو والصرغم ، ولكنهما لا يجودان إلا فى أكثر الجهات دفئاً

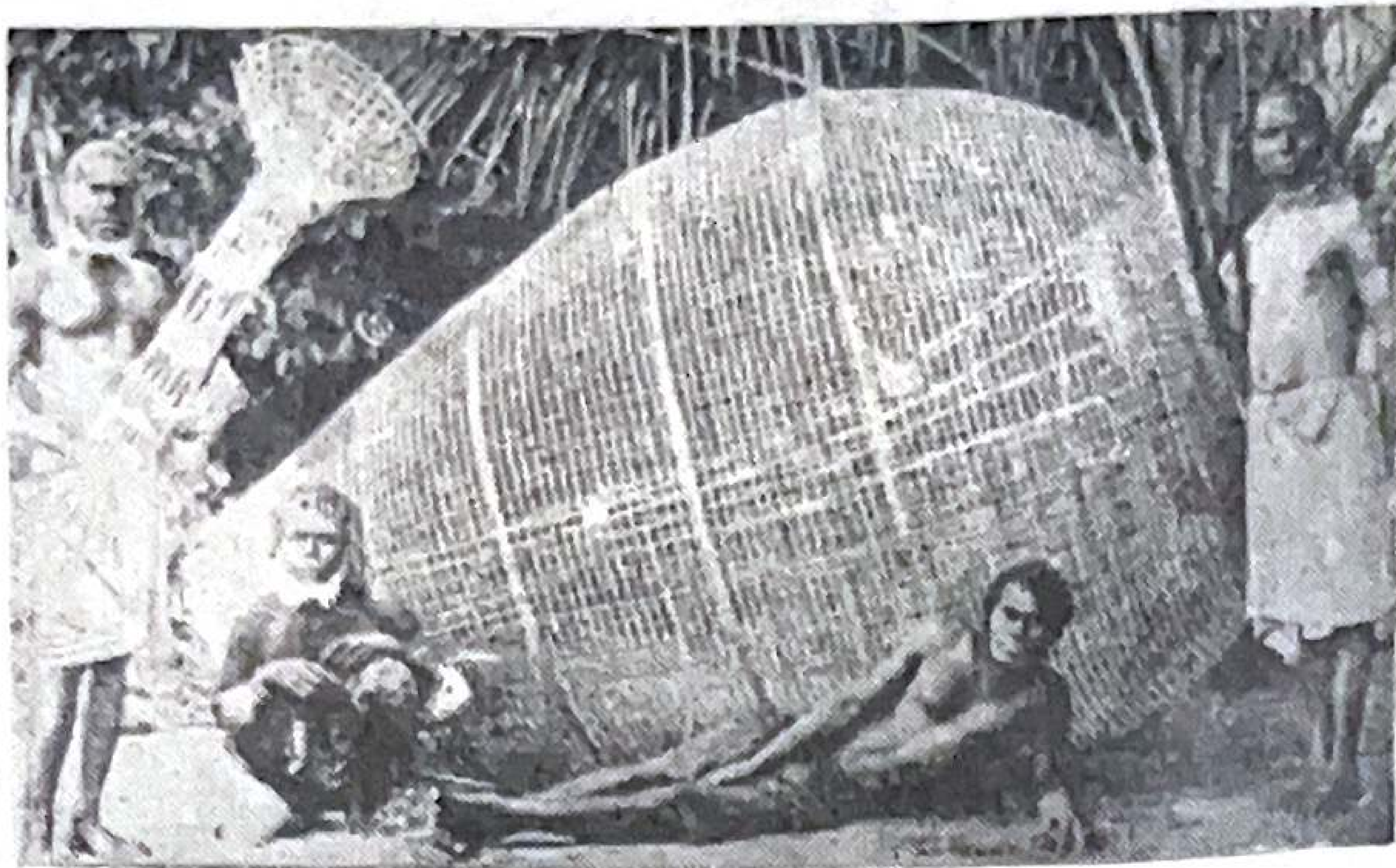
أى فى الطرف الشمالى من الجزيرة الشمالية ، وحتى البطاطا لا يلائم معظم الجزيرة الجنوبية نموها ، وعلى ذلك اضطر الماورى الذين استوطنوا تلك الجزيرة إلى الاعتماد على جمع الحاصلات البرية ، وصار غذاؤهم يتألف فى الأغلب من درنات نباتات سرخسية صالحة للطعام . ولا يبدو أن أحدا قد أدخل شيئاً من الدجاج أو الخنازير إلى نيوزيلندا التى كانت الحياة الحيوانية بها ضئيلة للغاية ، على أن الماورى قد دأبوا على صيد الموا (moa) — وهو طائر يشبه النعام — حتى فنى عن آخره .

و يمد البحر هؤلاء الناس بقسط وافر من الرزق ، بينما فى الجزر الواطئة يصبح السمك أهم عنصر غذائى ، إذ يصعب فيها زرع ثمار الخبز . وتخرج النساء وكبار البنات حاملات العصى ويجمعن من على شطوط الغدران الاستاكوزا (lobsters) وأبو جلمبو (عقرب الماء) والجنبرى وسمك المحار وقنفذ الماء (الرتزه) والأخطبوط . وللرجال وحدهم حق الصيد بالقوارب . و يصاد السمك بطرق عديدة ، بالأيدى و بالصنانير و بالفخاخ والخيات ، و بالسلال والمصائد ، و بالحراب التى قد يكون لكل واحدة منها خمسة رءوس ، و بالشباك ذات الأشكال والأحجام المختلفة ، و بالأقواس والسهام ، و بالتخدير بنوع من السم النباتى يلقى به فى الغدران التى ينحسر عنها الماء وقت الجزر . و يصنع خيط الصنارة (الذى قد يصل

طوله إلى ستمائة قدم) من النباتات الزاحفة التى تنمو بالغابة ، يجدلونها بعد أن تجف ، وكثيرا مايثقلون الخيط بحجارة يثبت كل منها فى الخيط بطريقة تجعل من السهل انفصاله عند ما « تعالج » السمكة الطُعم .

وينحت الشص بمهارة فائقة من أصداف السلاحف ومحار الأسماك ، ويختلف شكله باختلاف نوع السمك الذى يراد صيده ، ولكن أنواع الصنانير المصنوعة محليا قد اندثرت وحلت محلها أنواع مصنوعة فى الخارج .

وللفخاخ أشكال وأحجام عديدة ، وتستعمل الصغيرة منها فى الغدران والمياه الضحلة ، أما الكبيرة — كتلك التى يستعملها أهل بريطانيا الجديدة — فتصنع من القصب المفلوق المجدول بأغصان الراتان لتمسكه بعضه إلى بعض . وبعض هذه الفخاخ يصل طوله إلى عشرة أقدام وقطره إلى ستة أقدام ، وهى ذات فتحات فى كلا طرفيها ينتهى كل منها إلى خرق يدخل منه السمك فإذا دخل استحال عليه الإفلات . ويبقى الفخ دائما على عمق خاص تحت سطح الماء ، وذلك بشده بحبل قوى مصنوع من دوالى الأشجار المفتولة يثبت أحد طرفيه بمرساة ثقيلة هى عبارة عن سلة مخروطية الشكل من الأغصان المجدولة تملأ بالحجارة الثقيلة ، ويشد طرفه الآخر إلى جسم عائم . ويتردد صاحب الفخ عليه مرة كل يوم ويحصل منه غالبا على نحو خمسين سمكة فى كل مرة . وفى جزر ساموا وسوسيتى وغيرها تقام حواجز متقنة الصنع من الحجر وفخاخ لصيد السمك .



(شكل ٦١) مصيدة لصيد السمك يستعملها أهل بريطانيا الجديدة .

وصيد البونيتو Bnito — وهو سمك لا قشر له ذو لون أزرق فضى وتزن الواحدة منه بين ثمانية أرطال وعشرة — رياضة مثيرة وخطرة . ويصاد هذا السمك بالصنانير ، ويجلس صائدوه القرفصاء فى مقدمة فلائق خاصة وفى مؤخرتها . ويصنع شص الصنارة من أصداف السلاحف ، ولا يوضع به طعم ولكنهم غالبا يخفونه بريش يلصق على نموذج لسمكة صغيرة مصنوع من صدف اللؤلؤ . ويعتقد سكان جزر سليمان أن لسمك البونيتو خاصية مقدسة ، فهم من أجل ذلك يحجزون الأولاد فترة من الزمن حجزا منفرداً فى مساكنهم فوق القوارب قبل السماح لهم بممارسة صيده .

وتُصاد الپالولو **Palolo** وهى دودة بحرية تطفو على سطح المياه الساحلية فى مواسم مختلفة فى أماكن مختلفة لتتوالد ، ولكنها تظهر دائما فى نفس الموسم من كل عام ، وتصاد برفعها من الماء بسلال خاصة ، وهى تؤكل نيئة كما تؤكل مطبوخة ، ولكن القدر الأكبر مما يصيدون يجفف أو يدخن على النار ويحفظ ليؤكل بشهية . وطريقة الصيد بالحدأة (**Kite**)[1] — وهى طريقة شائعة الاستعمال فى الجنوب الشرقى من غينيا الجديدة — تستعمل أيضاً فى جزر سليمان لصيد سمك (الجار) **garfish**، وهم يعمدون فى ذلك إلى (الحدأة) فيطلقونها من أحد القوارب بحيث



(شكل ٦٢) قوارب ذات عوامات جانبية .

(١) الحدأة (Kite) طافية من الخشب ذات شراع ضيق عال تنزلق على سطح الماء مع الريح وتستعمل فى جر الشباك وأحياناً فى جر صغار القوارب .

تجر (الغمّاز) على سطح الماء ، فإذا علقت أسنان سمك (الجار) فى النسيج العالق بالغماز شدوا الحدأة إلى القارب وأمسكوا السمك .

ويصيد بعض البولينيزيين القوبع (**ray**) الضخم بالحراب ذات الرءوس القابلة للانفصال ، وكثيراً ما يصيد سكان جزر البحار الجنوبية السمك بالحراب على ضوء المشاعل ، كما يصيدون (القرش) (**shark**) بالخيات والمحاجن (**clubs**) . والسلاحف صيد محبوب يسعون وراءه ويبذلون فى ذلك جهدا ، وإذا شاهدوا على سطح الماء سلحفاة هرع إليها الرجال فى قارب وغاص بعضهم تحتها وقلبوها على ظهرها فتصبح لا حول لها ولا حيلة . وفى بريطانيا الجديدة وبعض الجزر الأخرى تصاد السلاحف عادة عند ما تقصد إلى الشاطىء لتبيض ، ومن عادتهم أن يكون لزعيم الصيادين فى كل قرية حق رياسة حملات الصيد ، وهى حملات كثيرا ما تذهب إلى شواطىء نائية .

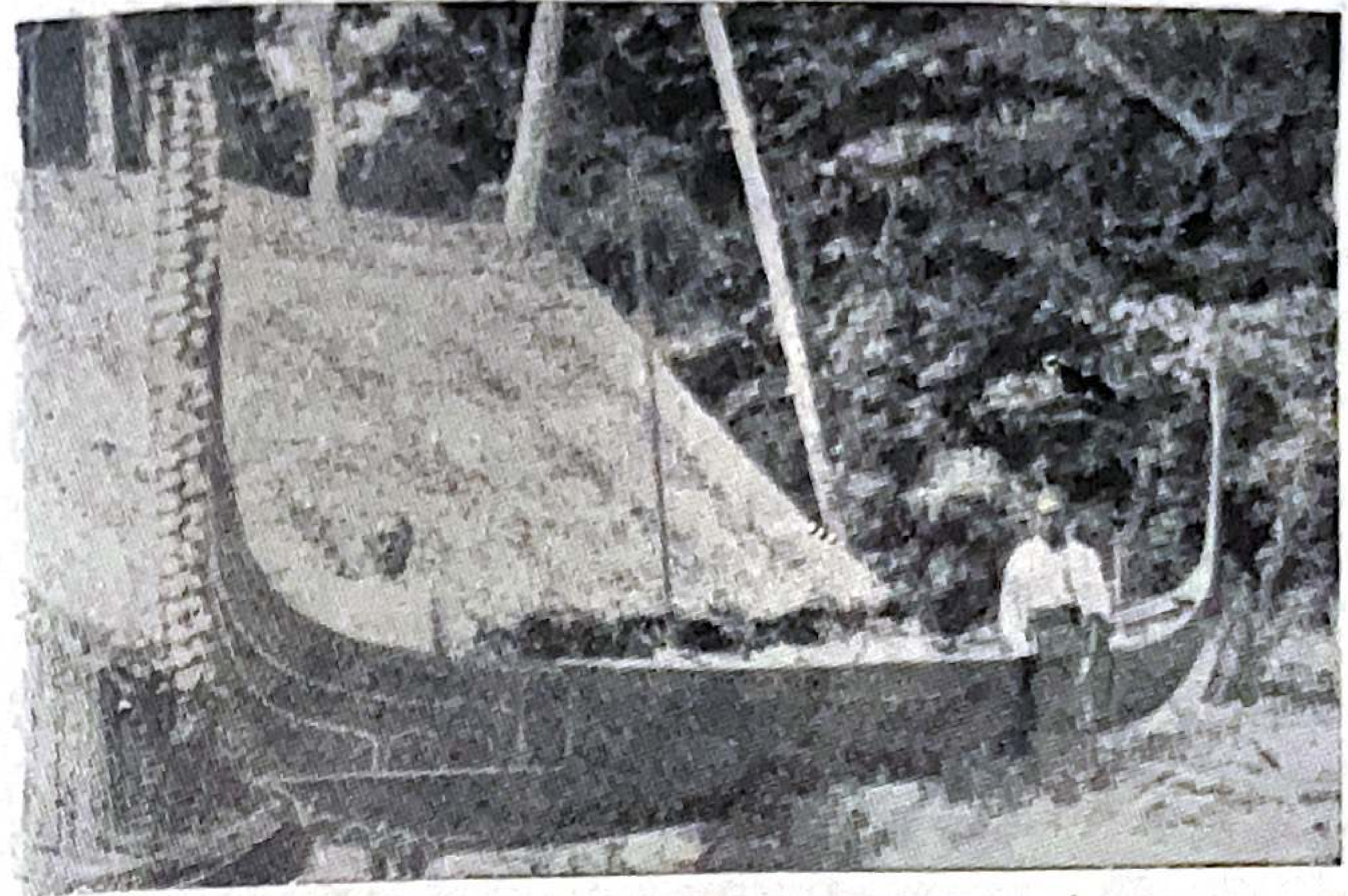
ويصنع سكان جزر البحار الجنوبية قوارب مختلفة الأشكال والأحجام . وتستعمل لحمل البضائع عبر الغدران أرماث بسيطة الصنع من القصب تدفع بالمزاريق أو بأيدى رجال يخوضون فى الماء ، أو قد تجرها (الحدأة) . على أن أكثر الأنواع انتشاراً فى الصيد نوع صغير من الفلائق يثبت له (موازن) واحد فى أحد جانبيه ، وهذا النوع

يشاهد فى كل مكان عدا بعض جزر سليمان ، وتحفر هذه القلائق من كتل
الخشب المتين ، بالنار والقَدَوم ، وكان القدوم فيما مضى يصنع من الحجر ،
بينما فى الجزر التى كانت تخلو من الأحجار الملائمة كان القدوم يصنع من
المحار . وكان الإزميل العادى والإزميل للدور الشقرة يصنعان فى الغالب
من الأجزاء المتينة من العظام البشرية . ويستخدم (الموازن)
ليوازن القارب الضيق ، وهو (عوامة) من الخشب الخفيف أقصر فى العادة
من القارب نفسه ، تثبت فيه بثلاثة قضبان أو عروق من الخشب تشد
حول القارب وتبرز فى كلا جانبيه إلى الخارج ثم تنحنى إلى أسفل حيث
تمسك بالعوامة أو تثبت فيها بواسطة عصىّ قصيرة .

وتستعمل فى التجارة وفى الحروب قوارب أكبر من هذه تستطيع
قطع مسافات طويلة فى بحار خارجية ، ويراعى فى القوارب المعدة للتجارة
القدرة على حمل مقادير كبيرة من البضائع . وقد كانت بعض قوارب
تاهيتى يزيد طولها على سبعين قدما ، بينما بلغ طول قارب من قوارب
الماورى قاسه كابتن كوك سبعين قدما تقريباً وعرضه ثمانية أقدام وعمقه
ثلاثة أقدام وست بوصات . وحيثما كان من الصعب الحصول على كتل
من الخشب تبلغ هذا القدر من الطول كان القارب يصنع من جذعين
من جذوع الأشجار أو ثلاثة تقطع نهاياتها بحيث يركب طرف كل واحد

منها على طرف الآخر بإحكام ، ثم تربط الأطراف بعضها ببعض بحبال
تمر من خروق يخرقونها بمخراز من العظم أو من المحار ، وبعد ذلك يسدون
الخروق الناتجة سداً محكما بمزيج من النباتات .

وفى بريطانيا الجديدة وجزر أدميرلتى ونيوزيلندا وغيرها ، كثيرا
ما يزيدون فى عرض القليقة وارتفاعها بإضافة عوارض جانبية أو أطواف
خشبية تمنع طغيان الماء ؛ وتثبت العوارض إلى القلائق بحبل غليظ من النباتات
بطريقة مشابهة لما ذكر آنفا ، وتسد الخروق كذلك بألياف ومزيج نباتى ،
وتثبت العوارض إلى جانب القليقة فى أغلب الأحوال دون أن تركب حافة
إحداها حافة الأخرى . وكان من عادة الماورى تغطية الخروق بقطع صغيرة من
الخشب تربط إلى نفس الحبال التى تمسك الأطواف الخشبية بالقليقة ، وهذه
الأطواف التى توضع على جانبى القليقة لتعلية حافتها قد تكون من الطول بحيث
تصل من مقدمتها إلى مؤخرتها ، حتى ولو احتاج الأمر إلى وضع عدة عوارض
بعضها بامتداد بعض . وكثيراً ما تضاف إلى القليقة من الأمام والخلف
ألواح مثبتة بطريقة خاصة تحل محل الأطواف التى تمنع طغيان الماء ، وهذه
تغطى فى بعض الأحيان مقدم السفينة ومؤخرتها . ولبعض قوارب تاهيتى
فى المقدمة أعمدة ترتفع إلى علو ١٥ قدما أو ١٨ قدما مزخرفة بأشكال



(شكل ٦٣) نموذج للقوارب التى يستعملها اهل جزر سليمان

محفورة فيها ، وكذلك قوارب الماورى كانت لها مقدمة عالية مزخرفة بنقوش كثيرة محفورة ، كما كان لها عمود آخر عند مؤخرتها .

وتوجد — أو كانت توجد — فى بعض جزر سليمان وفيچى وجلبرت وسوسيتى Society وساموا قوارب من ألواح خشبية وليس بها إلا القليل أو ليس بها أى أثر للجذوع المجوفة ؛ وكانت الألواح تثبت بعضها إلى بعض بعد أن تقطع بالقدوم إلى الطول والسمك المطلوبين و بعد أن تمسح وتلمع بكتل من المرجان ، و بعد ذلك تسد الخروق والفتحات بمعجون نباتى يحول دون تسرب الماء إليها . ولم يكن أهل جزر سليمان يُرَكِّبون

للقوارب المصنوعة من الألواح عوامات جانبية (**Outriggers**) ، وكانت هذه القوارب تبدو رشيقة بمقدمتها ومؤخرتها العاليتين المنحنيتين اللتين تعلوهما نقوش كثيرة محفورة فيهما واللتين تطعمان بأصداف اللؤلؤ ، وعلى جانبى مقدمة القارب كانت ترسم أشكال بدائية أو تحفر نقوش تمثل العين البشرية ، إذ يعتقد الوطنيون أن رسم العين يهدى القارب إلى طريقه أثناء السير ، لكن الحقيقة أن هذه العقائد بقايا معتقدات قديمة جدا . ويزيد طول بعض القوارب على ٣٥ قدما وعرضها على ثلاثة أقدام ، وبها مقاعد تكفى لجلوس اثنى عشر رجلا يجدفون . وتتسع بعض القوارب الحربية لخمسين شخصا أو يزيد . وتحفظ القوارب فى مكان يسمونه « منزل القوارب » هو فى العادة أظهر مكان فى القرية ، وهو مبنى طويل ضيق يرتكز سقفه على « عرق » طويل ينوء بثقله فينحنى إلى أسفل ويصبح شبيها بظهر الحصان . وتحفظ فى نفس البناء كذلك رءوس رجال يغطيها الدخان ، وأيدٍ محنطة وعقود مصنوعة من فقرات السلاسل البشرية .

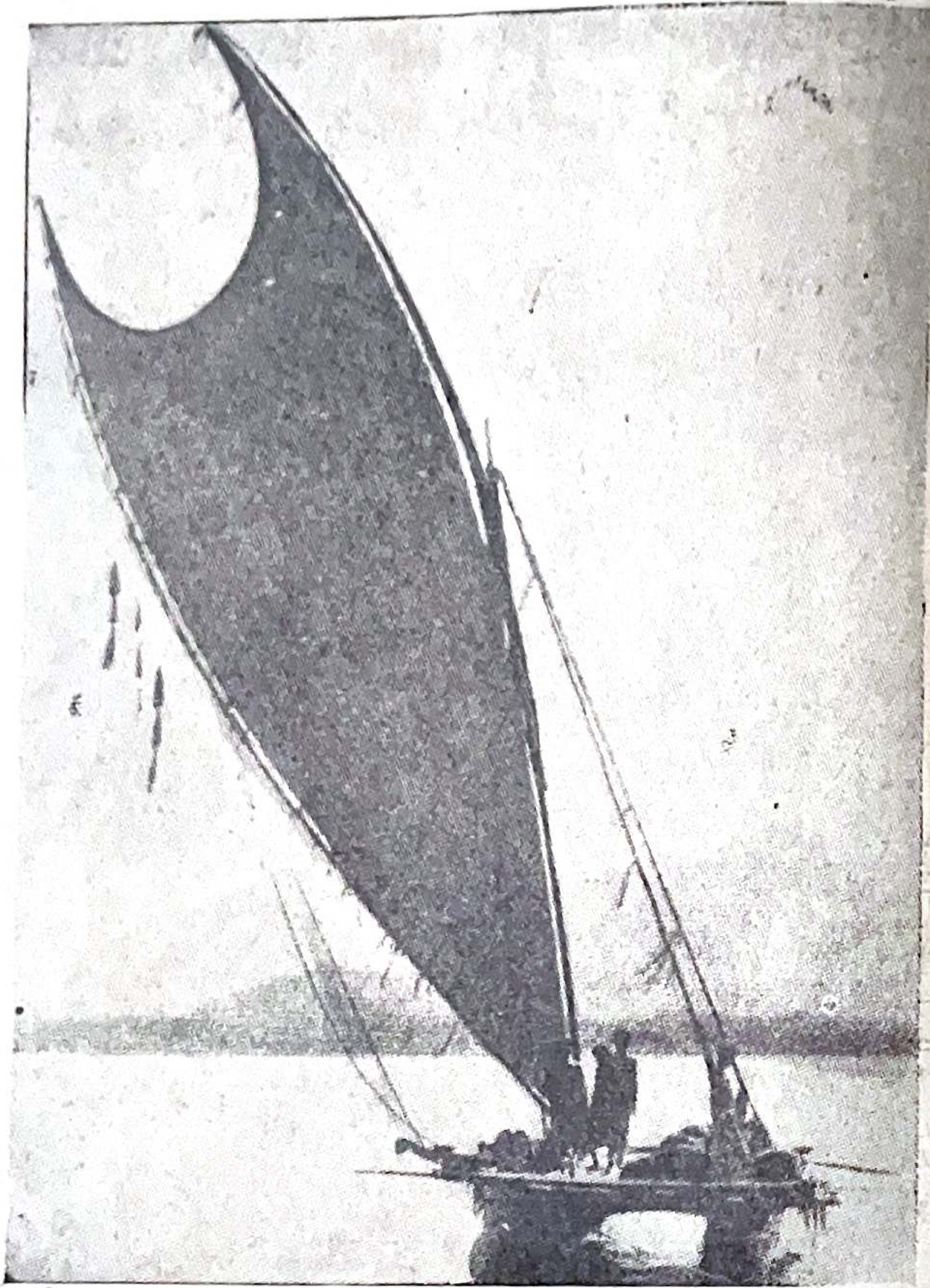
ومن العادات الشائعة فى فيچى وكاليدونيا الجديدة وجزر سوسيتى وساموا أن يربط قاربان من القواب الكبيرة بقطعتين من الخشب طول كل منهما نحو قدمين يقام عليهما رصيف عريش أو مظلة من أى نوع

« وحينئذ يبدو الهيـكل جميعه شبيها بالطوف ، سواء فى مقدار حمولته أو فى قدرته على الثبات فوق الماء ، على أن مقاومته للماء لا تزيد على مقاومة القاربين » .

وهـذه القوارب المزدوجة الهائلة الحجم التى نشاهدها فى ساموا بحجراتها المسقوفة بالقش والمشيدة فوق أرصفتها ، والتى بطل استعمالها الآن بسبب صعوبة السيطرة عليها ، كانت فيما يقال تتسع لنقل قرية بأكملها .

وفى التيپوكى أو القارب المفرد الشراع الذى يستعمل فى سانتا كروز كانت الفليقة (تُقلفط) فتصير عوامة ذات سطح متسع يُشاد فوقه كوخ يتقى به الرجال حرارة الشمس . وكانت هذه السفن التى تصعب السيطرة عليها ذات شراع عجيب الشكل تجدله النساء ، وذات دفة يدوية يحركها مجداف طويل .

وقد ذكر كوك أن بعض قوارب سكان نيوزيلندا تتسع لستين أو ثمانين أو مائة شخص . وفى سـنة ١٨٢٠ شاهد كروز (Cruise) أسطولا من ثمانين قطعة من هذه السفن كان كثير منها يصل طوله إلى سبعين أو ثمانين قدما ، وقليل منها كان طوله أقل من عشرة أقدام ، وقد ذكر أيضا أنه رأى واحدة منها طولها أربعة وثمانون قدما وعرضها



(شكل ٦٤) قارب مزدوج

ستة أقدام وعمقها خمسة ، محفورة كلها من قطعة واحدة من الخشب ولها مجاديف وبها ثلاثة من رؤساء النوتية ، وكانت تمخر العباب بسرعة مدهشة جعلتها تثير زبد الماء على كلا الجانبين .

وكان طول كثير من قوارب « طونجا » المزدوجة يبلغ مائة قدم وكان بها شراع كبير مثلث الشكل وكوخ أو « كابين » على سطحها . ورأى كوك أسطولا من مائة وستين قاربا مزدوجا كبيراً فى تاهيتى عدا مائة وسبعين قاربا أصغر منها . وفى ساموا كان يصل طول كبار القوارب المزدوجة أحيانا إلى أكثر من مائة قدم .



(شكل ٦٥) القارب الذى يستعمل فى سانتا كروز

ويملك بعض الزعماء — أو كانوا يملكون — أساطيل كبيرة من السفن . وكانت القوارب الحربية فى تاهيتى ذات سطوح تتسع لخمسين من الرجال المحاربين ، وتزخرف بأعلام من الجديل الملون والريش ، ولكل قارب اسمه الخاص ، ولم يكونوا يستعملون السُّكان (الدفة) ، ولكن الرجل المنوط به توجيه القارب كان يجلس فى مؤخرته وفى يده مجداف كبير يستعمله لهذا الغرض . وكانت القوارب تسير بالمجاديف وبأشرعة مثلثة الشكل مجدولة من ورق الباندانا (ومن السمار فى نيوزيلندا) ، وكانت سارياتها غير مثبتة ، ولا تنصب إلا عند استعمال الشراع .

والبولينيزيون أمهر فى الملاحة كثيراً من الميلانيزيين الذين لا يميلون إلى القيام بأسفار بحرية طويلة، والواقع أن البولينيزيين من أكثر الملاحين القدماء إقداما ، وقد ذرعوا بقواربهم المزدوجة الكبيرة ملايين من الأميال المربعة من سطح المحيط الهادى فى مدى بضعة قرون ، حتى لقد وصلوا إلى المحيط المتجمد الجنوبى ، وكانت أقصى نقطة وصلوا إليها ناحية الشرق جزيرة إيستر التى تقع من بلادهم على مسافة تبلغ ثلاثة أرباع عرض المحيط ، على أن هناك من يعتقد أنهم وصلوا فعلا إلى شواطئ أمريكا .

وكانت الأسفار إلى البلاد البعيدة تهدف إلى المتاجرة والمقاتلة والترحال والكشف. ومما يجعل هذه الرحلات جديرة بالملاحظة أنهم لم يكونوا يعرفون البوصلة البحرية ولا آلة السدس ولا التقويم البحرى ولا الكرونومتر ، ومع ذلك كانوا يعرفون كيف يوجهون سفنهم بالانتفاع من انتظام الرياح التجارية ومن ارتفاع النجوم فوق الأفق . وقد استخدموا لتسجيل خط عرض الأماكن ما يسمى « البندقة المقدسة » وهى ثمرة كبيرة من فصيلة ، القرع يقطعون جزءها العلوى ويثقبون فيها ثقوبا أربعة على أبعاد متساوية وعلى مسافة خاصة من الحافة ، بحيث إذا نظر الراصد خلال أحد الثقوب إلى الحافة المقابلة كانت الزاوية الناتجة مساوية لارتفاع النجم القطبى ، أى مساوية لخط عرض المكان . وكانت « القرعة » تملأ بالماء وقت الاستعمال ، ويتطلع الراصد خلال الثقب إلى النجم القطبى حتى يراه على الحافة مباشرة ، أى حتى يرى النجم « يلثم شفتى البندقة المقدسة » ، وحينئذ يعرف أنه قد وصل إلى خط العرض المطلوب .

والبحر هو الطريق الذى يسلكه هؤلاء الناس فى تنقلاتهم ، وبذلك أصبحت الجزر مراكز للسكنى ، ثم صارت فيما بعد قواعد لكشف جهات أخرى . وكانوا كلما أوغلوا صوب الشرق وجدوا الجزر أصغر والحياة الحيوانية والنباتية أقل ، ولكنهم كانوا عادة يأخذون معهم الخنازير

والطيور وصغار النباتات الصالحة للطعام ، وبهذه الطريقة انتشرت فى أرجاء المحيط الهادى أشجار ثمار الخبز وجوز الهند والموز والبطاطا والتارو والصرغم وغيرها . وكانوا إذا اعتزموا السفر يقدم الكهنة القرابين للآلهة ويختزن الرجال فى القارب قرعا طويل الرقاب مملوءا بالماء وعجين اليوا (Poi) ملفوفا فى أوراق الأشجار وفواكه من جميع الأنواع ، وكانوا يضعون فى « الكابين » المشيد على سطح القارب كانونا مملوءاً بالرمل والحجارة التى تستعمل فى الخبز ؛ وكانت السفن المسافرة تنتشر أثناء النهار فى مسافة واسعة حتى لا تفوتها جزيرة مهما كانت صغيرة ؛ وأهم الجزر التى كانت مراكز للرحلات هى ساموا وسوسيتى (Society) .

« وفى الرحلات من تاهيتى إلى نيوزيلندا ، وهى رحلات كانوا يقومون بها كثيراً ، كانوا ينحرفون إلى راراتونجا فى أرخبيل كوك ، ومنها يولون وجوههم شطر نيوزيلندا ، وهى مسافة ألف وستمائة ميل . وكانت هذه الرحلة تتم فى ديسمبر حيث تكون الرياح التجارية مواتية ، ومنها يعودون فى يونية ، وكانت السفرة الواحدة تستغرق نحو أسبوعين ، ولكن كان من المستطاع إتمامها فى أقل من ذلك إذا كان اتجاه الرياح ثابتا . وكانت السفن تعرج فى مثل هذه الرحلات على جزيرة صندى (Sunday)

ولكن صغر هذه الجزيرة يدعو إلى الاعتقاد أنهم لم يكونوا فى كثير من الأحيان يعبأون بالتعريج عليها[1] .

ومن أعظم الملاحين البولينيزيين كوپيه (Kupé) الذى خرج على رأس عدد قليل من الملاحين قبل موعد الرياح التجارية ورسم خريطة لنيوزيلندا وأثبت عروضها على « البندقة المقدسة » ثم عاد إلى هاوايكى ليصدر تعليماته إلى أسطول المهاجرين الضخم الذى أقلهم إلى نيوزيلندا فى سنة ١٣٥٠ .

ولا يتسع المقام هنا للتوسع فى سرد كل شىء عن سائر النواحى الثقافية لسكان المحيط الجنوبى ، ولكن طرق الحياة عموما تتشابه كثيراً ، على أن التفاصيل تتفاوت فى أغلب الأحيان حتى إن أى جماعة من الجماعات قد تختلف طريقة حياتها اختلافا كبيراً عن حياة جماعة أخرى تعيش على بعد أميال قليلة منها .

---

(1) Forde .C .Daryll, Ancient Mariners

الفصل الثالث عشر

الزارعون وصائدو السمك البدائيون

فى البحار الجنوبيـــة

---

٢ — الميلانيزيون والپولينيزيون

يلبس الميلانيزيون قليلا جـداً من الملابس ، ويلبس الرجال منهم إزارا للكشحين من نسيج من لحاء الأشجار تقوم النساء بصنعه ، فيأتين بقطعة كبيرة من حجر ناعم ويضربن به الغشاء الداخلى للحاء « توت الورق » « Paper-Mulberry » فيقطعنه إلى شرائح . وهذا النوع من النسيج أقل من نسيج التاپا « Tapa » الذى يصنعه الپولينيزيون . وتلبس النساء مئزرة من الألياف المدلاة يمسكها خيط مربوط حول الوسط . ولا تعرف صناعة النسيج فى أى جزء من ميلانيزيا فيما عدا سانتا كروز وجزر الحاجز المرجانى . ويحصل أهل سانتا كروز على الألياف التى يصنعون منها الأكياس والحصير من الساق العصارية لشجيرات الموز ، فتوضع الساق على لوح من الخشب وتضرب بمدقة خشبية ثقيلة حتى تتحول إلى



(شكل ٦٦) النسج على النول فى سانتا كروز

عجينة ، وحينئذ تكشط المادة النباتية وتعلق الألياف فى الشمس لكى تجف ؛ وبعد مشطها جيداً تصبح صالحة لاستعمالها على النول . وتلبس زوجات كبار القوم وبناتهم الحصر الكبيرة التى ينتجها النساجون ، ولا يلبس الذكور من أهل سانتا كروز إلا حصيرا ضيقة يلبسونها على هيئة مريلة تتدلى من الأمام ومن الخلف وتثبت فى مكانها بحزام من لحاء الشجر أو حبل مضفّر أو قصبة ملفوفة . أما الأكياس التى يلبسها جميع أهل سانتا كروز حول العنق فتنسج على النول ، كما تنسج أيضاً الأشرطة التى يربط بها الرجال شعورهم الطويلة عند ما يسيّرون قواربهم الكبيرة .

ومن الظواهر المشاهدة فى هبريدة الجديدة تشويه شكل الرأس ، أما ثقب شحمتى الأذن والفاصل الأنفى فعادة شائعة . وعندما تثقب الأذن توضع فيها شظية تصنع عادة من الخشب ؛ وتظل الشظية تستبدل بها تدريجاً شظية أغلظ منها كى يزداد الثقب اتساعا ، حتى يصبح فى الإمكان لبس شظية قطرها ثلاث بوصات أو يزيد . وتلبس فى الأنف أنواع عديدة من الحلى ؛ ففى جزر سليمان يلبس نوع من الدبابيس ، وفى سانتا كروز شظية من أصداف السلاحف . ويصفف الشعر فى بعض الجزر على شكل كتلة حول الرأس ، بينما فى جزر أخرى لا يتركونه يطول ، وفى بعض الجهات يطلونه باللون الأبيض ، ومن العادات الشائعة لبس الأمشاط فى الشعر على سبيل الزينة ، وأحسن أمشاط الزينة مايشاهد فى جزر سليمان وجزر أدمرلتى . أما الوشم فواسع الانتشار ، بينما يمارس التشريط سكان كاليدونيا الجديدة وأيرلندا الجديدة .

ويلبس سكان البحار الجنوبية غير حلى الأذن والأنف أنواعا عديدة من الأساور حول الساعدين وعقوداً ودلايات . وأساور الساعدين الكبيرة البيضاء التى تشبه الحجارة تستغرق فى صنعها أسابيع من العمل فى نحتها وتشكيلها من العظام الغليظة لسمك المحار الضخم . ويلبس الكروزى فى ساعده أسورة من خيوط مصنوعة من لحاء الشجر ، كما يلبس خرزاً

من الصدف ، فإذا كان ذاهباً إلى حفلة راقصة بلغ ما يلبسه منها ثمانية أو عشرة . وتتكون العقود من صفوف من الصدف ومن خرز وأسنان وحبوب ، وتلبس على الصدر والجبين حلى من المحار وأصداف السلاحف وما أشبه ذلك ؛ وبعض هذه الحلى مزخرف بنقوش بديعة الصنع .

ويسكن الميلانيزيون دساكر وقرى تضم كل منها عادة جماعة قليلة العدد تملك الأرض بالمشاع وترتبط برابطة قرابة حقيقية أو اسمية . وتتقارب القرى بعضها من بعض فى المناطق الخصبة ، وفى هذه الحالة يقوم بينها كثير من المصالح المشتركة . وتقوم القرى فى الجهات الساحلية على الناحية المرتفعة من الشاطىء ، أما حيث تشاد المنازل فوق أعمدة ، كما هى الحال فى إزابل بجزر سليمان ، وعلى شواطىء فلوريدا وفى بريطانيا الجديدة وجزر أدمرالتى ، فإن المنازل تمتد إلى داخل البحر . وفى المناطق الداخلية تقوم القرى فى بقعة يطهرونها من الأدغال . وفى كل دسكرة أو قرية منزل فسيح يملكه الزعيم ولو أنه قد لا يقطنه ، وفى بعض المناطق يكون هذا البناء منتدى ، وحينئذ يكون مفتوحا من الأمام ويصبح ملتقى الرجال أثناء النهار يُستقبل فيه الزوار ويتمتعون بالضيافة ، فإذا جاء الليل نام فيه الفتيان والشبان . ومنزل الزعيم دائماً أكبر من سائر المنازل وأعلى وأكثر زخرفة بكثير : وفى بعض قرى جزر سليمان تحفظ الطبول فى منزل الزعيم ،

وهى كتل خشبية يثقبون فى جانبها فتحة مستطيلة ويجوفونها من خلالها ويستعملونها للطبل فى الحفلات والولائم وفى إرسال الإشارات ، وهى تذكرنا بطبول أمزونيا وإفريقية الاستوائية . وفى القرى الساحلية بجزر سليمان يقوم منزل آخر كبير يصل طوله فى بعض الأحيان إلى ستين قدما هو منزل القوارب الذى سبقت الإشارة إليه . وفى هذه المنازل تقام الحفلات الخاصة برحلات صيد البونيتو ، وفيها أيضاً يعزل الفتيان الذين يتلقون تعليمهم الخاص بصيد البونيتو . ومن هذا نرى أن القرية الواحدة فى بعض جزر سليمان قد يقوم فيها منزلان للزعامة كلاهما يؤدى خدمة عامة وكلاهما يشترك فى إقامته أهل القرية جميعاً .

أما المساكن نفسها فتختلف كثيراً فى أشكالها واتساعها ؛ ففى بريطانيا الجديدة نجد مساكن جماعية كبيرة كما نجد أخرى مقامة فوق أعمدة (وقد سبقت الإشارة إليها) ، وكان بها كذلك فى وقت من الأوقات مساكن تقام فوق الأشجار فى بعض جهاتها . ومساكن كاليدونيا الجديدة وسانتا كروز وبعض جزر أيرلندة الجديدة مستديرة القاعدة ، أما فى غيرها فمستطيلة . وأحسن المساكن وأكثرها راحة هى مساكن بعض جزر سليمان التى يبلغ طولها نحو عشرين قدما وعرضها نحو اثنى عشر قدما ، بارزة سقوفها قليلا عن حيطانها ومغطاة بجريد نخيل الساجو بعد أن يجدل

بعوارض من قصب البامبو جدلا متينا بطريقة تجعله مانعا تماما لنفوذ الماء . وتتكون الحيطان من ثلاث طبقات من قصب البامبو كل منها مربوطة إلى الأخرى بالحبال ومقواة من الخارج بثلاث عوارض أفقية من الخشب . أما المدخل الصغير ، الذى قد يكون أسفل السقف المنحدر أو فى واجهة الكوخ المثلثة الشكل ، فيبلغ ارتفاعه من الأرض نحو قدمين يسده أثناء الليل باب متحرك من قصب البامبو ، ويسود الظلام داخل الكوخ فى كل الأوقات . وترص بجوار الحوائط مصاطب النوم ، وهى هياكل من



(شكل ٦٧) قرية فى جزائر سليمان

الخشب مغطاة بجريد النخل المفلوق . وأمام العمود الأوسط يقوم الكانون داخل دائرة من الحجارة ، وعلى الحيطان تعلق بضعة أرفف مخصصة لخزن الصرغم ، كما يوجد أعلى الكانون فرن يستخدم لتدخين الأطعمة وخزن الأدوات . وفى بعض المساكن يسدل على الجزء الخلفى من الكوخ ستار يفصله عن الجزء الأمامى ويجعل منه قسما مستقلا تقيم فيه النساء . وعلى العكس من هذا نجد أكواخ سانتا كروز ، فإنها عادة مستديرة لا تختلف فى شكلها عن خلية النحل تقوم على هيكل من قصب البامبو ، وتشاد الحيطان الواطئة أحيانا من ألواح الخشب ، ولكن الأغلب أن تكون — مثل السقف — مغطاة بأوراق نخيل الساجو ونخيل جوز الهند . وتثبت على قمة السقف قطعة من نوع خاص من المرجان ، وتحاط قاعدة الكوخ بألواح من المرجان . وليس للكوخ سوى مدخل صغير ، وليس فيه متسع يستطيع المرء أن ينصب فيه قامته ، إذ تبنى فى وسطه مصطبة كبيرة تقوم على أربعة أعمدة ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو خمسة أقدام يخزن فوقها الطعام حتى لا يجد الفأر سبيله إليه . وفى أسفل المصطبة يوجد الفرن الذى يتسرب الدخان منه كيفما اتفق . وتخصص هذه الأكواخ لسكنى الأزواج والأطفال ، بينما يقطن الفتيان والرجال غير المتزوجين بيت الندوة الذى يبنى عادة على مسافة من الأكواخ ويختلف عنها فى أن قاعدته مربعة الشكل . وتتكون



(شكل ٦٨) منزل فى سانتا كروز

حيطانه عادة من ألواح من الخشب ، بينما يستعمل قصب البامبو المفلوق لتثبيت هيكل الكوخ . ولهذا المنتدى عادة أكثر من مدخل وترتفع الأرض فى داخله نحو قدم وترتكز على أساس من قطع المرجان الكبيرة ، وتغطى بطبقة من الحصى تفرش فوقها حصر من أوراق جوز الهند . وترى على الحيطان أقواس وسهام ومجاديف وقرعات صغيرة معلقة لكى تجف ، بينما تتدلى من قصبات البامبو المربوطة إلى السقف مآزر من الحصير وصنانير وشباك . وليس هناك أثر لأثاث ، لأن الكروزى يرقد على ظهره فوق الأرض ويضع رأسه على وسادة خشبية عليها نقوش بديعة الحفر . وفى دار الندوة يعيش غير المتزوجين ويُستقبل الزوار ، ولكن لا تدخلها النساء .

وسكان معظم الجزر يأكلون الطعام المطهى فى المساء فقط بعد عودة النساء من المزارع ، ولكنهم يتبلغون فى أوقات مختلفة من النهار بشىء من جوز الهند أو بندق الأريكا أو بقايا الطعام المتخلفة من عشاء اليوم السابق . ويتكون الطعام من السمك وحاصلات المزرعة ، وفى الأقل القليل مما يصيدون من الحيوان كخنازير الغابة والجرذان والخفافيش ، ومن الطيور ، وفى بعض الجهات من الأوبوسم (**opossum**) . ولحم الخنزير — وهو حيوان مقدس يهيم حرا طليقا داخل القرية وحولها دون أن يتعرض له أحد — لا يؤكل إلا فى الحفلات . وتؤكل اللحوم البشرية أحيانا فى جميع الجزر عدا جزائر بانكس **Banks** وسانتا كروز ، والذين تؤكل لحومهم هم الأعداء الذين يقتلون فى الحرب .

ويطهى الطعام على الحجارة المحمية أو فى أفران حجرية . وفى بعض الجزر يغلى فى قدور أو فى أصداف . وفى جزر سليمان يبنى الفرن على قاعدة مستوية من الحجارة ثم يوضع فوقه كوم من الحجارة أيضا ، وعندما تخبو النار تزال الحجارة العليا وينظف الفرن ثم يوضع الطعام المراد طهيه على أرض الفرن الساخنة ويغطى بالحجارة الساخنة الأخرى وبالأوراق . وفى الجزر التى لا يعرف سكانها الفخار يطهى الطعام على حجارة محمية يمسكونها بماشات خشبية ويسقطونها فى أوان من الخشب . وتولد النار

بطريقة « الحرث » أى بواسطة حك عصا من الخشب فى أخدود محفور فى قطعة أخرى من الخشب .

وتصنع أوانى الطعام فى الغالب من خشب محفور ، وقد تكون ذات أحجام كبيرة ، وأجدرها بالملاحظة تلك الأوانى المطعمة التى تشاهد فى جزر سليمان وهم يصنعونها فى الغالب على هيئة طيور كبيرة ، وكذلك الأوعية المزخرفة بأشكال بديعة محفورة فيها والتى تشاهد فى جزر أدمرالتى . وهناك أوان من القرع ومن (عُقَل) قصب البامبو ومن قشور جوز الهند . ولا يُصنع الفخار إلا فى كاليدونيا الجديدة وهبريدة الجديدة وأدمرالتى ، ولكن سكان بعض الجزر الأخرى يحصلون على الأوانى الفخارية من الميلانيزيين سكان جنوب شرقى غينيا الجديدة الذين يذهبون إلى جهات بعيدة ليبادلوها بالأطعمة وغيرها من البضائع . ويحفظ الماء فى أوان من قطع من قصب البامبو الغليظ طولها خمسة أقدام أو ستة بعد إزالة ما بها من العقد .

وقد بلغ الفن الزخرفى فى تلك البلاد درجة عالية ولاسيما فى جزر سليمان حيث يُرسم الناس والطيور والأسماك بطريقة تقليدية إلى حد ما . أما فى هبريدة الجديدة وجزر بانكس وسانتا كروز فيغلب فى الفن النظام الهندسى .

وأدوات الميلانيزيين بسيطة وقليلة العدد وأهمها القدوم أو البلطة ذات النصل المصقول المتخذ من الحجر أو من الصدف والذى يربط فى الغالب بحبل من ألياف جوز الهند إلى يد من الخشب فى طرفها اعوجاج طبيعى . ويصنع النصل من الأصداف فى هبريدة الجديدة وبانكس وسانتا كروز، على أن أبدع النصال الحجرية هى التى يصنعها أهل كاليدونيا الجديدة فى حفلاتهم . وتصنع المخارز والأزاميل والملاقط من الحجر ومن العظام ومن الأصداف ، ويصنع الكروزيون حبالا من جلود سمك القوبع (Ray) الضخم . ومن الأدوات التى يستخدمونها فى النحت صخور اللاقا المتبلورة حيثما وجدت وأسنان سمك القرش ، وكذلك يصنعون السكاكين من قصب البامبو المفلوق ومن الأصداف .

ويقوم هؤلاء الناس برحلات تجارية ترمى فى الغالب إلى تبادل الهدايا ، وتستخدم فى الجزر المختلفة أنواع مختلفة من العملة ، على أن العقود المصنوعة من أقراص الصدف — وهى المعروفة باسم « نقود ميلانيزيا الصدفية » — سائدة فى كل مكان . وطريقة صنعها أن تكسر الأصداف حتى تأخذ الحجم المضبوط ثم تخرق بمخراز و « تُلضم » فى خيط من ألياف جوز الهند . وهذه العملة لا تخزن عند من يملكها بل تستعمل عقوداً للنساء وأحزمة للرجال . وفى كاليدونيا الجديد عملة من جدائل من جلد نوع ضخم

من الخفافيش آكلة الثمار ، وفى هبريدة الجديدة الشمالية من شرائط ضيقة طويلة من الحصير المجدول ، وفى بعض جزر سليمان من أسنان نوع من الحيوان (porpoise) ومن الأصداف ، وفى سانتا كروز من الريش . وهذه العملة الأخيرة تتكون من قطعة من الحبال « مبططة » طولها نحو ١٥ قدما يثبت فوقها ريش أحمر يؤخذ من طائر يسمى « آكل العسل » ، وهم يحتفظون بها ملفوفة ومغطاة لأن قيمتها تتناقص كلما تآكل الريش .

والميلانيزيون على العموم سريعو الغضب لا تنقطع الحروب بينهم ، ويتم الصلح فى بعض الأحيان بعد أن يدفع أحد الطرفين غرامة «مالية» ، لكن إذا كان النزاع شديداً بين مجموعتين من القرى أو على الأخص بين زعماء مجموعتين منها فإن النزاع قد يبقى عدة سنين . وكانت الحروب فيما مضى تنشب على أثر إهانة علنية أو اتهام بالاشتغال بالسحر أو سرقة أشخاص للتضحية بهم على سبيل القرابين . وأسلحة الحرب الرئيسية عند هؤلاء الأقوام هى الأقواس والحراب والنبابيت (clubs) ، والأقواس هى أشهر الأسلحة عند كثير من سكان السواحل ، ولكن بعضهم قد تخلى الآن عنها . وهى فى كل مكان بسيطة الصنع . وسهامهم لا تراش أبداً ، ولكنها تتفاوت تفاوتا كبيراً فى نوعها كما تتفاوت فى عدد نصالها وفى المادة التى تصنع منها النصال . وفى جزر سليمان يصنع النصل من سلخة من

خوص الساجو أو من العظام البشرية ؛ وكذلك تختلف النبابيت فى أشكالها من مجموعة من الجزر إلى أخرى ، فهى فى كاليدونيا الجديدة قد تكون ذات طرف مفلطح أو مدبب ؛ وفى هبريدة الجديدة يثبتون فى نهايتها عند المقبض شبه قرص يحول دون انفلاتها من اليد ؛ وفى جزر سليمان كثيراً ما يغطى ساق النبوت بالليف المجدول ؛ وفى بريطانيا الجديدة كثيراً ما يثبتون للنبوت رأسا من الحجر . وأحسن الحراب ما يصنع فى جزر سليمان وهبريدة الجديدة ، حيث يرشقون فى ساقها أشواكا مصنوعة من العظام . وفى كاليدونيا الجديدة يبردون أطراف السهام بأشواك سمك القوبع كى تصير مدببة ؛ وفى جزر أدمرالتى يركبون لها رأسا من اللافا البلورية ؛ وفى بريطانيا الجديدة كثيراً ما يثبتون لها عند الطرف الغليظ عظمة ساعد بشرى . وتستعمل النبابيت فى كثير من الجزر لاتقاء الضربات على أن الدروع تستعمل فى جزر سليمان . وفى أوقات الحروب كثيراً ما يحتاطون ضد غارات الأعداء فيحفرون فى الطرق المؤدية إلى القرية حفراً ينصبون فيها خوازيق حادة ، ثم يغطون الحفرة بالعشب حتى لا يتبينها الأعداء .

وتتحكم فى حياة الميلانيزى الروابط العائلية والاجتماعية أكثر مما تتحكم فيها واجباته نحو الزعيم . وهناك زعماء ، ولكن هؤلاء ، فى بعض

الجزر ، ليس لهم من النفوذ إلا القليل . ويبدو أن أكثرهم نفوذاً زعماء كاليدونيا الجديدة وبعض أنحاء جزر سليمان ؛ بينما فى هبريدة الجديدة وجزر بانكس وفى أغلب جزر سليمان يدين الزعيم بمركزه عادةً لحقيقة واحدة هى أنه وريث لعبادة روح من الأرواح القوية . وفى بعض المناطق، كما فى سانتا كروز مثلا ، يوجد فى القرى رؤساء لا تتعدى سلطتهم المباشرة حدود قراهم ، مع أن نفوذهم قد يمتد إلى أبعد منها . وهناك من هو أهم من الزعيم ، وهى الجمعيات السرية مثل « ضَكْ ضَكْ » (Duck Duck) فى بريطانيا الجديدة و « كواتو » (Quatu) فى هبريدة الجديدة و « تاماتى » (Tamate) فى جزر بانكس ، وهكذا . وهى تتخذ لها منتديات فى قلب الغابة . ويدعى أعضاء هذه الجمعيات أنهم قادرون على الاتصال بالأرواح بواسطة طقوس سرية ، ويظهرون بين الناس وهم يلبسون الأقنعة والملابس الأنيقة (elbaorate) . وتقتصر عضوية الجمعيات على الرجال ، ويتم الاشتراك بعد أن يدفع العضو رسوماً من عدد مناسب من الخنازير أو من مبلغ من « النقود الصدفية » ، وبعد أن يتلقى تعاليمها الخاصة التى قد تنطوى على شىء من المعاملة الخشنة . ولا تمارس هذه الجمعيات عبادات خاصة ، وكل ما يتعلمه العضو الجديد هو أن الأرواح إخوان له متنكرون ، وأن الضوضاء التى يسمعها إنما تصدر عن الحعران

(bull - roarer) وغيره . ولما كانت هذه الجمعيات تصدر أحكاماً ضد الذين يخالفون القانون كانت أداة فعالة فى حفظ النظام .

ونظام الميلانيز بين الاجتماعى معقد تعقيداً كبيراً ، ولا نستطيع هنا أن نعرض إلا لبعض مظاهره . فالوحدة الأساسية هى جماعة من العائلات ترتبط برابطة القرابة وتسكن دسكرة أو قرية واحدة وتمتلك مساحة خاصة من الأرض تزرعها . ولكل فرد حق امتلاك قطعة من الأرض خاصة به ، ولكنه إذا أخلى قراحا من الغابة ووضع يده عليه فليس له الحق فى تملك ما قد يكون به من أشجار الفاكهة إذا كان غيره قد سبقه إلى إعلان ملكيته لهذه الأشجار . وليس للأرض عندهم ثمن إلا إذا كانت للمبانى أو استعملت للزراعة . ولسكان القرية حرية التصرف فيما يكون حولها من الغابات ، وليس فى الغابة حدود دقيقة تفصل بين أملاك قريتين متجاورتين ، ولذلك يتجول القانصون والجامعون حيث يشاءون ما داموا لا يفعلون ذلك بقصد التعدى .

والوراثة فى بعض أنحاء جزر سليمان وبعض الجزر الأخرى تكون عن طريق الذكور ، بينما هى عن طريق الإناث فى هبريدة الجديدة وبانكس وبعض أنحاء بريطانيا الجديدة وأدمرالتى . وفى هذه الأخيرة تؤول تركة الرجل عند وفاته إلى أبناء أخته ولا تؤول إلى أبنائه .

وتشاهد فى كل مكان من ميلانيزيا بقايا لنظام الطواطم . ولا يكتفى معظم الرجال بزوجة واحدة ، وقد يتخذ الرجل عدداً كبيراً من الزوجات إذا كان ثريا . وفى معظم أنحاء ميلانيزيا تعقد خطبة الأطفال فى سن الطفولة المبكرة على أن يكون بين المخطوبين نوع من القرابة . ويتلقى والد العروس هدايا الزواج قبل العرس بزمن طويل .

ويمارس الميلانيزيون كثيراً من أنواع اللهو ، وكثير من لعبهم وألعابهم لا تختلف إلا قليلا عما لدى الأمم الغربية ، «فالنحلة» مثلا توجد فى جزر سليمان و « طيارات الأطفال » فى هبريدة الجديدة وجزر بانكس . ويعقد الرجال فى معظم الجزر مسابقات فى الجرى والمصارعة ، ويغرم أهالى جزر سليمان باللعب بالحراب ، ويلعب أهالى هبريدة الجديدة لعبة شبيهة بكرة القدم ، ويتسلى سكان السواحل فى كل الجزر بركوب الأمواج على ألواح من الخشب ، وتنتشر لعبة « الاختفاء والبحث » فى جزر بانكس، ولعبة «مهد القط» فى كل مكان (١) . وتنتشر فى هبريدة الجديدة وبانكس لعبة يسمونها تيجا (tiga) ، والتيجا فلقة من القصب لها رأس من الخشب الثقيل تقذف باليد ، ويفوز من يقذفها إلى أبعد مسافة . والرقص تسلية محبوبة فى جميع الأنحاء ، وتقوم معظم الرقصات على أساس

(١) لعبة مهد القط معروفة فى مصر ولكن لا يعرف لها اسم وهى اللعبة التى يلف فيها شخص خيطاً حول أصابعه كلها ويرسم منه أشكالا مختلفة تتغير فى مظهرها كلما حرك أصابعه وحرك الخيط معها .

من محاكاة حركات الحيوان ، وتلبس الأقنعة فى الحفلات الراقصة التى يقيمونها فى المناسبات .

ولدى هؤلاء الأقوام أنواع عديدة من الآلات الموسيقية ، فالدفوف — وقد سبقت الإشارة إليها — معروفة فى جميع أنحاء ميلانيزيا ما عدا سانتا كروز وفلوريدا . وتتميز الدفوف فى هبريدة الجديدة بضخامة أحجامها وبما يحلى أحد طرفيها من الرؤوس ذات الأشكال الغريبة . وفى جزر أدمرالتى دفوف ضخمة أيضاً يصنعونها غالباً على شكل حيوان . وفى بريطانيا الجديدة تصنع طبول من جلود السحالى، وفى كاليدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة توجد الصفافير وهم ينفخون فيها بالفم أو بالأنف ، وفى جزر سليمان وبريطانيا الجديدة وأدمرالتى نوع من العود صغير الحجم ، ويوجد المزمار المتعدد القصبات فى هبريدة الجديدة وبريطانيا الجديدة وإيرلندة الجديدة . وفى جزر سليمان وبريطانيا الجديدة آلات وترية بدائية الصنع .

ويتصرف الميلانيزيون فى جثث موتاهم بطرق شتى ، ولكن الدفن معروف فى كل مكان ، على أن من العادات الشائعة فى الجهات التى يمارس فيها الدفن أن تستخرج بقايا جسد الميت بعد مضى مدة على دفنه . وفى جزر سليمان وبريطانيا الجديدة يستخرجون الجسد ويفصلون منه الجمجمة ليحتفظوا بها ثم يعيدون باقى الجسد إلى مدفنه . وفى جزر أدمرالتى توزع

بعض أجزاء الجثة على بعض الأقارب ليحتفظوا بها على سبيل التذكار . وفى كاليدونيا الجديدة تعلق الجثة فوق شجرة ، وفى بعض الجزر الأخرى تغطس الجثة أو العظام فى البحر ، وفى جهات أخرى لا يزيدون على ترك الجثة حتى تتحلل ، بينما فى أيرلندة الجديدة تترك الجثة فوق هيكل خشبى توقد تحته النار ، حتى إذا انهار الهيكل استخرج الكبد ووزع على المشيعين ثم ترك سائر الجثة تأكله النار .

ويلجأ الميلانيزيون في علاج الأمراض إلى الحجامة وإلى منقوع الأعشاب المغلية وإلى التدليك والسحر . على أن سكان بريطانيا الجديدة كانوا يمارسون تربنة الجمجمة إذا أصابتها قذيفة من مقلاع . ويسود الاعتقاد بأن المرض إنما يكون بسبب أعمال سحرية أتاها عدو من الأعداء ، وقد يكون بسبب دخول روح خبيثة إلى جسد المريض . وينحصر العلاج بالسحر لهذا النوع الأخير فى قراءة التعاويذ ومقابلة السحر بالسحر ، أحيانا بامتصاص « الحصاة » أو « السحر » الذى يعتقدون أنه سبب المرض . ويمارس السحر الأسود أحيانا بالاستعانة بتمثال يقطعون أوصاله ، اعتقادا منهم أن الشخص الذى يمثله ذلك التمثال سيقاسى نفس الآلام . ويمارس السحر فى كل مكان فى ميلانيزيا ، ولكن ليس للسحرة المحترفين وجود إلا فى أيرلندة الجديدة .

وديانة الميلانيزيين معقدة تعقيداً كبيراً ، ويبدو أن قواعدها الأساسية تنحصر فى الاعتقاد فى « مانا » وفى الفزع من الأرواح . و « مانا » عبارة عن قوة أو سلطان مما وراء الطبيعة . « ويوجد عدا ذلك الاعتقاد العام فى « مانا » وهى قوة أو سلطان خارق ، وهى لا تتجسد ، لكنها مع ذلك ترتبط دائماً ببعض الأشخاص أو الأرواح أو الأشباح الذين يوجهونها أو يتحكمون فيها ، وهى نوع من القدرة أو الفضائل الروحية انتقلت من الملأ الأعلى إلى الإنسان انتقالا مباشراً أو بوساطة جسم مادى »[1] .

وتأتى الأرواح أعمالا طيبة كما تأتى أعمالا سيئة ، ويحاول الناس أن يتقربوا إليها وأن يعبدوها ، ولكن وسيلتهم فى ذلك تختلف اختلافا كبيرا فى الأنحاء المختلفة من ميلانيزيا . وهذه الأرواح نوعان : أرواح من مات من الرجال ذوى النفوذ ، أى الذين كانوا فى حياتهم ذوى « مانا » ، وأرواح لم تكن أبدا من البشر . والنوع الأول منها أكثر أهمية فى غرب ميلانيزيا ، بينما النوع الثانى أكثر أهمية فى شرقها . ولأرواح الموتى أهمية كبيرة فى جزر سليمان ، ومن عادة أهلها إذا جلسوا للطعام أن يلقوا جانبا بقطعة صغيرة منه يهبونها للأموات ، وأن يدعوا فى نفس الوقت دعاء قصيرا طلباً لعونهم . وفى جزر سليمان يبنون أضرحة يجمعون فيها عظام الأبطال وصورهم ويقدمون فيها النذور لهم . وكانوا فيما مضى يقدمون

(1) Keane. A. H. MAN : Past & Present.

الضحايا البشرية إذا أنزلوا إلى البحر قاربا جديدا أو شيدوا للقوارب منزلا جديدا . أما اليوم فإنهم فى هذه المناسبات يضحون بالخنازير بدل الإنسان . وهم يؤمنون بالآخرة ويعتقدون أن الروح تسلك طريقا محفوفا بالأخطار قبل وصولها إلى المقر الأخير الذى تنتهى إليه الأرواح ؛ وهذا المقر يوجد حسب اعتقادهم فى مكان ما إلى الغرب . والمعتاد أن لا تفوز الروح بالمنزلة المرموقة فى ذلك المقر إلا إذا كانت روح بطل أو عالم أو شهيد قضى فى الحرب .

وثقافة البولينيزيين أعلى مستوى من ثقافة الميلانيزيين ، ومع ذلك فالبولينيزيون لا يصنعون الفخار ولا يعرفون الأنوال ويجهلون استعمال المعادن . وهم جميعا — فيما عدا سكان جزيرة إيستر — لا يعرفون فن الكتابة . وقد ذكرنا فيما سبق أن البولينيزيين أمهر الشعوب البدائية جميعا فى الملاحة ، وأن موارد الرزق المحدودة فى بلادهم قد خلقت منهم زراعا وصائدى أسماك . وهم يزرعون النباتات التى جلبوها إلى بلادهم ، وأصبح التارو وثمار الخبز أكثر أهمية لهم من الصرغم . وهم أرقى فى الزراعة من الميلانيزيين ، وقد يرجع ذلك — فيما يرجع — إلى بيئتهم الخاصة ، لأن مناخ بلادهم أكثر جفافا من مناخ ميلانيزيا ، ولذلك أصبح الرى عندهم أكثر ضرورة . وكثيرا ما يزرع التارو فى مزارع مدرجة تروى بتحويل مجارى

القنوات إليها . ولما كانت الحياة الحيوانية على الجزر قليلة جدا ، أصبح للخنازير التى أدخلوها بلادهم قيمة تفوق قيمتها لدى أهل ميلانيزيا ، وهم يربطونها فى المرعى أو يحفظونها فى حظائر قريبة من المساكن ويطعمونها بانتظام . أما الدجاج الذى استوردوه فإنهم — فيما عدا سكان جزيرة إيستر النائية — لا ينتفعون به إلا قليلا ، فهم لا يأكلون لحمه ولا بيضه . ويقتصر الصيد — بسبب انعدام الحيوانات فى بلادهم — على صيد الطيور بالحبالات والفخاخ ، وهو أمر كثيرا ما يأخذ طابع الرياضة لا طابع العمل ، وهم فى العادة يتركون اللحم للزعماء .

والنساء هن اللائى يقمن بإعداد الطعام ، ولكن عملية الطهى ذاتها يقوم بها فى العادة الرجال . ويتم الغلى — لجهلهم بالفخار — عن طريق إسقاط حجارة محمية فى أوان من الخشب . أما الخبز فيكون فى حفرة قطرها نحو ثلاثة أقدام تملأ بخشب فوقه حجارة لا تتشقق بفعل النار ، ثم تولد النار بطريقة « المحراث » فيشتعل الخشب ، وبعد أن تأتى عليه النار تتساقط الحجارة المحمية إلى قاع الحفرة ، وعندئذ يأتون باللحم ، الذى يكون قد سبق لفه فى أوراق الأشجار ، فيضعونه على الحجر ويضعون فوقه الصرغم والتارو وثمار الخبز ، ثم يغطى الجميع بأوراق الأشجار ويهال عليه التراب منعاً للحرارة من التسرب . وبعد بضع ساعات يكشف عن اللحم فإذا به ناضج تماماً .



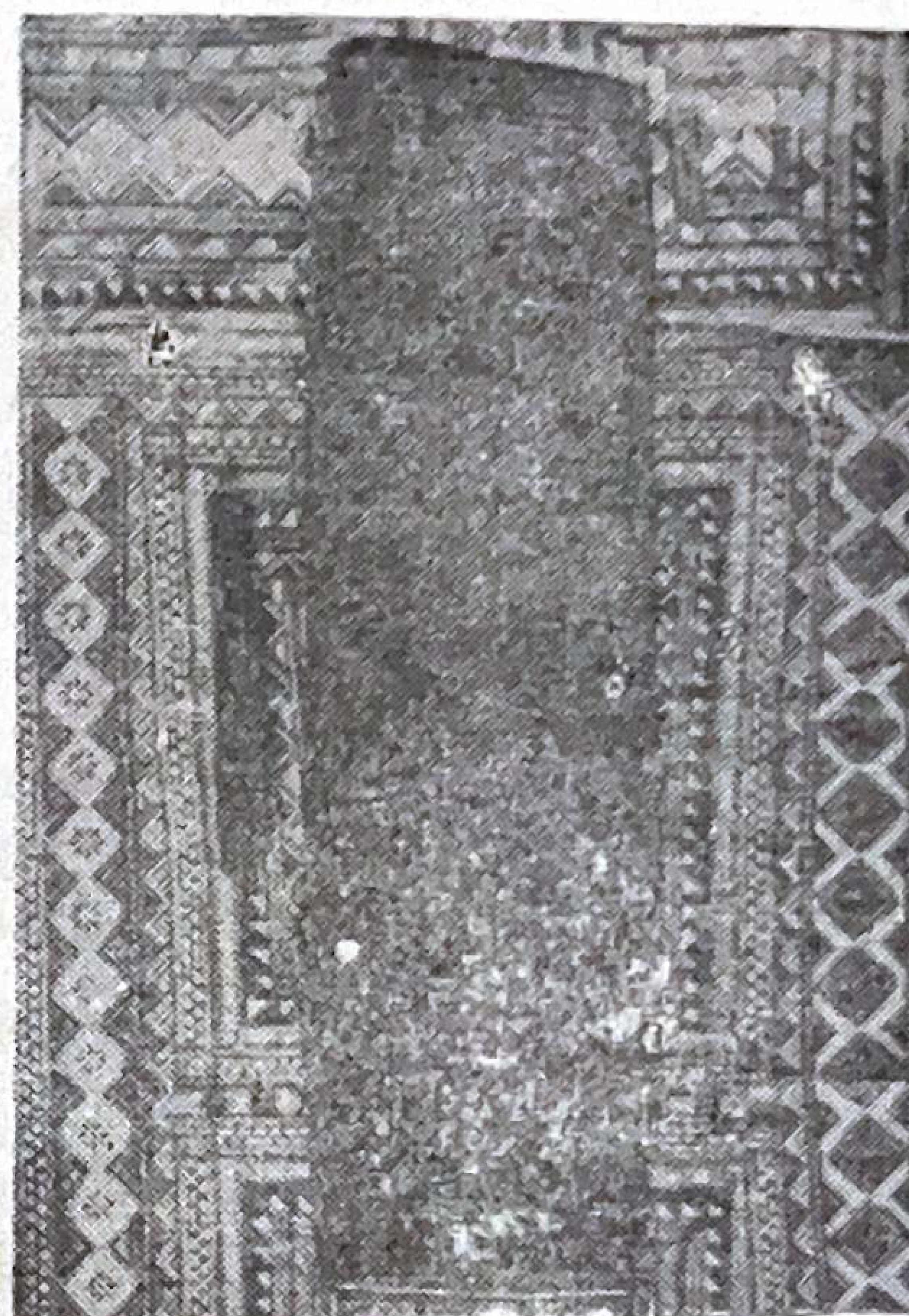
(شكل ٦٩)
مئزرة من الريش يلبسها أعيان الرجال فى هاواى

ويسير الأطفال فى العادة عرايا ، ولا يلبس الرجال والنساء شيئاً فوق ما يعلو الوسط من أجسامهم ، كما أنهم لا يضعون شيئاً فوق رءوسهم

ولا فى أقدامهم . ويلبس الرجال فوق الكشحين مآزر من التابا (الحصير المجدول) ، وتلبس النساء مآزر تتدلى إلى الركبتين وتُصنع من التابا أو من (سلخات) مجدولة من أوراق الأشجار . وكثيراً ما تلتفع النساء فى الجهات الأقل حرارة بقطعة كبيرة من التابا ، كما تصنع من نفس المادة أحياناً الملابس التى يرتدينها فى الحفلات . وفى هاواى يلبس ذوو الجاه أحياناً عباءات فخمة مصنوعة من الريش الأحمر والأصفر . وتصنع العباءة أولا من الريش الأحمر ثم ترسم عليها بالريش الأصفر والأسود أشكال هندسية منوعة . وعند ما استقر الماورى فى نيوزيلندة الجديدة وجدوا أن استعمال الملابس ضرورة يحتمها المناخ البارد ، ولكنهم لم يجدوا أشجاراً تصلح لصنع التابا ، على أنهم وجدوا هناك « الكتان الزيلندى » فعالجوه بمهارة وصنعوا منه أنواعا من النسيج تعرف « بالقماش المربوط » . وكانت ملابس الماورى تتكون أساساً من مئزرة وعباءة تختلف فى شكلها وفى نوعها ، فكانت أحياناً تغطى بريش الموا (Moa) أو ريش الكيوى (Kiui) ، وأحياناً بقصب الغاب أو سيقان الكتان ، وكان هذا الأخير يستعمل للوقاية من المطر .

و « تابا » هو اسم لقماش من لحاء الشجر يصنعه البولينيزيون ، وهو أرقى نوع من نسيج اللحاء فى العالم . وطريقة صنعه أن تنزع النساء

لحاء توت الورق (paper-mulberry) ويفضّل فى ذلك لحاء الأشجار الصغيرة . وينقع اللحاء فى الماء بضع ساعات ينشر بعدها على لوح من الخشب



(شكل ٧٠) قطعة من نسيج « التاپا » المنقوش

وتفصل الطبقة الداخلية للقشرة عن الطبقة الخارجية بواسطة سكين من المحار. وبعد أن تغسل القشور الداخلية جيداً ترص بعضها إلى جوار بعض بحيث تبلغ المقاس المطلوب ، ويرص منها عادة ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ،

ثم تترك كلها إلى اليوم التالى حيث تكون أجزاؤها قد تلاصقت ، ثم يؤخذ الجميع ويوضع فوق لوح من الخشب أو فوق مطرقة ويدق أو يلبد بعضه فى بعض بمدقة من الخشب ، ويستمر رش القماش بالماء طول عملية التلبيد . وعند مايجف القماش تماماً تنقش عليه أشكال مختلفة بالرسم باليد أو بالتلوين بأصباغ نباتية . ومن المستطاع الحصول على قطع كبيرة من التاپا بخياطة القطع الكبيرة بعضها إلى بعض أو بإلصاقها بصمغ يحصلون عليه من أشجار التوت .

ونسيج التاپا طويل الاحتمال طالما لم يمسه الماء ، ولكن لما كان غير قابل للغسل فإنه سرعان ما تعلوه الأقذار ، على أنه من الممكن أن يقاوم المطر إذا دهن بالزيت .

وتنتشر فى كل مكان عادة وشم الجسم ولا سيما بين الخصر والركبتين ، ولكن وشم الوجه نادر إلا فى نيوزيلند الجديدة حيث يحدث كثيراً أن يملأ الوجه بالوشم — ويبز الرجالُ النساءَ من حيث الإكثار من التزين بهذه الطريقة . ومن عاداتهم الشائعة التزين بالعقود والأساور والحلى التى تلبس على الصدر ، وهى تصنع غالباً من المحار أو من عظام الحوت . وتتدلى حلى الصدر فى الغالب من خيط رقيق مفتول من شعور بشرية . ويمتاز الماورى بلبس دلايات ذات أشكال غريبة محفورة من حجر اليشب (Jade)

أو من عظام الحوت يسمونها تيكى (Tiki) . وفى جزر إيستر وماركيز تخرق شحمة الأذن وتلبس فيها الحلى ، بينما يلبس أهل هاواى وتاهيتى وساموا أكاليل من الزهور ، وكذلك يستعمل الريش للزينة ، ويتزين سكان جزر ماركيز وإيستر بتيجان من الريش ، على أن أحسن أدوات الريش مايصنع فى هاواى من عباءات وعقود وخوذات وأصنام .

وتختلف المساكن فى أشكالها، ولكنها فى العادة ذات شكل مستطيل تقريباً، وتقوم على هيكل خشبى فى وسطه عمود مركزى أو أكثر . وتثبت أجزاء الهيكل بعضها إلى بعض لا بالخوابير ولا بالمسامير بل بأربطة من ألياف جوز الهند تنظم عادة تنظيما جميلا بحيث تنتج عنها أشكال زخرفية . وتغطى السقوف بالقش وخوص النخيل وأوراق الباندانا أو أوراق قصب السكر . وتصنع الحوائط من قصب البامبو المفلوق أو خوص النخيل المجدول ، ولكن المنازل فى صاموا ليس لها حيطان بل يكتفى بستائر مجدولة من أوراق جوز الهند تثبت أطرافها فى السقف وتتدلى بالحبال عند الحاجة . ويقام كثير من المساكن فوق رصيف من الحجارة يفرش بحصير مجدول من الباندانا أو أى مادة أخرى . ويسكن المنزل الواحد فى المعتاد أسرة واحدة ، ويبلغ طوله فى الغالب نحو ثلاثين قدما ، أما المنتديات ومساكن الزعماء وملاك الأرض فهى أكبر من ذلك كثيراً ، فقد يبلغ طولها من

خمسين إلى مائة ياردة وعرضها نحو نصف ذلك القدر ، وتقوم على رصيف ذى واجهة من الحجر أو ترتفع أرضها المغطاة بالخشب نحو قدمين أو ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض . ويقوم بتشييد المساكن نجارون متخصصون لهم اتحاداتهم الخاصة ، ولكل اتحاد رئيسه الخاص وتعاليمه الخاصة . وكان الماورى فى نيوزيلند — حيث المناخ أبرد — يبنون مساكن خشبية متينة مربعة الشكل لها سقف مقبب وڤراندة ، وأرضها منخفضة . وكانت عارضات الأبواب وقباب السقوف فى مساكن الكبراء تزين زينة بديعة بالنقوش والألوان .

وفى وسط المسكن مكان للنار مكشوف ، ويضيئه أثناء الليل نور خافت ينبعث من مصباح بدائى النوع يتركب من ذبالة موضوعة فى قشرة من قشور جوز الهند مملوءة بالزيت . وبالمسكن قليل من الأثاث فيما عدا بعض الحصير والناموسيات والوسائد المصنوعة من قصب البامبو . وأهم الأدوات والأوانى المنزلية سكاكين من قصب البامبو أو من الصخر المشطوف ، ومكاشط من المحار وبلط من الحجر أو المحار المصقول ، ومباشر لجوز الهند ، ومخاريق للحفر ، وإبر لصنع الشباك ، ومبارد من أسنان سمك القرش لصقل الخشب ، وأمشاط خشبية محفورة ، وملاقط من الخشب أو من البامبو يمسكون بها الحجارة المحمية ، وقصع محفورة من الخشب ،

وأوان للماء من الخشب أو القرع أو قشر جوز الهند ، وحبال وسلال مجدولة . وأهم أسلحتهم نبابيت من الخشب المتين منوعة الأشكال والأحجام ومزينة فى الغالب بنقوش بديعة ، وحراب وخناجر أو سكاكين (وهذه الأخيرة قد يسلح نصلها بأسنان سمك القرش كما فى هاواى) وأقواس ، ولكن هذه كانت قليلا ما تستعمل ، ولم تكن فى بعض الجهات تستعمل إلا لقتل الفيران ، ومقاليع وقذائف .

وأهم الآلات الموسيقية الطبول والصفافير المصنوعة من المحار الاولبى ، ومزامير تنفخ بالأنف مصنوعة من قصب البامبو ، لكن فى هاواى تصنع الصفافير من القرع الصغير كما يوجد بها آلة وترية بسيطة الصنع . ويغرم الپولينيزيون بالرقص ، ويشترك الرجال والنساء فى حفلات الرقص الفخمة التى تعقد فى مناسبات كثيرة والتى تصاحبها أناشيد تعبر عن أساطيرهم القومية . وهم مغرمون بالألعاب المنزلية والخلوية ، ومن بين هذا النوع الأخير نجد السباحة والغطس ، وركوب الأمواج على ألواح من الخشب أكثرها متعة لهم .

والحياة الاجتماعية والسياسية أكثر تقدما فى پولينيزيا منها فى ميلانيزيا ، ومركز المرأة أرفع نسبيا ، ولكنها تتعرض هنا لضروب من المنع ، فبعض أنواع الأطعمة مثلا محرمة عليها ، كما أنها فى أكثر الجزر

لا يسمح لها بمشاركة الرجل الطعام . والروابط العائلية غير قوية ، وهم يمارسون قتل الأطفال ، كما يمارسون تعدد الزوجات . ولا يحد من عدد زوجات الرجل إلا موارده المادية أو قلة عدد النساء ، والعائلة هنا — كما فى ميلانيزيا — هى وحدة الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وهى صورة مصغرة للقبيلة .

وينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات رئيسية : الأشراف أو الزعماء ، والأحرار ، والرقيق . والمعالم التى تفصل هذه الطبقات واضحة وضوح المعالم التى تفصل بين طوائف المجتمع الهندى ، ويزيد فى تميزها عدة «محرمات» (أو تابو) . وتتحكم فى المجتمع الپولينيزى طبقة الزعماء التى يحيطونها بهالة من القداسة ، فكل ما يتعلق بالزعيم يعتبر مقدسا (تابو) ، وكل طريق يسير فيه ، وكل منزل يدخله ، وكل شىء يمسه لا يحل لمسه لمن هم دون طبقته . وللتابو ، وهو صفة القداسة التى يكتسبها أى شىء تعلن قداسته ، سلطان عظيم فى پولينيزيا ، وكثير من الأطعمة تعتبر « تابو » ويحرم على الرقيق وعلى النساء أن يطعموها . وقد بلغ من خشية التابو أن أى رقيق يلمس أداة يملكها الزعيم ولا يقتل يموت فرقا إذا تدبر عاقبة ما جنت يداه .

وفى مجموعات الجزر الكبرى — حيث استقر الأمر لنظام ملكى دائم — يوجد مجلس يضم الزعماء الذين يلون الملك فى المنزلة ، وفى بعض الجزر يوجد زعيمان رئيسيان ، كما فى تونجا مثلا ، أحدهما شخص مقدس لا يحمل من

أعباء الحكم إلا قليلا ، بينما الآخر دونه فى المنزلة و يشرف على كل أمور الدولة و يقود الرجال إلى المعارك .

و بين العقائد الدينية فى الأنحاء المختلفة من بولينيزيا تجانس كبير ، وهذه العقائد ، مثل نظمهم الاجتماعية ، أرقى من عقائد الميلانيزيين ، ويؤله البولينيزيون أسلافهم و يؤمنون بعدد من الآلهة بعضها عظيم و بعضها أقل منزلة ، ويقيمون لهؤلاء الأخيرين أوثانا يعبدونهم فى أشخاصها . وقد نتج عن تعدد آلهتهم ظهور طبقة قوية من رجال الدين كثير منهم عريق النسب ، ومن مهامهم التى يقومون بها تقديم القرابين البشرية وحفظ الأنساب الملكية ، وهم يعتبرون مقدسين ، ولذلك يعتبر كل مايتعلق بهم « تابو » . وتحفظ صور الآلهة العظام عادة فى معابد كبيرة ذات أسوار يقطن رجال الدين فيها أو بالقرب منها ، وفى هذه المعابد تقدم الضحايا البشرية ، وهو أمر كان شائعاً فى كل مكان من بولينيزيا . وهناك أيضاً الآلهة الأقل منزلة ، مثل الآلهة الخاصة بالأسرة والمعبودات التى تشرف على الصناعات المختلفة . ورجال الدين الذين يخدمون هذه الآلهة أدنى منزلة ولا يزيدون قدراً على مدعى الطب .

و يعتقد البولينيزيون أن أصحاب النسب العريق ينتقلون بعد الموت إلى عالم آخر حيث يحيون حياة مماثلة جدا لحياتهم فى هذه الدنيا ، وهذا

المستقر الذى تنتهى إليه الأرواح ، والذى لا تصل إليه مباشرة أو دون عناء موجود فى اعتقادهم فى مكان يقع فيما وراء مغرب الشمس . و يعتقد كثيرون أن الروح بعد أن تفارق الجسد تظل زمنا تحوم حول مسكنها القديم ، وقد تُنزل بالناس الأذى .

ويتصرف البولينيزيون فى موتاهم بطرق شتى ، ولكنهم لا يحفلون إلا قليلا بجثث من كانوا فى حياتهم من المهمَلين ، أما جثث النبلاء فقد تعرض فوق مرتفع من الأرض مدة من الزمن ، ثم يكشط ما قد يتبقى فوقها من لحم وتجمع العظام وتحزم جميعاً ثم تودع مكاناً أمينا كالمعبد مثلا . وفى بعض الجهات يدفنون الجثة فى المنزل أو فى مكان مقدس يكوم فوقه التراب . ومن العادات الشائعة أن الملك إذا مات قام كل فرد من الرعية بتشويه جسمه بالتشريط أو بقطع أحد أصابعه .

ولا يتسع المجال أمامنا لذكر الكثير عن الميكرونيزيين ، لأن ثقافتهم تشتمل على مظاهر من ثقافات ميلانيزيا و بولينيزيا والملايو . و يستعمل الميكرونيزيون قليلا جدا من الملابس ، ولكنهم مغرمون بأدوات الزينة ولا سيما أمشاط الشعر الجميلة التى يغلب أن يزينوها بالريش . وينشىء الميكرونيزيون قوارب ممتازة ولهم مهارة فى الملاحة والتجارة ، والواقع أن التجارة قد ازدهرت وانتشرت بفضل استعمال أنواع متعددة من العملة .

و ينقسم المجتمع — كما فى بولينيزيا — إلى طبقات ، وللتابو بينهم سلطان كبير ، وينتشر استخدام المنتديات فى كل مكان .

وقد كان الواجب يحتم علينا أن نقصر الكلام على الماضى فى أكثر ما كتبناه آنفاً ، لأن ثقافة هذه الشعوب قد تعرضت على أثر الاختلاط بالأوروبيين لتغيرات كثيرة ، قد يكون أقلها ما حدث فى جزيرة صاموا . ولا يزال الأهالى فى قلب جزر ميلانيزيا الكبرى يعيشون على الفطرة . وقد لاحظ بيكر فى سنة ١٩٣٥ « أن الأهالى الذين يعيشون فى قلب جزيرة اسبرتو سانتو لم يتأثروا تأثراً يذكر بوجود الأوروبيين على شواطئهم ، وأنه لا يوجد فى العالم كله إلا قليل من الأماكن مثل اسبرتو سانتو يستطاع فيها دراسة المجتمعات البدائية على حقيقتها » . وقد كتب هاريسن **Harrison** فى سنة ١٩٣٦ :

« ولا تزال الأمور فى قلب ماليكولا أكثر انحطاطاً ، فلا يزال السحر يمارس واللحوم البشرية تؤكل ، وهما أولى الظواهر التى يقضى عليها وجود الرجل الأبيض . ولا تزال الأدغال فى قلب سانتو وماليكولا — وإلى درجة أقل أمبريم وبنتكوست — أقل جهات المحيط الهادى مدنية فى الوقت الحاضر ، وتشبهها من بعض الوجوه جهات قليلة فى جزر سليمان ، كما أن الروح القديمة لا تزال موجودة تحت ستار من التمدن فى جهات متفرقة من بولينيزيا مثل تواماتوس الشرقية . وفيما عدا ذلك

لا يوجد اليوم شبه بين سكان البحار الجنوبية و بين أسلافهم ، فقد وصلت بولينيزيا كلها إلى عصر « البفتة » ، ولكن السكان فى قلب ماليكولا بجزر هبريدة الجديدة لم يعرفوا « البفتة » بعد ، وقد انتهى العصر الحجرى فى كل مكان و بزغ فجر عصر « الأحذية » فى الأنحاء الشرقية » (١) .

وقد كادت الأساليب الهمجية — كأكل لحوم البشر وقتل الأطفال والحروب والثأر للقتلى — تختفى من الجزر جميعها ، كما أن كثيرين منهم قد اعتنقوا المسيحية . وقد كتب أحد المبشرين فى سنة ١٨٦١ عن التغيرات التى طرأت نتيجة تحولهم إلى المسيحية فقال :

« ما كادت البعثات الدينية تحل بالجزر حتى طرأت تغيرات ملحوظة ، فقد شاع استعمال المعاطف والصدريات ومناديل العنق وقبعات الخوص ، و بدأت النساء تستعمل أردية واسعة من « البفتة » ، وكان يندر أن يظهرن بغير رداء خارجى من نوع ما ؛ وكان من نتيجة ذلك أن ازدهرت المصالح التجارية للدول المتحضرة ، فقد بلغت قيمة الواردات من البضائع القطنية وحدها ، دون سائر المصنوعات المستوردة من الخارج ، نحو ١٥ ألف جنيه فى السنة ، ولا تزال آخذة فى الزيادة كل عام » .

---

(1) Harrison, T.H. "The New Hebrides People and Culture", Geog. Journal, 1936.

وقد جلب المبشرون والتجار أمراضا كالحصبة والإنفلونزا ، كان من أثرها القضاء على عدد كبير من السكان ، وزاد فى عدد الوفيات ماجلبه التجار من الأسلحة النارية ، وقد نتج عن كل ذلك أن هبط عدد الأهالى الوطنيين إلى الثلث فى مدى خمسين عاما ، ففى سنة ١٨٧٠ كان عدد أهالى بولينيزيا ٦٩٠ ألفا ، ولكن ماوافت سنة ١٩٣٠ حتى كان هذا العدد قد هبط إلى مائتى ألف . وهبط عدد أهالى ميلانيزيا من ثلاثة ملايين إلى ما يقرب من مليونين ، وهبط عدد أهالى ميكرونيزيا من ٢٧٣ ألفا إلى أقل من تسعين ألفا . لكن الدلائل تدل على أن عدد السكان فى بعض الجزر آخذ فى الزيادة فى الوقت الحاضر ، وهذا لاريب راجع إلى حد كبير لحسن الإدارة . ومنذ مائة عام كانت بعض جزر بولينيزيا قد خلت من سكانها على أثر حملات قام بها مغيرون شيليون بحثا عن عمال للمناجم فى بلادهم ، ولكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الانحلال قد أخذ منذ مدة طويلة يدب فى بولينيزيا ، وربما كان هذا راجعا إلى المناخ الذى يبعث على الخمول وإلى أسباب الحياة الميسرة ، ففى طول الجزر وعرضها بقايا آثار ضخمة ، تشتهر بها على الأخص جزيرة إيستر ، وحقول مدرجة مهجورة ، وهذا هو كل ما خلفه سكان الجزر الأولون .

مصادر الكتاب

Schebesta, Paul, AMONG CONGO PYGMIES.

Wollaston, A. F. R., PYGMIES AND PAPUANS.

Hill-Tout, C., THE NATIVES OF BRITISH NORTH AMERICA.

Marett and Penniman (ed.), SPENCER'S LAST JOURNEY.

Jenness, Diamond, THE PEOPLE OF THE TWILIGHT.

Weeks, John, AMONG CONGO CANNIBALS.

Westermann, D., THE AFRICAN TO-DAY.

Gardiner, J. Stanley, CORAL REEFS AND ATOLLS.

Forde C. Daryll., ANCIENT MARINERS.

Myres J. L., THE DAWN OF HISTORY.

Haglund, Sven, LIFE AMONG THE LAPPS.

Stevenson R. L., IN THE SOUTH SEAS.

محتويات الكتاب

القسم الأول

الصيادون والجامعون

القسم الثانى

القانصون والصائدون

القسم الثالث

المشتغلون بالزراعة

فهرست الصور والخرائط

تصويبات

ص	س	اقرأ
٣	١٠	لا يكشف
٦	٢	بحال من الأحوال
١	١٥	بإزار
٨	١٣	تزيين أجسامهن ، والواقع
١٠	١٥	كل حاجاته
١١	٩	يتكون منها قوس
١١	١٠	بوصات قليلة منهما
١٣	٢	تضاف إلى البناء — بقصد تقويته — فروع
١٣	٦	وتثبت الأوراق
١٣	١٤	والإناث
١٧	٦	ركبتى الفيل الخلفيتين
١٩	٨	وعندما توقد النار
٢٠	٦	حقيقيين يتخذنهم
٢٢	١	النجرتو الأسيويون
٢٣	٣	أربعة أقدام
٢٣	٦	الجديدة فلونهم
٢٥	٦	بضع أسر
٢٥	١٤	يصنعونها
٢٦	١	إحدى عشرة
٢٦	٣	الثامنة عشرة
٣١	٩	يتناولون وجبة
٣١	١٣	للنساء والبنات
٣٢	١٤	المقايضة الصامتة
٣٣	١٢	بدق النغمات على الطبول
٣٦	١٢	ويستعملون فى القنص

ص	س	اقرأ
٣٨	١٧	غلايين يصنعونها
٤٦	٣	عقوداً يلبسها
٤٦	٥	حول وجهه
٤٧	٨	الشعوب باختصار ،
٤٨	٩	تشبه حياة السباع
٤٨	١٧	الحيوانات الضارية . وتعلو المساكن
٣٧٥	١٧	وهى لا تزال باقية ، فهى

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا ورحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

١	— حضارة الإسلام	تأليف جوستاف جرونيباوم
٢	— اتجاهات الفلسفة المعاصرة	« إميل بربيه
٣	— البوليس والكشف عن الجريمة اليوم	« ريجنالد موريش
٤	— سكتلنديارد	« سير هارولد سكوت
٥	— الحياة العامة اليونانية	« ا . ا . زمون
٦	— فلسفة الخير	« لويس دكنسن
٧	— حركات الشباب الاجتماعية	« الدكتور محمد فتحى
٨	— بلاد ما بين النهرين	« ل . ديلابورت
٩	— بسمرك	« إميل لدفيج
١٠	— آثار حضارة الفراعنة	« الأستاذ محرم كمال
١١	— الحياة الناجحة	« أوستاس تشيسر
١٢	— كيف تقرأ الجريدة	« إدجار ديل
١٣	— الحياة اليومية فى مصر القديمة	« ألن شورتر

١٤ — الديانات فى إفريقيا السوداء	تأليف هـ . ديشان
١٥ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة	« أرنولد جزل
١٦ — علم نفسك الاقتصاد	« س . إيفلين توماس
١٧ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠	« داڤيد تومسون
١٨ — نحو مجتمع أفضل	« برتراند رسل
١٩ — الأحلام والجنس (جزءان)	« چوزيف چاسترو
٢٠ — تاريخ طابع البريد	« يوجان فاييه
٢١ — صحوة إفريقيا	« بازيل داڤيدس
٢٢ — الانقلاب الصناعى فى انجلترا	« ت . س . أشتن
٢٣ — مدخل إلى علم الآثار	« السير ليونارد وولى
٢٤ — بذور الشر	« إيڤان هنتر
٢٥ — الاستعمار والخليج الفارسى	« الدكتور صلاح العقاد
٢٦ — تاريخ الجيوش	« چورچ كاستلان
٢٧ — الجغرافيا والسيادة العالمية	« چيمز فيرجريف
٢٨ — تاريخ الصحافة	« إميل بواڤان
٢٩ — أهرام مصر	« ا . ا . س إدواردز
٣٠ — طبقات المجتمع	« أندريه جوسان

٣١ — قصة التجارة الدولية	تأليف فيليس دين
٣٢ — ستة من رجال الأعمال	« هارى مكنيكول
٣٣ — مصر ومجدها الغابر	« مرجريت مرى
٣٤ — سبل الحرية	« برتراند رسل
٣٥ — الصحراء	« ا . ف . جوتييه

الكتب التى تولت المكتبة نشرها

من مجموعة الألف كتاب

		ص
سكتلنديارد	تأليف هارولد سكوت	٢٤
البوليس والكشف عن الجريمة اليوم	« ريجنالد موريش	٢٢
الطاقة الذرية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها	تأليف الدكتور عبد الحميد أحمد أمين	١٣
تاراس بولبـــا	تأليف نيقولا جوجول	١٥
تاريخ الأدب اليونانى	تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه	١٤
الزوجة الأولى	« پيرل بك	٨½
تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠	« داڤيد تومسون	٢٢
الإنسان فى العالم الحديث	« چوليان هكسلى	٢٥
إلى عالم آخر	« ورنر بودلر	٢٦
الجغرافيا والسيادة العالمية	« فيرجريف	٢٩
تاريخ الجيوش	« چورچ كاستلان	تحت التسعير
طريق إلى الهند	« فورستد	« «

تحت الطبع

ما هو الجنس

موجز تاريخ العالم

اهداف هذه المجموعة

- تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .

- نشر هذه الثقافة فى اوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

- النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
- تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

- الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الامم ، باتاحة الفرصة امام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
- افساح المجال امام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والادبية .

- تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالميـــة ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

- تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

مطبعة لجنة البيان العربى
ت ٧٦٠٢